المجموعة الكاملة

المجلد الحادي والعشرون

تراجم وسير

(٧)

دار الكتاب اللبناني

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 · ATT: MR. HASSAN EL-ZEIN

FAX:(202):3924657 CAIRO - EGYPT

دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

هاتف: ٨٦١٥٦٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

ص.ب: ٨٣٣٠/١١ أو ١١٣٠٣٥٢ - برقيا: داكلبان - بيروت - لبنان

TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY EL ZEIN

FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON

المجلد الواحد والعشرون

تراجم وسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الواحد والعشرون

تراجم وسير -٧-

يحتوي على

بنجامين فرنكلين
سن يات سن أبو الصين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)
هاتف ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الأولى
١٩٨١

عباس محمود

العقاد

بنجامين فرنكلين

دار الكتاب اللبناني - بيروت

هذا الكتاب وهذا الرجل

بقلم حسن جلال العروسي

المستشار العام لمؤسسة فرانكلين

صدر هذا الكتاب يوم ١٧ من يناير سنة ١٩٥٦ قصدا وعمدا ، لا مصادفة ولا اعتباطا ؛ ففى مثل هذا اليوم من مائتين وخمسين عاما (١٧ من يناير سنة ١٧٠٦) ولد بنجامين فرنكلين العبقرى الأمريكى الفذ ، العالم ، الكاتب ، السياسى . الدبلوماسى . الفيلسوف ، الانسان الذى لا يقال فيه خير مما قاله كاتبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد مؤلف هذه الدراسة الرائعة .

اليوم يحتفل العالم كله باحياء ذكرى فرنكلين وتكريمه بنشر تعاليمه وفلسفته الانسانية فى ميثاق تعاهد فيه مواطنو خمسين دولة مختلفة على تخليد ذكرى الرجل الكبير بالعمل على نشر المبادىء السامية التى استهدفها فى حياته . فدعوا الى العمل — فى نطاق دولى لا يعرف الحدود والتخوم — على انماء الثقة المتبادلة بين الأفراد ؛ واحترام الكرامة الانسانية ، ومحو العنصرية . وتدعيم التفاهم المشترك ؛ وتبادل احترام العقائد المختلفة ، والتمسك بالحرية فى مختلف صورها ، والدعوة الى اتاحة الفرص المتكافئة للجميع ، الى آخر ما اعلنته هذه الجماعة من مبادىء وقيم خلقية هى صميم المثل العليا التى تستلهم سيرة بنجامين فرنكلين.

وهذا التكريم لذكرى فرنكلين سبقته مظاهر عديدة من مظاهر التمجيد والتخليد فسميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية والأدبية . ولعل القارىء يدرك أن هذه المؤسسة بالذات انما سميت

باسمه ولم يكن ذلك لمجرد تخليد ذكراه فحسب بل لأن القائمين بهـا رأوا — وبحق — أن فى نسبتها اليه ايضاحا للأهداف التى تسعى الى تحقيقها فى خدمة السلام والأخوة الانسانية عن طريق الثقافة وتقريب مستويات المعرفة الصحيحة والادراك السليم .

ومن أحدث مظاهر التكريم لهذا الانسان العظيم ما قررته جامعة (ييل) أخيرا من نشر جميع ما كتبه فرنكلين فى حياته العامة والخاصة ، فى مجلدات ضخمة ستنشر تباعا . وقد حذت جامعة (ييل) فى هذا الشأن حذو جامعة برنستون فى نشر « أوراق » توماس جيفرسون الرئيس الأمريكى الفيلسوف .

ان فى قراءة سير العظماء متعة وثقافة والهاما ، وأحسب أن شبابنا فى مراحل تكوينه لا يستطيع أن يستغل أوقات فراغه بشكل أفضـل من الاقبال على قراءة الجيد من سير العظماء ، واستلهام عظات حياتهم فى استكشاف طريقه فى الحياة . والسيرة التى نقدمها اليوم حرية بالتأمل والدراسة . وحسبك من قصة حياة أن يكون صاحبها بنجامين فرنكلين ، وأن يكون كاتبها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذلك المفكر العملاق الذى تجاوبت عبقريته مع عبقرية من سبقوه ، فكانت هذه الدراسات الفنية العميقة — التى عرفت بالعبقريات — والتى أضافت ثروة أدبية كبيرة الى المكتبة العربية .

تمهيد

بقلم
عباس محمود العقاد

انسان وافر النصيب من ثناء الناس ، ومن ثناء الذين لا يثنون على أحد الا بمقدار ، وقلما يثنون بمقدار .

حياه فولتير فسماه « فرنكلين المجيد الحكيم » [١] .

وحياه دافيد هيوم فقال : « انه الفيلسوف الأول والأديب الأول الذى جذب أنظار أوربة الى البلاد الأمريكية » [٢] .

وحياه المصلح الناقد صمويل روميلى فقال بعد زيارته : « بين المشاهير الذين اتفق لى أن رأيتهم فى حياتى ، يلوح لى أن فرنكلين — بسيماه وحديثه — أجدرهم بالتنويه فطلعته الأبوية وبساطته فى هيئته وكلامه ، وجدة ملاحظاته .. تركت فى نفسى رأيا فيه أنه من صفوة الرجال الذين وجدوا فى كل زمان » [٣] .

وقال بلزاك : « انه اخترع عمود الصواعق ، واخترع القفشة ، واخترع الجمهورية » .

وخاطبه رئيس قومه واشنطون فقال : « اذا كان التبجيل اكراما للخير ، واذا كان الاعجاب اكراما للنبوغ ، واذا كان التقدير للوطنية

---

(١) Poor Richard

(٢) بنيامين فرنكلين تاليف برنارد كوهن

(٣) مشاهير رجال العلم فى أمريكا تاليف كروثر
Famous American Men of Science by Crewther

والحب للانسانية . خليقة أن تلهم عقـل الانسان الرضـا والغبطة . فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التي لا تذهب سدى » (١) .

وقال رئيس قومه فرنكلين روزفلت وهو يحيى ذكراه بعـد مائة وخمسين سنة : « ان بنيامين فرنكلين الذى تدين له الجامعة — جامعة ييل — بالكثير ، قد أدرك أيضا أن المبادىء الأساسية فى العلم والأخلاق وآداب الاجتماع على خلودها تتجدد بالتطبيق والتنفيـذ على حسب المعيشة من جيل الى جيل ؛ واننى على يقين أنه لو كان معنا اليوم لقرر أن الواجب الأكبر على الفيلسوف والمعلم أن يحققا المثل العليا للحق والخير والعدل بقسطاس الحاضر لا بقسطاس الزمن الغابر » (٢) .

هؤلاء يحملون غصن التحية .

وأناس آخـرون يثنون عليه وهم لا يحملون غـير الميزان . وقد يحسنون حمله باليمين وباليسار .

قال ليونل الفين Lionel Elvin فى كتابه رجال أمريكا :

« كان للحيـاة فى نفسه حب وعلاقات شتى : وكان يحسن المتعة باللغو ، ويجتذب اليه القلوب ويملكها بتلك المودة التى تنجم من القناعة العميقة والصفاء القرير . وحق أنه كان الى العطف أقرب منه الى الشعور اللاعج ؛ والى الفطنة أقرب منه الى القريحة الشعرية ، والى الأخلاق العملية أقرب منه الى السريرة الصوفية ، والى الاصلاح أقرب منه الى الثورة والانقلاب ؛ والى أن يعد فى زمرة أبناء الدنيا أقرب من أن يعد فى زمرة الأنبياء . ولو أنه قذف به الى جزيرة خالية لكان مسلكه فيهـا كمسلك روبنسون كروزو ولم يكن مسلكه ثمة كمسلك اسـكندر سلكيرك من تصنيف كوبر . وان اختلاف الرأى فى عرض هذا الخلق

(١) الامريكى الاول تاليف برلنجيم Burlingame

(٢) كتاب برنارد كوهن .

على معيار النقد ليتوقف على مزاج الناقد وتقديره ، وانما أساس النقد كله أن فرنكلين قد أفرط في التوحيد بين الفضيلة والنجاح المحترم ، أو كما كتب على هامش ترجمته : ما من شيء كالفضيلة يكفل للمرء حظه .. ولكن مما يوضع له في الكفة الأخرى أنه — اذا لم يكن قد عبر علمه وحبه لخير بلاده الأمريكية ، كما جعل الدنيا كلها — مكانا أصلح للعيش فيه ، وقد صعد بمجهوده في سلم وطنه الجديد . وقذف بكل عن أرفع الآفاق وأبعد الأعماق في الطبيعة الانسانية . قد جعل — بفضل ما عنده في معركة الديمقراطية التي تقابل المجتمع الخاضع لسلطان الاستبداد . وآمن بأن الناس جميعا ينبغي أن يكونوا — في كل مكان — راضين سمحين أحرارا مثقفين . وان العمل لمثل هذه الغاية وحسن الابانة عنها ليس بالمطلب الصغير ولا بالأمر الهين .. » .

ومن الذين يثنون عليه من لا يحملون غصن التحيـة ولا يحملون ميزان الحساب ، ولكنهم يحتكمون الى هوى العاشق وشوق المفتون . ويقولون بلسان قائلهم لورنس نبي الجسد في القرن العشرين :

« انني لأعجب به » .

« أعجب بشجاعته الدءوب قبل كل شيء ، ثم أعجب بحصافته ، ثم ببصره النافذ في غمائم البروق والرعود والكهربا ، ثم بفكاهته الدارجة : كلها خصال الرجل العظيم الذي لم يكن قط أكبر من مواطن عظيم » .

ثم يقـول ، أو تقـول شـيعته كلها بلسـانه : « انه .. طابع ، فيلسوف ، عالم ، مؤلف ، وطني ، زوج صالح ، مواطن ، فما باله لا يكون نموذجا يقاس عليه ؟

« أتراه رائدا ؟ يا للرواد !

« لقد كان بنيامين رائدا من أكبر الرواد في الولايات المتحدة . ولكننا لا نستطيع أن نسلك معه فما هو جانب الخطأ فيه ؟ وما هو جانب الخطأ فينا ؟

« انني لأذكر في صباي كيف كان أبي يشتري الكتاب الذي يسمى التقويم وتظهر على غلافه صور الشمس والقمر والنجوم ، وتتخـلله النبوءات عن الحروب والمجاعات ، ومعها في الزوايا نوادر وأضاحيك تمازجها العبر والعظات ، وقد كنت أضحك ضحكتي الصغيرة الغريرة من تلك المرأة التي تعودت أن تعد الكتاكيت قبل انفراج البيض عنها وما الى هذه الفكاهات ، وعلمت من ثم أن الأمانة أفضل سياسة بشيء من تلك الغرارة . وكان مؤلف هذه الشذور ريتشارد المسـكين ، وكان ريتشارد المسكين بنيامين فرنكلين ، كاتبا ما كتب في فلادلفيا قبل أكثر من مائة عام . وربما كنت حتى اليوم لا أسيغ تلك العـبر والعظات ، ولا أزال ضائقا بها كأنها الشوك في لحم الصبي الصغير . ولأنني لا أزال أومن بأن الأمانة أفضل سياسة أراني أبغض السياسة بحذافيرها . وانه لسواء عندي أن تعد الكتاكيت قبل مولدها وأن تعدها منهوما بمنظرها بعد خروجها من البيضة . ولقد لبثت السنوات الطوال وعانيت الوخزات التي لا عداد لهـا كي أخلص من ذلك السلك الشـائك الذي أقام به ريتشارد المسكين أسوار الأخلاق » .

وقبل ذلك يقول لورنس عن فرنكلين والروح الانسانية : « ان الروح الانساني غاب ألفاف ، وفرنكلين يقتطع منه حيزا يحرثه ويدير عليه حائط البستان » (١) .

وهذا هو الشرط الناقص في معيار لورنس نبي الجسد في القرن العشرين ، أو نبي النزوات الحسية على التعبير الصحيح .

فلا يوافق ذوقه نظام متكشف لضوء النهار ، ولابد من الألفاف المتشابكة على غير نسق معلوم ، ولابد من الزوايا المظلمة واللفحات المضطربة هنا وهناك ، ولابد من صدع الحائط حول البستان ليزول

---

(١) دراسات في الآداب السلفية الامريكية تاليف لورنس D.H. Lawrence

البستان اسما وسمة ، ولا يبقى غير الغابة ذات الألفاف ، وذات السباع ، وحبذا لو اتسعت للأفاعي مع السباع !

ولا يطلب من كل عظيم أن يكون وفقا لشروط لورنس فيما يستحق به المحبة والعاطفة المشتعلة . حسب العظيم أن يكون وفقا لاعجابه وتعظيمه بسبب أو سببين ، وقد كان فرنكلين وفقا لشروط اعجابه بأسباب كثيرة : شجاعة وحصافة وبصر نافذ خلل الغمام ، وفكاهة دارجة ووطنية جديرة بالاعظام والاكرام .

ولا نكتم عن أنفسنا أننا نرضى عن معيار لورنس في تقدير العظمة بعض الرضا ولا نحس في صميم الوجدان أننا ننكره كل الانكار .

أتكون عظمة بغير نار مقدسة ؟

كلا . لا غنى عن هذه النار المقدسة في عظمة عظيم ، وليس من حق النظام ولا النور أن يسلبها تلك النار التي لا يقر لها قرار .

الا أن العبقرية كلها نار مقدسة ، والعبقرية كلها لا يقر لها قرار مع اضطرام تلك النار .

وفرنكلين على وفاق هذا الشرط بغير شذوذ ولا استثناء ، فلا دخان ولا شرر ولا قعقعة من الوقود المتأجج بين الضرام .

ولكن النار هناك في الموقد المصون .

لا صاعقة تنقض على الحطام بين البروق والرعود ، ولكن العمود هناك يتلقى الصاعقة في أمان .

والتفرقة بين النارين حتم في مقام الكلام على عبقرية فرنكلين . أليس هو صاحب الموقد الذي نحس ناره ولا نحس دخانه وشرره ؟ أليس هو صاحب العمود الذي يستنزل الصاعقة ويروضها بعد الجماح رياضة الفارس الخبير ؟

ان العبقرية التي يعجب بها لورنس كالنار التي تلتهب في المدخنة ثم

تطير الحرارة منها بين الجدران وبين الهواء والهباء .

ولم تذهب هذه النار بين يدى فرنكلين ، لأنه صاحب الموقد الذى اخترعه ليحفظ النار ويبثها على السواء بين الجدران ، وليرسل منها الى الفضاء ما تستغنى عنه الأبدان .

والصاعقة لم تذهب كذلك بين يديه ، ولكنه ساسها وقادها وأسلس زمامها ، فهى صاعقة فى طريقها بين السماء والأرض ، ولكنها من قبيل العبقرية التى خلقت لفرنكلين !

ويوشك أن يكون التشبيه هنا واقعة محتومة لا مجاز فيها ، ويوشك أن يكون الموقد وعمود الصاعقة من اختراع هذا العبقرى لأنهما أشبه النيران بعبقريته الطيعة الرفيقة : عبقرية تعجب النفوس والعقول ، ولكنها لا تروع ولا تهول .

لهذه العبقرية محلها بين العبقريات فى كل زمن ، ولعلها أولى بالمحل الأول فى هذا الزمن خاصة . لأنه زمن لا تعوزه عبقريات اللهيب والدخان، وقد تعوزه المئات من عبقريات النور والهداية والأمان .

ومن رسائل هذه العبقرية فى هذا الزمن أنه زمن ضاعت فيه الشخصية الانسانية بين التخصص والكثرة العددية ، وكلاهما « فناء » لمزايا الانسان أشبه بفناء « النرفانا » فى عقائد المنهزمين المنكرين للحياة .

ان « التخصص » قد جار على « الشخصية الانسانية » فلم يترك فى كل امرىء الا جزءا من انسان مستغرقا فى جزء من المعرفة وجزء من العناية بالعالم الواسع الذى يعيش فيه ، وليس أضر ولا أوخم من هذه التجزئة فى الزمن الذى ولدت فيه الفكرة العالمية وأصبحت علاقة العالم الانسانى بعضه ببعض حقيقة متمكنة تتطلب الانسان كله للمساهمة فيها ، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس فى أصداف المحار .

وان هذه العبقرية التى تعددت جوانبها وتشعبت شواغلها ، مع

الاتزان والاعتدال وحسن الاحاطة والاجمال ، فهى الترياق الذى يشفى من هذه الآفة ، والقدرة التى تستنهض الهمة لمحاكاتها ، ثم لا تيئسها من بلوغ الغاية فى المحاكاة ، لأنها — بطبيعتها — تعجب النفوس والعقول ولكنها لا تروع ولا تهول .

وقد جارت الكثرة العددية على معالم الشخصية الانسانية فوق هذا الجور الذى ابتليت به من داء التخصص والانحصار ، وقد تجدى هذه العبقرية جدواها التى لا تشبهها جدوى العبقريات الأخرى فى انصاف « الشخصية » الممتازة من طوفان الكثرة العددية . لأنها من هذه الكثرة خرجت ، ولهذه الكثرة عملت . وعلى هذه الكثرة عولت فى كل مرحلة من مراحل النجاح وعلى كل درجة من درجات السمو والارتفاع ، فلم يمنعها ارتفاعها من غمار الكثرة العددية أن تكون من زمانها الى هذا الزمان مثلا نادرا « للشخصية » الفذة التى لا تضيع فى غمار .

والصفحات التالية صور متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية ، لم نحفل فيها بسجل الأرقام ولا باحصاء الأيام . ولم نكتبها لنبدأ فيها بسنة الولادة ، ونختمها بسنة الوفاة ، ونمضى فيها مع التقويم شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، ولكننا كتبناها كما نكتب تراجمنا عامة لنعرض فيها لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر اليها . وقد يتابعها القارىء فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا احصاء الأيام . وانما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه ، ويستغنى عنها بعد ذلك اذا شاء ، أو يبقيها على حد سواء .

وسنبدأ « الصورة » بترجمة مجملة ترسم مراحل الطريق ، أو ترسم حدود النظر الى الاطار الذى يحيط بملامحها وقسماتها ، ثم نتبعها بصورة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية على أعمها وأوسعها ، مع صعوبة التعميم والاحاطة بهذه الشخصية الفذة التى لم تدع شأنا من

شئون عصرها الا اشتغلت به فى وقت من الأوقات ، ثم ندع لها أن تتكلم بلسانها وتعبر لنا عن كل جانب من جوانبها ، ولعل الكلام الذى نسمعه منها أدل عليها من كل كلام يقال فيها .

ولنبدأ بالترجمة : ترجمة العالم الكاتب السياسى الفيلسوف الانسان .

الجزء الأول
عن فرانكلين

معالم الطريق

كتب فرنكلين سيرته التى سماها المفكرات وسميت فيما بعد بالترجمة الذاتية ، وبدأها وهو ينوى أن يخص بها أبناء أسرته للاستفادة بها فى شئونهم العائلية ، ثم اطلع عليها بعض أصدقائه فأعجبوا بها وأشاروا عليه باتمامها وتعميم نشرها ، ولكنها لم تنشر فى حيـاته ولم يحصل عليها الناشرون كاملة الا بعد مساومات ومفاوضات طويلة ، مع الذين جمعوا أجزاءها فى فرنسا حيث ظهر الجزء الأول منها للمرة الأولى مترجما الى اللغة الفرنسية .

وقد كتبت هذه الترجمة على أربعة أجزاء فى أوقات متعددة وأماكن متفرقة .

كتب الجزء الأول منها فى انجلترا وهو فى الخامسة والستين من عمره ، واشتمل بعد تاريخ أسلافه على تاريخ حياته من مولده فى سنة ١٧٠٦ الى زواجه سنة ١٧٣٠ .

وكتب الجزء الثانى فى باسى بفرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سـنة (أى سنة ١٧٨٤) .

وكتب الجزء الثالث بعد أربع سنوات (١٧٨٨) على أثر عودته الى فلادلفيا وبلغ به حوادث سنة ١٧٥٧ حين كان فى الحادية والخمسين .

والمظنون أنه أضاف اليها الجزء الرابع ما بين أواخر سنة ١٧٨٩ وأوائل سنة ١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة .

ولا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الاقبال والقراءة العامة ، لأنها حديث شائق عن رجل مشهور محبوب

يروى قصة حياته ، ويحسن روايتها على النسق الذى يهم كل قارىء وقارئة كأنها قصة للتسلية ، وكأنها فى الوقت نفسه قصة القارىء فى حياته الانسانية التى تتشابه بين جميع الناس على اختلاف الحوادث والأوقات .

وهذه الترجمة تصور صاحبها أصدق تصوير فيما ذكره من أخباره وأعماله وفيما يستخلصه القارىء من بين السطور على غير قصد من المؤلف ، لأن أسلوبه فيها يفسر الناحية المهمة فى شخصية فرنكلين وفى عوامل نجاحه وسهولة مسلكه بين الناس فى كل مكان عمل فيه ، من وطنه الى انجلترا الى فرنسا ، ومن بيئة الصناع الفقراء الى بيئة الملوك والأمراء والنبلاء ، ومن طوائف الأميين وأشباه الأميين الى طوائف العلماء والحكماء وقادة الآراء .

ان الرجل لم يكسب هذا المسلك السهل بالملق والموافقة ، لأنه كان يبدى رأيه على أتمه اذا خالف سامعيه ، وكان لا يثنى على أحد بغير أسلوب العالم الذى يعنى كل ما يقوله وان تلطف فى التعبير ، ولكنه كسب هذا المسلك السهل بتسليمه للضعف الانسانى حيث لا تجدى المكابرة ، فكان يعرف عيوبه ولا يداريها ، وكان حكمته التى كتبها فى تقويمه « نظف أصابعك قبل أن تنظر الى بقعى .. » شعارا له يتبعه ولا يلزم أحدا أن يتبعه مثله . فاذا كتب عن عيوبه خيل الى القارىء أنه برىء من تلك العيوب ، واذا شرح أعماله وتكلم عن أسباب نجاحه لم يكتم القارىء أنه فخور بها كما يصنع الكثيرون من أدعياء التواضع وانكار الذات ، ولكنه يتكلم عنها ويدع القارىء يفهم أنه قادر على مثلها اذا أراد ، وأن الأسباب التى استعان بها مبسوطة بين يديه لأنها فى ميسوره ومقدوره .

ومن مفتتح الترجمة الى ختامها يجرى المؤلف على هذا الأسلوب

الصريح بغير تكلف ولا مداجاة ، فيقول فى مفتتح الترجمة انه كتبها ليرضي شهوة التحدث عن النفس التى تملك الشيوخ فى أخريات أيامهم دون أن يضجر أحدا من سامعيه ، لأنهم أحرار فى السماع أو الاعراض ، وانه لا يكتم عن القارىء أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام قائلا على سبيل الاعتذار « بلا فخر ولا ادعاء » ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء ! .. وبمثل هذا الأسلوب يجرد الفخر من شوكته المؤذية ويجرد التواضع من طلائه الكاذب ، ويقف « بانسانيته » الضعيفة القوية بين أيدى اخوته من الناس .

ويستخلص القارىء من الترجمة صفة أخرى كان لها ولا ريب أثرها العظيم فى ألفة فرنكلين للناس وألفة الناس اياه ، فان القارىء ليفهم من الصفحات الأولى أنه يعيش مع « مخلوق اجتماعى » من فرعه الى أصبع قدمه . وقد قيل قديما وحديثا ان الحاسة العائلية أساس الحاسة الاجتماعية وقرارها الذى ترجع اليه فى الأعماق ، وهذه الحاسة العائلية أو هذه الحاسة الاجتماعية هى التى تنضح بها كل صفحة من صفحات الترجمة من بدايتها الى نهايتها ، فانه على علمه بفقر آبائه وأجداده ، وعلى عزيمة الهجرة الأبدية التى اعتزمها مؤثرا دار الهجرة على مواطن الآباء والأجداد ، وعلى كثرة الشواغل التى تشغل السفير الأمريكى عند حكومة الدولة البريطانية فى ابان الخلاف والشقاق ، لم يمنعه هذا كله أن يبحث عن تواريخ أسلافه البسطاء وأن يتحرى منها كل ما أمكنه العثور عليه وأن يثبته كما انتهى اليه بغير صقل ولا تزويق وبغير حشو ولا ادعاء .

ويستطيع القارىء من قراءة السطور وما بينها أن يفهم أن «بنيامين» قد ورث من كل سلف مذكور حمل اسم فرنكلين بنية قوية ومزاجا كأقرب ما يكون المزاج الانسانى الى الاعتدال ، فسلك سبيله بين الناس

بغير عقدة خفية وبغير خبيئة مطوية ، واستعان بتلك البنية على احتمال ما يعيا به الكثيرون من خلائق الناس التى تطاق أو لا تطاق ، ولا وجه لاستغراب النجاح من رجل عليم بالضعف الانسانى مقتدر على المعذرة مطبوع على الحاسة الاجتماعية ، سليم الأعصاب ، غير مضطرب المزاج .

ونحن لا نريد فى هذا الفصل — بداهة — أن ننقل الترجمة كلها أو نلخصها ، ولا نريد كما ذكرنا فى التمهيد أن نستقصى هذه الترجمة فى سائر فصول الكتاب ، لأننا آثرنا أن نتكلم على جوانب الصورة التى ترسم لنا ملامح فرنكلين ، وندع الكلام عن وقائع الحوادث وأرقام السنين ، فيعنينا فرنكلين العالم كيف كان عالما وفرنكلين الكاتب كيف كان كاتبا ، وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف كيف كان فى مناهجه السياسية وفى آرائه الفلسفية ، وكيف كان فرنكلين الانسان بعد ذلك انسانا حقا فى جميع تلك الجوانب أو جميع تلك الملامح من الصورة الشاملة ، ولا يعنينا ما عدا ذلك من التاريخيات التى لا تصحبها « نفسية » من هذه النفسيات .

نحن لا نريد أن ننقل الترجمة أو نلخصها ، ولكننا لا نستطيع مع هذا أن نغفلها وندع النقل منها فى كتاب عن « شخصية » الكاتب الذى ألفها . فما ننقله هنا من الترجمة فانما هو الجزء الذى يكفى للابانة عن أسلوبه والجزء الذى تنفرد الترجمة به فلا يشاركها فيه مصدر آخر من مصادر السيرة التاريخية ، وذلك هو الجزء الذى يتكلم فيه فرنكلين عن سلفه الى مولده وطفولته واختياره لصناعته على آسال من سوابق أولئك الأسلاف ، ثم تتبع هذا الجزء بالاشارة الى خطوات هذه الحياة الحافلة بين أرقام السنين ، لأنها سجل يراجع عند الضرورة كلما دعت الحاجة اليه فى متابعة فصول الكتاب ، ولا يفوتنا أن نعد من أسباب هذا الاكتفاء أن مفكرات فرنكلين ليست من قبيل التراجم التى تختصر وتلخص فيغنى

عنها الاختصار والتلخيص ، لأنها بنية حية وليست أشتاتا من الحوادث يمسكها السمط ويأتي من يشاء فيقطع السمط حيث يشـاء ، ولكنها تؤخذ جانبا جانبا كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة . وهذا هو جانبها الذى اخترناه لنقله بغير تصرف فيه ، للسبب الذى قدمناه .

قال فرنكلين فى النسخة الأولى من مفكراته :

« هنا سأرضى تلك النزعة المألوفة فى الشيوخ : نزعة التحدث عن أنفسهم وأعمالهم الماضية ، دون أن أزعج بها غـيرى ممن يحسبون — رعاية للسن — أنهم مطالبون بالاصغاء الىّ ، اذ كان فى وسعهم أن يقرأوا أو يدعوا القراءة متى شاءوا . وسأعترف أخيرا بأننى سأرضى غرورى لأننى ان أنكرته لم يصدقنى أحد . والحق أننى ما سمعت ولا قرأت قولة لقائل فى التمهيد لكلامه انه لا يريد أن يدعى أو يغتر . الا رأيت بعد ذلك ضربا من الادعاء أو الغرور يأتى على الأثر . وان كثيرا من الناس ليبغضون الغرور فى الآخرين مهما يكن من وفرة نصيبهم منه ، ولكننى تعودت أن أفسح له مكانا كلما التقيت به ، لعلمى أنه يفيد أحيانا من يغترون ومن يتصلون بهم فى جوارهم ، وليس من العبث اذن أن يشـكر الانسان ربه عـلى ما يسديه اليه من الغرور بين سائر النعم التى يستمتع بها فى حياته .

« والآن أقول بعد حمد الله متطامنا بين يديه اننى مدين بما نعمت به من السعادة لحكمته الرحيمة التى هدتنى الى الوسائل التى توسلت بها وبلغت ما بلغت من النجاح بفضلها ، وان يقينى بهذا يدعونى الى الأمل ، وان كنت لا أعلم الغيب ، أن تلك الحكمة الرحيمة سـوف تتولانى لاستبقاء تلك السعادة أو للصبر على ما يصيبنى من خيبة الرجاء كما يصيب الآخرين . اذ لا يعلم مصيرى غير الله القدير على أن يجعل فى كل شىء بركة حتى العذاب .

« ان المذكرات التى أسلمها الىّ أحد أعمامى المعنيين مثلى باستطلاع الأخبار والنوادر عن أسلافى قد زودتنى ببعض المعلومات الخاصة عن أولئك الأسلاف ، وقد علمت من هذه المذكرات أن العائلة سكنت القرية بعينها — قرية أكتون فى نورثامبتون شاير — ثلثمائة سنة ولا يعلم كم من السنين أقامت فيها قبل ذلك ، ولعلها بدأت منذ اتخذت اسم فرنكلين ، الذى كان علما على طائفة من النـــاس ، لقبا لها يوم ذهب الناس جميعا يقرنون أسماءهم بالألقاب فى سائر أنحاء المملكة .

« وكانوا يعيشون على نحو ثلاثين فدانا مستعينين مع غلتها بصناعة الحدادة التى احترفتها الأسرة الى أيامه ، وكان أكبر الأبناء يتدرب من نشأته على هذه الصناعة : عادة جرى عليها الآباء من القدم ونهج هو وأبى على مثالهم فيها .

« ولما ذهبت لمراجعة السجلات المحفوظة فى قرية أكتون وجدت فيها تسجيلات لمولدهم وزواجهم ووفاتهم منـــذ سنة ١٥٥٥ ولم أجد لهم تسجيلات محفوظة قبل تلك السنة ، وعلمت من تلك التسجيلات أننى كنت أصغر الأبناء لأصغر الأبناء خمسة أجيال متعاقبة ، وكان جدى توماس الذى ولد سنة ١٥٩٨ معمرا عاش فى أكتون حتى أقعدته السن عن مباشرة الصناعة فذهب الى بانبرى من اقليم « أكسفورد شاير » ليعيش مع ابنه جون الذى كان يحترف الصباغة وعلى يديه تعلم أبى هذه الصناعة ، وقد توفى جدى ودفن بها ورأينا شاهد قبره سنة ١٧٥٨ .

« وسكن ابنه الأكبر — توماس — فى منزل أكتون ثم تركه ومعه الأرض لابنته الوحيدة التى باعت الميراث — هى وزوجها المسمى فيشر من ولنجبورو — لمستر استيد مالك الأرض الآن .

« وقد كان لجدى أربعة أبناء شبوا وكبروا وهم توماس وجون وبنيامين وجوشيا ، وسأخبرك بما علمته عنهم بعيدا من مراجعى وأوراقى

معتمدا على ما وعته الذاكرة . فان لم تكن تلك الأوراق قد ضاعت فانك واجد فيها مزيدا من التفصيلات .

« نشأ توماس حدادا بصحبة أبيه ، ولكنه كان ذكيا فشجعه السيد بالمر عميد البلد كما شجع اخوته على التعلم والاستزادة من المعرفة ، فتدرب على كتابة العقود ونبه شأنه فى أمور البلد وأصبح وعليه المعول فى توجيه المسائل العامة بنورثامبتون وقريته التى روت لنا أخبارا كثيرة عنه ، وذاع صيته فى اكتون فتولاه لورد هليفاكس يومئذ برعايته . ثم مات فى السادس من شهر يناير سنة ١٧٠٢ حسب التقويم القديم قبل مولدى بأربع سنوات ، وتدل سيرته التى تلقيناها من شيوخ أكتون كما أذكرها على أمر عجب لشـــدة الشبه بينها وبين سيرتى ، ولو أنه مات فى نفس اليوم الذى ولدت فيه لخطر لك أننى تقمصت روحه .

« ونشأ جون صباغا يشـــتغل على ما أظن بصبغ الصـــوف ، ونشأ بنيامين صباغا للحرير متتلمذا فى الصناعة بلندن . وكان رجلا ألمعيا أذكره جيدا لأنه جاءنا اذ كنت طفلا ليزور والدى فى بوستون ، وسكن معنا بالمنزل بضع سنوات ، وقد عمر طويلا ، وحفيده صمويل فرنكلين يعيش فى بوستون اليـــوم ، وقد ترك بعــده مجلدين من نظمه يشتملان على مقطوعات منظومة لمناسباتها موجهة الى أصدقائه وأقاربه ، ومنها واحدة وجهها الىّ [1] .

« واخترع طريقة للاختزال علمنى اياها ولكننى لم أستعملها قط ونسيتها الآن . وقد سميت على اسم هذا العم للعطف المتبادل بينه وبين أبى ، وكان تقيا جدا شديد المواظبة على حضور العظات من أبلغ الوعاظ يسمعها ويدونها بطريقة الاختزال ويحتفظ عنده بمجموعات كبيرة منها .

(١) لم تنشر الابيات فى نسخة المفكرات الأولى ، وعلم من أوراق أخرى أنها نصيحة باجتناب الحياة العسكرية لأن الحرب صناعة خطرة .

وكان كذلك مشغولا بالسياسة كثيرا ولعل اشتغاله بها كان أكثر مما يلائم مركزه . وقد عثرت له فى لندن على مجموعة للكراسات التى صدرت فى موضوعات المسائل العامة من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٧١٧ ضاع منها بعضها كما يتبين من ترقيمها وبقى منها ثمانية مجلدات من القطع الكبير وأربعة وعشرون مجلدا بين متوسط وصغير ، وكان رجل من باعة الكتب القديمة أعرفه وأشترى منه بعض الكتب قد عثر بها فأحضرها الى ، ويظهر أن عمى تركها عند سفره الى أمريكا اذ كان قد جاوز الخمسين من عمره ، ودوّن على هوامشها كثيرا من تعليقاته وملاحظاته .

« لقد كانت عائلتنا الخاملة هذه بين السابقين الى قبول مذهب الاصلاح ولبثت على المذهب البروتستانتى خلال حكم الملكة مارى وتعرضت للمتاعب أحيانا من جراء غيرتها فى مقاومة البابوية ، وكان لديهم نسخة انجليزية من الكتاب المقدس يحتالون على اخفائها بوضعها فى داخل كرسى ينطوى وينبسط ويضعه جدى الأكبر على ركبتيه كلما أراد أن يقرأ على الأسرة شيئا من آياته ، وكان أحد الأطفال يقف عند الباب لينبههم الى قدوم الرقيب الموظف بالمحاكم الروحية كلما بصر به قادما من بعيد ، فينطوى الكرسى فى هذه الحالة ، ويختفى الكتاب المقدس فيه كما كان . وقد أنبأنى بهذه القصة عمى بنيامين وعلمت أن الأسرة كلها دانت بمذهب الكنيسة الانجليزية الى أيام شارل الثانى التى حدث فيها فصل بعض القساوسة لانحرافهم عن مذهب الكنيسة الملكية ، فاستقلوا بنحلتهم فى (نورثامبتون شاير) وانضوى اليهم بنيامين وجوشيا وظلت بقية الأسرة على مذهب الكنيسة الرسولية .

وتزوج أبى — جوشيا — صغيرا فانتقل بزوجته وأطفاله الثلاثة الى نيو انجلاند بأمريكا حوالى سنة ١٦٨٢ لصدور القانون بتحريم قيام

النحل المخالفة للكنيسة فى البلاد الانجليزية ، وأقنع طائفة من صحبه بالهجرة الى هذه البلاد لما كان يلقاه من العنت فى وطنه ، فاقتنع هو وصحبه بضرورة الهجرة أملا فى التحرر من الحجر على عقائدهم ، وولد له من زوجته الأولى أربعة أطفال آخرين ثم عشرة أطفال من زوجة أخرى فتم عددهم سبعة عشر ، وأذكر منهم ثلاثة عشر يجلسون على مائدته عاشوا حتى أصبحوا رجالا ونساء وتزوجوا جميعا . وكنت أنا أصغر الأبناء وأصغر الأطفال جميعا ما عدا طفلتين أصغر منى ، وولدت فى بوستون بنيوانجلاند .

« وزوجته الثانية — أمى — هى آبيا فولجر بنت بطرس فولجر أحد السابقين من المهاجرين الى نيوانجلاند ، وأشار اليه كوتون ماثر اشارة مشرفة فى تاريخه لكنيسة ذلك الاقليم فقال عنه — اذا لم تخنى الذاكرة — : انه رجل انجليزى صالح مثقف .

« وسمعت أنه كتب مقطوعات متفرقة كثيرة فى مناسباتها لم تطبع منها غير واحدة اطلعت عليها منذ سنوات ، وقد نظمها فى سنة ١٦٧٥ على النسق الذى كان متداولا مألوفا يومذاك ووجهها الى القائمين بالحكم فى ذلك الحين حاثا فيها على حرية الضمير منافحا عن عقيدة المعاديين وجماعة الصحابيين وغيرها من النحل التى كانت عرضة للحجر والاضطهاد ، وعزا فيها مصائب الحرب الهندية والمصائب الأخرى التى ابتليت بها البلاد الى تلك السيئة البغيضة التى يصب الله غضبه على مرتكبيها ، داعيا الى الغاء القوانين التى سنت للتضييق على ضمائر الناس ، وقد لاح لى أن المقطوعة كلها كتبت بأسلوب الصراحة اللائقة والرجولة الكريمة فى الذود عن الحرية ، وانى لأذكر سطورها الستة الأخيرة حيث يقول : اننى لأمقت المذمة من كل قلبى ، وأناديكم من مدينة شربورن التى أقيم فيها موقعا باسمى ، غير مسىء الى أحد منكم ، أنا بطرس فولجر . »

« وتتلمذ اخوتى الكبار جميعا فى صناعات مختلفة ، وأدخلت أنا مدرسة الأجرومية فى الثامنة من عمرى وأراد والدى أن ينذرنى للكنيسة لأننى عاشر أبنائه ، وقد كان استعدادى المبكر لتعلم القراءة — ولابد أنه كان مبكرا جدا لأننى لا أذكر زمنا كنت فيه أجهلها — موافقا لنبوءة أصدقائه الذين اعتقدوا أننى خليق بمستقبل حسن فى الأستاذية ، فشجعه اعتقادهم على اتمام مقصده . وقد أقره عمى بنيامين على رأيه واقترح أن يهب لى كل ما عنده من مجاميع العظات الدينية ، ولكننى بقيت فى المدرسة مدة لا تزيد على السنة نقلت خلالها من وسط الفصل الى مقدمته ثم نقلت من هذا الفصل الى الفصل الذى يليه كى أنتظم فى الفصل الثالث عند نهاية السنة .

« على أن والدى وجد أثناء ذلك أن التعليم الجامعى كبير النفقة لا ينهض بأعبائه مع تكاليف عائلته الكبيرة ووفرة مطالب المعيشة التى تلائم المتعلمين ، وسرد هذه الأسباب على مسمع منى لأصدقائه تسويغا لنقلى من مدرسة الأجرومية الى مدرسة أتعلم فيها الكتابة والحساب يديرها رجل مشهور يسمى جورج برنويل ناجح فى صناعته لوداعته وطيب معشره ، ومنه تعلمت الكتابة المقبولة فى وقت وجيز ولكننى أخفقت فى تعلم الحساب ولم أتقدم فيه ، ولما بلغت العاشرة خرجت من المدرسة لمساعدة والدى فى صناعته وهى صناعة الشمع والصابون التى لم يكن قد تدرب عليها منذ صباه بل اتخذها بعد وصوله الى نيوانجلاند لأن رزقه من الصباغة لم يقم بنفقة العائلة الكبيرة لقلة الحاجة اليها فى نيوانجلاند ، فعملت فى قطع الفتائل للشمع وصب السائل فى القوالب وملاحظة الدكان وايصال الرسائل والطلبات .

« ونفرت من هذه الصناعة وشعرت بميل شديد الى العمل فى البحار ، ولكن والدى أبى على هذا العمل ، وظللت — لقربى من الماء — متعلقا

بالبحر فتعلمت السباحة وتسيير الزوارق وأصبح من المألوف كلما اجتمعت فى زورق أو قارب مع زملائى من الصبية أن يعهدوا الى فى تسييره وبخاصة فى الحالات المتعسرة ، وتكررت قيادتى لهم فى غير تلك الحالات فكنت أقودهم الى بعض المناوشات التى أذكر هنا مثلا منها لما فيه من الدلالة على الدوافع العامة وان لم يكن مثلا لحسن تدبيرها وتصريفها .

كان فى جوارنا مستنقع ملح يحيط ببركة المصنع تعودنا أن نقف عند حافته ساعة المد لنصطاد السمك الصغار ، وطال ترددنا على تلك الحافة حتى توحلت وجعلت تسيخ بأقدامنا . فعنّ لى أن نبتنى عليها رصيفا نستخدم فى بنائه كوما من الحجارة معدا لاقامة منزل جديد بجانب المستنقع وصالحا كل الصلاح لبناء الرصيف الذى نريده ، وعلى هذا جمعت بعض الرفاق — بعد انصراف العمال فى المساء — وأخذنا فى نقل الحجارة كأننا سرب من النمل يتعاون اثنان منا أو ثلاثة أحيانا على نقل الحجر الواحد حتى نقلنا الحجارة كلها وأتممنا بناء الرصيف ، وجاء العمال صباح اليوم التالى فدهشوا لاختفاء الحجارة وعلموا أنها نقلت الى الرصيف الذى بنيناه ، وبحثوا عن الجناة فعرفونا وشكونا الى آبائنا ، ولم ينفعنى عند أبى اعتذارى له بأنه عمل نافع ، لأنه قال لى انه ما من عمل يخل بالأمانة يوصف بالمنفعة .

« وأحسبك تواقا الآن الى الالمام بشىء من صفاته وأخلاقه . فاعلم أنه كان ضليع البنية معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه مدمج الجسم قوى الأركان ، ذكيا يرسم رسما حسنا ويجيد العزف على آلات الموسيقى بعض الاجادة ، وله صوت مقبول يتغنى به حين يوقع المزامير على القيثار كما تعود فى المساء بعد الفراغ من أعمال النهار فيطربنا جدا أن نصغى اليه ، وكانت له براعة فى تناول الأدوات والآلات يستخدم منها

ما ليس من صناعته فيحسن استخدامه . غير أن المزية الواضحة التى كان يمتاز بها سلامة الفهم والرأى فى تناول المسائل الخاصة والعامة ، وان تكن شواغله العائلية لم تدع له قط وقتا للعمل فى هــذه المسائل العامة واستغرقت أوقاته جميعا فى القيام بتعلمها والتفرغ لكسب الرزق مع قلة المورد والعائدة . الا أننى أذكر جيدا أن أناســا من الوجهاء البارزين كانوا يزورونه فينة بعد فينة لاستشارته فى شئون البلد أو شئون الكنيسة التى ينتمى اليها ويتقبلون منه الرأى والنصيحة بالتجلة والاحترام ، كما أذكر أن أناسا من أصحاب المشكلات الخاصة كانوا يسألونه النصيحة ويحتكمون اليه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان من عاداته أن يدعو الى مائدته صديقا أو جارا من ذوى الفطنة يتحدث اليه ويحاول على الدوام أن يختار للحديث موضــوعا يفتق أذهان الأطفال ويلفتنا بهذه الوسيلة لما ينبغى من الخير والعدل والحكمة فى تدبير شئون الحياة » .

هذه النبذة من مفكرات فرنكلين معينة لنا — على وجازتها — فى تصوير الجانب الموروث من تكوينه واستعداده وعامة أخلاقه ، وتتلخص فى قوة البنية واستقامة الطبع وســداد الفطنة والاعتراف بالواقع مع الشجاعة واباء الضيم والتأهب للمخاطرة ايثارا لها على الخضوع للمذلة ، وقد تكون هذه النبذة الوجيزة معينة لنا فى تصوير الاستعداد الاجتماعى الذى ينتقل بالوراثة مع كيان البنية ولكنه لا يظهر فى المجتمعات كافة على درجة واحدة ، بل يتوقف ظهوره على مؤاتاة الحوادث والبيئات ، ومن هذه الموروثات الفطرية الاجتماعية حسن الاستعداد للسلوك مع الناس من الأنداد والرؤساء وحسن الاستعداد للفهم والمعرفة وحسن الاستعداد للحكم على عوارض الحياة ما كان منها عاما مشتركا وما كان منها خاصا محصورا فى شئون المرء وذويه ، وقد تكون الدراية بالصناعات من المعادن « المصنوعة » كما يؤخذ من اسمها ولكنها لا تكسب فى جميع

البيئات على السواء ولا تكسب فى البيئة الواحدة على درجة واحدة ، وقد يطول البحث فى وراثة المزاج الذى يعين صاحبه على مطالب الحياة الاجتماعية هل هو موروث كله أو هو مكسوب كله من البيئة الاجتماعية . غير أننا نخال أن البحث قليل فى صلاح المرء للسلوك مع الناس وحسن التصرف فى علاقاته الاجتماعية كلما اعتدل مزاجه وسلم تكوينه واستقامت فطرته . فلا شك هنا فى معاونة الأخلاق الموروثة للأخلاق الاجتماعية ولا فى التفرقة بين الصالحين للحياة وغير الصالحين لها كائنة ما كانت شروط المجتمعات على الأحياء .

بهذه الوراثة — وراثة الصلاح للحياة — ولد فرنكلين وعاش الى ختام حياته فى سنته العالية ، وقد كان هذا المزاج الموروث فيه أشبه بالبنية الصالحة لاهتضام كل طعام واستخراج كل ما فيه من غذاء ، فما كان عسيرا على غيره أن يهتضمه ويستفيد منه لم يكن عسيرا عليه أن يجعله غذاء صالحا على ما يعيبه من غثاثة أو مرارة ، ولم يكن يعييه أن يهيىء ذلك الغذاء لغيره بعدوى الحكمة المطبوعة والسجية السمحة ، وقد يصنع ذلك مع الزملاء المنافسين كما يصنعه مع الرؤساء والمرءوسين ، ونادرته مع جفرسون — وهو من أعظم زملائه فى قيادة الثورة الأمريكية — مثل لهذا الخلق المطبوع على الترويض والتهوين : ترويض الطبائع العصية وتهوين المشكلات الصعاب .

فقد عز على جفرسون أن يعارضه آباء الاستقلال فى كل كلمة كتبها فى الاعلان الذى أذيع به استقلال الأمة الأمريكية ، وجلس كئيبا حانيا رأسه بين يديه لا يدرى ماذا يصنع بتلك الملاحظات المتناقضة وكيف يكتب ما يرضاه هذا الفريق وذاك الفريق وهم يجددون الملاحظة مع كل تعبير ، ولا ملامة عليهم فى التدقيق الشديد لأنه اعلان تاريخى توزن فيه كل كلمة بموازين الحقوق والأرواح .

فخرج فرنكلين من تلك الجلسة الغائمة بفكاهة من فكاهاته السمحة هونت على جفرسون ما كان يلقاه ونشطت به الى تجديد العناء فى الحذف والابدال والاضغاء .

قال فرنكلين : انها قصة جون تومبسون تعاد من جديد .

وسأل جفرسون : من جون تومبسون هذا ؟

فعاد فرنكلين يقول : جون تومبسون هذا صديق قديم كان يتتلمذ على معلم مشهور بصناعة القبعات ثم خطر له أن ينفرد بالعمل ويفتتح له دكانا يكتب له اعلانا جامعا يجتذب اليه طلاب القبعات . فكتب الاعلان وقال فيه : « ان جون تومبسون قبعاتى يصنع القبعات ويبيعها نقدا » . وراح يعرض الاعلان على أصدقائه ليسألهم رأيهم فيه ، فقال له أولهم : انه لا حاجة به الى كلمة « قبعاتى » ما دام فى الاعلان أنه يصنع القبعات ويبيعها ، وقال له الصديق الثانى ان الناس لا يهمهم انه صانع القبعة ما داموا يجدونها أمامهم معروضة للبيع ، وقال له الثالث انه من السخف أن يقول (يبيعها نقدا) ما دام معروفا عنه أنه لم يكن من أصحاب المصارف التى تقرض على الحساب ، وقال له الرابع انه ما من أحد ينتظر منه أن يتبرع له بالقبعة احسانا أو هدية ، فما حاجته أن يقول انه يبيع القبعات ؟ ويقى الاعلان هكذا بعد كل هذه التنقيحات : (جون تومبسون . قبعات) . فقال له الصديق الخامس انه لا حاجة الى كلمة قبعات ما دامت صورة القبعة مرسومة فى الاعلان . وانتهت النصائح والتعديلات ببقاء اسم جون تومبسون والى جانبه صورة قبعة . وهكذا تنتهى بلاغة البلغاء كلما عرضوها على الناس للتنقيح وابداء الآراء .

وهذه القصة — وحدها — كلمات فارغة لا يقرأها أحد ويظن أنها تساوى أن ينفق فيها وقت استماعها ، ولكنها فى ذاكرة فرنكلين وضعت فى موضعها فصلحت لتفريج أزمة ودفع سآمة وتجديد نشاط فى نفس

عظيمة ، ولم يستطع فرنكلين أن يصنع بها هذه المعجزة لأنه يعرف حكاية تروى ، وانما استطاع المعجزة لأنه اتخذ من تلك الحكاية أداة للطبيعة السمحة المفطورة على تذليل الصعاب وتقدير المعاذير وقبول الدنيا على علاتها ، وأخذ الناس جملة بما طبعوا عليه من الهنات .

ونحن لا يفوتنا فى معرض الكلام على الأخلاق الفطرية ، أو الأخلاق الموروثة ، أن نقرر تلك الحقيقة المشهودة التى يتوقف عليها انصاف « الشخصية الانسانية » وتقـويم كل ترجمة من تراجم العظماء بقيمة صاحبها ، ونعنى بتلك الحقيقة المشهودة أن الخلق الموروث لا يلغى المزايا الفردية ولا ينقص من فضل الفرد فى الانتفاع بما ورث مع اختلاف الزمن وتبدل المواطن والمناسبات التى ينتفع فيها بتلك المزايا . فاذا استطاع الفرد فى الجيل الحاضر أن يستخدم مزاياه الموروثة التى كانت نافعة لآبائه قبل جيل أو جيلين فلابد من فضل له فى حسن الاستخدام وحسن الاحتفاظ بما آل اليه من تراث الأقدمين ، واذا كان الحطـام الموروث قابلا للضياع أو كان الغالب عليه أن يضيع ولا يبقى فالأخلاق الموروثة تضيع كما يضيع الحطام اذا آلت الى المفرط فيها والعاجز عن صيانتها ، وقد توضع الفطنة فى غير موضعها فتضر ولا تنفع ، وتجور الشهوات على الجثمان القوى فتنهكه ، وقد يكون الشعور بالقوة من بواعث الشطط والتمادى فى الغواية وقد كان مسالك الاعتدال فى خلائق الآباء والأجداد .

وفرنكلين لم يضيِّع ما ورث ولم يحتفظ به كما ورثه ، بل نماه وثبته وقواه ، وعاش الى ختام أيامه بثروته النفسية وعليها أضعاف مضاعفة من ثمرات السنين .

رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكنزى وهو فى السبعين فكتب الى صديق له يقول : « انه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط ،

وبدنه أضخم مما يناسب طوله ، وعيناه رماديتان نفاذتان كالصلب الحديد . وله رأس كبير وجبين عال وعلى خده الأيسر خال . لا يلبس الشعر المستعار وشعره الطبيعي مرسل يتدلى على كتفيه ، ومن الغريب أنه لم يخطه الشيب الا قليلا مع أنه فى السبعين . وقد تحدث الى أعظم العظماء فى العالم ولكنه كان يصغى الى تعليقاتى الغريرة كأنها تستحق الاصغاء حقا ، وقد أبديت ملاحظتى هذه بعد انصرافه لصديقى ايد روتلدج فضحك وقال لى : « اياك أن تخطىء فهمه . ان الدكتور فرنكلين كان مهتما حقا وأنت لا تعرف ، فانه ليهتم بكل شيء وكل انسان . ويعنيه من تكون أنت وماذا عملت فى حياتك » (١) .

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شيء وبكل انسان هو موطن العجب والاعجاب بتلك القدرة التى صمدت لمهام الحياة طوال ذلك العمر المديد ولم تبخل على مهمة منها بحقها من العناية ولا على أحد بحقه من المبالاة ، وبقى الرجل بعد هذه التكاليف جميعا وكأنه فى وهم من يراه لا يهتم بشيء ولا يكترث لخطب ولا يرى على حال من القلق والاضطراب .

وليس أكثر من الحوادث والأنباء التى اعترضت هذه الحياة فى مراحل طريقها ، بل طرقها العديدة . وليس من اللازم للتعريف به أن نحصيها ونرتبها على حسب تواريخها ، فكل ما يهمنا فى ترجمة العظيم من حوادثه وأنبائه أن تصور لنا جانبا من جوانب شخصيته وسرا من أسرار عظمته واقتداره ، وسنتحرى ذلك فيما سنكتبه عن فرنكلين العالم وفرنكلين الكاتب وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف ، ونكتفى بالسلسلة التالية من أرقام السنين ومعالم الطريق لمراجعة المواقيت كلما

---

(١) هـــذه النادرة ونادرة القبعات من كتـاب ابن فرنكلين من فلادلفيا القديمة تأليف مرجريت كوسين .

Ben Franklin of Old Philadelphia by M. Cousins

دعت الحاجة اليها فى مناسباتها ، وهذه هى كما نقتبسها من تقويم سيرته فى كتاب رجال أمريكا تأليف ليونل الفين ، وهو تقويم واف فى بابه لمن يتتبع مراحل الطريق من هذه السيرة :

سنة	
١٧٠٦	ولد فى السابع عشر من يناير فى بوستون .
١٧١٤	قضى سنة فى مدرسة الأجرومية .
١٧١٤—١٧١٦	فى مدرسة تجارية .
١٧١٦	مساعدا لأبيه فى عمله .
١٧١٨	تلميذا لأخيه من أبيه ، جيمس ، فى صناعة الطباعة .
١٧٢١	ينشىء جيمس فرنكلين صحيفة «ذى انجلاند كورانت» رابع صحيفة فى المستعمرات .
١٧٢٢	بنيامين فرنكلين يحرر الصحيفة أثناء حبس أخيه لانتقاداته السياسية .
١٧٢٣	أخوه لا يحسن معاملته فيهجر بوستون الى فلادلفيا ويعمل فى الطباعة .
١٧٢٤	يغرى بالسفر الى لندن لشراء اللوازم ويتخلى عنه صاحب عمله الحاكم كيث ولا يبعث اليه برسائل التوصية التى وعده بها ، ويعمل فى الطباعة .
١٧٢٥	ينشر كتابه الأول نقدا لبعض الآراء الدينية .
١٧٢٦	يعود الى فلادلفيا ليعمل فى دكان ، ولكنه يعود الى الطباعة .
١٧٣٠	ينفرد بحيازة مطبعة ، ويتزوج .
١٧٣٠—١٧٤٨	طباع ناجح مطرد النجاح . يصدر تقويم ريتشارد المسكين وصحيفة بنسلفانيا جازيت ، ويتولى شئونا

سـنة

مهمة فى حيـاة فلادلفيا العـامة ولا سيما مشروعات اصلاح المدينة وخدماتها الاجتماعية . يشتغل بمباحثه ومخترعاته العلمية ويؤسس فى سنة ١٧٤٣ جمـاعة الفلسفة الأمريكية وتناط به أمانة سرها .

١٧٤٨ يعتزل العمـل محتفظا بمورد سـنوى منه يكفل له معيشته .

١٧٤٩ — ١٧٥٢ تجاربه الكهربية الأولى ، واثباته للكهربية فى الصواعق ، واختراعه لعمود الصاعقة ، وشهرته العلمية الواسعة .

١٧٥١ نائب عن فلادلفيا فى هيئتها النيابية .

١٧٥٣ نائب مدير لمصلحة البريد فى المستعمرات .

١٧٥٤ ينوب عن بنسلفانيا فى مؤتمر ألبـانى للمستعمرات ويقترح تكوين الاتحاد .

١٧٥٥ منظم تموين البعثة التى قادها الجنرال برادوك فى قتال الفرنسيين والهنود الحمر .

١٧٥٧ سافر الى لندن للنيابة عن الشعب فى خلافه مع ملاك الاقطاع فى بنسلفانيا .

١٧٦٢ عاد الى أمريكا .

١٧٦٤ سافر الى انجلترا مرة أخرى .

١٧٦٦ نوقش علنا بمجلس النـواب فى مطالب الأمريكيين بصدد القانون المعروف بقانون الدمغة .

١٧٦٧ — ١٧٧٥ تزداد شكوكه فى سياسة وزراء جورج الثالث ويزداد اقتناعه بضرورة اعلان المستعمرات لاستقلالها ، ويثابر مع ذلك على بحوثه العلمية وتتصل صداقته العلمية

سنة	
	والسياسية والفلسفية بالعالم « بريستلى » ، ويتصل العطف بينه وبين بيرك خطيب الأحرار .
١٧٧٥	يعود الى وطنه ، ويختار عضوا للمؤتمر القومى الثانى وعضوا فى لجنته المنوط بها تحرير اعلان الاستقلال ، ويباشر اعداد العدد العملية للمقاومة .
١٧٧٦	أرسل مع اثنين للنيابة عن بلده فى فرنسا .
١٧٧٧	نجاح عظيم ، وشهرة سياسية وفلسفية ودبلوماسية فى فرنسا .
١٧٧٨	عقد المعاهدة بين فرنسا والولايات المتحدة ، وفرنكلين هو المندوب الأمريكى الوحيد فى فرنسا .
١٧٨٣	أحد المندوبين فى مفاوضات الصلح مع بريطانيا العظمى ، ويتم توقيع معاهدة الصلح بباريس .
١٧٨٥	يعود الى وطنه ، ويتقلد رياسة بنسلفانيا .
١٧٨٧	مندوب فى لجنة الدستور .
١٧٨٨	يعتزل الحياة العامة .
١٧٩٠	توفى فى السابع عشر من شهر أبريل .

العالم

اذا وجب أن نكتفى بصفة واحدة لفرنكلين تغنى عن جميع صفاته وتنطوى فيها جميع الملكات والمواهب التى أعانته على جميع أعماله وآرائه فتلك هى صفة العالم .

يقول كروثر فى كتابه عن مشاهير رجال العلم فى أمريكا : « انه لولا شهرته العلمية لم يكن خليقا أن يصبح عبقرى أمريكا السياسى فى باريس [1] » . وهو قول صحيح من وجوه كثيرة ، ولكننا لا نعنى هذه الشهرة التى استفادها من بحوثه العلمية حين نقول ان صفة العالم تغنى عن صفاته الأخرى اذا وجب أن نكتفى منها بصفة واحدة ، وانما نعنى أن ملكته العلمية كانت ملحوظة فى جميع أعماله على اختلافها ، فكان عالما فى سياسته ، وكان عالما فى صناعاته اليدوية والفكرية ، وكان عالما فى وظائفه الادارية ، وكان عالما فى معيشته اليومية ، وربما استطاع فى أطوار كثيرة من حياته أن ينسى أنه سياسى ، أو ينسى أنه موظف أو ينسى أنه كاتب ، أو ينسى غير ذلك من تكاليفه وجهوده ، الا صفته العلمية فانها لم تفارقه قط فى مهمة من المهام الكبرى أو الصغرى التى تصدى لها طول حياته ، ولم يكن يشرع فى مهمة منها الا كانت ملكته العلمية أسرع ملكاته الى الظهور فيها والاقتران بها الى أن يفرغ منها .

والملكات العلمية كثيرة حين ننظر اليها متفرقة فى العلماء المنقطعين لدراسات العلم وتجاربه ، واذا قلنا عنها انها « ملكة علمية » بصيغة المفرد فهى فى هذه الحالة عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد

---

(1) Famous American Men of Science by Crowther.

وقد تتفرق بين كثير من العلماء ، ولكنها فى جملتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكلين من بواكير صباه الى ختام حياته .

فمن الملكات العلمية جمع الحوادث المتفرقة المتشابهة ، فى ظاهرة واحـدة . وقد كان فرنكلين عالما فى طفولته حين رأى أباه يصلى صلاة البركة على طعام كل وجبة فسأله : لماذا لا تصلى يا أبى على الذبيحة مرة واحدة تغنيك عن تكرار الصلاة قبل كل وجبه ؟ .

ومن الملكات العلمية ملاحظة الأحوال الطبيعية التى تعرض لنـا مصادفة ثم تكرار التجربة عليها للتثبت من حصولها بالاتفاق أو على التواتر والاطراد . وقد كان فرنكلين عالما فى صباه حين راقب نفسه وهو يسبح فى الماء وفى يده طيارة الورق ، فرأى أن العوم أيسر له وأسر له فى هذه الحالة من العوم بغير طيارة ، وعاود التجربة على أوضاع مختلفة حتى تثبت من تيسير الطيارة لجهود السابح فى الماء على أوضاع متعددة.

وقد كان فرنكلين عالما فى اختيار الخطة التى تيسر له اتقان الكتابة ، وكان عالما كذلك فى اختيار الخطة التى يتوخاها لمراقبة أخلاقه وتهذيب نفسه والعلم بنصيبه من كل خلق من هذه الأخلاق ومقدار حاجته الى المرانة عليه فى معيشته اليومية ، فقد كانت التجربة والملاحظة والاحاطة بالعوامل المختلفة والبحث فى جملة الفروض الممكنة بعض وسائله فى هذه المحاولات وما جرى مجراها ، وكان قياسه للنجاح الفكرى والنجاح النفسانى مرصودا عنده على الورق يقرره ويستدل منه على مبلغه من التقدم فيه ومبلغ الصعوبة أو السهولة فى هذا التقدم على توالى الأيام .

أعجبه أسلوب الكاتب الانجليزى « اديسون» فى مجلة السبكتاتور فأراد أن يمتحن نفسه فى القدرة على محاكاته وأن يدرب قلمـه على الكتابة بهذا الأسلوب وهو فى أوائل عهده بالكتابة ، فاختار مقالة من مقالات الكتاب ودون معانيها وأغراضها العامة على ورقة ، ثم ترك القراءة

فى الكتاب لينسى عباراته وألفاظه : وعاد الى الورقة بعد أيام فأعاد كتابة المعانى التى دونها فيها معنى بعد معنى بعبارات من عنده لا يذكر ما يقابلها من عبارات الكتاب ، ورجع الى الكتاب بعد ذلك ليقابل بين الأسلوبين فى التعبير عن المعنى الواحد ، فوضح له الفرق بينهما ووقف على الأخطاء التى تحتاج الى العناية باصلاحها واجتنابها ، وعرف من عيوبه أنه قليل المحصول من مفردات اللغة وانه يبحث عن الكلمة التى يؤدى بها المعنى فلا يجدها حاضرة فى ذهنه ، فعمد الى المقالات ينظمها شعرا لأنه يعلم أن الشعر يحتاج الى المترادفات من الكلمات التى تتفق فى معناها وتختلف فى أوزانها وعدد حروفها ومقاطعها ، وأنه يحتاج الى القوافى والفواصل فى سطوره المتوالية ، وأنه على ذلك سهل الحفظ والاعادة لأن الكلمة التى نبحث عنها مع العلم بوزنها وقافيتها لا تتعبنا فى البحث كما تتعبنا الكلمة المرسلة بغير وزن ولا قافية ، وكان يجرب مع هذه الطريقة طريقة أخرى فى امتحان القدرة على الترتيب والتعبير ، فكان يدون المعانى مختلطة مبعثرة ، ثم يعود اليها بعد أيام ينسى فيها ألفاظها وعباراتها فيبدأ بجمعها وترتيبها ثم يعاود كتابتها بألفاظ وعبارات من عنده ، ويسجل الفروق بين أسلوبه وأسلوب اديسون كما يسجل درجات التقدم فى تجربة بعد تجربة ، فلا يترك هذا التسجيل للظن والتخمين بل يراه أمامه محصورا بالأمثلة والشواهد والأرقام ، ولا يبالغ فى الثقة بنفسه ولا فى قلة الثقة بها على الحالين ، بل يعرف عيوبه وحسناته ويقول لنا فى ترجمته لنفسه انه كان يغتبط أحيانا كلما رأى له عبارة تفوق عبارة الكاتب فى جمالها ودقتهـــا .

وأراد فى سن الرجولة أن يروض نفسه على محاسن الأخلاق وأن يهتدى الى حظه منها ومبلغ افتقاره الى زيادتها أو تمكينها أو تهذيبها ، فأحصى الأخلاق المثلى وعرفها على النحو الآتى :

١ — الاعتدال : لا تأكل حتى الشبع ولا تشرب حتى النشوة .

٢ — الصمت : لا تنطق الا بما ينفع الناس أو ينفعك ، وتجنب الفضول والثرثرة .

٣ — النظام : اجعل لكل شيء موضعه ، واجعل لكل جزء من أعمالك وقته وموعده .

٤ — العزيمة : اعزم على أن تعمل ما يلزم ، واعمل ما تعزم على عمله بغير وناء ولا تقصير .

٥ — القصد : لا تنفق شيئا فى غير مصلحة لك أو لغيرك ، ولا تبدد شيئا أو تنفقه عبثا .

٦ — النشاط : لا تضيّع وقتا ، واشغل وقتك بما يفيد ، واقطع عن كل عمل لا ضرورة له ولا داعية اليه .

٧ — الاخلاص : لا تلجأ الى خداع ضار ، وفكر ببراءة وانصاف ، وتكلم وفقا لما تفكر فيه .

٨ — العدل : لا تسيء إلى أحد بما يضره ، ولا تهمل منفعة واجبة عليك .

٩ — التقدير : تجنب الافراط والتفريط ، ولا تستسلم لرد الاساءة بما توحيه اليك بواعثها .

١٠ — النظافة : لا تغفل عن النظافة فى شخصك ولا فى ملبسك ولا فى مسكنك .

١١ — السكينة : لا تقلق للصغائر ، ولا للحوادث التى لا تمتنع ولا حيلة لك فيها .

١٢ — العفة : لا تطاوع شهوات الجسد فى غير داع من دواعى الصحة أو الذرية ، ولا تبلغ بها مبلغ البلادة والضعف أو الاضرار بسلامتك وسمعتك أو سلامة غيرك وسمعته .

وأنبأه بعض أصدقائه أنه يوصف أحيانا بالكبرياء فأضاف الى هذه الأخلاق خلق التواضع ولم يعرفه كما عرفها بل اكتفى بأن كتب أمامه : « سر على منهاج المسيح وسقراط » .

ولما فرغ من احصاء هذه الأخلاق بعد عرض الأخلاق الانسانية جميعا على ذهنه ، ورأى أن هذه الأخلاق التى اختارها هى مسالك المروءة وأجدرها منه بالارتياض عليها واستدراك نقصها — جعل لها درجات يومية فى كل أسبوع ، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة ضميره عليها : ليبدأ الأسبوع التالى على عزيمة وبصيرة بحظه من النجاح والاخفاق .

وهكذا كان يصطحب مقياسه العلمى فى معيشته اليومية وفى ملاحظاته العارضة ولا ينتهى الى حكم فيها الا على قدر معلوم وحساب مرقوم ، ومن تجاربه العارضة فى ذلك أنه رأى فى طريقه واعظا يلقى على الناس خطبة من خطبه الدينية ، وأحب أن يعرف مقدار الاقبال عليه ومبلغ أثره فى سامعيه ؛ فتراجع الى أقصى مكان فى الحلقة وعد خطواته وراقب انصراف الناس عن الخطيب وبقاءهم حوله ، وقدر لكل رقعة محدودة من الأرض عدد الواقفين عليها ، وعلم بذلك مكانة الخطيب .

أما كشوفه العلمية فقد كانت مقاييسه فيها تجمع هذه المقاييس وتزيد عليها خصلتين نادرتين فى زمانه ، ولا تزالان نادرتين فى هذا الزمان ، ولعلهما من الخصال التى لا تكثر فى زمان من الأزمنة .

هاتان الخصلتان هما : توحيد القوانين الطبيعية فى أرجاء الكون ، وتفتح الذهن لكل فرض واحتمال .

فقد كان له عقل يفكر فى حوادث السماوات والأرضين على نسق واحد ولا يقيم بين الحوادث فرقا تختلف فيه قوانين الطبيعة بين مكان ومكان . فلم يجد فى تفكيره فرقا بين انتقال الكهربا من سحابة الى

سحابة ، وبين انتقالها من جسم الى جسم فى الأجهزة المصنوعة على النمط البدائي الذى شاع بين العلماء فى القرن الثامن عشر ، ولم يجد فرقا بين حركة الهواء فى الحجرة من أثر التسخين الصناعى وبين حركة الهواء فى عواصف البحار والمحيطات .

وكان يلتفت الى المشاهدات ولا يرفض منها شيئا بغير بينة وقبل التجربة والمراجعة ، وسنقرأ له فى المختارات من كلامه أنه كان يعيب المحدثين لاستخفافهم بمشاهدات الأقدمين ، ويعيب العلماء لاستخفافهم بمشاهدات العامة والجهلاء ، فكل مشاهدة لها عنده حق من الاستماع والعناية الى أن يتحقق من صحتها أو بطلانها ، وربما انتهى الى حكم فيها ثم علق هذا الحكم على التجارب التالية التى يتهيأ لأصحابها أن يكشفوا من عواملها وأسرارها ما ينكشف للباحثين فى الوقت الحاضر .

ونذكر لهذه الخصائص العقلية أسبابا شتى لتعليمها والرجوع بها الى ظروفها وملابساتها .

فمن هذه الأسباب أنه كان يعيش فى عصر « نيوتن » علامة الفلك والرياضة فى عصره ، وأنه اطلع على قوانين نيوتن التى يعلل بها حركات الأجسام العلوية والسفلية ، وألوان النور المنبعث من الشموس ومن المصابيح الصناعية .

ومن هذه الأسباب أنه سليل آباء وأجداد من الصناع الذين تعودوا التجربة العملية فى تركيب المعادن والأجسام ، وقد سلمت طوائف الصناع بعض السلامة من التقاليد الخرافية التى يتوارثها المتكلمون على الغيب وعلى عوارض الخصب والجدب والوفر والشح فى محصولات الأرض ومزروعاتها ، فتحرر ذهنه من الخرافات الموروثة التى تعلل الحوادث بغير عللها المتكشفة لعقل الانسان ، وتسنى له أن يصل الى العلة المعقولة من طريق لا تعوقه فيه السوابق والغوامض والمحجبات .

وأسعده على هذه الخصلة أنه كان من سلالة الثائرين على السلطان الديني في القرون الوسطى ، وأنه لم يكن هو ولا آباؤه من المتقيدين برياسة كهنوتية في مذهبه أو غير مذهبه ، فلم يشعر بالحجر الذي كان يشعر به الجامدون على العقائد الموروثة من بقايا القرون الوسطى .

ويحصي كروثر ، صاحب كتاب مشاهير رجال العلم المتقدم ذكره أسبابا موضعية أو محلية هيأت له النجاح في بحوثه العلمية ، ولم يكن على رأيه لينجح فيها لولا تلك الأسباب .

فعنده أن هجرة فرنكلين من بوستون الى فلادلفيا كان لها أكبر الأثر في الوجهة التي اتجه اليها وفي المباحث العلمية التي توافر عليها ، لأن بوستون كانت على أيام فرنكلين معقلا للمحافظين والمتشددين في العقائد والأفكار التي ترتبط بالديون وعادات الاجتماع .

وعنده أن فلادلفيا كان يتوافر فيها الجفاف الذي يعين على التجارب الكهربية ، وكانت تتوافر فيها الى جانب ذلك مواد الخامات التي تجرى عليها تلك التجارب وتصنع منها أصناف الورق كالخرق والنفايات،ولولا هذه المواد الميسرة لأحجم فرنكلين عن تجاربه الكهربية وعن التعويل على الصحافة والطباعة ونشر المطبوعات .

وقد تقبل هذه التعليلات جميعا وتبقى بعدها بقية لا يفسرها الا انفراد فرنكلين بالعبقرية التي ميزته بين الألوف من المشاركين له فيجميع هذه الظروف وجميع هذه الأسباب .

فماذا كان فرنكلين يعلم من قوانين نيوتن وسائر القوانينالطبيعيةالى جانب علم الفطاحل من أعضاء مجمع العلوم في بريطانيا العظمى .

لقد كانوا فيمجموعهم على الأقل يحيطون بما لم يحط به من معارف عصره ، ولكنه أدرك أن الكهربا في البروق والصواعق هي الكهربا في الصمغ والزجاج ، وأغربوا هم ضاحكين حين أفضى اليهم بهذا الرأي فلم يتحولوا اليه الا بعد سنتين .

وربما صح أن افتقاره الى العلم كان من مزاياه ولم يكن من عيوبه في تلك الآراء التي كان يسبق اليها العلماء المتخصصون ، لأنه ، كما قال برنارد جاف في كتابه عن علماء أمريكا[1] ، لم يكن مثقفا ولكنه لم يكن مشكولا أو مربوطا (Untramell) فلم تقف عقبات الآراء المحفوظة في طريقه ، ولم تعوقه القواعد التقليدية في دراسة الآراء .. ولكن فقدان الشكال على كل حال لا يوجد لنا الجواد . فلا بد من جواد سباق وراء ذلك اللجام المخلوع أو المفقود .

ويجوز أن « فلادلفيا » ساعدت على التجارب الكهربية ، ولا يمتنع أن يكون الجو الرطب مساعدا عليها في معرض آخر من معارض البحث والدراسة . ولقد حصل فرنكلين من بوستون على جهاز اعاره اياه صديقه الدكتور سبنس Spence الذي لا نعلم عنه شيئا غير هذه الاشارة اليه لهذه المناسبة في ترجمة فرنكلين ... وكم بين المنتقلين من بوستون الى فلادلفيا من مسافر ومقيم ؟ وكم بينهم من فرنكلين ؟ !

ان الملكة العلمية الطبيعية في هذا العقل العبقري هي التفسير الذي لاغنى عنه لجميع أعماله وبحوثه ، وغير هذا التفسير تفسيرات كثيرة من قبيل ما تقدم لا يستغنى واحد منها عن هذا المرجع الأول والأخير لجميع تلك التفسيرات .

وهذه الملكة الطبيعية هي التي أوحت اليه بغير تعليم وبغير تلقين أن يضع البحث العلمي في موضعه الواجب ، فكل ما يقع تحت الحس فهو موضوع بحث ودراسة من الوجهة العلمية . وربما عاش معه في عصره — أو عاش قبل عصره — أناس من الباحثين جعلوا هذه البحوث ترفا مختارا ترتقي اليه بعض الموضوعات وتقصر دونه موضوعات أخرى ، ولكنه هو لم يكن ليفرق بين ما هو صالح للحس وما هو صالح للبحث

(١) Men of Science in America by Bernard Jaffe.

والدراسة ، فتراوحت مباحثه بين السحب والأمواج ، وبين درجات الحرارة وألوان الأقمشة ، وبين اصلاح النظارات واصلاح لظام الاضاءة فى المدن ، وبين التبريد بالتبخير وتهذيب الحروف الأبجدية ، ولم يتفتح أمامه موضوع بحث فأعرض عنه لأنه لا يدخل فى صدد البحوث العلمية كما يصنع الباحثون الذين لم يرزقوا مثل هذه الهبة الفطرية .

وقد كان للخيال شأنه — كما كان للواقع شأنه — فى البحث الذى اشتهر به وأكسبه اعجاب العارفين وغير العارفين ، وهو بحثه فى الكهربا، واستخدامه فى الوقاية من الصـــواعق ، أو من غضب الآلهة كما كانوا يسمونه فى الأزمنة الغابرة .

فقد كان المعجبون به يقولون عنه انه انتزع الصولجان من عاهـــل الدولة البريطانية وانتزع الصولجان من رب الصواعق والبروق جوبيتير اله الآلهة عند الأقدمين ، ولم يخلع الخيال على عمل فرنكلين هذا مكانة أكبر من مكانته الحقيقية التى لا مجاز فيها ، فان الوقاية من الصواعق حقيقة أعظم من خيال المتخيلين عن عروش الأساطير ، وحقيقته العظمى فوق ذلك أنه صحح العقول والعقائد فأدركت حوادث الأرض والسماء كما ينبغى أن تدرك ، وأدركت صفات الاله المعبود كما ينبغى له من التنزيه والتعظيم .

ولقد تناول فرنكلين بحوث الكهربا وهى — على أحسن ما تكون — لعبة للتسلية ، فان هذه البحوث بدأت فى حجر الكهربا الذى تنسب اليه قبل الميلاد بستة قرون ، وعرف طاليس (٦٠٠ ق . م .) أن الكهربا المحتكة تجذب الزغب والنشارة الخفيفة فلم يفهم منها الا أنها « ذات روح » أو ذات حيـــاة ، ثم جاء ثيوفراستس Theophrastus فاكتفى بتسجيل مشاهداته ولم يهتد الى تفسير معقول لهذه الظاهرة . ووقفت التجارب الكهربية عند هذا الحد الى القرن السادس عشر ، ثم تقدمت خطوة أخرى

على يد العـالم الانجليزى وليام جلبرت طبيب الملكة اليصـابات حين استطاع أن يثبت أن هذه الظاهرة تتكرر فى بعض المواد وأن أجساما غير الكهربا تجذب الزغب والنثارة بعد حكها وتسخينها كالشمع والكبريت والماس وبعض المعادن النفيسة ، وأن الرطوبة تفقدها هذه القوة اذا صبت عليها السوائل ، الا الزيت فانه لا يضعف تلك الجاذبية فيها . وأن لأحوال الجو تأثيرا فى الجاذبية يختلف باختلاف الرطوبة والجفاف ، وتقدم جويرك Guericke مخترع المضخة الهوائية قليلا بالبحث الكهربى فلاحظ أن الأجسام المكهربة تتدافع أحيانا وأن الشرر يتطاير من بعضهـا ويصحبه صوت مسموع بمقداره من القوة ، ثم ورد خاطر التشبيه بالبرق والرعد على ذهن العالم الانجليزى وال wall ولكنه لم يفسره وترقب أن ينبغ فى العـالم ذهن عبقرى يفلح فى تفسيره ، ووقفت الدراسـات العلمية والاختراعات الصناعية بهذا البحث عند هذا الحد فلم تستخدم فى شىء أنفع من تركيب بعض الأجهزة التى تعرض هذه الظواهر ولا تقرن بها « نظرية » عامة أو فرضا من الفروض التى تؤسس عليها العلوم .

وفى هـذه المرحلة تسلم فرنكلين مباحث الكهربا فلم يزل بها حتى وضع لها تلك الفروض على قواعدها المقررة الى هذا اليوم ، فوحّد بين ظواهر الكهربا فى الأرض والسماء ، وعرف الكهربية الزائدة والكهربية الناقصة ، أو الكهربية المشبعة والكهربية المتعطشة وهما المعروفتان اليوم باسم الموجبة والسالبة ، وراقب خاصة التوصيل والاقتباس فصنع الطيارة المشهورة لاستخراج الكهربا من السحاب ، ولم تكن هذه التجارب مأمونة العاقبة فى تلك المرحلة . لأن خصائص المادة الموصلة للكهربا لم تكن معروفة بتفصيلاتها ولم تزل متفرقة مبعثرة لا تربط بينها رابطة تجمع المتشابهات منها على قاعدة واحدة ، وفى احدى هذه التجارب أوشك أن يهلك لابتلال الخيط الذى ربط به الطيارة أثناء نزول المطر ، ولولا أنه

لم يتشبع بالماء فى جميع أجزائه لهلك رعدة كما هلك الأستاذ ريشمان Richmann السويدى فى تجربة مثل هـذه التجربة كان يجريها فى بطرسبرج ، فكان استمرار فرنكلين على تجاربه — مع هذه العوارض المبهمة — مخاطرة أخطر مما يقال عنه « انه لعب بالنار » .

ونحن فى عصر التحليل وتوزيع الأعمال نتساءل : هل كان فرنكلين عالما أو مخترعا ؟ هل كان يدرس العلم بعقل الباحث الذى ينقب عن الحقيقة ويضع النظريات ويوفق بين الحوادث المبعثرة ليجمعها الى قانون واحد ، أو كان يدرس العلم دراسة الصانع الحاذق الذى يخترع الآلات أو يحكم صنعها بزيادة المعرفة والتحقيق ؟

ان التفرقة بين العقلين سهلة بينة فى كثير من الأحوال . فهناك العالم الذى يحسن التفكير والفهم والاحاطة بالأفكار والمفهومات ، ولكنه لا يحسن تنفيذ الأفكار فى آلات مخترعة ولا يحسن توجيه المنفذين الى صنعها واختراعها ، وهناك الصانع الذى يباشر التركيب والفك واعادة التركيب بمهارة يدوية وحيلة تطرأ فى ساعتها من تلك الحيل التى جعلت العرب يطلقون اسم علم الحيل على علم المكنات ، وربما كانت هذه الحيل جميعا خفية على الصانع عند ابتداء المحاولة الأولى ثم تظهر له بالمعالجة والاختبار كأنها طرق يسير فيها حتى يراها مغلقة أمامه فيرجع عنها ويتحول الى غيرها ، أو كأنها فى النهاية من قبيل المصادفة التى لم يكن ينتظرها .

وفرنكلين كان صانعا نشأ بين الصناع يعمل ويجرب ويحاول ويعتمد على التواتر كما يعتمد على المصادفة ، ولكنه فى البحث عن النظريات والعلاقات بين الحوادث المبعثرة لم يكن مقصرا عن شأو أمثاله من المفكرين الباحثين ، فلم تكن تعوزه ملكة لازمة للعالم الباحث عن الحقائق والنظريات ، وكل ما يحتاج اليه هذا العالم الباحث من تفتح الذهن

وصدق الملاحظة وحسن الترجيح والموازنة بين الأسباب والاحتمالات فهو من عاداته الذهنية فى مباحثه العلمية وفى معيشته اليومية ، فلم يكن ينهض من مكتب العالم ليدخل الى مصنع العامل المخترع ، بل كان مكتبه ومصنعه موضعا واحدا تشترك فيه ملكاته وخصائص ذهنه هنا وهناك .

الا أنه كان يعتقد أن المعرفة مصلحة انسانية ، وأن العلم الذى لا يتحول الى منفعة عامة لا قيمة له فى العقل ولا فى الحياة ، ومن رأيه أن الكشف العلمى الذى لا يوضع موضع التطبيق فى المنافع العامة ولا يصلح لشىء من الأشياء هو كشف « غير صالح » على الاطلاق .

وكأنما كان خجلا من اضاعة الوقت فى قدح الشرر وجذب الريش والزغب وتجريب هذه الألاعيب الكهربية على غير جدوى ، فكتب (صيف سنة ١٧٤٩) الى صديقه العالم الانجليزى كولنسون Collinson يروى له — فى شىء من التهكم — كيف يعتذر الى أولئك الذين ساءهم ، أو أحفظهم ، قليلا أن يسمعوا عن تجارب الكهربا ولا يحسوا لها أثرا ملموسا فى نفع بنى الانسان ، فقال له انه خرج مع طائفة من صحبه الى نزهة خلوية تطهو طعامها على نار مستمدة من الكهربا : « ويشتعل فيها الكحول بشرارة تعبر النهر من شاطىء الى شاطىء بغير موصل غير الماء ، ويقتل فيها ديك رومى بالهزة الكهربية وينضج على سفود تديره الكهربا أمام نار مقدوحة من القنانى الكهربية ، وعما قليل يستطاع أن يشرب نخب الكهربيين المشهورين فى انجلترا وهولندة وفرنسا وألمانيا فى أكواب مكهربة ترعش الشفاه قليلا عند مساسها بفعل التيار المنبعث من بطرية كهربية » (١) .

ومنافع الكهربا اليوم لا تحصى ولا يضارعها شىء مما كان يستخدم

---

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الامريكى الاول تاليف برلنجيم
Benjamin Franklin The First Mr. American by Burlingame.

قبلها فى الصناعة وتيسير أعمال النـاس أو تيسير الأعمال للملايين من المهندسين والصناع والتجار والوسطاء بين الصناعة والتجارة ، ولكن فرنكلين استطاع أن يقنع العالم بفائدة لها تساوى جهـود المئات من العلماء فى المئـات من السنين ، لأن العمود الذى اخترعه للوقاية من الصواعق قد وازن تلك الجهود وأربى عليها ، ولم يوازنها ويرب عليها عند الذين أصابتهم الصواعق أو تعرضوا للاصابة بها حيث يتتابع نزولها ، بل هو قد وازنها وأربى عليها عند الملايين من الذين لا يتعرضون للصاعقة ولا يعرفون منها الا اسـما يهول ويتردد فى مقـام الانذار والوعيد ، ووازنها وأربى عليها عند أرباب الخيال الذين تصوروا جوبيتير على السحاب وتصوروا فرنكلين على الأرض ندين يتبارزان ، ويخلع الند البشرى منها سـلاح الند السماوى المقدس فى ملاحم الشعر ومزاعم الأسـاطير .

ولم يعدم المازحون قائلا يقول : « ان عمود الصواعق قد صب على فرنكلين صواعق الغضب والنقمة من عاهل فى الأرض يناظر جوبيتير فى السماء ، ذلك هو جورج الثالث ملك انجلترا فى أيام الثورة الأمريكية . فانه كره أن يشيع فى العالم اختراع رجل ثائر على التاج ولم يقدر على منعه وتحريمه لأن خوف الناس من صواعق السماء أعظم من كل خوف يخافونه من صاحب التاج ، فتوسـل بكل وسيلة يقدر عليها لهزيمة فرنكلين فى هذا الاختراع .

وكان فرنكلين على طريقته البسيطة قد عرف أن كهربا السحاب تنجذب الى الموصل السهل فتسرى فيه ولا تصطدم بعائق على الأرض تنفجر الصاعقة من جراء المصادمة بينها وبينه ، فاختار لجذب الكهربا السحابية وتوصيلها الى الأرض بغير عائق وبغير مصادمة عمودا قائما ينتهى الى أسلاك صالحة للتوصيل بالكهربية الأرضية ، وفضل العمود

المسنن على العمود المستدير من أعلاه ، لأنه يقلل المصـــادمة وبواعث الانفجـــار .

فلما ثبتت فائدة العمود لمنع الصواعق نشب الخلاف على الرأس المسنن والرأس المستدير أيهما أسلم فى الوقاية وأصلح فى تحقيق النظرية العلمية ، فأوعز الملك الى سير جون برنجل Pringle رئيس مجمع العلوم أن يفضل العمود المستدير على العمود المسنن ، ونقل المسألة من ميدان العلم الى ميدان السياسة وواجبات الولاء والطاعة ، فأجابه العالم النبيل بالجواب الذى يستحقه وألقى اليه فى جوابه أن قوانين الطبيعة لا تخضع للمراسيم الملكية ، واعتزل العمل فى منصبه الرفيع ايثارا للأمانة العلمية على الحظوة والجاه ، وشاعت يومئذ فى انجلترا أبيات من الشعر خلاصتها أن صواعق الغضب التى تملكها أيها الملك جميعا لا تنفعك اذا أردت أن تجاوز الحد The Point ـ وهى كلمة فى الانجليزية ترادف معنى السن والنقطة وتقابل فى هذا المقام معنى الدائرة والكتلة ، يريد الناظم بذلك حد العمود المسنن الذى فضله فرنكلين ووافقه على تفضيله كبير العلماء ، ومعه سائر العلماء .

ومباحثه العلمية التى لم تشتهر هذه الشهرة منوعة فى جوانب منوعة من الحياة العامة والخاصة ، أحاطت بالعلاج الكهربى وعلاقة الصحة بالعرق والتبريد بالتبخير ، وفنون شتى من الاستشفاء بالوســائل الطبيعية ، وشملت البحث فى غازات المستنقعات وحفائر الأرض وسرعة السفن فى الماء الضحل والماء الغزير ، ولغات القبائل البادية فى أمريكا الشمالية ، واشارات التخاطب بين النمل والحشرات ، ومستقبل الطيران ومستقبل علم الضوء على اعتبار الضوء حركة من حركات التموج فى الفضاء ، ولم يدع البحث فى التشريح ووظائف الأعضـــاء وأساليب التطبيب ، ولا فى الموسيقى وفن الايقاع ولا فى الألوان والأشكال ،

وجرى فى هذه المباحث كلها على وتيرته المعهودة من تسخير المعرفة للمنفعة وتطبيق النظريات على الوقائع المتداولة ، وهى عادة ذهنية لا تعيب التفكير العلمى الصحيح الا اذا كانت المنفعة المقصودة منفعة شخصية ينسى المرء فى سبيلها منافع أبناء نوعه وحقائق العلم أو قوانين الطبيعة ، وتلك هى الخلة التى برىء منها هذا العقل العلمى المطبوع فكانت فائدة بنى الانسان أجمعين مقدمة لديه على كل فائدة ، ولم يكن نصيبه من هذه الفائدة الكبرى غير الفتات على المائدة .

وقد ظهر موقفه من المباحث النافعة فى اختراعه للموقد الذى سمى باسمه ويعرف الآن باسم موقد فرنكلين ، على ما دخل عليه بعد ذلك من التعديل والتحسين .

فهذا الموقد من الآلات التى يمكن أن تصنع بالمئات والألوف ويحتكرها المخترع فلا تباع الا من مصنعه أو باذن منه ، وكان تعويل الأمريكيين قبل اختراع هذا الموقد على كوانين المداخن التى تستنفد الكثير من الوقود وتضيع الكثير من الحرارة المستفادة منه ، وتصيب المستدفئين بكثير من الأضرار لأنها تدفىء الجانب المواجه لها من الجسم والجانب القريب اليها من الحجرة ، وتدع الجسم كما تدع المكان مختل التوازن فى درجات الحرارة مع غلاء الوقود الضائع وشدة الحاجة الى الدفء والوقاية من البرد فى الشتاء ، وشدة الحاجة الى المواقد على العموم لمطالب الغذاء وغيره من اللوازم البيتية .

فاخترع فرنكلين موقدا يوضع وسط الحجرة وينقل الى حيث يشاء الساكن ويحفظ الحرارة كلها للتدفئة ويرسل الدخان الى المدخنة من أنبوبة تركب عليه وترفع منه على حسب الحاجة ، وأراد حاكم المدينة أن يكافئه على هذا الاختراع فكتب له تسجيلا باحتكاره وقرر أن يحرم صنعه وبيعه بغير اذن من مخترعه ، فشكره فرنكلين واعتذر من قبول

هذا التسجيل ، وقال فى اعتذاره انه ينتفع هو وأبناء عصره بمخترعات الأقدمين ولا يؤدون اليهم ثمنا لمنافعها الجزيلة ، فمن الانصاف أن ننفع اخواننا وأبناءنا بما نهتدى اليه من المصنوعات والمخترعات بغير جزاء .

ولم يجهل فرنكلين وهو يعتذر هذا الاعتذار أن الشهرة الأدبية غير مضمونة للمخترعين والباحثين وليست عوضا خالصا من الحسد والادعاء ، فقد كان أعلم بالطبيعة الانسانية من أن ينخدع هذه الخديعة ، وكان يكتب الى صديقه جون لينينج Lining بعد ظهور العشرات من مخترعاته فيقول ان الحسد يأبى على المنافسين أن يعترفوا للمخترع بفضل اختراعه وان الغزو يسول لهم بعد ثبوت نفعه أن يدعوه لأنفسهم ويكابروا فى الدعوى فيصدقهم الحساد والجهلاء ، وانه ما من انسان مالك لقواه العقلية يتمنى لصديقه أو لولده أن يشتغل بالاختراع (1) .

ولعله من مصداق ما تقدم فى كل معنى من معانيه حوار الدكتور جونسون وتلميذه بوزويل عن تعريف فرنكلين للانسان .

قال بوزويل : « أحسب أن تعريف الدكتور فرنكلين للانسان تعريف حسن : حيوان صانع للآلات » .

والذين قرأوا مفكرات بوزويل عن أحاديث الدكتور جونسون يعلمون أن الأستاذ لم يسمع من تلميذه فكرة الا سارع الى مخالفته فيها ، وأنه لم يكن من عادته أن يمنح موافقته لشيء من الأشياء بغير اعتراض .

وعلى هذه العادة أجابه الدكتور قائلا : « لكن كم من الناس لم يصنع آلة قط وهب إنسانا بغير ذراعين ، فإنه لا يقدر على صنع آلة من الآلات؟ » .

ان تعريف فرنكلين للانسان فى الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه بالشرط الجامع المانع فى التعريف ، فما من فارق بين الانسان والحيوان أوضح وأثبت من قدرة الانسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه

(1) من كتاب بنيامين فرانكلين الامريكى الاول تاليف برلنجيم المتقدم ذكره .

القدرة هي المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون وأن بعضهم يولدون بكما أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعي أن يشذ بعض الناس ويتأبد في الخلاء وينفر من الاجتماع .. ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمي المطبوع على التعريف واقامة الحدود والفوارق ، وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة في طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات ، وأن تبرز مع هذا وذاك سهولة الانكار حتى من الفضلاء !

ولم يقنع فرنكلين بخدمة العلم بفكره منفردا مستقلا عن القادرين على خدمة العلوم في بيئته وعصره ، فأنشأ نادي « الجانتو » الذي أصبح مجمعا للعلوم والآداب ثم أصبح بعد ذلك جامعة بنسلفانيا القائمة الى اليوم ، ونظم الجماعة الفلسفية الأمريكية كما نظم أول مكتبة عامة تقتني الكتب بالشراء والاستعارة وتعيرها القراء ومن يحتاجون الى المراجع من أصحاب المباحث والدراسات ، وقد كافأته الجماعة الفلسفية على غيرته العلمية وجهوده في نشر المعرفة وتمكين العلماء من نشرها بانتخابه رئيسا لها مدى الحياة ، وهو تقدير من النخبة المختارة يفوق التقدير الذي يلقاه طلاب الرياسة في مناصب السياسة ، وكان فرنكلين فخورا به متعزيا به عما كان يلقاه من حساده الأقوياء من البخس المتعمد ونكران الجميل .

ومهما تتعدد جهوده ومشاركاته في الأدب والسياسة والاجتماع فليس من الحصر الذي يزرى بها أن نقول انها كانت في جملتها وتفصيلها جهود العالم المطبوع ، بذلك المعنى الذي افتتحنا به الكلام في هذا الفصل عن فرنكلين العالم ، وزبدته أن الملكة العلمية لم تفارقه قط في تلك الجهود والمشاركات .

الكاتِبُ

اذا كنا قد عرفنا طبيعة هذا العقل من الالمام السريع بحياته العلمية فمن اليسير علينا أن نعرف خطته اذا اشتغل بالكتابة فى عصر المطبعة ؛ فانه على التحقيق لم يكن ليستطيع أن يعفى نفسه من عمل يتصل بهذه الصناعة ، وكذلك كان كاتبا وطابعا وناشرا ومديرا للعمل ، وسنرى كيف كان كاتبا يسهم بقلمه فى جميع الموضوعات التى تسهم فيها الأقلام . أما الطباعة فقد كان فيها صـفافا وحفارا ومديرا للمكنات ومصلحا لما يختل منها ، ويكاد يحسب مع المهندسـين المكنيين فى زمانه لأن هذه الهندسة لم تتشعب فى ذلك الزمن تشعبا يصعب عليه أن يحيط به على طريقته فى الاحاطة بكل عمل قريب من رأسه ويديه ! وأما النشر فلم يترك شيئا يشتغل به الناشر فى عصره دون أن يتولاه ويبلغ به مداه .

ويقول فرنكلين فى ترجمته لنفسه انه لا يذكر زمنا لم يكن يقرأ فيه . وهذا مع ذاكرته القوية التى أعانته على حفظ الكلمات وادخار المفردات والعبارات واستيعاب ذلك المحصول اللفظى ، والفكرى ، الذى يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب .

وقد قيل عنه انه لم يوجد فى العصر الحديث كاتب كان حظه من التعليم المدرسى أقل من حظه ، وكان فضل المعلمين عليه أقل من فضله فى تعليم نفسه ، وكان عاشر أبناء أبيه فنذره لخدمة الدين ؛ ثم تبين أن التعليم فى المدرسـة الكهنوتية يفوق طاقته فأدخله مدرسة من مدارس الأجرومية والتربية الأولية ، ومكث فى هـذه المدرسة — مدرسته الثانية — من الثامنة الى العاشرة ؛ ثم أخرجه أبوه لمساعدته فى صناعته .

وكان الصبى المشغوف بالقراءة يلتهم كل ما صادفه من الكتب فى داره وعند أقربائه ، فقرأ الكتب التى يقتنيها أبوه فى مسائل الدين وخلافات المذاهب ومناظرات العلماء اللاهوتيين ، ووقعت له نسخة من كتاب « رحلة الحاج » للكاتب المتصوف بنيان Bunyan فقرأها وأعاد قراءتها ثم باعها ليشترى بثمنها أجزاء من مجموعة المتسببين (١) Chapmen Books التى تنشر تباعا وتلم بالموضوعات المنوعة من التاريخ والجغرافيا والنوادر والسير والعجائب الصناعية أو الطبيعية ، وهى قراءة توافق ذهن فرنكلين المشغول بالتوسع والتنويع .

ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل تراجم بلوتارك وذكريات زينوفون ودراسات لوك وشافتسبرى ورسائل ديفوى ومقالات كوتون ماثر عن فعل الخير وغيرها من أشباه هذه المؤلفات القيمة التى كانت فى متناول يده ، وقد أعجب أصحاب أبيه بذكائه واقباله على القراءة وفهمه لما يقرأ فتبرعوا باعارته ما عندهم من الكتب ، وشجعهم على اعارته باعادته كل ما يستعيره فى أيام معدودات ، ومنهم بائع كتب كان يعيره ما يطلبه كتابا كتابا فى المساء ليعيده اليه فى النهار التالى ولا يتمكن من البر بوعده الا أن يسهر على مطالعته طوال الليل الى الفجر على نور المصباح الضئيل .

والذى قرأه على هذا المنوال كثير ليس فيه كتاب واحد من كتب اللغو والفضول : فبلغ السادسة عشرة ومعلوماته تزيد على معلومات أبناء الثلاثين من طلاب العلم والمشتغلين بالاطلاع ، وفكر فى الكتابة

---

(١) المتسبب كلمة يطلقها العامة على الرجل الذى يلتمس الرزق من الحرف المختلفة كالبيع والشراء والصناعة والوساطة ، ولها أصل فصيح اذا ردت الى التماس الرزق من أسبابه المتيسرة ، ولهذا ترجمنا بها الكلمة الانجليزية التى تفيد هذا المعنى .

على سبيل التجربة فأحسن اختيار المؤلف الذى يقتدى به ويوافق منحاه وثابر على الاقتداء به والطموح الى محاكاته والتفوق عليه اذا تسنى له سبيل التفوق ، حتى أخذ منه كل ما فى وسع تلميذ أن يستفيده على البعد من أستاذ .

كان اختيـاره للكاتب اديسون صاحب مجلة السبكتاتور دليلا على ملكة ناقدة مبكرة عرفته بملكات ذهنه ومنهج تفكيره وتعبيره ، فليس فى الكتاب من تتراءى ملامحه جلية مفصلة فى أسلوب فرنكلين مدى حياته كما تتراءى فيه ملامح هذا « الأب » الفكرى الذى اختاره لقدوته بين عشرات من الكتاب .

وكان أخوه جيمس فى هذه الأثناء قد اشتغل بالطباعة وعهدت اليه صحيفة بوستن جازيت Boston Gazette باصدارها فى مطبعته ، فأصدر منها فى أواخر سنة ١٧١٩ أربعين عددا ثم اختلف أصحابها معه فعهدوا بطبعها واصدارها الى مطبعة أخرى ، فخطر له أن يستقل باصدار صحيفة يملكها ويحررها ويدير عليها أعمال مطبعته التى أوشكت أن تتعطل وتخسر سمعتها وعملاءها أمام المطبعة الأخرى التى تنافسها ، فأنشأ صحيفة جواب الجلترا الجديد New England Courant فى شهر أغسطس سنة ١٧٢١ .

وألحق فرنكلين بالعمل فى المطبعة متتلمذا على أخيه فى صناعة الطباعة وهو فى الثانية عشرة ، فلما استقل أخوه باصدار صحيفته لم يكن قد جاوز الخامسة عشرة ولم يبق فى الصناعة عمل لم يجرب يده فيه ولم يتقنه غير الكتابة ، فأخذ فى معالجة هذه الصناعة على منهجه الذى شرحناه اجمالا فى الكلام على طريقته العلمية .

وكان حب الاتقان فى هذه الصناعة مطلبا طبيعيا يحسه من أعماق نفسه ، فلم يذهب مع الغرور وتحرى الاتقان من أبوابه الصالحة ، وعلم

أنه لا يستغنى — بعد كل ما قرأه — عن المزيد ثم المزيد من القراءة ، فاقتطع من قوته ليشترى الكتب التى لا تستعار ، وخيل اليه من بعض مطالعاته أنه آمن بمذهب النباتيين فاقترح على أخيه أن يعطيه طعاما بغير لحوم ويضيف ثمنه الى أجره القليل ، فكان يشترى الكتب بثمن الطعام .

وأدركته حصافته التى لا تغيب عنه وهو يطرق أبواب الشهرة الكتابية فأخفى اسمه واتخذ له توقيعا مستعارا باسم سيلنس دوجود Silence Dogood أى « صمتا واعمل خيرا أو واصنع معروفا » وجعله اسما لامرأة وصفها فى بعض مقالاته ، وعنى فى جميع تلك المقالات بالتشويق واجتذاب القراء بالفكاهة والنقد الاجتماعى الذى يعجب القراء من الرجال والنساء معا لأنه يلمس شكاياتهم ويحدثهم عن مشكلاتهم وأوجاعهم ولا يحيف على طائفة لمرضاة أخرى بل يسوى بينهم جميعا فى النقد وملاحظة العيوب . ومن دأب الناس دائما أن يعجبوا بهذا التعميم فى الملامة والسخرية لأنه يصيبهم كما يصيب الآخرين ، ويقيم الكاتب أمامهم مقام الحكم العدل أو الحكم الحكيم الذى يعرف أحوالهم ولا يجور على أحد منهم أو يحابيه باخفاء ما يعرفه عن نفسه وعن صحبه من المآخذ والعيوب .

وأصلح ما يكون لهذا النقد الشامل كاتب مقنع واسم مستعار ، لأن هذا الاسم المستعار يجرده من « اللون الشخصى » الذى يدعو الى الاتهام بالحيف والمحاباة ، أو يدعو الى المنافسة والحسد وتقدير الكاتب بمظاهره الاجتماعية دون مزاياه الكتابية ، وقد خطر لفرنكلين حين أخفى اسمه أن مقالاته عرضة للاهمال والاستخفاف قبل النظر فيها ، وربما بخسها أخوه وزملاؤه الذين يراجعون معه موضوعات الصحيفة كل حق لها حتى حق النشر والاستحسان ، وصح تقديره بعد انكشاف أمره ومعرفة اسمه . فان أخاه قد توهم أنه اغتر بالسمعة والاعجاب

وتطلع الى منزلة أكبر من منزلته فى أعمـال الصحيفة ، فتغيرت معاملته وتعددت مشاجراته واضطر الأخ الصغير بعد حين الى مفارقة الأخ الكبير ومفارقة المدينة كلها ثم مفارقة الديار الأمريكية الى العاصمة الانجليزية .

ومن يقرأ البقية الباقية من مقالات « سيلنس دوجود » يشـعر أن النواة كلها كامنة فيها ، فقد برزت فيها ملامح الرجل التى يراها قارئه لأول وهلة فى كتاباته بعد الستين وبعد السبعين والثمانين ، وكل ما جد عليها فانما هـو من قبيل النمو الطبيعى للبنية المتكونة أو الصـقل والتركيب للجوهر النفيس .

وقد تعلم الفرنسية بعد سن الكهولة وكتب بها أو ترجم اليها بعض كتاباته الانجليزية ، وأخلصت أستاذته فيها — مـدام بويون — فى امتحان أسلوبه الفرنسى فقالت انه « واضح ان لم يكن صافيا » وقال غيرها ما يشبه هذا فى كتاباته الفرنسية والانجليزية على السواء ، فهى واضحة سـهلة محكمة ، والنقاد متفقون على دقتها وجلائها وصحة تعبيرها عن معانيها ، ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك من محاسن البلاغة ومقاصد الكتابة ، ولا سيما القدرة على النفاذ الى الأعماق أو التحليق فى القمم والآفاق .

وقد لخص آراء النقـاد فيه كتاب مدرسى وجيز فى تاريخ الأدب الأمريكى لثلاثة من أساتذة الأدب فى الجامعات الأمريكية ، يغربل هذه الآراء من مصادرها المتعددة ويجتهد فى أمانة النقل كما يجتهـد فى حسن الموازنة والترجيح .

فذكر من محاسن هذه الكتابة وضوحها وسلامتها وقوة تعبيرها وما يتخللها من الصور الخلابة والفكاهة السائغة والقدرة على جوامع الكلم مع سلامة الادراك وايراد الحقـائق التعليمية فى صياغة ترضى وتشوق .

وذكر من عيوبها أنها تفتقر الى جزالة الخيال والرشاقة التى اتسم بها أسلوب أستاذه اديسون والافراط فى النزعة العملية المادية التى لا ترتفع الى القيم العليا (١) .

ونعتقد أن هذه الموازنة تلخيص عادل لما قيل فى محاسنه وعيوبه الكتابية ، وأن فرنكلين نفسه لم يكن يجهل هذه العيوب ولم يشغل باله بمحوها أو انكارها ، وألقى باله كله الى محاسنهم المحققة فاحتفل بتحسينها وحافظ عليها .

وكل ما كتبه عن البلاغة الكتابية يعزز تلك الآراء عن « نزعته العملية المفرطة » واخضاعه كل فكرة تجول فى ذهنه لحدود التقرير والتطبيق .

وفن الكتابة عنده كغيره من مزاولات الحياة وضروب الأعمال وسائر الفنون : فكرة تنجم من البحث فى الغرض المقصود منها ، ثم نظرية يتأدى اليها من ذلك التفكير ، ثم تطبيق يصححه بالتجربة والمراقبة وتقدير التقدم فيه بمقياس من مقاييس الواقع المحسوس .

ومن الحوار التالى تتبين مذهبه فى الفكرة النظرية عن الكتابة وعن التطبيق العملى الناجح لتلك الفكرة النظرية .

قال : « كيف نحكم على جودة الكتابة ؟ أو ما هى الصفات التى ينبغى أن تتوافر للكتابة كى تعد من الكتابات الجيدة التامة فى نوعها ؟

« والجواب أن الكتابة تكون جيدة اذا جنحت الى افادة القارىء بزيادة قسطه من الفضيلة والمعرفة ، وبغير نظر الى نية الكاتب ينبغى أن يكون المنهج محكما يستطرد — على انتظام — من الأمور المعلومة الى الأمور المجهولة فى تحديد وتوضيح وبغير لبس ولا اختلاط ، وينبغى أن تكون الكلمات المستخدمة أقواها تعبيرا عن معانيها على شريطة أن تكون

---

(١) Outline History of American Literature by Crawford, Kern, and Needleman.

كذلك أشيعها وأدناها الى الافهام ، ولا ينبغى أن يقال فى كلمتين ما يمكن أن يقال فى كلمة ، ولا حاجة الى المترادفات الا نادرا وعلى أن يكون وقعها فى جملته سائغا فى الأسماع ، ونوجز فنقول انها ينبغى أن تكون سلسة واضحة موجزة لأن الصفات التى تناقض هذه الصفات لا تروق . وننظر الى المسألة من ناحية أخرى فنقول ان الرجل السيىء قد يكتب المعنى السيىء كتابة جيدة ، وانه اذا ساءت نيته قد يستخدم أصلح الأساليب والبراهين على حسب القراء للوصول الى بغيته ، وعلى هذا الاعتبـار نقول ان أجود ما يكتب هو أجود ما يصيب به الكاتب مرماه » .

فالكتابة الناجحة هى الكتابة الجيدة فى تقدير فرنكلين ، ومقياس النجاح هو « التطبيق العملى » لفكرة مقررة ووجهة مرسومة ، وهذا هو فرنكلين كله مرة أخرى يتمثل فى صناعة القلم وفى كل صناعة .

ويصـادفنا فى تراجم فرنكلين رأى متفق عليه بين الواقعيين العمليين والنظريين المثاليين ، وهو هذه الغاية الواقعية العملية التى يرتادها فى كل مطلب يعنيه ، وربما لمسنا فى كلام الواقعيين العمليين شيئا من الاعجاب فى التنويه بهذه الصفة ، وربما لمسنا من الجانب الآخر شيئا من الغضاضة فى تصريح النظريين المثاليين بها أو تلميحهم اليهـا ، ولكنهم لا يختلفون فى وصفه بهذه الصفة واعتبارها احدى صفاته البارزة ، بل كبرى صـفاته العقلية والنفسية بين سائر الصفات .

على أننا نرى أن النزعة الواقعية والنزعة المثالية فيه تتقاربان ، أو أنهما على الأقل لا تتنافران ولا تتعارضان ، فانه يستقصى العمل الى غاية مداه ولا يستطيع أن يدخر جهدا من جهوده يتسع أمامه المجال لبلوغ الكمال الواجب فى عمل من الأعمال .

وقد نجح فى الكتابة الصحفية وقرر مكانته فيها وأصبح فى مجالها علما فردا لا يدانيه أحد من معاصريه ، وكان هذا النجاح خليقا أن يقنع

غيره بالوقوف عنده والاكتفاء به فى صناعة الصحافة وصناعة الطباعة ، ولكنه لم يقنع به ولم يقف عنـده ، ولم يدع شيئا يقدر عليه فى هـذه الصناعة الا حاول أن يبلغ منه ما يعينه على الاستقلال والكفاية ، حتى سبك الحروف للمطبعة ، ولم يكن فى بلاده يومئذ سباكون للحروف .

وديدنه فى هذه الخطة هو ديدنه فى كل مطلب ، فانه يفكر فى الشروط التى ينبغى أن تتوافر المصحفى ثم يأخذ نفسه بتحصيلها وتوفيرها ولا تثنيه عقبة ترصد له فى طريقها ، مما ينثنى أمامه النظريون المثاليون ولا يتجشمه كل عامل من المجتهدين الواقعيين ، وعلى هذه الخطة آخذ نفسه بالاطلاع على المعلومات الفلكية الضرورية لاصـدار التقويم ، وفهم أن الالمام باللغات مزية واجبة للصحفى الذى يريد أن يتقن عمله بين زملائه ، وبخاصة فى ذلك الزمن الذى تعددت فيه لغات النازلين بالولايات الأمريكية ولم تنتشر فيه لغة واحدة للكتابة والكلام كما حدث بعد حرب الاستقلال ، فتعلم من الأسبانية والايطالية والألمانية ما يكفيه ، وتوسع بعض التوسع فى اللغـة الفرنسية ، وجرى فى تعلم اليونانية واللاتينية على مذهبه فى التعليم المدرسى متوسطا بين الاهمال والالزام ، فهو لا يهملهما ولا يرى أن تفرضا على الطالب فرضا اذ لم يكن يشعر بالحاجة اليهما فى مطالبه الثقافية ، وأحق منها بالفرض فى البرامج لغات الأحياء أو اللغات الحية الشائعة بين أمم الحضارة ، وبين أبناء وطنه على التخصيص .

ومما يدخل فى هذه الخطة العملية المثالية أنه يجتنب تبديد الجهود ويأبى الاسراف بطبعه فيما يبتغيه من الكماليات أو الضروريات ، وهو لا يجور بذلك على حق الكماليات لأنه كذلك لا يسرف ولا يبدد الجهد فى طلب الضروريات .

ولا يخفى على الذين اختبروا تعلم اللغات أن الصعوبة فيها درجات : أولاها درجة الفهم من الكلام المكتوب ، وتليهـا درجة الفهم من الكلام

المسموع لأنه يرتبط بلهجات النطق الذى لا يسهل التقاطه على السمع ساعة النطق به كما يسهل التقاط الحرف المكتوب ثم التأمل فى الكلمات على الاجمال ، وتلى هذه الدرجة فى الصعوبة درجة السماع والاجابة عليه بالكلام المفيد ، ولا سيما الكلام المصطلح عليه فيما جرت به تقاليد أبناء اللغة من المثقفين وغير المثقفين .

وفرنكلين لم يبدد جهده فى لغة من اللغات التى تعلمها لغير ضرورة ، وقد عاش فى فرنسا زمنا واتصل فيها بصفوة العلماء والمتعلمين ، وعالج الكتابة وأحسنها الى حد الرضا من طبقة المتكلمين بالفرنسية النقية فى زمانه ، ولكنه ظل الى آخر أيامه بين الفرنسيين يفهم الكلام فى المجلس ولا يفهم الكلام فى الخطابة العامة ولا سيما الخطابة السريعة التى لا تجرى مجرى الحوار على حسب المفهوم من السؤال والجواب ، والتى يترتب على فوات معنى من معانيها فوات المعانى التالية لها الى آخر الخطاب .

ومن طرائفه فى هذه المآزق — وهى طريفة تدل على لطف الحيلة كما تدل على حب المجاملة — انه حضر اجتماعا عاما تعاقب فيه الخطباء وتعذر عليه أن يتابع فهم الخطب وعز عليه أن يهمل واجب التحية وينفرد بهذا الاهمال بين المستمعين ، فاحتال على الخروج من هذا المأزق بمراقبة احدى السيدات الحاضرات ممن يثق بذوقهن وفهمهن وبعدهن من الغرض فى مهب الأهواء السياسية ، وجعل يتابعها بالتصفيق كلما صفقت وبالسكوت كلما سكتت ، وهو يحسب أنه قد أحسن الحيلة وتخلص من المأزق وأدى واجب المجاملة للمتكلمين والمستمعين ، ثم علم بعد ذلك أنه كان يجامل نفسه على غير قصد منه ، وقال له حفيده انه كان يصفق للثناء عليه والتنويه بمآثره .. ! وانه كان يكثر من التصفيق كلما أكثر الخطباء من الثناء والتنويه ، وكان لا يكتفى بتصفيق السيدة ومن يصفقون معها بل يحب دائما أن يزيد عليه فضلة من عنده .. ولعله لم يخسر بهذا

الموقف الطريف الذى ساقه اليه جهله باللغة وحبه للمجاملة ، فان أذكياء الباريسيين والباريسيات لا تفوتهم حيلته التي كشفها لهم على الرغم منه ، ولا تضيره عندهم ولا تحرمه لديهم من ابتسامة العطف والتسلية ! .. وقد روى الكثيرون ممن سمعوه يتكلم الفرنسية مع صفوة المجتمع الباريسى من العلماء والنبلاء أن الخطأ فى كلامه كان أحب اليهم من الصواب ، لأنهم ينفكهون به ويكشفون ما ينطوى فيه من حسن الاحتيال على التعبير .

ولم يكتب فرنكلين لغير الصحافة الا القليل ، وأطول مؤلفاته ترجمته التي كتبها لنفسه ولم يتمها الى نهايتها ولم تظهر فى حياته ، وله رسالة فى الأخلاق كتبها فى انجلترا وسماها « مبحث فى الحرية والضرورة والسرور والألم » غلبت فيها عليه فلسفة العصر كله وذهب فيها مذهب القائلين بأن الفضيلة والرذيلة لا وجود لهما فى الطبيعة التى تسيرها قوانين الضرورة وتدار وفاقا لتلك القوانين كما تدار الآلات . ثم عدل عن هذا الرأى أو عدله تعديلا يبقى للفكرة قالبها ويغير جوهرها ، فكان مذهبه الذى صمد عليه بقية حياته ان الفضيلة أهل لأن يفضلها المختار لو أنه أحسن الاختيار وأن الخبثاء الدهاة لو عرفوا قيمتها لأصبحوا باختيارهم فضلاء بوحى من الخبث والدهاء .. وتعود بنا هـذه المصالحة بين الضرورة والاختيار الى تلك النزعة الواقعية التى تلاقى النزعة المثالية فى منتصف الطريق ، فتتقاربان ، أو هما على الأقل لا تتنافران .

وفيما عدا الترجمة والرسالة الأخلاقية لم يفرغ لتأليف الكتب مع اشتغاله بالصحافة والتجارب العلمية ووظائف الحكومة التى وكلت اليه بعد اشتهار اسمه وذيوع مخترعاته وعلومه . وقد كان عمله فى الصحافة أعمالا متشعبة كما تقدم ، فانها كانت تشمل التحرير والطباعة والنشر وانشاء الصحف وتوزيعها وبيع الكتب التى يطبعها أو يستوردها من

البلاد الانجليزية ، وكانت الطباعة التى يتولاها تشمل سبك الحروف . وادارة المكنات وحفر النقوش وكل صناعة طباعية يحتاج اليها الصحفى والناشر فى عمله . وقد عقد النية منذ فارق أخاه على أن يشتغل بانشاء صحيفة يملكها ويتصرف فى ادارتها وتحريرها ، فبدأ بعد عودته من لندن الى فلادلفيا بشراء مطبعة نجحت فى اتقان مطبوعاتها وتوفير عملائها ، ثم اشترى فى سنة (١٧٢٩) صحيفة بنسلفانيا جازيت وأصــدر تقويم ريتشارد المسكين بعد ذلك بثلاث سنوات ، وضم الى الصحيفة مجلة سماها المجلة العامة The General Magazine and Historical Chronicle صدرت فى سنة (١٧٤١) وكانت ثانية المجلات التى صدرت فى الولايات الأمريكية ، وحاول فى أثناء ذلك اصدار صحيفة ألمانية يكتبها أستاذ من أساتذة اللغات فصدرت منها أعــداد قليلة ولكنها لم تعمر طويلا لقلة القراء باللغة الألمانية ، ومكنته سمعته الحسنة فى الصحافة والطباعة من المشاركة فى بعض صحف الجنوب ثم أرادت الجماعة النيابية بكارولينا الجنوبية أن تشجع الطباعين على انشاء مطبعة فيها فتبرعت بألف جنيه لمن يقيم مطبعة كاملة فى الولاية ، فاتفق فرنكلين مع أحد زملائه على اقامة المطبعة مشتركين فى ادارتها وأرباحها ، وحيل بينه وبين الحصول على المعونة الموعودة فلم يكف عن السعى حتى حصل عليها بعد وفاة الطباع المزاحم له (سنة ١٧٣٢) وأصبح هو وشريكه مستقلين باصدار صحيفة الولاية باسم « سوث كارولينا جازيت » أى صحيفة كارولينا الجنوبية .

وكان فرنكلين كفؤا لكل صعوبة تعترضه فى أعماله الصحفية ولا سيما أعمال النشر والتوزيع ، ومن أخطر هذه الصعوبات التى تغلب عليها أنه منى بمزاحمة أندرو برادفورد مدير البريد يوم كان البريد « التزاما » يتولاه المدير لحسابه ولا يدخل فى عداد المصالح الحكومية ، فمنع برادفورد سعاته من توزيع صحيفة فرنكلين وأوشــك أن يشل حركتها

لولا ذلك الخلق المطبوع الذى أسعد فرنكلين بالأنصار والأعوان فى جميع المآزق المحرجة ، وهو خلق الكياسة وطيب المعاشرة وحسن التفاهم مع الناس من كل طبقة ، فلم يلبث أن تفاهم مع السعاة واسترضاهم بالهدايا تارة والاقناع تارة أخرى فأقبلوا على توزيع صحيفته على غير علم من مديرهم ، ونجح حيث أخفق مدير البريد .

وأعانه هذا الخلق على اجتذاب العملاء فأقبلت دواوين الحكومة على طبع أوراقها عنده ، واختاره تجار الكتب لطبع الكتب التى يوزعونها ، وكان هو يطبع من التصانيف السلفية ما يقدر له الرواج فى كل زمن ، كالمجاميع القانونية ، ومجاميع الصلوات ، ودساتير الماسونيين ، ومفكرات التطبيب والاسعاف ، ودواوين القصائد التى تصلح للمناسبات ، ونصائح الارشاد فى مشكلات الأسر وأصحاب المعاملات ومراجع الصناعة التى تجمع بين العلم والفائدة ، غير ما كان يستورده من المطبوعات الأدبية التى يقبل عليها قراء الشعر والنثر من خاصة القراء . ولم يكن يستورد منها غير العدد الذى ينفــد لساعته ، ويضمن له ثقة الخاصــة من قراء الاقليم وتعويلهم على مطبوعاته ووارداته .

ومن المحرجات فى صناعة الطبع والنشر ما يحسه فرنكلين بصــفة خاصة لأنه على ايمانه بحرية الرأى يكره العداوات ولا يميل الى اغضاب المخالفين ما استطاع أن يرضيهم بالكلمة الحسنة والصراحة المقبولة ، وليس من اليسير على طابع أو ناشر أن يقصر مطبوعاته ومنشوراته على ما يرضى الناس جميعا ولا يسوء أحدا منهم ، وأعسر ما كان ذلك فى عصر المجادلات السياسية والدينية بين أناس من مختلف الأقدار والعقائد والميول ، فاجتهد فرنكلين فى اجتناب ما يمكن اجتنابه مما يسوء القارىء لغير ضرورة ، ولم يبال بعد ذلك أن ينشر ويكتب ما يخالف أناســا ويوافق آخرين ، وكتب دفاعه عن صناعة الطباعين توضيحا لمسلكه بين

الآراء المتضاربة ، فكاد يرضى الجميع به لو كان الى ارضــاء الجميع من سبيل .

الا انه — مع حرصــه على المجــاملة حرص الافراط فى بعض الأحيان — لم يجامل أحدا فيما يشذ عن آداب المناظرة أو يقحم المثالب الشخصية بين مباحث النقد ومناقشات الآراء ، وكان يقول كما ذكر فى ترجمته : « اننى أتحاشى فى تحرير الصحيفة كل اساءة شخصية من تلك الاساءات التى وصمت بلادنا فى السنوات الأخيرة . وكلما ألح الملحون علىّ لنشر كلام من هــذا القبيل واحتجوا كعادتهم بحرية الصحافة وشبهوا الصحيفة لتسويغ طلبهم بالمركبة الحافلة التى ينبغى أن تتســع لكل راكب وكل مشترك — كان جوابى لهم أننى على استعداد لطبع كلامهم على حدة ولهم أن يطبعوا منها النسخ التى يريدونها ويبــاشرون توزيعها ، ولكننى أنا غير مسئول أن أشترك معهم فى عمل لا أرضاه .

ولا نخاله كان بحاجة خاصة الى مطبعة خصوصية لطبع رسائله فى باريس ، فربما كان حكم العادة وحب الصناعة التى شب عليها سلواه فى أيام الشيخوخة وباعثه الأول الى اقتناء المطبعة الخصوصية قبل كل باعث من بواعث الأعمال السياسية أو الأدبية ، ولكن مطبعة « باسى » على هذا قد أخرجت له نخبة من الرسائل والنشرات لم تخرج مطابعه الأولى نظيرا لها أيام الشباب ، ولو سقطت هذه المطبوعات من مجموعته الكاملة لاختفى باختفائها أجمل ما كتب من الفكاهة والنقد بعد تهذيب السن وحنكة الشيخوخة والاطلاع .

« وفقا للخطة المقررة .. » .

هذه عبارة شاعت أيام الحرب الأخــيرة ، فى بلاغات القيــادات العسكرية ، وتعود القراء بعد تكرارها أن يفهموا منها أنها تكتب فى البلاغات التى تنذر بالارتداد من غير اعتراف بالهزيمة ! فاذا ســمعوا

خبرا يبتدىء بالتراجع والارتداد بادروا الى تمامه متهكمين : نعم . وفقا للخطة المقررة .

ترى هل كان أصحاب هذه البلاغات من قراء فرنكلين ؟

لا نظنهم قرأوه . ولكنه قد سبقهم الى هذه العبارة وأمثالها ، وعود قراءه قبلهم أن يتوقعوا كل حركة كبيرة من حركات سيرته الحافلة . وفقا للخطة المقررة ! . وعودهم أن يبتسموا لهذه الخطة التى ترسم كل حركة من حركاته سلفا حتى حركات الأفكار والأخلاق ! ولكنهم يبتسمون هنا لتلك العادة المزمنة التى لا تتغير ولا تذكر الا مقرونة بأخبار النجاح ، فليس فى ابتساماتهم المتوالية شىء من التهكم أو السخرية على اخفاء الفشل بالدعوى ، بل هى ابتسامات العطف التى ترتفع الى الشفاه كلما نظر الناظر فرأى أمامه وجها قديما يطالعه من جديد ، ويرجع اليه فى كل مرة على ديدنه وهجّيراه .

قال فرنكلين يصف مقدمات سيرته الطويلة : « ان الذين يكتبون عن فن الشعر يعلموننا أننا لا ننظم شيئا جديرا بأن يقرأ الا اذا رسمنا له من البداءة خطة مفصلة عن مقاصده والا تورطنا فى السخف والاطالة ، وأراني أعتقد أن هذه الخطة تصدق على الحياة برمتها ، خلافا لمنزعى الأول اذ كنت لا أتبع فى حياتى خطة موحدة ولا أرى الحياة على هذه الحالة الا شتيتا من المناظر لا تربط بينها رابطة . واننى الآن لمقدم على حياة جديدة . ولابد لى من عزائم أمضى عليها ومسالك فى الأعمال أتوخاها ، كى أعيش من جميع الوجوه عيشة مخلوق عاقل . فليكن لزاما علىّ اذن أن أتحرى القصد زمنا لأبرىء ذمتى من كل زيف ، وأن أروض نفسى على قول الصدق فى كل موقف فلا أدع انسانا يتوقع من كلامى أملا لا يتحقق ، ولا أحيد عن سنة الاخلاص فى كل كلمة أفوه بها أو عمل أعمله ، وهى أحب السنن فى مناقب العقلاء ، وأن أفرغ نفسى

بجهد وعناية لكل شاغل أقدم عليه فلا أنصرف بذهنى عنه سعيا وراء الأمل الخادع فى الثروة العاجلة . لأن الاجتهاد والمثابرة أضمن وسائل الثراء ، وعلىّ ألا أنبس بكلمة مسيئة عن انسان من الناس ولو فى سياق الافضاء بالحقيقة ، بل أحاول أن ألتمس المعاذير لما أسمعه من أخطاء الناس ، وأن أذكرهم بالثناء فى كل مقام » (١) .

وعلى هذا البرنامج سار فرنكلين فى حياته الكتابية وحياته الصحفية ، فلم يقصر عن غاية كان فى وسعه أن يبلغها ، وتقدم الى الطليعة بين كتاب عصره فى وطنه وغير وطنه ، ونظم من حياته قصيدة لا اختلال فى أوزانها على النحو الذى رواه عن فن الشعر فى رأى معلميه . ولا ريب أن هذه القصيدة الحية ، بل هذه الملحمة الوافية ، أبدع قصائده من منظوماته وأناشيده ، فلم ينظم من الشعر ما أبقاه أو تركه للبقاء ، ولم يطاوع هواه مع عروس الشعر الا ليستعين بها على حفظ كلمات المنثور أو توقيع الأناشيد فى مجلس من مجالس الجبور . فلم تبق له غير قصيدة واحدة ذات قواف متعددة ، هى الحياة على هذا الوزن الرتيب ، ومن قوافيها المتعددة قافية الكاتب الأديب .

---

(١) الفصل الرابع من ترجمة فان دورن .

السياسى

يعمل فى السياسة اليوم أناس كثيرون كلهم له وظيفة سياسية ، وكلهم له عمل غير أعمال الآخرين ، وقد يقضى الواحد منهم حياة معمرة ولا يشتغل فى السياسة بوظيفة غير الوظيفة التى استمد لها بترتيبه وتعليمه .

فالوزير ، أو الزعيم ، الذى يقود الرأى العام سياسى ، والسفير الذى ينوب عن دولته عند الدول الأخرى سياسى ، والحاكم الذى يدير الديوان أو يحكم الاقليم يعد من ساسة البلد ، والعالم الباحث الذى يدرس النظريات الاجتماعية ومبادىء الحكم عالم سياسى أو خبير مختص بعلم السياسة .

وهذه كلها أعمال محدودة فى العصر الحاضر ، لا يختلط واحد منها بغيره وان كانت كلها تنتظم تحت عنوان السياسة .

ولكنها لم تكن محدودة فى عصر فرنكلين ، ولم تكن محدودة فى وطنه بصفة خاصة ابان حركة الاستقلال ، لأن الشعب الأمريكى فى ذلك العصر كان يتطلع الى زعمائه البارزين فى كل مشكلة ويتطلب منهم العمل والهداية فى كل موقف ، وكان يواجه المسائل والخطوب جملة واحدة بكل ما عنده من قوة وقدرة ، فهو يندب الرجل الذى يراه أمامه للمشكلة التى يراها أمامه ، وينتظر من الفقيه أن ينفعه فى تدبير شئون القتال ، ومن المقاتل أن ينفعه فى تدبير شئون الحكم ، ومن التاجر أن يعمل عمل السياسى ، ومن السياسى أن يعمل عمل التاجر ، ولا يملك الوقت ولا التنويع أو التقسيم الذى يتيح له أن ينتظر لكل عمل صاحبه ولكل

رجل رسالته ، فكل مشكلة لساعتها وللرجل الذى يلفت الأبصار ويقرع الأسماع فى تلك الساعة ، وهذه هى المحنة التى امتحنت كل معدن من معادن الرجال البارزين فأخرجت فى معصرة الشدة خير ما فيه .

وأخرجت مع هذا فئة صالحة من الزعماء لا تفوقهم فئة من قبيلها فى عهد من عهودها التالية ، بعد النهضة والتقدم والاتساع والارتفاع .

وكان فرنكلين واحداً من هؤلاء الزعماء المدخرين للشدائد فى أوقاتها ، وللسياسة بجميع مقاصدها : سياسة الزعيم وسياسة السفير وسياسة الحاكم وسياسة الباحث فى كل سياسة .

ونجح حيث طلبوا منه النجاح ، ولم يخيب الظنون فى رجاء يناط به أو ناطته به حوادث الأيام .

فى عصرنا هذا قد نترجم السياسى ونلتمس أسباب نجاحه فى أوائل نشأته ومبادىء تربيته وتعليمه .

وفى عصر فرنكلين نفسه ربما جاز التماس الأسباب — أسباب النجاح — فى النشأة والتربية والتعليم . .

ولكننا لا نستغنى فى عمل من أعمال فرنكلين — خاصة — عن الرجوع به الى الفطرة الموروثة قبل غيرها ، فلم تكن فى عصره علوم مقررة وبرامج محفوظة لتخريج الساسة الناجحين فى كل ضرب من ضروب السياسة ، ولو كانت هناك تلك العلوم والبرامج لما فسرت لنا شيئاً من نجاحه فى سياسته ، لأنه — كما قيل — لم يوجد أحد قط كانت فائدته من المدرسة أقل من فائدة فرنكلين .

ولابد أن تنظر فى تكوينه الفطرى ، وفيما هو من قبيل هذا التكوين ، لتفسير كل قدرة له لم يستفدها من المرانة والتعليم .

ولا يستطيع مترجم له أن ينسى فى هذا الصدد قوة البنية التى ورثها من أبويه ، فان قوة البنية أصدق أعوان السياسى فى كل عمل من أعماله

يتطلب الهدوء واعتدال المزاج ، وكل عمل من أعمال السياسى يتطلب النفس الهادئة والمزاج المعتدل .

وحب النظام خصلة يتعلمها الانسان فى المدرسة وفى تجارب الحياة ، كما يتلقاها استعدادا بالوراثة مع البنية الطبيعية ، ومهما يكن من فضل التعليم والتجربة فى هـذه الخصلة فلا شك فى اختلاف الاستعداد لها بالطبيعة الموروثة ، فقد يغنى قليل من التعليم والتجربة مع الاستعداد الطبيعى حيث يضيع التعليم الكثير والتجربة الطويلة عبثا مع فقـدان ذلك الاستعداد .

ولقد كانت قوة البنية عـونا لفرنكلين على التنظيم وكابحا لدوافع الخلل والاندفاع والتقلقل بين رأى ورأى وبين نظام ونظـام ، وقال عارفوه — بعد الأربعين على الخصوص — انهم لم يروه قط فى ربكة أو عجلة . وهذه أيضا عدة من عدد النجاح فى السياسة لا يسـتغنى عنها ، ولا يقدر عليها أحد كما يقدر عليها الرجل المكين البنية المستقر على نظام لأعمـاله وأوقاته يمنع الخلط بينها والارتباك فى البدء بها والانتهاء منها ، ويمنع الربكة والعجلة تبعا لذلك ، فلا يفقد طمأنينته ولا يفقد العاملون معه طمأنينتهم اليه .

ويلحق بالاستعداد الفطرى أنه كان عاشر أبنـاء أبيه ، فلم ينشأ نشأة الطفل المدلل ولا نشأة الطفـل الوحيد الذى يقضى أيام الطفولة بعيدا من أمثاله غريبا عن شعور الزمالة والعشرة الطبيعية . وفتح عينيه على الدنيا وهو يصاحب أطفالا أكبر منه وأصغر منه بين اخوة وأخوات من الجنسين . فلم يصعب عليه بعد ذلك أن يسلك مع الناس ، وعرف الكبار والصغار فى أخص حالاتهم وأعمها معرفة البداهة السهلة والفهم الصحيح . وكان له من كل أخ وكل أخت نموذج مختلف ينوع أمامه طبائع النفوس فلا تخفى عليه حقائق النفس البشرية على تعدد الأمزجة والطباع .

ولسنا نرى أن المقدرة السياسية كان لها الفضل كله فى نجاحه حيث نجح فى « وظائفه » السياسية التى لم تنحصر فى مجال واحد من مجالات السياسة ، فمن قيادة الرأى العام الى المفاوضة الى الادارة والتنظيم الى مباحث الحكم وفلسفة الاجتماع — كل أولئك كان له فيه أعوان من ظروف الزمن وظروف النهضة الفكرية وظروف المجتمع الأمريكى نفسه فى ابان تكوينه قبل الخلاف مع الدولة البريطانية وبعد الاستقلال عنها الى يوم وفاته .

فالنزاع بين بريطانيا العظمى وفرنسا كان له شأنه فى ضم فرنسا الى جانب الثورة الأمريكية وتحريضها على الانتقام من بريطانيا العظمى لسعيها الحثيث فى طردها — أى طرد فرنسا — من أمريكا الشمالية نفسها ، وقد كانت رغبة فرنسا فى طرد الدولة البريطانية من تلك البقاع لا تقل عن رغبة الأمريكيين الساخطين على حكومة لندن وحكومة المستعمرات .

وهذه معاونة من الظروف لا تهمل فى تقدير مساعيه وتقدير أسباب نجاحه ، ولكنها اذا وضعت فى الميزان وجب أن توضع أمامها عوامل أخرى فى السياسة الأوربية كانت تميل بفرنسا الى الحذر والأناة فى تشجيع الثوار الأمريكيين ، بل كان من هذه العوامل التى تدعو الى الحذر والأناة أمور ترجع الى فرنسا داخل حدودها ولا تمتد الى ما وراء الحدود فى القارة الأوربية أو القارة الأمريكية ، وتلك هى مخاوف القصر والنبلاء من بوادر الثورة الفرنسية التى كانت تهددهم بالنذير بعد النذير حتى قضت على لويس السادس عشر — ملك فرنسا — الذى استقبل فى بلاطه فرنكلين .

ومن الظروف التى أعانت على النجاح مالا يحسب لفرنكلين فى ميزان القدرة السياسية ولكنه يحسب له راجحا مرجحا فى غير ذلك الميزان ، وشهرته العلمية ظرف من أكبر هذه الظروف ، وسجاياه

المحبوبة ظرف آخر لا يقل فى تمهيد الطرق أمامه وفتح الأبواب له عن الشهرة العلمية .

وهنا أيضا ينبغى أن نعادل بين الكفتين ونضع شيئا فى كل كفة منهما ولا تقصر المرجحات على كفة واحدة .

هنا أيضا ينبغى أن نعلم أن الظروف المؤاتية تصادف الساسة فى كثير من المهـام الكبرى والصغرى ولا يحسنون الاستفادة منها بل لعلهم يعكسونها ويضيعون فرصتها بالغلطات التى يستغلها الخصوم ويحسبونها فى جانبهم من الظروف المؤاتية !

وقد كان خليفة فرنكلين فى تمثيل بلاده عنـد الدولة الفرنسية رجلا من مشاهير الأمريكيين بلغ الى رياسة الجمهورية وعـده المؤرخـون الأمريكيون والأوربيون من آحاد الرؤساء النابهين ، وكانت له فلسفة سياسية ومبادىء ديمقراطية تدرس الآن بين أصول الحكم الدستورى والحرية الفكرية ، وحل هذا الخلف العظيم محل سلفه العظيم فأحس بالعبء الفادح من اللحظة الأولى ، وكتب الى قومه يقول : انه يحل محله ولكنه لا يغنى غناءه . ولم يكن جفرسـون ممن يتلطفون أو يمدحون على حساب الحقيقة والعدل باسم التواضع المكذوب .

والظروف المعاونة فى استنباط قواعد الفلسفة السياسية تشبه هذه الظروف وأمثالها فى مسائل المفاوضة الدبلوماسية . فقد كان أذكيـاء العصر يرقبون هذه الفلسفة وهى تولد وتترعرع وتنمو مع الحـوادث والمطالب الشعبية من جانب الطلاب وجانب المعارضين والمنكرين ، وكان له رأى عن التمثيل النيابى وحقوق الدولة فى تحصيل الضريبة وحقوق المحكومين فى المحاسبة عليها وحقوق الطبقات فى المساواة أو الامتيازات الموروثة — قضية قائمة مسموعة الحجج من طرفيها منجمة على حسب الحوادث بل على حسب الأفراد والأقاليم فى كثير من الأحوال ، وكان

صاحب الرأى الفلسفى يعمل « فلسفته » عملا وينفذها تنفيذا ولم يكن قصاراه منها أن يقرأها على الصفحات ويناقشها بالبراهين ، وكان جو الدولة البريطانية من أقصاها الى أقصاها يتماوج ببقايا الثورة الدستورية ويردد الأصداء القريبة التى يسمعها الحاكمون كما يسمعها المحكومون ، وكانت فرنسا تتنسم الأنفاس من هذا الجو وتنفثها فى صرخات فولتير وزملائه المتمردين المتحفزين ، ولم تسمع نظرية واحـدة من نظريات الفلسفة السياسية التى شاعت فى ذلك العصر الا وهى لاحقة بحـادثة تؤيدها أو سابقة لحادثة يوشك أن تتجسم للحس والعيان ، وهذه هى النظريات التى تستجيب لها طبيعة فرنكلين ويتقبلها ذهنه ويقيم عليهـا أفكاره وأعماله فى وقت واحد ، فليست الأفكار فيها الا أعمالا مفسرة ، وليست الأعمال فيها الا أفكارا مطبقة ، أو فى انتظار التطبيق .

ويوضع كل هذا فى كفتى الميزان حيثما وزنت قدرة فرنكلين ومعونة الظروف فى مساعيه السياسية وفى قيادة الرأى العـام الى الفلسفة الاجتماعية ، ويوضع فى الميزان قبلها وبعدها تقدير واحد ينبغى ألا ينساه من يزن عملا من الأعمـال أو سيرة من السير ، وربما كان هذا التقدير سؤالا يلقيه المؤرخ على نفسه ويجيبه ثم يفترض جوابه المعقول فى حساب المسئولين الآخرين : فاذا كان صاحب السيرة لم يعمل عمله بفضل قدرته وحدها دون غيرها ، فهل عملته الظروف وحدها بفضل قدرتها دون غيرها ؟ وهل كل عامل ينجح مثل هذا النجاح اذا وجد فى هذه الظروف ؟

ان كانت الظروف لا تغنى عن العامل فذلك هو الفضل الذى يوضع له فى ميزانه ، واذا كانت الظروف المؤاتية لا تنقطع عن الدنيا ولا تتجرد منها حادثة من الحوادث العظمى فهى لا تعلو ولا تهبط بكفة ميزان .

كانت قيادة الرأى العام من « وظائف » السياسة العامة التى نهض بها فرنكلين أو أنهض لها — على الأصح — لأنه لم يطلبها بأدواتها ولم

تكن لديه أدواتها فى البلاد التى تنال فيها قيادة الشعب بالتأثير فى الجماهير . فلم يكن خطيبا يملك عواطف السامعين ويثيرها ويلعب بها على هواه ، ولم يكن من عاداته أن يسرف فى الوعود وأن يقول مالا يعمل ولا ينوى أن يعمله ساعة الوعد به فى ساعة من ساعات الحماسة وهياج الخواطر والأفكار ، ولم تكن الحماسة من طبـاعه فى علاقة من علاقاته بالناس خاصة أو عامة ومهتاجين أو هادئين ، وكان فصيحا مبينا فى الاعراب عن رأيه والاقناع بحجته وشرح أفكاره التى استقر عليها والتى لا تزال بين التردد والاستقرار ، ولكن هذه الفصاحة المبينة ليست بالعدة الماضية فى قيادة الجماهير من منصة الخطابة ، وليست على الأخص بالعدة الماضية فى عصر النزاع واضطراب الأهواء وجماح المطالب الى غير وجهة ثابتة يتفاهم عليها القادة والمفكرون فضلا عن الأتباع المنقادين بغير تفكير .

فلما نهض فرنكلين بقيادة الرأى العام أنهض لها على الأصح من غير سعى لها وغير تدبير مقصود للوصول اليها اللهم الا أن نحسب نتيجة عمله غاية مقصودة يناط بها التدبير .

فقد كانت ثقة الناس به من نتائج شهرته بالتقـويم السنوى الذى سماه تقويم ريتشارد المسكين وكاد يحمل اسمه والاعجاب به الى كل بيت فى الولايات ، وكانت هـذه الثقة فى موطنه وبين عارفيه من نتائج الاطمئنان الى حسن ادارته وأمانة يده وضميره ورباطة جأشه وقدرته على مواجهة الشدائد والأزمات بما يلائمها من الرأى الحاضر والفكر الهادىء والتصرف المريح الذى يرتضيه أطراف الخصـومة بعد سكون الزوبعة وانقضاء النزاع والخلاف .

ولم يحاول قط ، ولا كان فى قدرته ، أن يثير الجماهير بفصـاحة الشارع وارتجال الدعوى الكاذبة التى لا تسأل عما تقول ولا يذكرها أحد بما قالت ولا يذكر أحد ما سمع منها بعد حينه ، ولكنه كان يقدر على

ما هو أصعب وأخطر فى مخاطبة الجماهير : كان يقدر على تهدئة الجماهير الثائرة . وهى قدرة لا طاقة بها لأقدر الخطباء على اثارة الجماهير الهادئة ، وكانت عدته النافعة فى هذه المواقف رباطة جأشه وطيبته المرتسمة على سيماه ونظرته الأبوية التى تعدى الناظرين بما يقابلها فلا يملكون الا أن ينقادوا له طائعين كما ينقاد الأبناء للآباء .

ومن هذه المواقف الثائرة أن بعض الأغرار على الحدود سمعوا بمعركة بين السكان البيض والهنود الحمر فهجموا على قبيلة من القبائل الهندية للاقتصاص منها وفر أبناء هذه القبيلة وبناتها الى فلادلفيا يحتمون بها من مطاردة الناقمين المتعطشين الى الثأر والانتقام ، فثار بهم غوغاء فلادلفيا وتعقبوهم فى الطرقات ليفتكوا بهم وينتقموا منهم على السماع بغير تمييز بين المعتدين والمسالمين ، وطلب الحاكم من فرنكلين أن يقمع الفتنة بفرقة من الجند الرديف ، فلم يعمل فرنكلين بالأمر وآثر التجربة بالحسنى قبل الوثوب الى السلاح ، وذهب الى الثائرين منفردا أعزل لا يحمل فى يده شيئا حتى عصاه ، وكانت رؤيته كافية لتوقف الجمهور الهائج فى ثورة غضبه للاصغاء الى الأب فرنكلين ، وكتب هو عن هذا الحادث الى صديق له فى لندن يقول : « فى خلال أربع وعشرين ساعة كان صديقك القديم جنديا ومستشارا ودكتاتورا على نوع ما وسفيرا الى الغوغاء . ثم عاد الى منزله نكرة كما كان . »

وبهذا الوقار على أسلوب آخر كان يؤدى أمانة القيادة بين كبار القادة من فطاحل الزعماء ، فلما عهد اليه مع فئة من هؤلاء الزعماء أن يكتب اعلان الاستقلال لم يرض عن كلمة جفرسون التى قال فيها عن حقوق الأمريكيين « انها مقدسة لا تنكر » واقترح بديلا منها « انها ثابتة بذاتها » لأن القول بأنها لا تنكر لا يطابق الدقة العلمية مع وجود من ينكرونها ويقاتلون فى سبيل انكارها ، ولأن القداسة فى الحقوق العامة

قد ابتذلت بدعوى الملوك الذين يزعمون أنهم يتلقون السلطان من السماء ودعوى رجال الدين الذين يزعمون أن القداسة مستمدة منهم وقد يتسللون من وراء هذه الكلمة الى المطالبة بالرقابة على حقوق الشعب « المقدسة » ! ـ فكانت قيادته للأمة لا تستغنى عن وقار تفكيره بين الدهماء ولا بين الزعماء .

والسياسى المفاوض يلى السياسى الزعيم فى القدرة والخبرة بأساليب المفاوضة فى كل ظرف من ظروفها ، وهى تلك الظروف التى تتناقض بين يوم ويوم وبين خصم وخصم وبين قضية وقضية .

فتولى المفاوضة فى بلده بين البيض والهنود الحمر وبين أبناء الولايات وأبناء كندا الفرنسية وتولى المفاوضة فى انجلترا نائبا عن بعض الولايات الأمريكية .

وتولى المفاوضة فى فرنسا ليستعين بها على مقاومة بريطانيا العظمى ويعقد معها معاهدة تعترف فيها باستقلال الولايات وتسجل لهذه الولايات كيانها « الرسمى » فى عالم السياسة الدولية .

وكانت عدة « السياسى المفاوض » لديه أكمل من عدة السياسى الزعيم أو السياسى الذى يقود الجماهير بالأقوال والوعود .

كانت المسالمة طبيعة فيه ، وكان من مبادئه « العلمية » صيانة الجهود عن التبديد ، فلا يقدم على نضال يستطاع اجتنابه بوسيلة من وسائل التراضى أو حيلة من حيل المجاملة والتفاهم على أواسط الأمور ، وعنده انه « لا حرب حسنة ولا سلم سيئة » ـ بل السلم خير من الحرب ما دامت المسالمة تغنى عن القتال .

وفاوض الهنود الحمر فنجح لأنهم يحسون منه دخيلة شعوره فى مسألة الفوارق بين الأجناس ، وقد كان يقول ان الفتك بأبناء قبيلة هندية انتقاما من أبناء قبيلة أخرى جور قبيح كانتقامنا من الهولنديين

مثلا لعدوان يصيبنا من الفرنسيين واعتذارنا من ذلك بأنهم « كلهم بيض الوجوه .. » .

ولم يسمع الهنود منه هذا الرأي ولكنهم كانوا يحسونه من شعوره ومعاملته وايثاره للتراضي والمصافاة .

ولما ذهب للمفاوضة في انجلترا كان في رأسه كل حل وكل محاولة قبل القطيعة واعلان العداء .

كان في ذهنه أن تتعاون أجزاء الامبراطورية على نمط «الكومنولث» الذي اهتدى اليه الساسة البريطان بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان في ذهنه أن تختار للامبراطورية عاصمة في الولايات تتبعها الجزر البريطانية كما تتبعها الولايات الأمريكية وغير الأمريكية ، وكان في ذهنه أن تنفض الخصومة بتقرير حقوق الهيئات النيابية في كل بلد وتقرير حقوق التاج على المساواة بين الجميع ، فلا يكون لبرلمان انجلترا حق في فرض الضرائب مع وجود البرلمانات المحلية ، ولا يشترك التابعون للتاج في هذه المساواة .

وهذا المفاوض الذي كان من طبعه أن يذهب مع المفاوضة الى الحد الأقصى لم يكن يذهب بها الى غير حد ولا نهاية ، فلما جاء العدوان في بلده من الهنود الحمر وظهر من العدوان انه استضعاف وسوء فهم لمعنى المسالمة والمداراة كان هو المقاتل المصر على القتال الى أن يتبدد هذا الفهم وتزول من نفوس المعتدين مظنة الاستضعاف . ولما فتح كل باب للمسالمة مع الساسة البريطان ويئس من كل حل وكل حيلة كان هو في طليعة الدعاة الى المقاومة بالسلاح وعلى رأس العاملين على توفير الأسلحة وتجنيد الفرق واتخاذ الحيطة في مواضع الهجوم والدفاع .

أما المفاوضة في فرنسا فقد كانت في نصف الطريق أكبر مجازفة ، وكانت في النصف الآخر أكبر نجاح .

برح الديار الأمريكية سرا فى السادس والعشرين من شهر أكتوبر (١٧٧٦) مع ثلاثة من الزعماء لمفاوضة الدولة الفرنسية فى عقد معاهدة مع الدولة الأمريكية المستقلة تمهد لغيرها من المعاهـدات مع الدول الأخـرى ، وتبدأ الاعتراف بالدولة المستقلة الجديدة فى المعاهدات الدولية ، وكان سفره على سفينة صغيرة لا تحتمـل زعازع المحيط الأطلسى فى تلك الآونة ، وأخطـر من زعازع المحيط الأطلسى رقابة الأسطول البريطانى على السفن التى تفارق الشواطىء الأمريكية ومن عسى أن يكون فيها من الثوار العاملين على خدمة الثورة ومناجزة الدولة الحاكمة ، ولا خفـاء فى الجزاء الذى ينتظر فرنكلين لو وقع فى قبضة الأسطول المنتشر فى عرض البحار ، فانه لا ينجو من الشنق بتهمة الخيانة العظمى قصاصا منه وعبرة لأمثاله ، وما كان هـذا الجزاء الرابض له ليخفى عليه قبل سفره ، فقد كان جون هانكوك Hancock يوقع اعلان الاستقلال ويقول والقلم فى يده : « علينا يا صحاب أن نتعلق جميعـا بعلاقة واحدة » وهى عبارة باللغة الانجليزية ترادف الكلمة العربية التى تعبر عن هذا المعنى « بالاعتصام » بحبل واحد ـ فقال فرنكلين : نعم . والا تعلقنا بحبال كثيرة متفرقين !

سافر من بلاده فى السبعين وهو يعلم هذا الخطر الذى يترصد له فى الطريق ، ولكنه لم يصل الى « نانت » ليهدأ بعض الشيء على أثر هذه الرحلة المقلقة فى السفينة المضطربة حتى أحس طوالع النجاح بعينيه ، وعلم أن الحفاوة التى سيلقاها من الأمة الفرنسية تفوق كل ما خطر على باله وبال أصحابه ، وانقضى اليوم السابق لدخوله باريس دخول الفاتحين فى التساؤل عن الموعد وعن الطريق والتسابق الى أقرب الأمكنة لرؤية السفير المنتظر ، فلم يبق رجل ولا امرأة من المشتغلين بالسياسة والمطلعين على أخبار الثورة الأمريكية الا خف الى طريق من الطرق التى قيل انه

سيعبرها الى مقره أو الى البلاط ، وأقبل « الدكتور » فى قبعته الفرو المعهودة والكساء الساذج يحيى المستقبلين على جانبى الطريق بابتسامته الطيبة ونظرته الوديعة فى غير اكثار من الايماء والحركة ، وغزا المجتمع الباريسى من اللحظة الأولى ولا سيما مجتمع العلية وذوى الثقافة من أقطاب الآداب والفنون، وكان العصرعصر التنافس بالأندية أو الصالونات فكانت السعيدة من عقيلات النبلاء من تظفر بزيارة من « الدكتور » ومن تضمن دعوة الضيوف الكبار لمحادثته عندها حين تشاء ، وساعدته الشهرة السابقة والقدرة السهلة على كسب الأنصار والأصدقاء من ذوى الجاه والمنزلة العالية بين قادة الآراء ، وعلم أن هذا النجاح الأدبى غنيمة لا يستهان بها كائنا ما كان موقف البلاد والدواوين الرسمية ، ولكنه كان يعلم من باطن هذا الموقف أنه يناصره ويتمنى له التوفيق وانه — مع التحفظ الشديد فى الظاهر — يملى له ويعينه فى الباطن ويستمهله فترة من الزمن ريثما تسنح الفرصة التى يرتقبها الساسة المسؤولون ، فيعلنون الاعتراف بالدولة الجديدة آمنين عاقبة العداء الصريح للدولة البريطانية ، فان هذه الدولة نفسها ستعترف لا محالة بالحكومة الثورية متى يئست من قهرها واكراهها على الخضوع .

ولم يأت هذا الأمل المرتقب بغير عناء وبغير شك وبغير تردد مخيف بين الأمل الضعيف فى النصر والخوف القوى من الهزيمة . الا أن السفير المتفائل لم ينقطع قط عن الرجاء وعن بث الرجاء فى قلوب المتشائمين ، ولم يتخذ له الجواب السريع فى حالة من حالات الشك والحيرة أو حالة من حالات الهزيمة الظاهرة التى تلجم الألسنة وتبلبل الأذهان . فلما قيل له يوما : ما الخبر يا دكتور ! ان هاو Howe قد أخذ فلادلفيا .. لم يلبث أن أجاب على الأثر : عفوا يا سيدى . ان فلادلفيا هى التى أخذت هاو ..

ثم وصل الخبر المرتقب بعد عام وانهزم الجنرال برجوين فى ساراتوجا

تلك الهزيمة المنكرة التى تقرر بعدها مكان الدولة الحديثة ، وكان وصول الخبر الى باريس فى الرابع من شهر ديسمبر ودعوة الوزير فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لسفير الثورة الناجحة بعد يوم واحد من وصول الخبر ، وطلب الوزير فى هذه المرة فتح باب الكلام فى المعاهدة فأرسل فرنكلين نصوصها اليه بعد يوم ، ولم يأت شهر فبراير حتى كانت المفاوضة كلها مفروغا منها وكانت المعاهدة معدة للتوقيع ، فسميت معاهدة التجارة والتحالف ، واشتملت على الاعتراف باستقلال الولايات وعلى التعهد بالاتفاق على مقاتلة بريطانيا العظمى والاستمرار فى القتال الى أن يتفاهم الفريقان على قبول الصلح ، ولا يعقد أحدهما صلحا مع بريطانيا على انفراد .

وأقام فرنكلين أيامه بفرنسا خلال الحرب محفوفا بالأصدقاء والمعجبين من صفوة السادة والسيدات ، وكان قصر « باسى » الذى أقام فيه قبلة القصاد من الأدباء والساسة المقيمين بالعاصمة الفرنسية والوافدين اليها من الأقاليم أو الأقطار الأوربية ، وأقل من هذه الحفاوة الشاملة يثير حسد الحساد ويوغر صدور النظراء والأنداد ، ولكنه نجح هنا نجاحه الذى لم يسعد به قط عظيم ناجح مشهور ، فكان نصيبه من حسد الحساد أقل نصيب ، وكانت سقطاته التى عدوها عليه أهون السقطات .

من هذه السقطات أنه لم يحترس كما ينبغى أن يحترس من الجواسيس والعيون ، وأفرط هنا فى سجية السماحة وكراهية التضييق وأخذ الأمور كلها على هينة وميل الى المغفرة والاعتذار ، وتفلسف بهذا التهاون كأنه يقصده ولا يقع فيه على غير علم وانتباه . فكتب الى صديقته جوليانا ريتشى يقول : أترانى لو تحققت من تجسس خادمى أستغنى عنه لهذا السبب اذا كنت راضيا عن خدماته الأخرى ؟ ولا جرم

تتسرب الجاسوسية اليه من هذه الثغرة وثبت بعد ذلك أن مساعده المقيم معه فى الدار — ادوارد بنكروفت — كان فى خدمة الحكومة البريطانية لنقل أخباره ومراسلاته ولو لم تكن على صلة بالسياسة والمفاوضات الحكومية ، ويشاء الحظ الحسن لهذا الرجل المجدود أن تكون معاذيره على الدوام راجحة على سيئاته فى أظهر السقطات . فكم له من معذرة ظاهرة فى هذه السقطة التى لا مراء فيها ؟ .. لقد كان من معاذيره أن الجاسوسية لم تضره ولم تضر دولته فى كثير ولا قليل ، وكان من معاذيره أنه يريد أن يعرف العالم أجمع أن قضيته بينة جلية كالشمس فى رائعة النهار فلا حاجة بها الى تقية أو مداراة ، وكان من معاذيره أنه عامل نفسه كما عامل دولته فى هذه السماحة التى جاوزت حدودها بغير مراء ، لأنه لم يكن يأمن على حياته ولم يكن ثمة خطر على مصالح دولته أعظم من الخطر الكبير الذى كان يتربص به حيث أقام وحيث سار أيام تلك السفارة ، ومن الحظ الحسن ولا ريب أن تحسب للانسان المعاذير كلما حسبت عليه أمثال تلك السقطات .

ويستوفى هذا السياسى الزعيم والسياسى المفاوض وظائف السياسة العامة بآرائه فى شئون الحكم وقضايا الاجتماع ، وهى آراء لا تحيط بالمسائل والقضايا احاطة المذهب الجامع للقواعد والفصول ، ولكنها تعرض علينا حلا عمليا لكل مشكلة أو فكرة تجريبية عن كل واقعة ، ويؤلف منها الباحث مذهبا مجملا اذا أراد أن يعرضها معرض الترتيب والتبويب .

ولا حاجة الى القول بغلبة الفكرة الديمقراطية على كل رأى من آرائه فى الحكم وفلسفة الاجتماع والسياسة ، فربما كانت الديمقراطية شعورا عنده قبل أن تكون تفكيرا ودراسة ، وقد كان أخوه — صاحب الصحيفة التى نشر فيها كتابته الأولى — ثائرا متطرفا وأوشك أن

يعاقب بالسجن الطويل على حملاته العنيفة ، وكانت السخرية بالألقاب من أوائل الآراء التى نشرها الصبى فرنكلين باسمه المستعار بين الخامسة عشرة والعشرين ، وكان من سخرياته فى مسألة الألقاب أن يتخيل أسماء التوراة مصحوبة بألقاب النبلاء كاللورد آدم ، واللادى حواء ، والبارون أرميا ، والكونت حزقيال ، وكان يقول بعد نضجه وتقدمه فى تجارب الحياة ان الحسب الموروث لا يورث الخير ولا الانصاف ، وقد كره ازدواج المجالس التشريعية لأن المجلس الأعلى فى رأيه انما يختار لتغليب سلطان الأغنياء على المجتمع ، وهو لا يكره الثورة ولا يعارض حقوق الملكية ولكنه يكره سيادة الطبقة الغنية على سائر الطبقات ، ويؤمن كل الايمان بوجوب حرية التجارة واطلاق القيود للمعاملات لأنها لازمة للحضارة الانسانية لزوم حرية الفكر أو هى ألزم لهـا فى جملة أحوالها ، ولكنه على هذا الايمان القوى بحرية المعاملة كان يرى من حق المجتمع أن يشرف على تنظيم الملكية واقتناء الثروة لأنها كلها من صنع يديه ، فليس فى طاقة الفرد اذا انفرد بنفسه أن يحرز ملكا مصونا يزيد على ضرورات المعيشة الموقوتة ، فاذا أحرز شيئا يزيد على ذلك فانما يحرزه بفضل المجتمع وضماناته الطبيعية أو الموضوعة ، فلا يحق له أن ينكر على المجتمع سلطان الاشراف على التنظيم والتشريع فى هذه الأمور ، وانما يشترط لذلك أن يكون كل حامل عبء من الأعباء الاجتماعية شريكا مسموع الرأى فى شرائع التنظيم .

وليس انكاره لسيادة العلية الغنية انكارا لرياسة العلية التى ترفعها الى مكان الزعامة فضائل العقل والأخلاق ، بل هو يذهب فى الاصلاح الاجتماعى مذهب كنفشيوس الذى يقول باصلاح الرؤساء وهم قدوة طبيعية للأتباع والمرءوسين ، وقدوتهم هذه هى التى تخلق العرف وتروض السواد على اتباعه وتجعلهم على حسب المعهود من عاداتهم

يحذرون الخروج على العرف أشد من حذرهم دخـول الجحيم حيث يلقون العقاب على الخطايا والذنوب .

وتكاد عقيدة المســاواة الديمقراطية تكون عنــده انسانية عامة لا يخصصها بوطن ولا قوم ولا قبيل ، فلما لاحظ أن العبيد المحررين ظلوا فى حياة الحرية فقراء يحترفون الحرف الوضيعة عقب على ذلك قائلا انه لا يعتقد أن العيب أصيل فى الطبيعة أو دائم لا يتغـير بتغير الأحوال ، وانما يرجح انه من نقص التعليم والمرانة ، وأن الزنجى ذو ملكات حسنة واستعداد كامن للفنون ، ولذلك يحذق الموسيقى ويبرع فيها ، ولو تعلم فنا غيرها لما قصر فيه .

ومن رأيه — بل من آرائه الكثيرة — أن الرق مفسدة للمجتمع الذى يشيع فيه ، لأنه يركن بالسادة الى الكسل ويغرى الأطفـال بالكبرياء والتجبر فى الأسر التى تملك الرقيق ، وقد أوصى بالاعتماد على العمل المأجور وتنبأ بشيوع ارتفاع الأجور فى العالم تبعا لارتفاعها فى الولايات الأمريكية بعد الغاء الرقيق .

وكان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة ، فليس الذهب والفضة معيارا ثابتا لها لأنهما سلعة تتقلب بها الأسعار كما تتقلب بسائر السلع ، وانما تقاس ثروة الأمة بمقياس الأعمال التى تحصل عليها ، وليست هذه الأعمال وقفا عـلى الصناعات البدنية وما اليها ، بل هى تشمل أعمال الحضارة بأجمعها ، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياسا لغناه .

ولهذا كان يشجع اصدار عملة الورق ويقول انها رمز للعمل وان الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بمقياس ما يملكون .

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهمم

وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين ، ورب شلن يخرج من يد أحمق يذهب الى يد عاقل أحق منه باقتنائه ، فيستفاد منه فى الحالتين ، وأفضل من الصناعة فى قياس الفائدة على العمل أن تقوم الثروة فى أساسها على المحصولات الزراعية والعمال الزراعيين .

وكان ايمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهى التى نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير . فاذا نفرت الأمة من حكومة وطالبت بحكومة غيرها فلا حاجة لها الى سند غير هذا الطلب ، ومن ثم سخريته بدعوى الدولة البريطانية أنها صاحبة الحق الذى لا ينازع فى حكم الولايات المتحدة ، لأن الأكثرين من أبنائها رعايا بريطانيون ينتقلون الى تلك الولايات ، ولأن الدولة البريطانية تولت حماية الولايات من عدوان فرنسا المجاورة لها ، فكتب رسالته الساخرة بلسان ملك بروسيا وجعل ذلك الملك يدعى مثل ذلك الحق على الجزر البريطانية لأن سكانها رعايا جرمانيون انتقلوا اليها وحكمهم فيها أمراء من الجرمان ، وتولت بروسيا حمايتهم بقمع فرنسا ومحاربتها الحين بعد الحين !

وقد كانت مبادئه الدستورية والقانونية تتسم بسمة يستطيع القارىء أن يقدرها بغير اطلاع عليها لأنها سمة الاعتدال والسماحة واجتناب الشطط فى الأحكام والقاء الفروض والتكاليف على عواتق الناس ، فكان ينكر العقوبة التى تجاوز قدر الجريمة فى الضرر أو قدرها فى الضلالة وسوء الخليقة ، وكان يؤثر فى الدستور قلة القيود والموازنات ، ولكنه لم يعلن مخالفته للمبادىء التى عارضها لأنه وازن بين دستور يصدر بالاجماع ودستور يؤيده فريق ويخالفه فريق ولو فى سبيل التصحيح والتنقيح ، فرجح عنده أن الاجماع على الدستور أجدى وأثبت لدعائمه من اعلان المخالفة له فى خطواته الأولى على الخصوص .

واذا كان هذا رأيه فى حسم الخلاف على الرأى فحسم الخلاف الذى

يريق الدماء أحق منه بالجهد والحيلة ، لأنه كان يسمى الحرب لصوصية وغيلة ، وهكذا كان برنامجه الداخلي في سياسة الولايات ، وعلى هذا البرنامج استقامت أعماله في كل سياسة داخلية أو خارجية ترتبط بالأمم الأخرى ، ومن عجائب دقته في تقدير الأمور بأحوالها وأزمانها انه تنبأ عن عصبة الأمم وأن العالم ربما شهد بعد مائة وخمسين أو مائتي سنة هيئة يجتمع فيها المندوبون عن دول أوربة جميعا لفض المشكلات وتوطيد السلام ، وكان باينز Baynes ، وروملي Romilly في شبابهما قد زاراه سنة ١٧٨٣ وتحدثوا في مساوىء الحروب العالمية فقال فرنكلين انه يظن أن اقناع الملوك بارسال مندوبيهم الى مكان واحد لا يزال عسيرا ، وانهم مع الصبر قد يتفق بعضهم على منع العدوان ويرى الآخرون نفع هذا الاتفاق فينضمون الى الهيئة شيئا فشيئا ولا يبعد أن تضمهم الهيئة الواحدة أجمعين بعد مائة وخمسين سنة أو مائتين (١) .

وله غير هذه الآراء في مذاهب السياسة والاجتماع خطرات متفرقة بين الرسائل والأحاديث . أما أكثرها فقد ورد مشروحا أو مقتضبا في رسالته عن العملة الورقية ورسالته عن زيادة السكان وتعمير البلاد :

Observations Concerning the Increase of Mankind and the Peopling of Countries.

ومسحتها الغالبة عليها هذه النظرية العملية التي تتقبل التطبيق والتنفيذ في حينها أو بعد حين ، اللهم الا خاطرة واحدة أوشكت أن تسلكه في عداد الطوبيين الأفلاطونيين ، وتلك هي استغناؤه عن الأحزاب السياسية بتأليف حزب واحد من الشبان العزاب يسميهم حزب الفضيلة ويدربهم على نظام خاص يشبه نظام الماسونيين واليسوعيين ، ويرجو منهم لخير المجتمع ما لا يرجى من سائر الأحزاب .

(١) الجزء الأول من كتاب علماء امريكا المشاهير لمؤلفه كروثر

والأداة التامة فى الوظائف السياسية انما هى أداته فى أعمال التنفيذ والتطبيق ، وهى التى تعرف الآن باسم الوظائف الديوانية ويفرق المعاصرون بينها وبين السياسة فيسمونها بالادارة Statesmanship أو بولاية الحكم Administration ولا يعتبرونها من وظائف السياسة فى الصميم فهى على الأقل شىء غير الدبلوماسية ، وغير البوليطيقا ، وغير عمل السفير وعمل الوزير وعمل الزعيم المطالب بقيادة الجماهير .

وحيثما كان هنالك تدبير للتنفيذ العملى فصاحبنا فى عنصره على تعبير الغربيين ، أو فى مجاله ومعدنه كما نقول نحن الشرقيين .

وليكن ذلك التدبير من صناعته أو غير صناعته ، ومن مألوفاته قبل ذلك أو غير مألوفاته ، فما دام فى وسعه أن يعرف ما هو العمل المطلوب ففى وسعه أن يعرف ما هى وسائل التنفيذ وأن يدبر هذه الوسائل أصح تدبير .

والادارة خطة وتنفيذ ، وليس أطبع من ذهنه على وضع الخطط وترتيب الأعمال ، ثم على تنفيذها بالأدوات اللازمة لها بغير اسراف وبغير اهمال .

وأكثر ما يصاب المديرون بالفشل من عجزهم عن الانتفاع بأدوات التنفيذ حين تكون هذه الأدوات من الآدميين !

فليس أكثر من المديرين الذين يستخدمون الوسائل الآلية ويحاولون أن يعاملوا المشتغلين معهم من الآدميين معاملة الآلات .

ولكن فرنكلين كان يحفظ هذه الأدوات الحية جيدا ويعرف كيف يسلك معها وكيف يسلك بها فى طريقه ، ولهذا كان يفلح فى كل ادارة تحتاج الى التنفيذ بالأدوات الآدمية ، ولو لم تكن من صناعته ولا من سوابق عمله كادارة معارك القتال .

أراد الجنرال برادوك Braddock قبل كارثته الحربية فى مونتجهيلا

Monogahela أن ينقل معداته فى مائة وخمسين مركبة وظن أن المسألة كلها مسألة أمر للفلاحين وسوق للمركبات بالخيل ، وعنده الأمر وعنده من يسوق . فلم يحصل بعد الجهد الجهيد على أكثر من خمس وعشرين مركبة ، وفزع الى فرنكلين فحصل له على المركبات المطلوبة كلها بخيولها قبل انقضاء أسبوعين .

وتحدث الجنرال وفرنكلين فى « الخطة » الحربية فحذره فرنكلين من مفاجآت الكمائن ونبهه الى قلة جدوى الخطط النظامية فى اتقاء هذه المفاجآت مع امتداد خط القتال ، فسخر منه الجنرال وقال له ان هذا الحذر ضرورى للكتائب التى تقودونها من الجنود المرابطة « ولكن هؤلاء الهمج لا ضير منهم على جنود الملك المنظمين » .

ووقعت الكارثة فبادت الفرق التى كان يقودها وقتل ثلاثة وستون ضابطا من تسعة وثمانين ، وأدرك فرنكلين الخطر الداهم فجند من السكان نحو ستمائة للدفاع عن الحدود واقامة المتاريس وأصاب فى القيادة حيث أخطأ القائد المغرور ، ولم يغفل عن عمل لازم فى أشد أيام الشتاء وقد ناهز الخمسين ، وكان الجنود والسكان يسمونه الجنرال فرنكلين ، ثم أبى جنوده بعد عودته الى فلادلفيا أن يفارقوه حتى يؤدوا له التحية عند منزله ، وصحبوه ، كما قال فى ترجمته ، الى الباب ثم أعلنوا تحيتهم بالطلقات النارية فى الهواء ـ فهزت الدار وحطمت أجهزة الكهربا وهى من زجاج !

واذا كان مقام الكلام عن الخبرة باستخدام الأدوات حين تكون هذه الأدوات من الآدميين — فليس ما ينسى فى هذه الحملة نفسها مشورته على الواعظ الذى شكا اليه اعراض الجنود عن حضور الصلاة والاجتماع للدعاء ، وكان من جراية الجنود أقداح من شراب الروم للتدفئة فى الشتاء القارس ، فلما سمع شكوى الواعظ المكروب وأشفق

عليه من خوفه للهزيمة بعد هذا الاعراض — تبسم مطمئنا للواعظ الخائف وقال له : لا عليك من اعراضهم . خذ على عاتقك توزيع جراية الشراب ولا توزعها الا بعد أداء الصلاة ـ فلم يتخلف بعدها جنـدى واحد عن موعد الصلاة !

وهذه الخبرة بالادارة فى الشئون التى لم يتدرب عليها تغنى عن الافاضة فى دقائق التنظيمات التى كان يبتدعها باجتهاده كلما أدار عملا من الأعمال التى يتصدى لها أمثاله ولا تستغرب من مدير مطبعة أو مدير صحيفة . لأنها جميعا أعمال من نمط واحد ، ومنها تنظيم البريد وتنظيم الاضاءة فى المدينة وتنظيم فرق المطافىء وتنظيم مكاتب الهيئات النيابية والهيئات العلمية التى أسهم فى أعمالها ، فكل أداة لازمة لهذه التنظيمات فهى على متناول اليد من تفكيره وسجاياه : فهم صحيح ، وتقسيم متقن ، وتنفيذ مرتب ، وخبرة باسـتخدام الأدوات الحية والأدوات الصناعية على السواء .

« سياسى بالطبع » اذا صح هذا التعبير . والسياسى بالطبع يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل سـاعة سياستها التى تمليها الحوادث عليـه .

ولا يختم الكلام عن فرنكلين السياسى قبل أن يقال ان بلاده قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هى فكرة الاتحاد ، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد .

الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول ، ويشفع ذلك أحيانا بقوله عنه انه أول فيلسوف وجه أنظار القارة الأوربية الى عالم الفكر فى الديار الأمريكية .

وكانت الأندية الأدبية فى باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردفه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين .

وكانت كلمة « الفيلسوف » كالاسم الغالب عليه بعد عودته الى بلاده فى أخريات أيامه .

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطئين من وجهة العرف ولا من الوجهة العلمية فى عصره . فقد كان فرنكلين فيلسوفا بكل معانى الكلمة الا هذا المعنى الحديث الذى غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوع التفرقة بين المعارف الانسانية ثم شيوع التخصص فى كل معرفة منها . ونريد به الفلسفة التى غلبت على بحوث « ما بعد الطبيعة » وقضايا المنطق النظرى وكادت تنحصر فيها . فهذا هو مجال الفلسفة الذى لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة ، ولم يرد أن يكون منها ، ولا نخاله كان مستطيعا أن يكونه لو أراد . لأنه مجال لا تألفه طبيعته ولا يألفه تفكيره ولا يرجى منه أن يأتى فيه بما يفيد .

كان فرنكلين فيلسوفا بمعنى الكلمة القديم ، وهو محبة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها فى أحوال الحياة اليومية ، ولعله عرف هذه الفلسفة عملا قبل أن يعرفها علما واطلاعا . لأنه نشأ فى بيئة المتطهرين وعرف بالقدوة والبداهة أن الأخلاق المثلى نظام من نظم الحياة الدنيوية .

وكان فرنكلين فيلسوفا بمعنى يوافق معنى الكلمة الحديث ، وهو استخراج العلل والنظريات الفكرية لكل مبحث من مباحث العلم والاختراع التى اشتغل بها منذ شبابه ، فكان يقدر الرأى والعلة ثم يبنى عليهما الاختراع ، أو كان يخترع ما يخترع ثم يعمم الرأى والعلة على المتشابهات من الظواهر الطبيعية ، ولولا هذه الفلسفة العلمية لما جمع بين البرق والشرارة الزجاجية فى نظرية واحدة .

وكان فيلسوفا بمعنى الكلمة الذى شاع فى كل زمن وجعل الفلسفة ضربا من التصوف العقلى يوحى الى صاحبه التقشف والزهد فى المظاهر الفارغة التى يفتن بها المتكالبون على الحياة ، ولم يكن فرنكلين متقشفا أو زاهدا فى دنياه ، ولكنه كان يطلب الشىء لمعناه لا لمظهره ، ولأنه هو يبتغيه لا لأن الناس يبتغونه بالمحاكاة والتقليد .

أما الفلسفة التى تستغرق صاحبها فيما وراء الطبيعة وفى الجدل حول مباحثها فلم تكن من فلسفات فرنكلين ، لأنه كان ينفر من النظريات التى لا يحسها ولا يدركها ، وكان ينفر من الجدل كما قال فى مفكراته ، وان كانت مطالعته لسقراط قد أكسبته قدرة عظيمة فى فنون الحوار ، وكادت تنحرف به الى شقاشق الجدل فى بواكير حياته الفكرية .

وقد اطلع فرنكلين على كتب الفلسفة التى وصلت الى يديه فى بوستون وفلادلفيا ، وقرأ منها كتاب كولنز Collins محاضرة فى التفكير الحر Discourse of Free thinking وكتاب شافتسبرى Shaftsbury بحث فى الفضيلة أو الجدارة Inquiry Concerning Virtue or Merit وكتاب درهام Derham فى اللاهوت الطبيعى Physico-Theology (١) وغيرها من الكتب التى من قبيلها ، واطلع على أطراف من مذاهب الفلسفة الاغريقية ولا سيما مذهب أفلاطون ومذهب فيثاغوراس ، واطلع على

(١) Masters American Literature

كتب الجدل الدينى التى وجدها عند أبيه فخلص منها جميعا الى عقيدة كعقيدة أبى العلاء فى التفرقة بين الظن والعقل اذ يقول :

كذب الظن لا امام سوى العقـ . ـل مقيما فى صبحه والمساء

وارتأى أن قبول العقل للعقيدة هو السند الوحيد الذى يكسبها حق الايمان بها ، وأنه لا حق للاعتقاد حيث يكون العقل بلا عمل وبغير مشاركة فيه .

ودان زمنا بمذهب النباتيين ، ثم مال من مذهب النباتيين الى بقية مذهبهم فى وصايا فيثاغوراس المعروفة ، ومنها تناسخ الأرواح وتسلسل الأدوار ـ وراقه أن يشبه الأدوار المتلاحقة بعمل من أعمال الطباعة التى كان يزاولها ، فقال ان الانسان طبعات متعددة تظهر تباعا فى كل جيل من الأجيال الأبدية بعد التصحيح والتنقيح [1] وانه يرجو أن تظهر منه طبعة مصححة منقحة بعد موته ، ويود أن يذكر ما كان حيث يكون فى مستقبل الأجيال !

وابتدأ فى الثانية والعشرين من عمره بعقيدة فى الدين لم تزل تترقى معه الى أن جاوز الثمانين ، ولخص هذه العقيدة فى رسالة من جزئين سماها أصول العقيدة وشعائر الديانة Articles of Belief and Acts of Religion لم يوجد منها غير جزء واحد هو الذى نترجم منه ما يلى نقلا عن كتاب أقطاب الأدب الأمريكى الذى سبقت الاشارة اليه ، وهذا بعض ما جاء فيها :

« وانى لأرتفع بخيالى وراء نظم السيارات ، ووراء الشموس الثوابت ، وأسبح فى هذا الفضاء الذى لا نهاية له وهذه الشموس التى يدور حول كل منها أسراب من السيارات كسيارتنا الأرضية الى غير

(١) كتاب مشاهير رجال العلم فى أمريكا تأليف كروثر
Famous American Men of Science

نهاية ، فتلوح لى هذه الكرة الصغيرة التى نعيش عليها كأنها العدم حتى فى خيالى الكليل ، وأرى نفسى الى جانبها أقل من العدم فأحس أننى شيء ضئيل لا شأن له ولا خطر ، وأحس كذلك أنه لمن الغرور البالغ أن أتوهم أن ذلك الخالق الكامل يحفل بهذا (اللاشيء) الذى يسمى الانسان ، وانه تحق له من الانسان العبادة ، ولكنه هو جل وعلا فوق ذلك بما لا تحصره العقول .

غير أن الناس جميعا ينطوون على شعور طبيعى يميل بهم الى القداسة أو الى التعبد لقوة عظيمة وراء الأبصار ، وقد وهب العقل للانسان بين الأحياء فارتفع به فوق سائر الحيوان الذى نعرفه فى دنيانا ، ومن ثم يبدو لى أننى مطالب بالواجب على — كانسان — أن أتوجه بالصلاة والتعظيم الى ذلك الكائن العظيم .

« وأدرك على هذا أن الاله الصمد قد خلق أربابا لا عداد لها تعلو على الانسان علوا كبيرا وتفهم من أسباب كماله ما لا يفهم ، وتعيد اليه الثناء والجزاء على النحو المعقول .

« كما أنه بين الناس لا يبالى المصور القدير ما يلقاه من ثناء الجهال والأطفال مبالاته بثناء العارفين وذوى الدراية بالتصوير — كذلك الأرباب التى يخلقها الاله الأعظم قد تبقى ولا تفنى ، وقد ترتفع من مقام الى مقام ، ويخطر لى أن كل رب منها له الحظ الأوفر من الحكمة والقدرة ، وأن كلا منها جعل له منظومة شمسية تدور عليها أسراب من السيارات ، والى هذا الرب الذى أبدع منظومتنا أتجه بالثناء والتقديس . لأنه خليق أن يشتمل على شيء من الطبائع التى أودعنا اياها ، ولأنه منحنا العقل الذى ندرك به حكمته فى خلقه فهو لا يزهد فى ثناء عباده ولا يرضى عن الجهل بفضله والاستهانة بمجده .

« وأفهم لأسباب كثيرة أنه صالح ، ويسعدنى أن أظفر بالود

من كائن على هذه الصفة من الحكمة والخير والصلاح ، فعلى اذن أن أنظر فيما يرضيه وأبحث عما يولينى منه العون والرعاية .

« وأفهم أنه يرضى عن اسعاد خالقه كما يرضى عن الاقرار بفضله والتوجه بالدعاء اليه ، ولا سعادة فى الحياة بغير فضيلة ، فمما يرضيه اذن أن أتحلى بالفضيلة فيسعد بمخلوقه السعيد .

« ولما كان قد خلق فى هذه الدنيا كثيرا من الأشياء التى لا غرض لها فيما يبدو منها غير اسعاد الناس ، فانى لأومن أنه لن يغضب على أبنائه الذين ينعمون بتلك الأشياء ويمتعون أنفسهم بالرياضات الحسنة والمسرات البريئة ، وأنه لن يكون من المسرات البريئة ما فيه ضرر لانسان .

« اننى أحبه اذن لصلاحه ، وأعبده اذن لحكمته ، وعلىّ ألا أغفل عن حمد هذا الرب لأنه حقه الذى لا أملك جزاء له غيره ، وعلى أن أصحح العزم على التحلى بالفضيلة واغتنام السعادة لأرضيه بما فيه رضاى » .

هذه العقيدة الساذجة مستمدة على ما يظهر من فلسفة أفلاطون الذى كان يفترض وجود الأرباب الصغار للتوسط بين اله الكون والانسان وتعليل ما يحدث فى العالم من الشر والأذى ، وقد أعجبت فرنكلين فى سذاجة الشباب فدان بها واصطحبها فى أطوار حياته يعدلها ويكملها ، ويعرضها على مقاييسه العلمية كلما تقدم فيها خطوة من الزمن والخبرة ، فآمن بخلود الروح وحسابها بعد الموت لأنه قاسها على خلق المادة فرأى أن الأرواح أحق بالصيانة والبقاء من المصنوعات المادية ، وأن الله علمنا من حكمته أنه قادر على خلق مادة جديدة لكل جسم وكل شىء ولكنه يتجنب الشتات والبعثرة ولا يصنع شيئا ليزيله ويفنيه ، فليس من حكمة القصد فى الخلق أن توجد الأرواح لتؤول الى الزوال والفناء .

وقد بقى معه من هذه العقيدة ايمانه بالله وبالروح وبالحساب وكتب خلاصة عقيدته الى عزرا ستايل فى الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ أى قبل وفاته بأيام ، فقال :

« هذه عقيدتى :

« أومن بالـــه واحد خالق للكون كله ، وأومن بأنه يديره بحكمته ، وأنه حقيق بالعبادة ولا شيء أرضى له من صنع الخير لمخلوقاته الأخرى

« وأومن بخلود الروح ، وأن الانسان يحاسب بالعدل بعد موته على ما صنع فى هذه الدنيا . وهذه عندى هى أصول الايمان فى الدين الصحيح وهى فى موضع الاجلال عندى حيث وجدتها فى كل نحلة وملة .

« أما عيسى الناصرى الذى يهمك أمر الاعتقاد به خاصة فاعتقادى فيه أن وصاياه الأخلاقية وديانته كما تركها لنا خير ما شهدته الدنيا أو عساها تشهده ، ولكننى أرى أنهـــا تعرضت لمختلف التغيــيرات والتحريفات ، وأشك فى الاهيته كما يشك معظم المخالفين الآن فى انجلترا ، وان كنت لا أقرر فى ذلك عقيدة محتومة لأننى لم أدرس المسألة ولم أر ضرورة لهذا الدرس وأنا مقبل على الحقيقة أعرفها بأهون من هذا العناء ولست أرى ضررا فى اعتقاد من يعتقدها اذا كان لها كما هو الراجح أثر فى زيادة الاحترام لوصاياه وزيادة العمل بها ، وبخاصة حين أنظر فلا أرى أن العــلىّ الأعلى يغضب لهـــا ويميز بين من يعتقدونها ومن لا يعتقدونها فى سياسته للكون أقل تمييز . وأضيف الى هذا فيما يخصنى أننى ـــ بعد ما اختبرته من كرم الله خلال حياتى هذه ـــ لا يخامرنى الشك أنه ســـيتولانى بمثله فى الحيـــاة الآتية ، وان لم أكن أهلا له بعملى .. » (١) .

هذه الفلسفة الدينية ، أو هذه الديانة الفلسفية ، وافقت فرنكلين فثبت على أصولها من الثانية والعشرين الى الرابعة والثمانين ، وحرى أن توافقه كل الموافقة وأن يطمئن اليها غاية ما يتاح له الاطمئنان فى هذه

---

(١) من كتاب الكتابات الترجمية جمع واختيار كارل فان دورن .
Benjamin Franklin Autobiographical Writings

الغوامض والمتشابهات . لأنها فلسفة نبتت من عقله وسليقته وأوشكت أن تنبت من كيان أعمق فيه من العقل والسليقة . فان هذا الكيان المتزن قد تمثل فى بداهة حيوية عنده توحى اليه بخطة القصد فى جميع الأمور . فهنا فرنكلين العالم الذى يعقل بداهة أن الطبيعة تأخذ بسنة « الجهد الأقل » The Least Action فلا تحيد المادة عن القريب وتتخطاه الى البعيد ولا تدع الطاقة موضعا لا مقاومة فيه لتمضى الى موضع تجد فيه المقاومة وتتعثر فيه بالعوارض والموانع ، وهنا فرنكلين الهادىء الرصين الذى لا يكلف نفسه ولا يكلف أحدا فى عمل من الأعمال فوق حقه من العناء وشغلان البال ، وهنا فرنكلين الفيلسوف المؤمن الذى يبنى على هذه السنة — سنة القصد — حكمة القصد الالهى التى لا تخلق الأرواح لتزيلها وتفنيها ولا تخلقها عبثا ليتساوى عندها بقاؤها وفناؤها بعد ظهورها فى عالم الحياة . ومن عجائب النفس البشرية أن المطبوعين على التهكم الذين يتهكمون على كل غلو فى التفكير والاحساس هم أقرب الناس الى الوقوع فى هذا الغلو الذى يعرضهم للتهكم من أناس دونهم فى الذكاء وأصالة التفكير ، ولولا ذلك لما غلا فرنكلين فى عقيدة « الجهد الأقل » حتى طبقها على الموازنة بين الدراسة والمشاهدة بغير عناء ، ففى خطابه المتقدم يقول انه لم يجشم نفسه مشقة الدراسة فى تحقيق طبيعة السيد المسيح لأنه اذا كان سيرى الحقيقة عيانا فى العالم الآخر فالرؤية أيسر عليه من الدراسة !

وكفى بهذا حجة لمن ينفى عن فرنكلين شبهة المغالطة فى العقيدة التى استقر عليها ، فان المرء ليغالط فى كل شىء الا فى الطبع الذى يتأصل منه وراء الوعى والمشيئة .

وبديهى أن عقيدة فرنكلين هذه لم تكن عقيدة الأكثرين من الخاصة والعامة بين قومه وغير قومه ، وانه ليعلم ذلك ولا يخطر له أن يزعج

ضمائر الناس بالجدل والنقاش ليقنعهم بصواب رأيه ، وليس سكوته هذا حبا للسلامة أو مراءاة لمخالفيه ، بل هو الصواب فى رأيه حين تعنيه السلامة وحين لا تعنيه ، وقد كان ينصح به أناسا لم يكن لهم عنده حق الصداقة والنصيحة ، ومنهم من تحول عن صداقته وجافاه بعض المجافاة كما حدث فى العلاقة بينه وبين الكاتب المفكر الكبير توماس پين Paine فانه قرأ كتابه المخطوط الذى سماه عصر العقل وأرسله اليه لاستطلاع رأيه ، فكتب اليه فى الثالث من شهر يوليو سنة ١٧٨٦ يقول : « ان الحجج التى اعتمدت عليها فى انكار الحكمة الخاصة — وان لم تنكر الحكمة الالهية العامة — لتضرب المعول فى أساس كل دين . اذ لا باعث للعبادة والخوف من الجزاء أو التوسل بطلب الوقاية اذا زال الايمان باله يحرس ويهدى ويخص بالرضوان بعض الناس ، ولست أريد أن أناقشك فى تلك الحجج وان كنت أحسب أنك تطلب هذه المناقشة ، وحسبى فى الوقت الحاضر أن أقول لك ان حججك قد تبلغ من المهارة أن تقنع طائفة من القراء ، ولكنك لن تفلح فى تغيير الاجماع الانسانى على الشعور المتفق فى هذه الأمور ، وكل ما تجنيه من نشر هذه الرسالة أن تجلب على نفسك الكراهية ، وأن يصيبك الضرر بفعلك ولا ينتفع به أحد . واعلم أن من يبصق فى وجه الريح فانما يبصق على وجهه . وهب أنك نجحت فيما قصدت اليه فهل تخال فى ذلك نفعا كائنا ما كان ؟ انك قد يسهل عليك أن تعيش عيشة فاضلة بغير معونة الدين ، وأن يكون فهمك الجلى لمحاسن الفضيلة ومساوىء الرذيلة مع قوة عزيمتك كفيلا بتمكينك من مقاومة الاغراء والغواية ولكنك قمين أن تعلم كم من ذوى الجهالة والضعف بين الرجال والنساء وكم من الأغرار والطائشين بين الناشئين تنفعهم بواعث الدين فى اجتناب الرذيلة والثبات على الفضيلة والصبر على هذا الثبات حتى يصبح فى حكم العادة التى تهم جدا فى صيانتها

ومناعتها ، ولعلك أنت نفسك مدين بتربيتك الدينية لهذه العادات التى ترفعك بحق فى نظر نفسك . وانك لتستطيع أن تستخدم ملكاتك البارعة وقدرتك على الاستدلال فى علاج موضوع دون هذا الموضوع فى مزالق الخطر فتحتل مكانك بين المؤلفين النابهين منا ، اذ ليس من اللازم بيننا — كما هو لازم بين آكلى البشر من الهوتنتوت — أن يبرهن الشاب على بلوغه مبلغ الرجال واستحقاقه للحسبان منهم باقدامه على ضرب أمـه » [1] .

ومن الواجب فى مقام التعريف بحقائق النفس الانسانية أن تفرق بين هذا الخلق وبين خلق الرياء الضعيف أو الكذب المرذول ، فليس أبعد من الفارق بين الرياء الذى يخدم به المرء نفسه ولا يبالى منفعة النـاس والايمان بالصواب الذى ينفعهم ويحق له أن يحرص عليه . ولم يعرف عن فرنكلين قط أنه كان يرائى أحدا فى عقيدة من عقائده التى يحفظها لنفسه ولا يرى من الواجب عليه أن يعلنها لغيره ، فاذا سأله سائل ذو مكانة عنده ولم يكن من الأدب فى رأيه أن يهمله ويسكت عن جوابه صارحه بما يعتقد وأبلغه عقيدته على حقيقتها ، ولو أنه كان يستبيح الرياء مع أحد لاستباحه مع أبويه وهو الحريص على ارضاء الناس عامة فضلا عن حرصه على مرضاة الوالدين . فقد أبلغه أبوه ان أمه تشكو اليه أن ولدا لها يدين بمذهب الآريين وأن أخاه يدين بمذهب الكنيسة الشرقية ، وكان فرنكلين يومئذ فى الثانية والثلاثين فأجاب أباه ولم يكتم معتقده ، بل قال له ولأمه بأسلوب صراح : « ما هو الآرى وما هو تابع الكنيسة الشرقية ؟ لا أستطيع أن أقول اننى أعرف الفرق بينهما حق المعرفة ، والواقع أننى قليلا ما أشغل عقلى بالبحث فى هذه الفروق والخلافات ، وأرى أن الدين الصحيح يمنى بالخسار كلما

---

(١) Masters of American Literature

غلبت المراسم على الفضيلة ، وأن الكتب المقدسة تؤكد لى أننا نحاسب فى اليوم الآخر على ما عملنا لا على تفكيرنا فى المذاهب ، ولن تكون شفاعتنا أننا طفقنا نصيح : يا رب يا رب ! بل يشفع لنا ما صنعناه من الخير لخلائق الله » (١) .

فمذهب فرنكلين فى كتمان عقيدته أشبه شيء بمذهب الجلة من الحكماء الأقدمين الذين كانوا ينصحون بكتمان الحقائق الغامضة عمن لا يدركونها ، ولم تمنعه مخالفة السواد أن يحبب اليهم التدين والاجتماع لسماع العظات وأداء الفرائض التى يعتقدونها ، وساءه زمنا أن يرى سواد الناس معرضين عن الصلاة لأنه رأى منهم بوادر الاباحة والتهافت على المنكرات فشرع فى تنقيح كتب الصلوات ومذاكرة المصلحين من رجال الدين عسى أن يهتدوا الى أسلوب من أساليب الارشاد أجدى فى اقناع شعبهم من أساليبهم العتيقة التى درجوا عليها ، وسوى بين الملل والأديان فى وجوب الاحترام فساعد أناسا من غير المسيحيين على احياء شعائرهم فى جواره ، وقال انه لو علم أن المفتى الأعظم بالقسطنطينية يوفد الى الديار الأمريكية رسولا من دعاة الاسلام لتلقاه بالترحاب(٢) .

ومن تناسق هذه الشخصية البسيطة أنها تطرد فى آرائها وخلائقها ، فما بدا منها دليل على ما استتر ، ومن عرف رأيا لها فى مسألة خطيرة أوشك أن يعرف سائر آرائها فى المسائل الأخرى ، وهذه الفلسفة الدينية التى آمن بها فرنكلين تغنينا عن الاسهاب فى تفصيل فلسفته الأخلاقية ، بل ربما كان الأصح أن نقول ان فلسفته الدينية قائمة على قواعده الأخلاقية ، لأنه يقيم الفضيلة على قواعد المصلحة العليا : مصلحة الفرد ومصلحة النوع بأسره ، فهى مطلوبة لأنها صالحة

---

(١) Franklin. His contribution to the American tradition by Bernard Cohen

(٢) كتاب برنارد المتقدم ذكره .

باقية ، والرذيلة مكروهة لأنها فاسدة زائلة ، ومن وازن بين مسرات الفضيلة وآلامها خــرج من الموازنة بايثارها على الرذيلة ، لأن آلام الرذيلة أكثر من مسراتها ، وكثير من مسراتها زائف مدخول يجنى الضرر على صاحبه أو على غيره ، خلافا لمسرات الفضيلة التى تصح فى جوهرها ولا يخشى منها الضرر على أحد .

ولم يكن فرنكلين مثاليا حالما فى رأى من آرائه ، ولكنه لم يكن كذلك من الاباحيين المستهترين بالمبادىء والقيم الأدبية ، بل كانت له خطة يروض نفسه على اتباعها ويحاسب نفسه على التقصير فيها ، وقد بلغ بهذه الخطة مرتبة الاعتدال ولم يبلغ بها مرتبة العصمة بطبيعة الحال ، فهى فى شئون الآدميين ضرب من المحال .

كان خاطئا ولم يكن اباحيا ، وكان من خطاياه ما عرفه الناس بغير اختياره ومنها ما عرفوه من كلامه . اذ اعترف بانقياده للشهوات فى شبابه وعاب على نفسه أنه انقاد لهذه الشهوات حتى اندفع الى عشرة بعض النساء ممن لا أخلاق لهن ولا كرامة ، وجملة ما يفهم من وصاياه ومن معاذيره فى شئون الأخلاق الاجتماعية انه يحارب الفساد ويحسب منه رياء المجتمع فى التمييز بين المفسدين ، فانه يأخذ المرأة بالذنب ويعفى شريكها منه ، وقد ينسى الحقائق فى سبيل المراسم والتقاليد ، وعليه اللوم اذا فسد من بنيه وبناته من هو مستعد للصلاح ومن هو صالح لأن يكون عضوا من أعضاء المجتمع كالعضو السليم فى البنية الحية .

وقد نشر — وهو فى الحادية والأربعين — نبذة فى مجلة الجنتلمان عن امرأة سيقت الى ساحة القضاء ليعاقبها على الولادة بغير زواج ، ووزرها فى سوء الحظ أكبر من وزرها فى سوء النية كما يؤخذ من كلامها الذى ألقاه فرنكلين على لسانها ، وهذه فقرات منه بعد مقدمته القصيرة :

« كل ما أرجوه فى ضعة وانكسار أن تشفعوا لى لدى الحاكم أن

يعفينى من الغرامة التى تحكمون بها علىّ . فهذه خامس مرة — أيها القضاة الأجلاء — أساق فيها أمامكم لتهمة واحدة . وقد عوقبت مرتين لأننى عجزت فى المرتين عن سداد الغرامة المقررة . وربما كان هذا موافقا لحكم القانون فلا أناقش فيه ، ولكن القوانين أحيانا تخطىء فيتقرر الغاؤها من أجل ذلك ، وغيرها يجثم ثقيلا على كواهل الرعية فى بعض الأمور فيجعل من حق السلطان أن يرفع أحكامها أو يخففها .

« فاسمحوا لى أن أقول ان هذا القانون الذى أدان به مناقض للعقل فى ذاته وقاس بالنسبة الىّ خاصة من جهة أخرى — أنا التى قضيت ما قضيته من حياتى فى جيرتى غير عادية ولا باغية على أحد ، وأتحدى عداتى — ان كان لى عداة — أن يذكروا اسم رجل أو امرأة أو طفل أسأت الى أحد منهم ، فاذا تركنا قضاء هذا القانون جانبا فلست أفهم ما هى الجناية التى أعاقب عليها .

« لقد ولدت خمسة أولاد أصحـاء مخاطرة بحياتى ، وقد ربيتهم بجهدى وكسبى دون أن أثقل على المدينة بمنحة أو معونة ، وكنت خليقة أن أحسن تربيتهم فوق ما أحسنت لو لم تؤخذ منى تلك الغرامات الثقيلة التى فرضت علىّ . أفيحسب من الاجرام فى طبائع الأشياء أن أزيد عدد السكان فى وطن لا يزال فى حاجة اليهم ؟ أخال أننى أحمد على هـذا ولا ألام ، وما حدث منى أننى أغويت زوج امرأة أو أغريت أحـدا من الفتيان ، وما عوقبت قط على جريمة من هذا القبيل ولا اقترفت ما يشكوه أحد قط اللهم الا أن يكون مكتب العقود قد خسر الرسوم التى يتقاضاها على الزواج .

« على أننى أسأل : هل يحسب هذا من خطئى وتقصيرى ؟ اننى ألجأ الى عدالتكم وقد تفضلتم فقلتم اننى مالكة لقواى العقلية ولا تعوزنى سلامة الفكر والادراك ، واننى لأكونن على غاية من الغباء لو رفضت .

الزواج وآثرت الحالة التى أنا عليها الآن على الحياة الزوجية ، وقد كنت ولا أزال راغبة فى تلك الحياة ولا أشك فى صلاحى لها وحسن قيامى بمطالبها ، اذ كنت على نصيب من النشاط والقصد ولست بالعقيمة ولا بالقاصرة فى تدبير شئون الدار ، وأعود فأتحدى كائنا من كان أن يزعم أننى رفضت طلبا للزواج . بل حدث على نقيض ذلك أننى تقبلت الطلب الوحيد الذى تقدم به أول خاطب لى وأنا بعد عذراء ، ووثقت به وباخلاصه فعبث بى وهجرنى وفى جوفى جنين .

« وأرجو أن تعلموا جميعا أن هذا الخاطب قد أصبح قاضيا فى هذا الاقليم ، ولكم وددت لو كان جالسا اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق فى توقيع الجزاء علىّ ، وكنت اذن لا أبالى أن أذكر ما ذكرت من أمره . ولكننى أقول الآن مضطرة انه ليس بالعدل ولا بالمساواة فى الجزاء ، وانه ليس من الانصاف أن يكون المسىء الىّ والمتخلى عنى والسبب الذى أوقعنى فى كل جريرة — آمنا مترقيا الى مناصب الشرف فى الدولة التى تديننى بوصمة العار والمسبة .

« ولقد يقال لى ان الخطيئة خطيئة الدين ان لم يكن لهيئة التشريع حكم فيها . فان تكن خطيئة دين فدعوها اذن لرب الدين ، وقد حظرتم علىّ أن أدخل كنيستكم . فما بالكم لا تقنعون بهذا الحرمان . » .

هذه فقرات من مقاله الذى نشره فى صحيفة الجنتلمان (عدد ابريل سنة ١٧٤٧) وسماه دفاع مسز بولى بيكر ، وأراد أن يعرض فيه مظلمة من مظالم المجتمع تلام عليها المجتمعات قبل ملامة الأفراد ، وأن يقدم الاهتمام بالحقائق ودواعى الفطرة على الاهتمام بالمراسم والتقاليد ، ومن كان يحاسب نفسه بسجل يومى مكتوب عما زاد أو نقص من الفضائل المطلوبة لا يظن به أن يبيح الجماح والانطلاق من نظام الحياة الاجتماعية ، وانما هو عارف بالمعاذير حيث ينبغى أن تعرف ،

وعارف بمواطن اللوم على المجتمع حيث ينبغى أن يلام .

كان خاطئا يقع فى الخطيئة ولكنه لا يبيحها ولا يعفى نفسه من الملامة عليها والعمل على استدراك جرائرها كما سيأتى فى الكلام على فرنكلين الانسان ، وكان يحب السرور ولا يرى فيه حرجا من الدين ولا من الأخلاق ، بل يراه واجبا من الواجبات التى ترضى عنه خالق الكون وما فيه من مسرة وجمال ، وشرطه فى السرور ألا يضر أحدا ولا يسف بالكرامة الى مباذل الشهوات ، فان لم يكن فيه ضرر ولا اسفاف ولا ابتذال فهو حق للانسان بل واجب عليه .

ومما عرف عنه أنه قضى زمانا لا يذوق الخمر خفيفها ولا ثقيلها ، وكان رفاقه فى مطبعة العاصمة الانجليزية يدعونه الى شرب الجعة معهم فيأبى معتذرا ويسمونه من أجل ذلك بالأمريكى شارب الماء ـ وقد نظم فى شبابه نشيدا لمجلس الشراب يشترك مع المجلس فى غنائه ولا يشترك معه فى شرابه ، وما حرمها على نفسه لأنها حرمت عليه بحكم الدين أو القانون ، ولكنه حرمها لأن سرورها مشوب غير خالص من العقبات وغير مأمون فيه أن يسترسل مع الشارب الى الافراط والادمان .

لقد كان فرنكلين فيلسوفا بكثير من معانى هذه الكلمة فى وضعها الأول ووضعها الحديث :

كانت له عقيدة مفكر فى الدين ، وكانت له نظريات باحث فى العلم ، وكانت له مبادىء مبتدعة فى السياسة ، وكانت له آداب مرعية فى نظام المعيشة ، وكانت حياته الخاصة والعامة مدروسة من الوجهة الفكرية مروضة من الوجهة النفسية ، وبعض أولئك كفيل بحسبانه فى زمرة الفلاسفة المعدودين . الا أنه فيلسوف يصعب على مؤرخى الفلسفة أن يضعوه تحت عنوان واحد من عناوين المدارس الفلسفية غير مستثنى منها مدرسة البرجمية التى ظهرت فى وطنه بعد وفاته بأكثر من مائة سنة

وقيل عنها انها المدرسة النموذجية للأمريكيين ، وقيل عنه انه رائدها الأول من العلماء المفكرين .

نعم لا استثناء للبرجمية من مدارس الفلسفة التى يحاول المؤرخ الفلسفى أن يضع فيها فرنكلين . لأن ميزان الحقيقة عنده غير ميزان الحقيقة فى المدرسة البرجمية ، ولأنه قد يحتوى البرجمية ولا تحتويه . وانما تزول هذه الصعوبة اذا أردنا أن نضع الفاصل بين فرنكلين وبين كل مدرسة فلسفية أو دعوة فكرية . فحيث لا عمل لا فلسفة لفرنكلين ، وحيث لا توجد الفكرة المفهومة فلا عمل كذلك لفرنكلين . وبهذا ينفصل أحيانا عن الواقعيين كما ينفصل عن المثاليين ، وأصدق ما يكون تعريف الفيلسوف هنا تعريف الانسان فى مذهب أرسطو ، وهو الحيوان الناطق المدنى بالطبع ، فهو حى يفكر لا ينسى وشائج القربى بينه وبين أبناء نوعه ، وذلك هو فرنكلين الفيلسوف .

وذلك أيضا هو فرنكلين الانسان .

الإنســـان

دنيوى .. عصرى .. انسانى .. نفعى .. ساخر .. طينته عادية .. مستر أمريكان !

هذه كلمات وصف بها فرنكلين ، وأراد واصفوه بها أن يحصروه فى قشرة بندقة كما يقولون فى اصطلاحات الغرب ، فأصاب كل منهم اصابة لا خلاف عليها ، وأخطأ كل منهم خطأ لابد أن يستدرك عند الاحاطة بصفات فرنكلين .

كل صفة من هذه الصفات لا تنبذ مرة واحدة ولا تؤخذ مرة واحدة . فهو فى الحق دنيوى ، وعصرى ، وانسانى ، ونفعى ، وساخر ، وطينته عادية ، ومستر أمريكان . وهو غير ذلك استدراكا على جميع تلك الصفات .

ان الذين وصفوه أنه دنيوى أرادوا كلمة Secular ، وهى تعنى أنه رجل واقعى عملى يقيس الأمور بما يحسه ويختبره ، وأنه فى خلائقه غير الرجل الصوفى الذى يعيش بين الشهود والغيب ويخوض فى أعماق الخفايا والأسرار ، وغير الرجل الذى يطيل النظر فيما وراء الطبيعة وما وراء هذه الآفاق المدركة بالحواس والعقول .

وكذلك كان فرنكلين فى رأى جميع عارفيه ومترجميه ، ولكنهم عند اطلاق هذه الصفة على فرنكلين ينبغى أن يوسعوا آفاق الدنيا حتى تتسع لكل شواغله العقلية والعلمية وترجع بحدودها أفقا وراء أفق حتى تصبح أوسع وأكبر من آفاق كثير من الحالمين المحسوبين من الخياليين . فلم يكن هنالك شىء دنيوى لم يكن دنيويا فيه ولم يكن حاضرا بين أعماقه وآفاقه . وليس كذلك كل الدنيويين .

وقد كان فرنكلين عصريا فى نظرته الى أحوال زمنه ، وهذا وصف صحيح ينطبق عليه كل الانطباق ، فلم يكن فى عقله بقية من بقايا الزمن السالف تحول بينه وبين النظر المستقيم الى أحوال عصره ، ولم يكن فى عقله هوى من الأهواء الغالبة يشط به الى المستقبل البعيد فيفهم الوقائع معلقة على شيء فى الغيب المجهول : كان ينظر الى عصره ويراه بغير حجاب من بقايا الماضى ولا أحلام المستقبل ، وعلى هذه السنة بعينها يصبح عصريا بيننا لو عاد الى القرن العشرين .. وقد كان هو يتمنى لو يتاح للمرء أن يعاود الدنيا بعد الموت فيراها عصرا بعد عصرا أو عصورا بعد عصور . ونخاله لو عاد الى الدنيا كما تمنى لما أدهشه شيء مما وقع فيها خلال هذه الأجيال ، الا أن تكون دهشته للسرعة والكثرة لا للجوهر واللباب . فما من شيء حدث لم يكن عنده محتمل الحدوث ، وما من نقيضة انسانية كان فى ظنه أنها ستزول خلال هذه الأجيال ، ولا استثناء فى ذلك للحروب العالمية ، لأنه قدر لاتفاق الدول على اتقائها مائة وخمسين سنة أو مائتين . ولا يخفى أن الاتفاق على الاتقاء غير الاتقاء الناجح وغير المنع فى الواقع . فليس فى العصر الحاضر ما لا يكون فرنكلين «عصريا» فيه بعد بضعة أيام ، لو عاد .

وكان انسانيا ، أو كان انسانا من فرعه الى قدمه ، فلا همجية ولا وحشية ولا ادعاء للكمال والنزاهة « الملائكية » .

انسان معتدل ، لا ملك ولا شيطان ، ولا همجية تنبو عنها الانسانية المهذبة المتحضرة ، ولا وحشية تنم على النكسة فى خلائق الانسان .

انسان بفضائله وانسان بعيوبه ، ولكن الصفة هنا لا تكفى وحدها ولا تزال كغيرها من الصفات بحاجة الى استدراك . فاذا كان الرجل انسانا بفضائله وعيوبه فليس معنى ذلك انه انسان كسائر الناس أصحاب الفضائل والعيوب ، لأنه كان يعمل مع الفطرة فى تكوين فضائله وتثبيتها ؛

وكان يتيقظ لعيوبه ويجاهد ما استطاع فى اصلاحها ، وكانت الأعذار الى جانب عيوبه أرجح وأقوى من دواعى اللوم والزلل ، ويصدق هذا على أكبر السقطات كما يصدق على الهفوات الصغار .

فمن سقطاته المعيبة تلك العلاقات المريبة بينه وبين بعض النساء فى شبابه ، ومنهم « دبورا » التى تزوج بها بعد معاشرته لها بغير عقد دينى أو عرفى ، وبغير تسجيل معترف به على نحو من الأنحاء .

وقد لقى جزاءه على هذه السقطات ، لأن ابنه من احداها — وليام — خذله وخذل قومه وانقلب على قضية الاستقلال ولاذ بالبلاد الانجليزية بعيدا من أبويه وذويه ، وعاشت « دبورا » مهملة من جانب المجتمع بعد نباهة فرنكلين وارتفاع شأنه ، فكانت كل دعوة الى محفل من محافل الدولة أو الأمة تذكره بتلك السقطة وتنغص عليه حياته وحياة زوجتــه .

ولا يهم المؤرخ هنا هذا التفكير الذى لا يد له فيه ، ولكنه يهمه أن يثبت ما له وما عليه فى هذه السقطات . فقد كانت هذه السقطات كأمثالها من سقطات النــاس فى الضعف والغواية ، ولكنها لم تكن كسقطات الناس فى المعاذير وجهود الاصلاح ، ولم يكن كل ذى سقطة قادرا على أن يتشفع أمام عدالة الضمير بأعذار كأعذار فرنكلين ، وجهود كجهوده فى اصلاح الخطأ والصبر على تبعاته مختارا بغير اكراه .

لقد كان من معاذيره شدة النفور فى عصره من سلطان الكهنوت على جميع المذاهب ، وكان من أسباب ذلك النفور الشديد بين المتحررين خاصة افراط المتعصبين فى الخرافة وتصدى الجهلاء من رجال الدين للحكم فيما يجهلونه والاســتهانة بالأرواح البريئة فى سبيل العصبية التى كانوا يسمونها غيرة دينية أو حماسة روحية ، وقد كانوا يتوهمون السحر فى كل مشتغل بالعلم ويحرقون الساحر والساحرة لأنهما من حلفاء

الشيطان «محتكر» العلوم السوداء ، على ما توهموه وتوارثوه بالتقاليد.

ومن السهل أن نتخيل شعور الرجل المطبوع على البحث العلمى نحو هذه السلطة ، فان « رد الفعل » أمامها خليق أن يذهب من النقيض الى النقيض ، فيمرق من سلطانها مروق التحدى والاصرار .

ومما يشفع لفرنكلين فى سقطته أن « دبورا » لم تكن من النساء المبتذلات ، وأنها لما تركها فرنكلين ليسافر الى لندن تزوجت من رجل آخر ولبثت على ذمته الى أن عاد فرنكلين من رحلته ، ولما أراد أن يصحح خطأه ليتزوج منها حال العقد القائم بينه وبين اتمام عقد الزواج حتى تثبت وفاة الزوج الأول ، وكان فى وسع فرنكلين — وقد اشتهر وارتفع فى سلم المجتمع — أن يتخلى عن هذه المرأة الجاهلة الفقيرة المهملة فى حساب الطبقة العالية وفى حساب المتدينين من جميع الطبقات ، ولم يكن عسيرا عليه أن يختار له زوجا تساعده بجاه الأسرة الاجتماعى ولا تقف فى سبيله عقبة دون المناصب العليا بقية حياته ، ولكنه صنع الواجب الذى أوحاه اليه ضميره وآثر وحى الضمير على المصلحة وحب الوصول.

وتستدرك صفة الانسانية اذا نسبت الى فرنكلين على غير الوجه المتقدم فى معانيها الكثيرة :

فقد كان من معانى الانسانية ايمان المرء بخير الانسانية ورفضه كل عقيدة دينية غير العقيدة الموضوعة ، وكان فرنكلين يؤمن بخير الانسانية ويعمل له وسوى بين الناس جميعا فى الأخوة البشرية ، ولكنه لم ينكر وجود الاله ولا وجوب الاقتداء بفضائل السيد المسيح .

وكان من معانى الانسانية حب المسالمة وطيبة القلب ووداعة الأخلاق وفرنكلين كان ولا ريب مسالما طيبا وديع الأخلاق، ولكننا نجهله اذا فهمنا من المسالمة انه كان يفرق من العداوة ويتجنبها بكل ثمن وكل وسيلة ؛ لقد كان حقا يكره المعاداة ولا يستثيرها ، ولكنه كان اذا جاءته العداوة

الى باب داره بغير داع ولغير مســـاءة منه لم يحفل منها وأهملها ذلك الاهمال الذى يلهب الغضب ويؤجج سعير الحسد ويغنيه عن الانتقام ، ولم يمزح حين قال ان الانتقام الحسن من حســـاده وأعدائه انما هو الاستزادة من أســـباب حســـدهم وعداواتهم ، وانه فى غنى عن مقابلة الحســـد بالانتقام لأن حساده ينتقمون له من أنفسهم ، فقد كان حقا يؤمن بهذه الفكرة كأنها فكرة علمية مقدرة بنتائجها موزونة بميزانها ، فهو الرابح اذا تقدم ونجح ، وحساده هم الخاسرون اذا حســـدوه على التقدم والنجاح .

والذين قالوا عنه انه « نفعى » لم يظلموه فتيـــلا بالمعنى العرفى أو بالمعنى الفلسفى الذى يطلق على مذهب النفعيين Utilitarianism ، ولم يقولوا عنه ما ينكره لو سمعه ، ولا ما يستنكره الناقد الأخلاقى على اطلاقه ، الا أن تكون النفعية على حالتين : احداهما أن يستهين المرء من أجلها بكل قيمة أخلاقية ، والأخرى أن يقدم منفعته الشخصية على المنفعة العامة أو على المنافع التى اصطلح عليها نوع الانسان ، كائنا ما كان موضوع النفع الانسانى من الماديات أو الروحيات .

وليس فى مقدور عدو من أعداء فرنكلين أن ينسب اليه حب المنفعة على حالة من هاتين الحالتين . ولا نعيد هنا ما ذكرناه — فى الكلام على فرنكلين العالم — عن زهده فى جميع المنافع التى تعود عليه من تسجيل اختراع الموقد المعروف باسمه ، ولا عن زهده فى مكاسب المخترعات الأخرى ، ومنها الشائع المتداول كالنظارات وأعمدة الصواعق ، ولكننا نذكر موقفه فى الأعمال الوطنية التى لا تخفى عليه عواقبها وهو من هو فى كياسته وبعد نظره واختباره للطبائع البشرية وتجاربه لحظوظ العاملين من العرفان بالجميل . فقد كان ينوب عن بعض الولايات فى لندن ليعرض على حكومة الدولة وجهة نظر الولايات ويقضى لها مصالحها فى دواوين

الرياسة ، وكان يعلم ان اغضاب رؤساء تلك الدواوين يزعزع مركزه عند الولاية التى ينوب عنها لأنها لا ترجو نفعا من وكيل ينفر منه الرؤساء ويوصدون فى وجهه أبواب الشفاعة والوساطة ، فلم يمنعه علمه بذلك أن يغضب الرؤساء كلما وجب أن يخاطبهم بالحق الصراح الذى لايقبلونه وأغضبهم فعلا مع اشتهاره بالمسالمة والقدرة على القول اللين والعبارة السائغة ، ولما حافظت الولايات على وكالته واستحيت من جزائه بالفصل على أمانته وحسن خدمته أعفاها هو من ذلك الموقف الحرج واستعفاها باختياره ليفتح أمامها باب الانتفاع بوساطة وكيل غيره ، وقد ظهر فى أخريات حياته وبعد مماته أنه كان يحتاج الى انفاق المال لخدمة المصلحة الوطنية ويستبطىء الاجراءات التى لابد منها لاقناع المراجع المعتمدة بضرورة انفاقه وارساله ، فينفقه من ماله الخاص وتنقضى السنون ولا يتمكن من استرداده وهو خارج بلاده . ثم يعود الى بلاده وقد تغير الحكام والنواب وتتابعت الشواغل المستحدثة كل يوم من أيام الاستقلال الأولى ، فيلوذ بالصمت ويترك ما أنفقه غير مقتصر فى المصالح الوطنية الجديدة التى توكل اليه .

والسخرية التى ألفها الأصدقاء والشعراء من كلام فرنكلين وكتابته سمة أدبية ونفسية فى وقت واحد ، وقد تلحق بطبيعته الواقعية النفعية التى تعرف الناس حقيقتهم وتعرف الرياء والصدق من دعاويهم ولا تنتظر منهم فى الدين والدنيا فوق طاقتهم ، وهى أشبه بابتسامة الأب لطفله الذى يريد أن يراوغه ويحتال على خداعه وهو لا يحتاج منه الى الخديعة لاستجابة رجائه أو قبول معاذيره . وقد أثرت لفرنكلين سخريات تضارع سخريات فولتير الفرنسى وسويفت الايرلندى وهما علمان من أكبر أعلام النقد الساخر فى الآداب الغربية ، ولكنها سخريات سليمة من طعنات فولتير المناضل ووخزات سويفت السوداوى الناقم ، وليست له سخرية

يفارقها العطف على المعارضين والموافقين كتلك السخريات المسمومة التي تتخلل كتابات سويفت كثيرا وتتخلل كتابات فولتير من حين الى حين .

والطينة العادية من الصفات التي تكررت في تراجم نقاده ومؤرخيه .

ولا كذب في وصف النقاد والمؤرخين ، وانما الكذب — أو الخطأ — في تقدير هذه الطينة العادية التي خلق منها هذا الرجل العظيم .

ان اللبنة طينة عادية ، والقصر الذي يبنى باللبن طينة عادية ، ولكن القصر واللبنة شيئان مختلفان .

ان الرجل الذي يكون « عاديا » في ملكة واحدة يقال بحق انه من طينة عادية .

ولكن الرجل الذي يكون عاديا في عشرين ملكة وفي كل ما تصدى له من الأعمال والأفكار لا يحسب انسانا عاديا نراه بيننا كل يوم .

ان الوسط في القوة البدنية وسط .

ولكن الوسط في القوة البدنية وفي القوة الفكرية ، وفي القوة الخلقية ، وفي قوة التفكير حين تتجه الى العلم وحين تتجه الى الأدب وحين تتجه الى السياسة وحين تتجه الى الحياة العامة ، لا يقال عنه انه وسط ولا انه في مرتبة من العظمة الانسانية دون مرتبة العظماء المرتفعين المحلقين في جو واحد من أجواء القدرة والكفاية .

وهذه عظمة أحب الى الناس ، وينبغي أن تكون أحب اليهم وأنفع لهم وأولى بالكتابة عنها لطلاب القدوة والحوافز النفسية ، فان الاقتداء بالعظمة المحلقة في السماوات ييئس من يلمس جنبيه فلا يجد فيهما الجناحين القادرين على التحليق ، ولكنه اذا رأى أمامه عظيما يمشي على القدمين في كل طريق يعبره أمثاله لم ييأس من الاقتداء والمشابهة ، وان لم يكن مثله وسطا في عشرات من الكفايات والملكات .

طينة عادية نعم . وهذه هي العظمة التي يفهمها العاديون في جميع

نواحيها ، وتنعت حولها الصلة المحكمة بين العظماء من بنى الانسان وغير العظماء .

« والمستر أمريكان » أحدث ما وصف به فرنكلين الانسان فى كتابات المعاصرين .

والذين وصفوه بهذه الصفة يعنون أنه أول نموذج للأمريكى من الأمريكيين ، وأنه لو عاد الى الحياة اليوم مع رهط من زملائه آباء الاستقلال لم يستغربه أحد ولم يستغرب هو أحدا ممن حوله ، وقد تحيط الغرابة بين الأمريكيين المعاصرين بواشنطون وآدمز وهاملتون وجفرسون وسائر القادة المدنيين والعسكريين .

وهذه الصورة صحيحة فى مجموعها فى انتظار التكملة اللاحقة بها كجميع تلك الصور التى أريد بها حصر الرجل فى قشرة البندقة .

والتكملة التى تلحق بهذه الصورة أنه اذا عاد الى الحياة عاد كما كان فى أيام الحياة : مستر أمريكان فى انجلترا ومستر أمريكان فى فرنسا ومستر أمريكان فى أمريكا ـ ومستر آدم مع هذا حيث كان ، لا يحس القلق والغرابة فى بيئة ينتقل اليها ويقيم فيها ، فهو أمريكى مستريح بين الأمريكيين وأمريكى مستريح بين الفرنسيين وبين الانجليز وبين من شاء من العالمين ـ فاذا أراد أحد بقوله عنه انه « مستر أمريكان » أن يصبغه بصبغة خاصة تلائم هذه البيئة ولا تلائم تلك فهذا هو موضع النقص فى التصوير .

كان دنيويا عصريا انسانيا نفعيا ساخرا من طينة عادية ، ولم تكن فيه صفة من هذه الصفات تناقض الأخرى أو توضع لاستثنائها واقصائها .

وكان انسانا لا تنتظر منه الخوارق ، ولكن الخوارق التى جاءت منه أنه كان وسطا فى أشياء كثيرة ، فكان عظيما لهذا التوسط القليل النظير .

وكانت ملكة العالم هى الملكة الغالبة عليه كما تقدم فى الكلام على أعماله العلمية .

الا أننا نستطيع أن تقول عنه انه « انسان علمى » بمعنى غير ذلك المعنى ، وهو تفسير كل خلق من أخلاقه تفسيرا علميا لا يحير الباحث ولا يدفع به فى معترك النقائض والشكوك .

كل صفة فيه واقعة خاضعة للبحث العلمى والتفسير بالمبادىء العلمية حتى الطيبة والسماحة والاعتدال .

فمن مبادىء العلم ان الطاقة تأخذ بمبدأ المجهود الأقل ، وان الأداة المحكمة هى الأداة التى تصرف كل طاقة الى موضعها ولا تبددها .

فرنكلين كان « طيبا » علميا ، وسمحا علميا ، ومعتدلا فى أخلاقه علميا على جميع الأحوال .

كان لا ينتقم من أعدائه ولا يضيع جهوده فى الانتقام منهم ، لأنه عمل لا حاجة به اليه .

وكان يفضل الفضيلة ويقول بعد البحث ان الخبثاء لو عرفوا فضلها لأصبحوا فضلاء بوحى من الخباثة ، لأن الخلق الكريم بعد الموازنة بين الجهود الصالحة والجهود الضائعة أبقى الجهود وأنفعها وأحقها بالحرص عليه .

وليكن ذلك صحيحا فى عرف الناس أو غير صحيح ، فانما المهم هنا انه صحيح فى التطبيق العلمى كما يطبقه فرنكلين ، وفى الجهود النفسية كما يحسها فرنكلين ، وفى هذا الانسان العلمى الذى يطبق العلم ويطابقه باختياره وبغير اختياره .

انسان لا يحير أحدا فى أمره ، ولا نخال أحدا حيره فى شأن من شئون الطبيعة الانسانية ، فهو لا يفرض على الدنيا لونا لا يراه فيها ، ولا يزال متفتح الذهن لكل غريبة من غرائبها فلا يصل اليها أو تصل اليه حتى يراها فى موضعها صالحة لأن تقترن بالموجودات كلها فى مواضعها ـ وانما تأتى الحيرة من المفاجأة ، وتأتى الغرابة من تضييق الحدود التى تتفتح لها الأذهان ، فلان بقى الذهن متفتحا بغير حدود فكل وارد ضيف مقبول غير محتاج الى جواز « أجنبى » أو اذن بالدخول .

الجزء الثاني
من فرانكلين

تمهيد

يشتمل هذا القسم على متفرقات من كلام فرنكلين فى الموضوعات المختلفة التى تناولها بقلمه ، وهو قسم لا غنى عنه لتمام التعريف برجل عالم كاتب مفكر لم يعمل فى ميدان من ميادينه الكثيرة الا كان لقلمه نصيب واف من ذلك العمل ، وقد كتب فرنكلين فى المباحث العلمية والمسائل السياسية والاجتماعية كما كتب فى شئونه الخاصة التى تعنيه وتعنى ذوى قرباه ، وكان له طابعه الذى ينم على مزاياه النفسية وملامحه الشخصية فى كل باب من أبواب الكتابة، ونحن نود أن نلم بهذه الجوانب جميعا فيما نختاره من كل باب .

وسنقتبس فيما يلى نماذج من كتابته العلمية والاجتماعية ، ولكن الاستقصاء فى هذه الناحية غير مطلوب فى ترجمة عامة ، وانما المطلوب هنا أن نلم بما يعرفنا بطريقته فى البحث العلمى والتفكير الاجتماعى ، وما عدا ذلك فمكانه المطولات المخصصة لتاريخ النظريات العلمية والمخترعات التى تولدت منها ، أو الدراسات التى تشرح أطوار المجتمع ومشكلاته وآراء المفكرين فيها على التتابع أو للمقابلة بينها فى أوانها ، فاذا استطعنا فيما نختاره هنا من كتابته العلمية أن نعرف طريقة بحثه ونرقب تفكيره أثناء عمله فذلك حسبنا من التعريف بهذه الشخصية فى ميدان من ميادينها المتعددة ، واذا استطعنا فيما نختاره من كتابته الاجتماعية أن نعرف ما يعنيه فى المجتمع وما يتوخاه من النظر فى أحواله والحكم على مشكلاته فقد نمت فى الصورة العامة ملامحها التى تصور لنا هذه الناحية من ملامحها الكثيرة .

وقد تعمدنا هنا أن نترجم له دراسة علمية فى مسألة لم يحسبها من مسائله الناجحة، أو من المسائل التى ... فيها الى مقطع الرأى بين الآراء

المحتملة،وتلك هي المسألة التى ذكرها العالم اللاتيني القديم وسجل فيها تجربة الملاحين فى تهدئة هياج البحر بصب الماء عليه . فان دراسته لهذه المسألة — كسائر دراساته العلمية — تستجمع أسلوبه فى احصاء العوامل والفروض والموازنة بينها وتجربة كل فرض راجح منها وتقرير النتائج بمقدارها الذى حققه كل التحقيق فى غير تزيد ولا انتقاص ، وتتمثل فيها طبيعة التردد فى قبول النتائج ما لم تكن جامعة مانعة كما يقول المنطقيون ، وتلازمها طبيعة الأمانة التى لا يستهويها حب النجاح والرضا عن النتيجة التى يرضى عنها الكثيرون .

وتعمدنا فى اختيار النبذتين الاجتماعيتين أن تكونا نموذجا لما أثر عنه من طلاقة الفكر أمام العرف الذى تقرره العادات والخرافات والايمان الأعمى بظواهر العقيدة الدينية ، وطلاقة الفكر أمام العرف الذى تثبته فى النفوس عصبية الأجناس مع الكراهية المتبادلة بين الأعداء المتقاتلين .

أما كتابة فرنكلين التى توسعنا فى الاختيار منها فهى كتابته فى التقويم وكتابته التى يجمعها عنوان الرسائل ، وكلتاهما وافية بالدلالة عليه فى جميع أدوار حياته وفى جميع شواغله الذهنية وخلائقه النفسية .

فتقويم ريتشارد هو الأسلوب الذى شق به طريقه فى الحياة الأدبية والفكرية وقرر به مكانته بين أصحاب الأقلام ومكانته بين قومه على التعميم ، واستوى فيه على نهجه المختار فى الكتابة بعد استقلاله بعمله واختباره لملكاته ومواهبه ومطالب قرائه ، واعتماده على ذلك النهج العملى الذى يتخذ الفكاهة طريقا الى الجد، والتسلية طريقا الى الفائدة، ولم يتغير هـذا الأسلوب بقية حياته فى نسق التعبير ولا موضوعات التفكير ، اللهم الا ما كان من قبيل نضج السن واتساع أفق الاطلاع .

أما رسائله فهى عنوان واحد لكل ما يخطر على البال من الموضوعات التى شغل بها فى حياته العامة وعلاقاته الشخصية ، وقد شملت حياته

العامة — كما تقدم — مباحث العلم ومشاكل السياسة والادارة وجهود الخدمة الوطنية فى داخل بلاده وخارجها ، وشـملت علاقاته الشخصية أناسا من الوزراء والشعراء ، وأناسا من العلماء ورجال الدين ، وأناسا من الجهلاء والأغمار ، كما شملت الرجال والنساء وذوى قرباه ومن ليست له قرابة بهم غير قرابة المودة والعاطفة أو قرابة الاشتراك فى المصلحة العامة. ورب رسالة فى مسألة علمية تتخللها نصيحة انسانية أو استطراد الى البراهين على وجود الله ، ورب رسالة فى الدعابة تكشف عن أعمق أعماق نفسه من حب الخير للناس والرحمة بالحيوان فى زمن لم تعرف فيه كلمة الرفق بالحيوان ، ورب رسالة تكتب الى احدى الصحف عن مسألة عارضة وتعتبر اليوم مرجعا من المراجع الهامة فى تحقيق التاريخ والعلاقات الدولية ، وقلما تخلو رسالة من هذه الرسائل على أنواعها من أسلوب الفكاهة الساخرة التى تسلكه مع الطبقة الأولى بين الكتاب الساخرين فى عصره ، وتفرده بين الأكثرين منهم ببراءة الطوية من الضغن والايذاء ، وبراءة القلم واللسان من لواذع الهجاء .

وليس ما ترجمناه فى الصفحات التالية كل ما يترجم لفرنكلين من الرسائل أو الفصول ، ولكنه — فيما نرجو — نماذج كافية للدلالة عليه والابانة عن مزاياه وملكاته ، وقد يزاد عليها الكثير من قبيلها ، ولكن الزيادة تأتى مكررة لصفات هذه « الشخصية » التى ألممنا بها فى حدود الايجاز والاكتفاء بالميسور .

تقويم ريتشارد المسكين

جرت عادة التقويميين فى أيام فرنكلين على اصدار تقويماتهم خلال شهر أكتوبر من السنة السابقة لتاريخ التقويم ، ولما صحت نية فرنكلين على اصدار تقويمه لم يتيسر له اصداره فى ذلك الوعد فتأخر الى التاسع عشر من شهر ديسمبر ، ولكنه سبق التقاويم التى ظهرت قبله الى بيوت القراء وجيوبهم وعوض ما فاته من مسافة الزمن بالأسلوب المبتكر الذى قربه الى قلوب قرائه ، فأصبح فى صحبة كل قارىء منهم كأنه الصديق المؤتمن الذى يرجع اليه للاستشارة فى مشكلات العيش كما يرجع اليه للسؤال عن التواريخ والمواقيت .

وقد سماه تقويم « ريتشارد المسكين » وصرح فيه بفقره وحاجته الى حظ من الرزق يرجوه من رواج ذلك التقويم ، فنجح فى كسب زمالة القراء كما نجح قبل ذلك فى كسب كل زمالة صالحة فيمن يلقاهم ويلقونه من الصحاب والأعوان ، ونظر اليه كل قارىء من طلاب الرزق فى القارة الجديدة نظرته الى صاحب يعرف ما يعنيه ويحتاج الى مثل حاجته من السعى والتدبير والعمل بالتجارب والوصايا من غير منّ ولا استعلاء ،اذ كان القارىء يتخيل ناصحه فى صورة الزميل الذى يبتلى بمثل بليته ويعرف الحكمة من ضنك الحياة ولا يدعى عرفانها من تفوق فى الرأى أو مزية فى العلم والدراسة .

قال فى فاتحة التقويم الأول : « لقد كان فى وسعى هنا أن أحاول كسب الحظوة عندك بدعواى اننى لا أكتب هذه التقويمات الا رغبة منى فى خدمة المصلحة العامة ، ولكننى اذا زعمت هذا لا أخلص القول وهو

من زخرف المقال الذى بلغ من يقظة الناس فى هذا الزمن أنهم يقبلونه.. أما حقيقة الأمر على جليتها فهى أننى فقير جد فقير ، وامرأتى الطيبة ، كما أقول لها ، جد متكبرة ، وهى تهيب بى قائلة انها لا تستطيع أن تعكف على مغزلها ولا ترانى أعمل شيئا غير النظر فى النجوم ، وتوعدتنى غير مرة أن تحرق جميع كتبى وكل ماعندى من تلك الفخاخ ، كما تسمى آلات الرصد والحساب ، ان لم أستطع أن أصنع بها شيئا ينفع أهلى ، وقد سمح لى الطابع بحصة قيمـة من الربح وبدأت من ثم فى الاستجابة لما أمرت به سيدتى .. » .

ووضحت مزية هـذا التقويم من سنته الأولى على سائر التقاويم بما احتواه من حشو الفراغ ونوافل الكلمات التى لا شأن لها بالتاريخ والتوقيت ولكنها ذات شأن نافع فى التوجيه والانتفاع بالأوقات ، وعابها بعض النظراء والمنافسين على ما يظهر بما فيها من النكات والمضحكات ، فأراد فرنكلين أن يقنع قراءه بفضل هذه الزيادة وانها لا تقتطع شيئا من حق القارىء فى الزاد المفيد بل تسوغ له مذاقه وتساعده على هضمه ، فقال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٣٩ : « لا تقلق أيها القارىء الرصين الوقور اذا رأيت بين عبارات الجد الكثيرة فى تقويمى هـذا نتفة هنا أو هناك من أحاديث الهزل والبطالة . ففى كل صحفة طهوتها لك كفاية من اللحم للوفاء بنقودك ، وهنا وهناك قدد من مائدة الحكمة تعود مع حسن الهضم بالغذاء الجيد الى لبك ، ولكن المعدات المتملة لا تطيق الأكل خلوا من التوابل والمشهيات ، ولعلها فى الحق لا تنفع بشىء فى غير هذا الموضع ، ولكنها تعين على تناول الطعام » .

ولم يكن تقويم ريتشارد المسكين باكورة فرنكلين فى عالم الكتابة ، لأنه بدأ الكتابة كما تقدم فى صحيفة أخيه وهو فى نحو السادسة عشرة فأتى فيها بما يفوق محصـول أمثاله من خبرة العمر ودرجة التعليم ،

وقد أخذ فى كتابة التقويم وهو فى نحو السابعة والعشرين بعد أن مضى عليه أكثر من عشر سنوات يمارس صناعة القلم ويكتب الرسائل والفصول، ولكنه اختار لعبارات التقويم — أو لمعظمها — أسلوب جوامع الكلم ، وهو أدق الأساليب وأحوجها الى الفهم المستقيم والتعبير المحكم والايجاز البليغ مع البساطة والوضوح ، فكانت جوامع كلمه فى تقويماته خير دلالة على الكاتب بلفظها ومعناها ، ورسمته لمن يريد أن يفهمه رسما لا تزيد عليه كتاباته الأخرى شيئا غير التفصيل والتوكيد .

ففى أسلوبها اللفظى دلالة علـى ملكة التعبير وقدرة على النفاذ الى الجوهر واجتناب الفضول ، وفى أسلوبها المعنوى دلالة على الدراية العملية والسجية السمحة والعقل الحصيف الذى لم يقف بالمعرفة قط دون التطبيق المفيد ، فاذا صح قول القائلين ان الأسلوب هـو الرجل فهو أصح ما يكون على فرنكلين ، وأصح ما يكون على فرنكلين نفسه فى « جوامع الكلم » وما شابهها من الحكمة الناجزة والخبرة المركزة ، وليس من النافع أن نطيل التساؤل عن مصدر هذه القدرة على البيان الصحيح : هل كان الفضل فيها لملكة التعبير وذخيرة الكاتب من المفردات والأساليب ؟ أو كان الفضل فيها لصواب الفهم وأصالته فى استخلاص المعانى الجوهرية من الحواشى والفضول ؟ فمهما يكن من فضل ملكة التعبير فهى لا تغنى عن صواب الفهم ، ومهما يكن من صواب الفهم فهو مفتقر الى التعبير المبين ، وجماع القول أن الكاتب أحسن تعبيرا لأنه أصاب فهما وأصاب قبل كل شىء فى فهم رسالة التعبير وأداته وما يعينه عليه .

ونحن نتوسع فى النقل من تقويمات ريتشارد المسكين لأنه كتبها فى عدة سنوات تمتد من شبيبته الى كهولته ، ولأنها أدل كتاباته عليه فى جوانبه الخلقية والعقلية ، وما من صفة اشتهر بها هـذا النابغة المتعدد

الجوانب الا رأيتها بارزة ناطقة فى بعض كلماته التى تناثرت بين هـذه التقويمات، ويكفى أن يتصفح القارىء جملة منها لتثبت فى روعه صورة رجل معتدل المزاج سمح الطباع متزن العقل بعيد النظر صادق الملاحظه خبير بالموازنة بين الاحتمالات المتفرقة والأطراف المتعارضة موفور الحظ من ملكة التعبير فى أسلوب يجمع بين الصواب والفكاهة ، وهكذا كان فرنكلين فى جميع أطوار حياته وفى جميع ما تولاه من المهام والأعمال .

وسنكتفى من أمثاله ومأثوراته فى التقويمات بطائفة مما أورده الأستاذ كارل ڤان دورن[1] أكبر المترجمين له والمشغولين بجمع آثاره ، ونزيد عليها قليلا مما لم يورده ورأينا فيه تتميما لمختاراته ، ثم نختم منتخبات التقويم بفصل عن كسب الثروة يدل على أسلوبه فى مطولاته وفى سائر المطولات .

وهذه هى مأثوراته التى تدخل فى جوامع الكلم والأمثال :

ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان ؟

* * *

الفقر يطلب بعض الأشياء ، والترف يطلب كثيرا من الأشـياء ، والطمع يطلب جميع الأشياء .

* * *

فى الدنيا سكيرون مدمنون أكثر من الأطباء المزمنين .

* * *

ليست الثروة لمن حواها ، وانما الثروة لمن تملاّها .

* * *

هل لك فضيلة ؟ جمّلها اذن بزينة الفضيلة وشمائلها .

* * *

(١) Benjamin Franklin by : Carl Van Doren.

ليس أحلى من الشهاد الا المال والعتاد .

* * *

الملوك والدببة كثيرا ما تتعب حراسها .

* * *

قلب الأحمق فى فمه ، وفم الحكيم فى قلبه

* * *

ما من عدو بالعدو الصغير .

* * *

من يسرع فى الشراب يبطىء فى الحساب .

* * *

اصنع جميلا لصديقك كى تبقيه ، واصنع جميلا لعدوك كى تقربه وتدنيه .

* * *

حيث يوجد الزواج بغير حب يوجد الحب بغير زواج .

* * *

من كان غنيا فلا حاجة به الى التقتير ، ومن كان مقترا فلا حاجة به الى الغنى .

* * *

لا تستحسن من يستحسن كل ما تقول .

* * *

أسرة الحمقى عريقة .

* * *

انظر أمام والا وجدت نفسك وراء .

* * *

تقف الأكذوبة على قدم واحدة ، وتقف الحقيقة على اثنتين .

* * *

البطء والصمت فضيلتان من فضائل الحمقى .

* * *

انكر نفسك فى سبيل نفسك .

* * *

الهرم فى الشباب يكون شبابا فى الهرم .

* * *

السمك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام .

* * *

الدهشة وليدة الغباء .

* * *

ليس للمساومة أقارب ولا أصدقاء .

* * *

من يملك الصبر يملك ما يريد .

* * *

ما من واعظ أوعظ من النملة ، وهى لا تنبس بكلمة !

* * *

لا يخلو الغائب من خطيئة ولا الحاضر من معذرة .

* * *

الفقر والشعر واللقب عرضة للساخرين .

* * *

ريفى بين محاميين سمكة بين قطتين .

* * *

الحب والسلطان يكرهان الأقران .

* * *

شر دواليب المركبة أعظمها ضجيجا .

* * *

اكتب مع العلماء وانطق مع الدهماء .

* * *

اذا شئت ألا تنسى فى جدثك فاكتب ما يستحق أن يقرأ ، أو اعمل ما يستحق أن يكتب .

* * *

لا تؤجل مسعاك الحسن ولا تكن كالقديس جورج يمتطى جواده أبدا ولا يسير .

* * *

كما نحاسب على كل كلمة سخيفة نحاسب على كل صمت سخيف .

* * *

دع المسرات تتبعك .

* * *

الزمن عقار يداوى كل داء .

* * *

اذا علمنا القدماء ما هو أفضل فليعلمنا المحدثون ما هو أوفق .

* * *

بيت بغير امرأة ولا وقاد ، جسد بغير روح ولا فؤاد .

* * *

لا القلعة ولا الحسناء تثبت طويلا بعد المفاوضة .

* * *

زوج ابنك حين تريد ، وزوج بنتك حين تستطيع .

* * *

افتح عينك كلها قبل الزواج ، ولا تفتحها كلها بعده .

* * *

الحمقى يبسطون الموائد والحكماء يأكلونها .

* * *

تبكير فى النوم وتبكير فى اليقظة صحة وثروة وحكمة .

* * *

احفظ دكانك ودكانك يحفظك .

* * *

الكيس الفارغ لا يقف مستقيما .

* * *

التجربة مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون فى غيرها .

* * *

المفتاح المستعمل لماع .

* * *

لأجل مسمار ضاعت الحدوة ، ولأجل حدوة ضاع الحصان ، ولأجل حصان ضاع الفارس .

* * *

الانتقال ثلاثا نكبة كنكبة الحريق .

* * *

مطبخ سمين وصية هزيلة .

* * *

ثلاثة يحفظون السر اذا مات منهم اثنان .

وهذه نماذج من حكم التقويم قد اجتهد كارل فان دورن أن يوفى بها التمثيل لما جاء منها فى التقويم على مختلف السنين ، ولكن حكم التقويم على الخصوص كانت أكثر المأثور من كلام فرنكلين تفرقا بين تراجمه المطولة أو الموجزة ، وان كان بعضها مقصورا على دراساته العلمية أو مساعيه السياسية ، وهذه طائفة أخرى منها نجمعها من هنا وهناك لندل على ملازمتها لذكره فى عصره وبعد عصره وعلى اتساع نطاقها فى الاعراب عن مختلف الأمزجة والأهواء :

* * *

من لا يقدر على الطاعة لا يقدر على الأمر .

* * *

تدبر طويلا فى اختيار الصديق ، وتدبر أطول من ذلك فى تبديله .

* * *

حسن يتعمل خير من حسن يتقال .

* * *

خير لك أن تضار مرات من أن تضير مرة .

* * *

الهمة أم الحظ السعيد .

* * *

الجهل لا يعيب الانسان كما يعيبه ألا يقبل التعليم .

* * *

بم تعبد الخالق ؟ بالاحسان الى الخلق .

* * *

اذا كان رأسك من الشمع فلا تمش فى الشمس .

* * *

فضيلة وحرفة خير ميراث للوليد .

* * *

القدوة الصالحة أبلغ العظات .

* * *

لا تحكم على ثروة الانسان ولا على تقواه بسيماه فى يوم الأحد .

* * *

من نام مع الكلاب تيقظ مع البراغيث[١]

* * *

الأحمق من يجعل طبيبه وريثه .

* * *

الشجاع والحكيم يعذران حيث لايتسع للرحمة قلب المغفل والجبان.

* * *

الفرصة أنجح غواية .

* * *

من يعشق نفسه فليس له مزاحم فى الغرام .

* * *

عين المعلم أقدر من يمينه .

* * *

ساعدينى ياذراع فليس عندى ضياع .

* * *

حراث على قدميه أشرف من سيد على ركبتيه .

* * *

ليس الكرم أن تجزل العطاء . الكرم أن تعطى فى موضع العطاء .

---

(١) هذه الأمثال مختارة من كتاب ريتشارد المسكين تاليف دويرتى Daugherty

أخفى الحماقات حكمة أفرطت فى الدقة .

* * *

الملح مع حكماء يونان أجمل طعاما من السكر مع ندماء الطليان .

* * *

وليست هذه الحكم جميعا من ابتكار فرنكلين ، ولكنها خليقة كلها أن تنسب اليه لأنه يصبغها بصبغته ، ويلبسها بعصاه ، ويقولها كما ينبغى أن تقال فى نظره وان جاءت قبل ذلك فى معناها على لسان غيره .

وقد أشار « ڤان دورن » الى الحكم المستعارة من هذا القبيل فذكر منها بعض الشواهد على منهج فرنكلين فى تحويل الحكم المستعارة الى أسلوبه وتصحيحها بذلك وفاقا لتفكيره وتعبيره ، ومنها الحكمة الايقوسية التى تقول : « الخزنة السمان عمال عجاف » فانه يقتبس معناها فيقول « مطبخ سمين وصية هزيلة » . ومنها الحكمة الشائعة التى تقول : « ثلاثة يحسنون النصيحة اذا غاب منهم اثنان » ، فانه يتعهدها بما عنده من فرط الأناة والحذر فيقول : « ثلاثة يحفظون السر اذا غاب منهم اثنان » .

وقس على ذلك سائر الحكم من هذا القبيل وهى ليست بالكثيرة ، فقد حرص فى كل ما أثبته من نصائح التقويم أن يتقبلها قراؤه ويشعروا بمنفعتها وموافقتها لأحوالهم التى هى فى الوقت نفسه أحواله من أكثر الوجوه ، وقد كان الأغلب الأعم من وصاياه يدور على فضيلة القصد والحزم وهما ألزم الصفات لطلاب الرزق من العصاميين والغرباء الذين لم يتأصلوا بعد فى البلاد ، ولعله لم يكن فى معيشته قدوة فى القصد والحرص على المال ، أو لعله أصاب حين قال ان القصد الذى حرمه قد تعوضه من تدبير امرأته وربة بيته ، ولكنه كتب ما يود أن يتبعه ويود كل قارىء مثله لو وفق لاتباعه ، فكان لسانا ينطق بما يجيش فى كل ضمير .

قال الحكيم اللاهوتي هوثورن Hawthorne الذى خطب فى ذكراه (سنة ١٨٤٢) :

« أشك فى أن الكشوف الفلسفية التى كشفها فرنكلين على جلالتها ، أو الخدمات السياسية التى قام بها على اتساعها ، كانت تكسبه كل هذا الصيت البعيد الذى أحاط باسمه لولا تقويم ريتشارد المسكين فهو أجدى من كل عمل سواه فى اذاعة ذكره بين جمهرة الناس ، فانه بكتابته تلك الحكم التى كانت تحسب من كلام ريتشارد المسكين قد أصبح المستشار الناصح الأمين لكل بيت فى أمريكا على التقريب ، ومن ثم كان أعظم أعماله وداعة وتواضعا أعظمها عائدة عليه بالصيت البعيد » .

ويشتمل التقويم كما تقدم على نمط آخر من النصائح المعيشية التى تشتمل عليها التقاويم عادة ولكنها مطولة بعض التطويل يشغل بها مكان المقدمة ويتخللها بالملح واللواذع المضحكة على أسلوبه فى الحكم الصغار ، ومن قبيل هذه النصائح المطولة مقاله عن « السبيل الى الثروة » الذى أضافه الى ترجمته فى طبعاتها الأخيرة ، وقد احتال فيه على اعادة بعض الحكم القصار بلسان الرواية من باب المراجعة والتذكير .

قال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٥٨ وقد سماه فى هذه الفترة تقويم ريتشارد المسكين « فى التحسين ! » :

أيها القارىء المهذب :

سمعت أنه ما من شىء يدخل السرور على قلب المؤلف كأن يرى المؤلفين العلماء يعنون باقتباس كلامه ، ولكنه سرور قلما استمتعت به ، لأننى ، وان كنت — بغير ادعاء أو غرور — قد أصبحت من مؤلفى التقاويم المعدودين منذ ربع قرن لا أجد اخوانى فى هذه الصناعة — ولا أدرى لماذا — يجودون على بالثناء والتنويه ، وما من مؤلف آخر عنى بذكرى فى بعض كلامه ، فلولا ما أصيبه من الخير من كتابتى لكان نقص الثناء خليقا أن يثبطنى ويفت فى عضدى .

وآل بى الأمر الى الاعتماد على قضاء الناس وتقديرهم لعملى دون غيره ؛ لأنهم يشترون كتبى وأسمع منهم من يقول حيث لا يعرفنى أحـد خـلال طوافى بالمدينة : « كذلك قال ريتشارد المسكين » فأشاع ذلك فى نفسى مع توالى الأيام شيئا من الرضا ، لأنه لا يدل على العناية بآرائى وحسب بل يدل مع ذلك على أننى قد أصبحت مرجعا لهم يستشهدون به ويعتمدون عليه ، واننى لأقر هنا اننى فى سبيل الحض على ذكر تلك الحكم وتكرارها قد طالما استشهدت أنا نفسى بكلامى فى جد وتوقير .

وعلى هذا تستطيعون أن تقدروا مبلغ اغتباطى بالقصة التى سأرويها لكم فيما يلى :

« وقفت حصانى أخيرا حيث كانت جمهرة من الناس تتجمع فى بعض الأسواق ، ولم تكن ساعة البيع قد حانت بعد فأخذوا يتحدثون بينهم عن سوء الحال وأومأ أحدهم الى شيخ من عامة الجمع نظيف البزة فسأله : بربك أيها الأب ابراهيم . ما ظنك بهذه الأحوال ؟ أليست هذه الضرائب الثقيلة وشيكة أن تقضى بالبلد الى الخراب ؟ فكيف ترانا قادرين على أدائها ؟ وبماذا تنصح لنا فى أمرها ؟

فقام ابراهيم فى مجلسه وأجابهم قائلا : « ان أردتم نصيحتى فهأنذا أمحضكم اياها فى كلمات وجيزة . لأن الكلمة فيها الكفاية للعاقل ، وكثير من المقال لا يملأ المكيال كما يقول ريتشارد المسكين . فأقبلوا عليـه يستمعون اليه ورجوه أن يكاشفهم بجلية رأيه ، فقال :

« أيها الصحاب ! أيها الجيران . ان الضرائب لثقيلة حقا ، ولو كانت ضرائب الحكومة وحدها هى التى نطالب بها لكان من الميسور لنـا سدادها ، ولكننا ننوء بضرائب شتى يتضاعف ثقلها على بعضنا .

« فنحن مثقلون بضعفيها من جراء كسلنا ، ومثقلون بثلاثة أضعافها من جراء كبريائنا ، ومثقلون بأربعة أضعافها من جراء حماقتنا ، وكلها

من الضرائب التى لايستطيع الجباة أن يخففوها عنا بالتقسيط أو النسيئة، فعلينا اذن أن نصغى للنصيحة الحسنة وترقب من ثم شيئا ينفعنا ، فان الله فى عون من يعين نفسه كما قال ريتشارد المسكين فى تقويم ثلاث وثلاثين .

« انها لحكومة قاسية تلك الحكومة التى تسوم رعاياها أن يفرغوا عشر أوقاتهم لخدمتها ، ولكن الكسل يسوم الكثيرين منا فوق ذلك لو أننا أحصينا الساعات التى ذهبت منا هدرا فى التوانى والتهاون لا نعمل شيئا أو نعمل ما ليس بشىء من ضروب اللهو والمجانة ، وان الكسل ليسقم أبداننا مذ كان الركود كالصدأ يبلى منها ما ليس يبليه الجهد والتعب ، ولن يزال المفتاح العامل لامعا كما قال ريتشارد المسكين. وكذلك قال اننا ما دمنا نحب الحياة فلا ينبغى أن نفرط فى الوقت لأن الوقت هو قوام الحياة ، وكم من الوقت نقضيه فى غير ضرورة مستسلمين للرقاد ناسين أن الثعلب النائم لا يصطاد دجاجا وأن تحت التراب نوما طويلا كما قال ريتشارد المسكين .

« واذا كان الوقت أنفس قنية فتبديد الوقت على رأى ريتشارد المسكين أسوأ ضروب الاسراف ، ولن يعود الوقت الضائع ثانية كما قال فى عبارة أخرى ، وما نسميه الكفاية من الوقت كثيرا ما تنظر فنراه دون الكفاية . فعلينا اذن أن نمضى قدما عاملين ، وأن نعمل ما ينبغى أن يعمل فننجز الكثير ولا نعانى من القلق والهم غير القليل ، وكل شىء صعب مع التهاون والكسل سهل مع السعى والاجتهاد كما جاء فى كلام ريتشارد المسكين ، ومن فاته التبكير حق عليه العناء سحابة النهار وأتى عليه الليل ولما ينجز من عمله ما ينجزه المبكرون ، وما أحرى الكسل فى خطواته البطاء أن يدركه الفقر على عجل كما قرأنا فى تقويم ريتشارد المسكين الذى يقول هذا ويزيد عليه أن ادفع عملك ولا تدع عملك يدفعك ، وان

التبكير فى النوم والتبكير فى اليقظة صحة وثروة وحكمة .

« وأحسبنى أسمع بعضكم يقول : ألا يجوز للانسان أن يسمح لنفسه ببعض الفراغ؟ فأنا قائل لك أيها الصديق ما قاله ريتشارد المسكين: أحسن استخدام وقتك ان أردت أن تنعم بقسط من الفراغ ، وما دمت لا تضمن دقيقة فلا تقذف بساعة من يديك .

« ان الفراغ وقت ينتفع به ، وفى وسع الرجل العاقل أن يجد هـذا الفراغ وليس ذلك فى وسع المتبطل الكسلان ، وصدق ريتشارد المسكين حيث يقول : ان حياة الفراغ وحياة الكسل شيئان مختلفان . أفتحسبون ان التهاون يعطيكم من الراحة فوق ما يعطيه العمل ؟ كلا . فان ريتشارد المسكين يقول : تأتى المشكلات من الكسل وتنجم المشقة من الراحة فى غير جدوى . وكثير من الناس يودون بغير عمل أن يعيشوا على حيل ذكائهم فحسب ، ولكنهم لا يجدون الخزين الكافى من هذه البضاعة ، فى حين أن الاجتهاد يأتى بالراحة والوفر والاحترام . ودعوا المسرات تتبعكم والغازل الدؤوب عنده « شلة » وافية ، واذا كانت عندى بقرة وشاة فكل عابر يقرئنى التحية ، كذلك يقول ريتشارد المسكين .

وعلينا مع الاجتهاد أن نثابر ونتنظم ونتنبه ، وأن ننظر فى عملنا بأعيننا ولا نتكل فيه على غيرنا ، وصدق أيضا ريتشارد المسكين اذ يقول: « ما رأيت شجرة كثيرة التنقل ، ولا أسرة كثيرة الترحال ، الا كانت فى ثمراتها دون زميلتها التى تنتظم على حال » .

وكذلك يقول : «الانتقال ثلاثا نكبة كنكبة الحريق»، وكذلك يقول: احفظ دكانك ودكانك يحفظك ، وكذلك يقول : ان أردت أن تنجز عملك فامض أنت وان لم ترد فأرسل فيه من ينوب عنك ، ومن أراد أن يسعد بالمحراث فلابد له من مقاد أو سياق ، وعين السيد أفعل من كلتا يديه ، وقلة العناية أفدح ضررا من قلة المعرفة ، واذا قصرت فى مراقبة صناعك

فأنت تفتح كيسك لهم وتتركه ، والاعتماد الكثير على الغير يجر الخراب على الكثير ، والناس فى هذه الدنيا كما جاء فى التقويم لا تتحقق لهم النجاة بالثقة والاتكال بل بقلة الثقة والاتكال ، وعناية الانسان بنفسه هى المجدية عليه ، ويقول ريتشارد المسكين أيضـا : المعرفة للدارس والثروة للمعتنى كالقوة للجسور المقدام ونعيم السماء للصالح الورع . أو كما قال كذلك : ان أردت لك خادما أمينا وخادما ترضاه فاخدم نفسك! وانه لينصح بالمراقبة والاشراف حتى فى صغار الأمور . اذ يحدث كثيرا أن قليلا من الاهمال يجلب البلاء الكبير ، وقد ضاع مسمار فضاعت الحدوة ، وضاعت الحدوة فضاع الحصان ، وضاع الحصان فضاع الفارس حيث أدركه العدو وقضى عليه ، من أجل مسمار فى حدوة حصان .

هذا فى أمر الاجتهاد — أيها الأصدقاء — وأمر عناية المرء بعمله وموالاته له بنفسه ، ولكننا حريون أن نضيف القصد الى الاجتهاد اذا أردنا أن نستوثق من ثمرة اجتهادنا . فان الذى لا يحسن الادخـار كما يحسن الكسب يظل أنفه على المسن طول حيـاته ويموت وهـو لا يسـاوى فلسا مما كسب ولم يدخر . وصـدق ريتشارد المسكين اذ يقول : ان المطبخ السمين وصية هزيلة ، وكم من ضيعة ضاعت لوقتها منذ ترك النساء الغزل فى سبيل الشاى ، وترك الرجال الحرث فى سبيل الكأس .

وانه ليقول فى تقويم آخر : ان أردت الغنى ففكر فى الجمع كما تفكر فى الطلب ، وما استطاعت فتوح الاسبان فى أمريكا أن تغنيهم لأنهم بددوا أكثر مما غنموه .

فبعدا اذن للسرف وعاداته ، وأمانا اذن من الزمن وغدراته ، اذ لا يبقى لديكم بعد الخلاص من ربقة السرف ما تجدونه اليوم من علل الشكوى والتبرم بسوء الحال وثقل الضرائب وتكاليف البيوت ، وصدق ريتشارد

المسكين مرة أخرى فيما قال حيث قال : ان النساء والخمور واللعب والغرور ، تنقص من الثروات وتزيد من المطالب والحاجات ، وان تربية رذيلة واحدة تكفى لتربية طفلين ، ولعلكم تظنون حينا ان قليلا من الشاى أو قليلا من الشراب أو قليلا من النفقة يزاد على تكاليف الطعام ، أو قليلا من البذل يزاد على ثمن الكساء أو قليلا من الدعوات والولائم بين حين وحين لن ينجم عنه شيء كثير . فاذكروا اذن ما يقوله ريتشارد المسكين اذ يقول : حذار من تضييع القليل فان ثغرة صغيرة تغرق السفينة الكبيرة ، ومن أحب اللطائف والقطائف أقام الحجة للسائل والأفاق ، وان الحمقى يبسطون الموائد والحكماء يأكلونها .

ولنختم الآن هذا الحديث فنقول : ان التجارب مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون فى غيرها ، ولعلهم لا يحسنون التعلم فيها بعد ذلك فاننا نستطيع أن نسدى النصح ولا نستطيع أن نسدى الخلق والسجية، واذكروا على كل حال ان الذين يتلقه[illegible] ورة لا يتلقون المعونة ، وان الذى يصم أذنيه عن نصيحة الر[illegible] كبتاه .

وهكذا ختم الشيخ حديثه، [illegible] اليه القوم وأقروا الرأى وذهبوا على الأثر يعملون بنقيضه ، كأنما كان هذا الحديث موعظة من مواعظ المنابر فى المعابد ، فما هو الا أن فتحت السوق وبدأ البيع والشراء حتى تهافتوا على السلع يبذلون فيها المال عن سعة ولا يبالون تحذيره من السرف وخوفهم من الضرائب الثقال . وألفيت الرجل الطيب قد وعى ما كتبت فى تقويماتى وهضم كل ما دونته فيها خلال هذه السنين الخمس والعشرين ، ولا بد أن الاشارة الى كرة بعد أخرى قد أسأمت كل من سمعها سواى ، وان كانت قد طيبت خاطرى وأرضت غرورى ، مع علمى أننى لم أكن صاحب تلك الحكمة ولم يكن لى مقدار عشرها ، وانما هى حصاد الأجيال والأسلاف .

على أننى قد عولت أن أنتفع بصداها وكنت أنوى أن أبتاع قماشا لسترة جديدة فعدت من السوق معتزما أن ألبس سترتى العتيقة فترة أخرى .

أيها القارىء

" انك ان صنعت مثل صنيعى كان نفعك منه مثل نفعى ، وانى على الدوام رهين خدمتك .

٧ من يوليو سنة ١٧٥٧ .

رسائل

تعد رسائل فرنكلين بالمئات ، نشرت فى مجموعات متعددة حسب موضوعاتها أو حسب الجهات التى أرسلت اليها ، ومنها العام الذى يرتبط بالسياسة والعلم والمصالح القومية ، ومنها الخاص الذى يراسل به أهله وذويه وخاصة صحبه ، ويقصر فى الأعم الأغلب على التحية واسداء الرأى فى المسائل البيتية .

وكل هذه الرسائل مما يصح أن يوصف بالكتابة الفرنكلينية : ونريد بها الكتابة التى تتسم بطابع الرجل وتنم على ملامح نفسه وعادات تفكيره، وليس المراد بهذا أننا نقرأ الرسالة بغير توقيعه فنعلم أنها من قلمه ، فان هذه الخصيصة ربما صدقت على الكثير من كتاباته ولكنها لا تصدق عليها جميعها ، ولكن المراد بالكتابة الفرنكلينية أننا اذا بحثنا فيها لم نخطيء فيها دلالة على خلقه أو رأيه أو شواغل عمله ، وعلى سبيل التمثيل نشير الى رسالة وجيزة مكتوبة فى مسألة مألوفة فى المراسلات بين الاخوة والأقارب كتبها الى أخته جين Jane أحب أخواته اليه لأنها استشارته فى ارسال ابنها بينى Benny الى نيويورك ، فقال لها فى أسطر معدودات: « اذا كنتم على رغبتكم فى ارسال بينى فأرسلوه على أول مركب الى نيويورك واكتبوا معه سطرا موجها الى مستر جيمس باركر الطباع ... وأنا على ثقة من حسن معاملته هناك وسأتلقى خبرا عنه فى الأسبوع نفسه ، وأوصوه أن يكون على الدوام بشوشا مرحا مستعدا لعمل كل ما يؤمر به وكسب الرضا من كل من يعمل معه ، فهذه خير وسيلة لاقتناء الأصدقاء ، ومحبتى لك يا أختى العزيزة لحسن رعايتك لأبينا فى مرضه» .

فهذه الرسالة « فرنكلين » فى أكثر من سمة واحدة ، لأنه لا ينسى فيها الخصلة التى عرفت عنه فى أدوار حياته من صباه الى أواخر أيامه وهى الحرص على كسب الأصدقاء واتقاء المغاضبة والعداء ، وهى تطابق حكمته التى كررها كثيرا وفحواها أن يحسن الانسان الى الصديق ليستبقيه ويحسن الى العدو ليستدنيه أو يعيده الى مودته ، وهذا مع البر بالأهل والعناية بأداء الواجب وانجاز ما يفرضه على كل من يناط به عمل يؤديه .

ومثل هذه السمة لا نخطئها فى رسالة من رسائله العامة أو الخاصة ، فهى تمثله للقارىء حينا بما فيها من روح الفكاهة والسخرية الطيبة ، أو بما فيها من طبيعة المودة والمسألة واستنفاد كل حيلة فى سبيل التفاهم والاقناع ، أو بما فيها من الدقة والتنظيم واجتناب الاسراف والفضول، وقد كان يكتب رسائله العامة الى الصحف على أسلوبه فى أول كتاباته منذ نشأته الصحفية الباكرة ، فبعضها فى قالب الأماثيل على ألسنة الآخرين وبعضها فى قالب العظات الفكاهية ، وبعضها فى قالب التلخيصات المرتبة كما ترتب الدروس الملخصة ، وبعضها فى قالب الحوار بين اثنين أو أكثر من اثنين ، ويجرى حواره على نسق الحوار المعهود فى كتب أفلاطون ، آراء متتابعة تملى ما بعدها ويأخذ بعضها برقاب بعض ، ثم تستدعى ردودها وأجوبتها كأنها تأتى من قبيل الحقائق المفروغ منها ، وهى كما لاحظ جامع رسائله الى الصحافة ڤيرنر كرين Verner W. Crane «مقنعة ولكنها ليست بالدرامية فى وضعها » (١) أى انها تقنع الفكر ولكنها لا تثير الشعور ولا تستجيش الخيال كما يحدث عند قراءة الحوار الدرامى الذى ينوع الكاتب شخوصه ويبرز فيه الأمزجة والدوافع النفسية فتستجيب لها نفس القارىء بما تثيره من دوافعه وطواياه .

---

(١) Letters to the Press 1758-1775.

وهذه الرسائل التى نترجمها مقتبسة بغير عناء فى الاختيار من أشتات رسائله الخاصة والعامة ، لا نتوخى فيها الا أن تكون معبرة عن فرنكلين فى عادة فكر أو سجية شعور أو طريقة عمل ، ولا حاجة الى العناء الطويل فى الاختيار لهذا الغرض لأن كتاباته كما قدمنا فرنكلينية بطبيعتها فى صفة واحدة على الأقل من هذه الصفات .

رد على خطباء القهوات

كتب هذه الرسالة ، بتوقيع مستعار ، الى صحيفة لندن كرونيكل London Chronicle بتاريخ التاسع من أبريل سنة ١٧٦٧ ردا على خطباء القهوات الذين كانوا يحرضون الشعب الانجليزى على قمع الولايات الأمريكية وأخذها بالعنف والصرامة بدلا من الاصغاء الى مطالبها الوطنية .

قال :

« لقد كان لأثينا خطباؤها ، وقد صنعوا لها فى بعض الأوقات خيرا كثيرا كما صنعوا لها الشر الكثير فى أوقات أخرى ، وكان أسوأ ماصنعوه من شر على الخصوص يوم نجحوا فى اغرائها بشن الغارة على صقلية فناءت بأعبائها وخسائرها وكان من جرائر تلك الحرب أن الدولة الزاهرة سقطت ولم ترجع الى ازدهارها بعد ذلك أبدا .

« وان هؤلاء الصياحين بالدهماء بين الأقدمين يخلفهم فى العصر الحديث كتاب نشراتكم السياسية وكتاب الصحف وخطباء القهوات .

« ومما يلفت النظر أن رجال الجندية المنقطعين لهذه الصناعة ، وهم أناس متصفون بالشجاعة التى لا جدال فيها ، قلما يشيرون بالاقدام على الحرب الا عند الضرورة القصوى ، بينما يتعالى اللغط بالحرب لأتفه الأسباب من أناس كأولئك الصياحين والثرثرة والمحدثين الذين هم

بطبيعتهم يهابون أو بحكم أعمالهم البدنية تعوزهم تلك النخوة التى تنبعث منها الشجاعة الصادقة ، ويبدو عليهم كأنهم أشد بنى آدم تعطشا الى الدماء .

« وانا لفى هذا الزمن الذى لم نكد فيه تتنفس فى أعقاب الحرب الشعواء المرهقة التى أهدرت الدماء والأموال على نحو لم يسبق له مثيل فى القارة الأوربيــة ، نرانا أمام طوائف ثلاث من الخطباء يجتهــدون اجتهادهم فى اثارتنا على أصدقائنا والاندفاع بنا الى حرب مع البرتغال وحرب مع هولندة وحرب مع مستعمراتنا .

« فأما الحربان الأوليان فليس فى نيتى أن أبحث فيما تنطويان عليــه من الحكمة والانصاف ، اذ لا أحسب أن انجليزيا يخامره الشك — اذا كان الهولنديون قد أساءوا الى أجدادنا قديما قبل مائة وخمسين سنة — أن الانتقام منهم واجب فى آية لحظة كائنا ما كان مبلغ الصداقة بيننا بعد تلك الاساءة ، وأن البرتغاليين — اذا كانوا يشترون ثيابهم من الفرنسيين بأثمان أقل من أثمان الثياب عندنا — حقيقون بأن نوسعهم ضربا حتى يثوبوا الى الصواب ويتخذوا لهم رأيا غير ذلك التفضــيل والايثار .

« فاذا سلمنا أننا من القوة والبأس بحيث نقدر على ضرب هولنــدة والبرتغال معا ، لسبب أو لغير سبب ، ومعهم أصدقاؤهم الذين ينتصرون بهم أو بمعزل من أولئك الأصدقاء ، وعلينا أعداؤنا الذين يستثيرهم ذلك الصنيع أو بمأمن من أولئك الأعداء ، وسلمنا كذلك أن الهولنــديين أيضا خليقون أن يضنوا لنا بالنفقات اللازمة للقتال — اذا سلمنا ذلك جميعا فلا غرض لى الا أن أضع بين يدى ذوى النظر ، بكل خشــوع ، فرضا يخطر على البال؛وهو أن تكون لنا على تلك الفروض وسيلة أخرى لفض الخلاف بين وزرائنا الأسبقين ومستعمراتنا بوسيلة غير قطع الرقاب!

« وكل خطوة تقودنا الآن الى السخط على أمريكا : تتطاير النشرات

والصحف ويضج خطباء القهوات بالأكاذيب التى تقول عنها انها ثائرة عاصية ، وتستدعى القوة والأساطيل والجحافل للذهاب اليها ، وما يوجد منها هنالك ينبغى أن يستدعى من الأرجاء النائية لاحتلال العواصم الكبرى ، وينبغى كذلك أن يساق رؤوس القوم الى البلاد الانجليزية لتعليقهم على المشانق وما شابه ذلك ... ولماذا كل هذا ؟

لماذا ؟ أتسأل لماذا ؟

نعم . أرجو أن يؤذن لى أن أسأل : لماذا ؟

وجواب لماذا هذه أن القوم يبغون اسقاط الحكومة فى هذه البلاد واقامة أنفسهم فى مقامها .

فكيف بدأ ذلك كذلك ياترى ؟

تقول : كيف بدأ ؟ أليسوا جميعا يحملون السلاح ؟

تقول : كلا . بل هم جميعا فى سلام .

— أفلم يمتنعوا عن أداء التعويض للمصابين فى حوادث الشغب الأخيرة كما طلبت الحكومة هنا ؟

— كلا . بل هم قد بذلوا الترضية الوافية ، وهى — على فكرة — ترضية لم تبذل هناك لضحايا الشغب الذى حدث منكم هنا .

— أفلم يشعلوا النار فى دار المكوس والجمرك ؟

— كلا . ان القصة كلها أكذوبة ملفقة لا أصل لها على الاطلاق .

— أفلم يتمردوا على القانون البرلمانى الذى ينص على ايواء الجنود؟ فلم يرسلوا الى الحكومة هنا طالبين الغاء الحجر على تجارتهم والغاء قانون الملاحة بهذه المثابة ؟

— ان الجمعية فى ولاية واحدة — ولاية نيويورك — هى التى أنكرت ذلك القانون ، وان بعض التجار فى تلك الولاية هم الذين اجترأوا على ذلك الطلب . فاذا سلمنا أن الانكار والطلب خيانة عظمى ،

فهل نسلم أن خمسا وعشرين ولاية تعاقب بجزيرة ولاية واحدة ؟

هلموا ننظر فى سكون فى معنى ذلك القانون ومعنى انكاره ومعنى الطلب من أولئك التجار .

ان القانون قد صدر من نفس الادارة التى أصدرت قانون الدمغة ، ولعله قد أريد به تيسير ارهاب الولايات لاخضاعها لحكمه ، ولهــذا اشتملت نسخته عند تدوينها لأول مرة على فقرة تخول ضباط الجيش أن ينزلوا الجنود فى المنازل الخاصة بأمريكا ، ولما عورضت هذه الفقرة أشد المعارضة انتهى الأمر بحذفها والاكتفاء باستئجار المساكن الخالية والأنبار (مخازن الغلال) لايواء الجنود حيث يزودون بالوقود والمصابيح والفراش وأدوات الطبخ وتهيئة الطعام ، مع خمسة أكواب من الجعة أو السدر أو نصف كوب من شراب الروم لكل جندى كل يوم ، وبعض أشياء أخرى لا تؤدى أثمانها جميعا بل تتكفل بها خزانة الاقليم . وما من وسيلة فى الاقليم لجمع المال غير اصدار قانون من مجلس الولاية يوجب تحصيله ، وعلى هذا وجب أن ينظر الى الأمر على اعتباره قانونا صدر هنا ليعززه قانون يصدر من المجالس الأمريكية ، وقد ارتاب بعضــهم فى صواب هــذا الاجراء لأنهم يرون أن المجالس فى أمريكا انما هى برلمانات صغيرة وليست هيئات تنفيذية أو ديوانا من دواوين الحكومة يعمل عمله تنفيذا للأمر الذى يصدر اليه ، فانما هى هيئات مشورة وابداء آراء ينظر أعضاؤها فيما يعرض عليهم ليتدبروا منافعه وضروراته ووجوه الصواب والامكان فيه ثم يقرروا ما يقررونه حسبما يرونه ، فاذا أكرهت هذه المجالس على سن القوانين ، على صواب أو على خطأ — اطاعة لتشريع تمليه عليها هيئة تشريعية أخرى فلا نفع لها باعتبارها هيئة نيابية ولم تبق لها صفتها ولا حقيقة كيانها . والحق أن القانون البرلمانى نفسه يلوح عليه أنه أحس ذلك لأن القوانين الأخرى التى تفرض الواجبات

على الأشخاص تنص على عقوبة الرفض والاهمال وعلى الطريقة التى تتبع فى تنفيذ تلك العقوبة ، ولم يرد نص كهذا — ولا يعقل أن يرد — فى مثل هذا القانون البرلمانى عما يطلب من مجالس الأقاليم ، فوقع فى حساب الأمريكيين أنه طلب تنظر فيه المجالس لتقره أو لا تقره ، كله أو بعضه ، حسب اختلاف الأحوال بين الأقاليم ، ومن ثم قبلته ولاية بنسلفانيا حيث يقل عدد الجنود على العموم ، ولم تقبله ولاية نيويورك حيث تعبر الجنود جيئة وذهابا عــدة مرات بين بريطــانيا والولايات الفرنسية ، وحيث يشعرون بثقل العبء عليهم من جراء تنفيذه ، ولهذا قبلت الولاية جزءا من الطلب ووجهوا خطابا الى حاكمهم سردوا فيه أسبابهم بأسلوب ملؤه اللطف والاحترام .

وان كثيرا من الناس ليبدو لهم أن هذا القانون خطأ على التحقيق . اذ ليس من اليسير توضيح سبب حسن لانزال الجنود فى مكان من الأمكنة بين مستعمرات الملك جميعا لتزويدها بشىء ما فى مقابلة لاشىء ... انهم يصطحبون معهم صرافا على الدوام ، فلماذا لا يؤدى الثمن لكل ما يحصلون عليه ؟ .

ان هذه التكاليف عبء ينفرد بحمله الاقليم الذى يتفق أن يلقى عليه ، وهو من ثم غير عادل وغير سواء ، وفى بريطانيا يلقى هذا العبء على أصحاب الخانات ويعتبر كالضريبة التى تفرض على أرباب هذه الصناعة ، وفى وسعهم تعويض الغرم بزيادة الأجر على النزلاء وتوزيع الضريبة بهذا الأسلوب على نحو أقرب الى المساواة ، ولكن الولاية التى يتفق أن تتعرض لهذا الغرم لا تستطيع أن تلقيه على ولاية أخرى معفاة منه بحكم موقعها .

الا أن خطباءنا — خطباء القهوات — ينظرون الى المسألة نظرتهم ويقررون أن هذا الانكار الموافق لمجرى القانون عصيان يعاقب بما

يلائمه . وانه لخليق أن يكون اجراء نادرا ذلك الاجراء الذى يجعل القانون يفرض شيئا جديدا ولا يقرر وسيلة تطبيقية ولا العقوبة التى تترتب على مخالفته ثم يأتى بعد المخالفة فيقرر هذه وتلك . فتلك فيما أرى أول سابقة من نوعها فى شئون التشريع ولا تحسب فى باب الشرائع كما تحسب فى باب الفخاخ التى تنصب للرعايا ليقعوا فيها . وكذلك يكون عصيانه ضربا جديدا من العصيان . اذ كان المفهوم من العصيان دائما أن يفعل الانسان شيئا . وهذا عصيان يقوم على أن المرء لا يفعل شيئا من الأشياء . فان كان كل انسان يهمل شيئا فى قانون ما أو يدع تنفيذ ذلك القانون يحسب ثائرا عاصيا ، فاننى لأخشى أن يكون عدد الثوار بيننا أكثر مما نحسب ، ومنهم ، ولا نحصيهم ، أولئك الذين أهملوا تسجيل أوزان الأطباق وسداد الضريبة عنها ، وهم فيما أظن غير قليلين ، ويصح أن يضاف اليهم أولئك الذين يلبسون الحرائر الفرنسية وما شابهها من فاخر الثياب .

أما قصة الطلب أو العريضة التى سبقت الاشارة اليها فقد سمعت من بعض التجار أبناء ولاية نيويورك رأيا يقولون فيه ان القوانين التى تقيد التجارة فى الولايات لا تضر الولايات فحسب بل يتعداها الضرر الى المملكة الأم (يعنى انجلترا) . وانهم ليذكرون الأسباب التى يبنون عليها هذا الرأى وهى جديرة أن تدرس هاهنا ، وقد يتبين أنهم على صواب فلا يستحقون الزجر بل يستحقون الشكر والثناء ، والا ففى الوسع القاء الطلب جانبا والاعراض عنه ، فليس الطلب ثورة ولا عصيانا ولكنه فى صميمه اعتراف بالسلطان لمن يتقدم الطلب اليه ، وان مقدميه من رعاياه .

بيد أن الآراء المتحيزة تخلق من الحبة قبة فى كثير من الأحيان ، وحين يكون الذئب قد عقد العزيمة على مخاصمة الحمل فلا فرق بين

وقوفه على اتجاه الماء أو على غير ذلك الاتجاه ، وما أيسر ما توجد التعلات أو تخلق اذا لم توجد ، ولا مبالاة بالحكمة والانصاف فانهما لمن وراء الحسبان !

محادثة عن الرق

وهذه رسالة كتبها فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٧٧٠ الى صحيفة الاعلان العام Public Advertiser للرد على الذين ذكروا مسألة الرق فى أمريكا ليعترضوا بها على المطالبين بالحريات القانونية من الأمريكيين.

قال بعد مقدمة يذكر فيها مناسبة ارسال هذا الحديث « الخيالى » الحقيقى الى الصحيفة :

انجليزى — انكم معشر الأمريكيين تصخبون كلما توهمتم أن شيئا يمسكم فيما تسمونه بحرياتكم ، على حين لا يوجد فوق ظهر الأرض من يعادون الحرية كعدائكم ، وما أنتم الا طغاة متعسفون حيث تسنح لكم الفرصة كما تسنح الآن .

أمريكى — وكيف كان هذا لعمرك ؟

انجليزى — اقرأ كتاب جرانفل شارب Granville Sharpe عن الرق . فتعلم كيف كان هذا بشهادة العيان .

أمريكى — لقد قرأته .

انجليزى — وبعيشك ماذا فهمت منه ؟

أمريكى — أصارحك الرأى انه فى جوهره كتاب حسن ، واننى لأعجب بغيرة المؤلف على الحرية فى الجملة ، ويسرنى ما أرى فيه من دلائل الانسانية . غير أنه يتكلم عن الأمريكيين عامة فيزعم أنهم لايشعرون بالحب الصحيح للحرية وأنهم قلما ينفرون من الاستبداد والطغيان وأنهم قلما يتورعون عن تسليط الاستبداد والطغيان بأقصى

ما فى وسعهم من الشدة على عبيدهم المساكين ، وهذا ما لست أقره كما أننى لا أقر النتائج التى انتهى اليها حيث يخلص من تلك المزاعم الى انكار حق الأمريكيين فى الحرية ، ففى ذلك مجافاة للعدل وغلو فى الانحاء على الأمريكيين ، مع اغضائه عن أخطاء بلاده ، وليس هذا فيما أرى بالانصاف فضلا عما فيه من الاضرار بنا هذه الآونة على الخصوص، اذ يحاول أن يصورنا فى صورة بغيضة ويغرى بنا من يبيتون النية على ظلمنا واضطهادنا ، منكرا حقنا فى الحرية التى ننشدها الآن .

انجليزى — وأى وزر لبلاد المؤلف فى تلك المظالم التى يشكوها ؟ وأى كلام من كلامه لا يشمل حكمه معاشر الأمريكيين عامة ؟

أمريكى — ينبغى ألا يكون كلامه عاما على اطلاقه لأن الأسس التى يقيمه عليها ليست بالأسس العامة . وهذه انجلترا الجديدة — أكثر المستعمرات الانجليزية سكانا فى أمريكا — قليل فيها عدد العبيد ، ومن وجد من هذا القليل فهو فى العواصم حيث لا يعملون فى عمل شاق . وأكثرهم ثمة سعاة أو خدم فى المنازل ، ويقال مثل هذا عن المستعمرات التى يقل سكانها عن سكان انجلترا الجديدة ، كنيويورك ونيوجرسى وبنسلفانيا ، وحتى فى فرجينيا وماريلاند وكارولينا حيث يعمل العبيد فى الزراعة لا يوجدون الا عند الأسر الغنية القديمة على مقربة من مياه الملاحة ، وانهم لقليلون بالقياس الى الأسر التى تقيم وراءهم ويندر أن يوجد لديها العبيد ، ولو أنك عبرت أمريكا الشمالية من أقصاها الى أقصاها لم تجد أسرة من كل مائة أسرة لديها عبيد ، وان ألوفا من الناس هناك ليمقتون الرق كما يمقته مستر شارب ويتورعون عن كل ما يتصل به ويبذلون جهدهم فى الغائه . فاذا كان من الاجرام فى رأى ذلك السيد أن يقتنى المرء عبدا فهل من العدل أن نوصم جميعا بالجريمة ؟ واذا كان فى انجلترا واحد من كل مائة يخل بحقوق الأمانة فهل من العدل أن يقال

ان الانجليز كلهم لصوص وسراق ؟ زد على ذلك أن الذين يقتنون العبيد ليسوا جميعا قساة أو طغاة ، وكثيرون منهم يعاملون عبيدهم بالرفق والمروءة ويتكفلون بهم فى حالتى الصحة والمرض كما تتكفلون هنا بالعمال الفقراء ، وما هؤلاء العمال الفقراء عبيدا بالاسم ولكنهم ما أشبههم بالعبيد حين تضطرهم الشريعة الى العمل كل تلك الساعات فى خدمة ساداتهم بتلك الأجور ولا تسمح لهم بطلب المزيد أو المساومة على الأجر بل تسجنهم فى بعض المشاغل ان رفضوا العمل بالأجر المقدور وقد تسجن السيد اذا قبل أن يزيدهم فى الأجور ، ويحدث كذلك فى الوقت نفسه أن يحال بين الصانع الذكى وبين السفر من هذه الجزيرة اذا منح فى خارجها أجرا أكبر من أجره فيها .

أما وزر انجلترا فى المظالم الأمريكية فليذكر سيدى أنها هى التى بدأت بتجارة الرقيق وأن تجارها من لندن وبرستول ولفربول وجلاسكو يرسلون سفنهم الى افريقية لشراء العبيد . فاذا أساء التجار استخدام الوسيلة فى اقتناص العبيد ، واذا شنت الغارات لاحتجان الأسرى ، واذا استدرج الأحرار الى متون السفن ثم سيقوا الى الأسر غيلة وغدرا ، واذا بذلت الرشى للأمراء الصغار اغراء لهم ببيع رعاياهم وهم فى الحق طائفة من العبيد — اذا حدث هذا كله فهل تقع جرائر هذه السيئات كلها على عاتق أمريكا ؟

انكم تجلبون العبيد الينا وتغروننا بشرائهم ، ولست أريد أن أسوغ وقوعنا فى الغواية ، ولكننى أقول انكم اذا سرقتم الناس تبيعونهم لنا ونحن نشتريهم فلتذكروا المثل القائل ان المشترى من السارق والسارق سواء ، وقد وضع هذا المثل للذين لا يعلمون أن آخذ الشيء المسروق فى حكم سارقه ، ولكن العكس لم يكن بحاجة قط الى مثل لتوضيحه ، اذ ما من أحد يجهل أن اللص كمن يشترى منه فى المنكر والسوء .

وانكم لم تفعلوا هذا وتقنعوا به وتثابروا على فعله وحسب ، بل زدتم على ذلك أنكم أنكرتم القوانين التى وضعت فى أمريكا لتصعيب تجارة الرق وفرض الضرائب الثقيلة على الموردين للأرقاء وأمرت حكومتكم بنقضها لأنها ضارة بمصالح الشركة الأفريقية .

انجليزى — ما سمعت من قبل بقوانين من هذا القبيل وضعت فى أمريكا ، غير أن القوانين التى وضعتموها وادعيتم أنها ضرورية لحسن سياسة العبيد بل الخدم البيض ، مما استشهد به مستر شارب فى كتابته ، لاتدعونا الى حسن الظن بمروءتكم العامة أو باحترامكم الحرية ، وليست تلك قوانين آحاد معدودين ، اذ هى مسنونة برأى نوابكم فى الجماعات الممثلة لكم ، وهى لهذا خليقة أن تنسب الى الجميع .

أمريكى — ليس الأمر كذلك . ويجوز أن بعض هذه القوانين وضع فى المستعمرات التى يربى فيها عدد الأرقاء كثيرا على عدد البيض كما هو الحال فى بربادوس الآن وفى فرجينيا من قبل ، وقد تكون تلك القوانين أقسى مما ينبغى من أثر الخوف والظن الغالب بأن الصرامة هى الوسيلة الوحيدة التى تُروض العبيد على الطاعة وتصون على سادتهم حياتهم . أما الولايات الأخرى التى يقل فيها عددهم ولا يخشى الخطر منهم فالـ... رفيقة والعبيد فى كفالة القانون من جميع الوجوه الا أن نحسب ... الحرية ، ويجازى الرجل الأبيض بالموت اذا قتل عبدا ملكه كما يجازى على قتل انسان كائنا من كان . ومن الواجب أن نذكر ...ن صرامة القوانين على قدر الغباء أو على قدر السوء فى خلائق المحكومين . وقد علمتنا التجربة هذه الحقيقة فى كل مكان . وقد يخطر لك أن العبيد قوم لطاف ودعاء يسلس قيادهم لمن يقودهم ، وانهم لكذلك بعض الأحايين ولكن الأكثرين منهم على خبث وكيد وضغينة وسوء دخيلة وقسوة بالغة على أشد ما تكون القسوة ، وتجاركم وملاحوكم الذين يجلبونهم من غانة يعلمون ذلك ويعانون من تمردهم على

السفن السابحة أو المرسية على الشاطىء كل العناء ، وما ظفر العبيد بمن عداهم مرة الا أتوا عليهم أجمعين ، وكلما حدث التمرد من هذا القبيل عالجه قومكم بما يحسبونه ضرورة لا محيص عنها من الصرامة والشدة ، وأطلقوا النار على بعضهم أو شنقوهم على ظهر السفينة ، وربما كان من هؤلاء العبيد أناس مجرمون فى بلادهم يبيعهم أمراؤهم عقوبة لهم على جناياتهم ويجعلون النفى والعبودية جزاء لهم عليها كما تجزون أنتم هنا من تدينونهم من الأشرار ، وما دامت حكومتكم لاتقبل أن تسن القوانين لاخراج العبيد من البلد فهل يحق لكم أن توجهوا اللوم الى تلك القوانين التى تبدو ضرورية لحكمهم وهم فى ذلك البلد ؟

انجليزى — لكن القوانين التى تضعونها لمعاملة الخدم البيض لا تقل فى قسوتها عن القوانين التى توضع للعبيد السود .

أمريكى — هى كذلك فى بعض الولايات ، وبخاصة تلك الولايات التى ينفون اليها مجرميكم ، وان الخدم الودعاء ليعاملون فى أمريكا معاملة الرفق التى يجدونها فى انجلترا . غير أن الأشرار الذين تدينونهم وترسلون بهم الينا لابد لهم من القمع الشديد بعصا من حديد . وقد وضعنا القوانين فى ولايات عدة لمنع دخولهم ، وكانت هذه القوانين تنقض هنا على اعتبارها مخالفة لقانون البرلمان ، ولسنا نشكركم على اقحامهم علينا ، ونحسبها بربرية من حكومتكم أن تخلى سجونها وتملأ بهم محلات بلادنا ، بل نحسبها اهانة من أسوأ الاهانات ، فان كانت الشرائع الرفيقة تصلح لسياسة هؤلاء القوم فما بالكم لا تبقونهم عندكم وتسوسونهم بتلك الشرائع ؟ على أنك خليق أن تذكر أن الشرائع التى ترمونها بالقسوة قد أرسلت الى حكومتكم كما ترسل جميع الشرائع الى الملك فى مجلسه فأبرمتها . فان كانت مع هذا عرضة للملام فتفضلوا أنتم واحملوا على عاتقكم بعض هذا الملام !.

ايقوسى — لا يحق لكم أن تقولوا اننا نقحم المجرمين على بلادكم ، اذ فى وسعكم اذا شئتم أن تحجموا عن شرائهم ، ولو لم يكن من طبعكم الطغيان ولم يكن من هواكم أن تتخذوا لكم أتباعا تسومونهم العذاب وتشبعون بتعذيبهم تلك الشهوة فى نفوسكم ، وكان لديكم حقا ذلك الشعور بالحرية الذى تثيرون به تلك الضجة — لما اشتريتم أحدا من العبيد ولا من المجرمين ، ولما احتملتم شيئا كهـذا الرق أن يبقى بين ظهرانيكم .

أمريكى — الحق كما تقول أننا نستطيع أن نكف عن شرائهم ، وان كثيرا من العقلاء ليحجمون عن شراء أحد منهم . الا أن الدنيا فيها العقلاء وغير العقلاء ، وغير العقلاء يطمعهم الثمن البخس فى شرائهم ، وعلينا نحن أن نكبح هذا الطمع وأن نمنع تجاركم أن يصلوا الينا بتجارتهم البغيضة، ولكنكم لا تأذنون لنا فى ذلك ، ومن أجل هذا قلت انكم تقحمون علينا العبيد كما تقحمون علينا المجرمين . وانى ليدهشنى ياسيدى أن أسمع ملاحظتكم التى تقول فيها اننا لو كنا نحب الحرية حقا لما سمحنا لشىء كالرق أن يبقى بيننا . فهذه ملاحظة غريبة من بريطانى من أهـل الشمال حيث الرق مشروع بحكم القانون لا يزال !

ايقوسى — أحسبك تشير الى قوانين المواريث وهى لا تشتمل على شىء من الرق ، وقد نقضت مع ذلك بقانون صدر من البرلمان .

أمريكى — كلا ياسيدى . انى أعنى الرق فى مناجمكم : أعنى المساكين الذين يحفرون الأرض ليستخرجوا منها الفحم لكم . ففى تلك الأنفاق المظلمة التى لاتطلع عليها الشمس عبيد بحكم القانون يتلوهم فى العبودية أبناؤهم من اللحظة التى يستطيعون فيها أن يحملوا السلة الى اللحظة التى يختمون بها أعمارهم . وانهم ليباعون ويشترون مع المناجم وليس لهم من حرية الفكاك من هذا الأسر نصيب أكبر من نصيب

العبيد عندنا فى الفكاك من مزارع سادتهم ، واذا كان سواد وجوههم مسوغا لاستعبادهم فأنتم لاتجدون حتى هذا المسوغ لاستعباد عمال الفحم عندكم . ولتذكر أنهم تحت غبار الفحم الأسود لهم جلود بيض ، وانهم أناس أمناء طيبون ، وهم فوق ذلك من أبناء وطنكم .

انجليزى — يسرنى أنك لاتنحى على انجلترا بمثل هذه الوصمة . فان عمال الفحم عندنا أحرار كسائر العمال .

أمريكى — وهل من أجل هذا تزعمون أنكم لاتعرفون شيئا من قبيل الرق فى البلاد الانجليزية ؟

انجليزى — لا يوجد فى انجلترا شيء كهذا بكل تأكيد !

أمريكى — أخالنى قادرا على أن أعرض أمام نظرك ما يقنعك بوجوده اذا اتفقنا أولا على تعريف الرق ما هو ؟ ولئن صح ما يقوله مؤلفكم من أن اقتناء العبيد يسلب حق المقتنى فى الحرية لتكونن أنتم معشر الانجليز محرومين من هذا الحق حرمان الأمريكيين .

انجليزى — وما تعريفك للرق اذن . أرجو أن نسمعه لنعلم هل نحن متفقون عليه أو غير متفقين .

أمريكى — العبد — فيما أرى — هو كائن بشرى يسرق أو يغتصب أو يشترى من غيره أو من نفسه بالمال ويضطر لذلك الى خدمة الآخذ أو الشارى حسب هواه مدى الحياة . وقد يباع مرة أخرى أو يؤجر لغير سيده ويضطر فى هــذه الحالة الى خدمة مشتريه أو مستأجره ، ولا يضطر الى اطاعة سيده وحده بل يضطر كذلك الى اطاعة أوضع الخدام لديه ، فيحضر متى استدعاه وينصرف بأمره ويقيم حيث يرتضى له الاقامة ولو بعث به الى أقصى أطراف الأرض وأوخم الأجواء ، وعليه أن يلبس الملابس التى يختارها له سيده ولا يلبس غيرها ولو لم تكن من لباس العرف الشائع وكان الارتداء بها علامة من علامات العبودية ،

وعليه كذلك أن يتقبل الطعام الذى يفرضه له سيده أو يتقبل القدر الذى يعطيه اياه من المال بديلا من الطعام والكساء . وينبغى ألا يفارق مكان الخدمة بغير اذن مولاه وأن يخضع للجزاء الصارم عقابا له على أيسر الهفوات ، وأن يساوم الضرب بالسياط ، بل القتل ، عقابا له على الاباق من الأسر أو على عصيان الأمر . أحسب أن كائنا بشريا كهذا انما هو عبد فى كل ما يراد من العبيد ويفرض عليهم .

انجليزى — أوافقك على تعريفك . الا أننى على يقين ، تمام على يقين ، انك لن تجد فى انجلترا أحدا بهذه الصفة .

أمريكى — كلا . بل عدة ألوف اذا كنت قد أحسنت وصف الجندى الانجليزى أو الملاح الانجليزى بذلك التعريف . فالملاح كثيرا ما يجبر على الخدمة وينتزع من جميع روابطه وعلاقاته ، والجندى يشترى عادة بدينار وبعض دينار فى سوق التجنيد ، ولسيده أن يبيع عمله من يشاء من الأمراء الغرباء ، أو يؤجره بما يبرمه من المعاهدات ويقذف به الى حيث يرمى أو يرمى فى ألمانيا أو البرتغال أو غانة أو الجزر الهندية الغربية ، وهو مقيد بالعمل مدى الحياة يصدق عليه كل حرف مما ذكرته فى ذلك التعريف ، وقد يتخطى الرق الانجليزى فى حالة من الحالات كل ما انتهى اليه من الحدود فى الديار الأمريكية .

انجليزى — وماذا تعنى ؟

أمريكى — نحن لا نستطيع فى أمريكا أن نأمر العبد بعمل لايستقيم مع الخلق أو مع الشريعة ، ولا نستطيع مثلا أن نأمره باقتراف جريمة القتل ، ولو أمرناه بذلك لحق له أن يأبى وتقره القوانين على الاباء . غير أن الجندى مجبر على طاعة كل أمر أو يعرض نفسه للموت ، ولو كان الأمر كأمر هيرود بقتل كل طفل دون السنتين أو بقطع رقاب الصغار فى المستعمرات أو باطلاق النار على النساء والأطفال فى

بطـاح سـان جورج (اشـارة الى مذبحـة سـنة ١٧٦٨) [١]

ويسلك فرنكلين مثل هذا المسلك « المنطقى » لاقناع مخالفيه داخل بلاده فى مسألة الرق كما سلكه فى مناقشة المخالفين خارج بلاده لاقناعهم فى هذه المسألة ، وقوام الاقناع عنده فى الحالتين أن يأخذ المخالفين له بما يدينون به ويسلمونه وأن ينبههم الى أحوالهـم التى يغفـلون عنها ولا يلتفتون الى مغزاها وأن يريهم أنهم يصابون بالحجة التى يسوقونها قبل أن يصيبوا بها غيرهم ، وهذا الأسلوب المنطقى أفعل الأساليب فى الزام حجتهم ، لأنها فى النضال المنطقى بمثابة نقل الهجوم الى معسكر الخصم من داخله ليشتغل بنفسه عن مهاجمة غيره .

وقد تقدم أن فرنكلين كان يقول انه يرحب برسول المفتى الأكبر من القسطنطينية اذا طاب للمفتى الأكبر أن يوفده الى الديار الأمريكية ، ولكنه فى الرسالة التالية يذكر أنصار الرق فى بلاده بحجة القراصنة الذين كانوا يستخدمون شواطىء المغرب بأفريقيا الشمالية لاقتناص ركاب السفن والاتجار ببيعهم والتعلل بالدين لاستباحة رقابهم ، وكان بعض أنصار الرق — مستر جاكسون مندوب ولاية جورجيا — قد ألقى خطابا فى مجلس النواب — يفند به أقوال المعترضين على النخاسـة أو تجارة الرقيق ونشرته صحيفة الفـدرال جازيت Federal Gazette فكتب فرنكلين الى الصحيفة يرد عليه بهذا الأسلوب التهكمى الذى يشبه « محاكاة الصوت » للسخرية والتنديد ، وكان تاريخـه يوم الثالث والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ قبل وفاة فرنكلين بنحـو ثلاثة أسابيع :

---

(١) من كتاب رسائله الى الصحف المتقدم ذكره .

خطاب سيدى محمد ابراهيم

سيدى محرر الفدرال جازيت .

قرأت أمس فى صحيفتكم الغراء خطاب مستر جاكسون فى مجلس النواب يستنكر به تعرضهم لمسألة الرق ومحاولتهم تحسين أحوال الرقيق ، فذكرنى خطابه هذا بخطاب ألقى قبل مائة سنة بلسان سيدى محمد ابراهيم عضو الديوان بالجزائر كما أثبته مارتن فى سجل قنصليته سنة ١٦٨٧ . وكان هذا الخطاب معارضا لجماعة الطريقة الصوفية التى توسلت الى الديوان أن يأمر بالغاء القرصنة والنخاسة لأنهما تناقضان العـدل والانصاف .

ان مستر جاكسون لم يستشهد به ولعله لم يطلع عليه ؛ ولهـذا يبدو من براهينه وذرائعه أن عقول الناس ومنافعهم تدين وتدان على منهج واحد فى جميع الأمم والأقاليم كلما اتفقت المطالب والأحوال ، وهذه هى ترجمة الخطاب الأفريقى المشار اليه .

بسم الله . الله أكبر . ومحمد نبيه ورسوله .

... ترى هل فكر أصحاب هذه الطريقة فى عواقب الاستجابة لرجائهم؟ وكيف ترانا نصل الى البضاعة التى تأتى من البلاد المسيحية ولا غنى لنا عنها اذا نحن كففنا عن شن الغارة على المسيحيين ؟ ومن الذى يزرع لنا الأرض فى هذه البلاد الحارة ان لم تتخذ منهم عبيدا مسخرين ؟ ومن الذى يؤدى لنا عمل الخدم فى المدن والبيوت ؟ ألا يؤول بنا الأمر يومئذ أن نصبح نحن العبيد المسخرين لأنفسنا ؟ ألسنا هنا أحق بالرحمة من أولئك الكلاب ؟

لدينا الآن خمسون ألفا فى الجزائر وحولها ينقصون يوما بعد يوم ان لم يأت المدد من جديد ، فان كففنا عن اغتنام سفن الكفرة واسترقاق الملاحين والمسافرين على متونها فلسوف تصبح أرضنا هملا لا قيمة لنا

لانقطاع العمل فى زراعتها ، وسوف تهبط أجور بيوتنا فى المدينة الى نصفها وتنفد موارد الخزانة العامة تبعا لذلك . ومن أجل ماذا كل هذا يا ترى ؟ كل ما هنالك أن نرضى أهواء طائفة من أصحاب الأحـوال والبدوات يودون لو أننا أطلقنا الأرقاء الذين فى حوزتنا فضلا عن تحريم المزيد من المدد الجديد .

وبعد ، فمن الذى يعوض سادتهم عن ضياعهم ؟ أتعوضهم الدولة ؟ أفى خزانتها كفاية من المال ؟ أترى يعوضهم أبناء تلك الطريقة أم فى وسعهم هذا التعويض ؟ أم هم فى سبيل الانصاف الذى يزعمونه لأولئك العبيد يتجافون عن انصاف أولئك السادة المظلومين ؟ وه ،ب أطلقنا عبيدنا فماذا يصير من أمرهم بعد اطلاقهم ؟ ان قليلا منهم م، يعودون الى بلادهم لعلمهم بالمصاعب التى تنتظرهم هنالك ، وهم لايؤمـ ن بديننا ولا يسيرون على نهجنا فى حياتنا ولايتبعون عاداتنا ولا يقبل أبناء قومنا أن يدنسوا أنفسهم بمخالطة أنسابهم . فهل ترانا نستبقيهم بيننا متسولين فى طرقاتنا ؟ أو ترانا نترك أمتعتنا لمن يريد منهم أن يسرقها ويسلبها ؟ ان الذين طال بهم عهد العبودية لن يعملوا لكسب أقواتهم ان لم يجدوا من يكرههم على العمل لها ، وماذا لعمرى فى معيشتهم اليوم من السوء أو مما يستدر الرحمة والاشفاق ؟ ألم يكونوا عبيدا فى بلادهم قبل هذه البلاد ؟ أليست بلاد الأسبان والبرتغال والفرنسيين والايطاليين مسخرة فى طاعة حكام مستبدين ؟ أليست انجلترا تسوم ملاحيها سوم العبيد وتقبض عليهم حكومتهم كما تشاء لتحبسهم فى سفن الحرب وتكرههم لا على العمل وحسب بل على القتال من أجل رزق قليل أو مؤونة تسد الرمق ولا تفضل فى شىء . . . سمح به نحن للعبيد . فهل تسوء أحوالهم اذن لأنهم يقعون فى . . . كلا . بل قد . . ى الأمر أنهم يستبدلون رقا برق ، وأقول انه لر . . . من رقهم لانهم يعيشون هنا حيث تشرق شمس الاسلام فى روعتها وبهائها ، وحيث تتاح لهم الفرصة للاهتداء الى الدين الحق

والنجاة بأرواحهم من الهلاك . أما الذين يمكثون منهم فى أرضهم فلا أمل لهم فى هذه السعادة ، ولن يكون ارسال العبيد من بلادهم الا كاخراجهم من النور الى الظلمات .

وأعود فأسأل : ماذا عسى أن يصير من أمرهم ؟ لقد سمعت من يقول انهم يرسلون الى القفار حيث تتسع الأرض لمعيشتهم ويقيمون أحرارا فى أرضهم . على أننى أحسبهم لاينشطون لعمل قط ما لم يدفعوا اليه على الرغم منهم ، وانهم لأغبى من أن ينهضوا بحكومة حرة لحكم أنفسهم ، ولن يلبثوا أن يغير عليهم الأعراب من أهل البادية فيستعبدوهم، ولكنهم حين يقيمون فى خدمتنا يلقون منا الرفق وحسن الرعاية على سنة الرحمة والمروءة ، وليس للعمال فى أوطانهم كما أعلم نصيب من ذلك بل هم على نصيب قليل من الغذاء والمسكن والكساء ، فهم على هذا تصلح أمور الأكثرين منهم بيننا ولا حاجة بهم الى ترفيه أو اصلاح حال . اذ هم هنا فى أمان لا يجبرون على الجندية ولا على أن يعمل المسيحيون منهم فى قطع رقاب اخوانهم المسيحيين كما يحدث فيما يشجر بينهم من الحروب. فاذا كان أناس من هؤلاء المجاذيب الذين يحتجون بالغيرة على الدين فيما بيننا قد حسن لديهم أن يرفعوا العرائض تترى للافراج عن هؤلاء الأسارى فما كان ذلك من كرم فيهم ولا من مروءة ورحمة ، وانما هى أعباء ذنوبهم وخطاياهم يرزحون بها ويخيل اليهم أن هذا المطلب خليق — لما يتوهمونه من احسانه وفضله — ان ينجيهم من الهلاك وسوء الجزاء .

" وما أضل هؤلاء المتهوسين حين يحسبون أن الاسترقاق محرم فى القرآن ؟ أليس أمر السادة بالرفق وأمر العبيد بالطاعة والأمانة نصا على جواز الاسترقاق ؟ كذلك لا يحرم فى الكتاب سلب الكفار لأن المعلوم منه أن الله قد وهب الدنيا وكل ما فيها لعباده المؤمنين يغتنمون ما افتتحوا منها .

فلا نستمعن بعد الآن لذلك الطلب البغيض ، ولنعلمن أن اطلاق الأرقاء النصارى يسلط الكساد والخراب على أراضينا وبيوتنا ويحرم الكثيرين من رعايانا الأمناء طيبات أرزاقهم فيثير القلق فى النفوس ويغرى المتذمرين بالفتنة ويزعزع مكانة الحكومة ويعم الديار بالفوضى والاضطراب ، ولا يخامرنى الشك — لهذا — فى أن هذا المجلس الحكيم يؤثر سعادة الأمة المؤمنة كلها على ارضاء فئة من أبناء الطريق ، ويعرض عما يطلبون .

ولقد كان من أثر هذا الكلام ، كما أنبأنا مارتن فى سجله ، أن الديوان انتهى الى هذا القرار :

« ان القول بأن سلب النصارى واسترقاقهم ظلم ومجافاة للعدل انما هو على الأقل من الأقوال المختلف عليها ، ولكنه من الواضح أن الابقاء على هذه الحالة فى مصلحة الدولة . فلا تقبل تلك العريضة بناء على هذا الاعتبار » .

وعلى هذا رفضت العريضة .

ولما كانت البواعث المتشابهة تميل بعقول الناس الى ما يشبهها من الآراء والقرارات ، أفلا يجوز لنا — يامستر براون — أن نستخلص من ذلك أن العرائض التى أرسلت الى برلمان انجلترا لالغاء النخاسة ، ولا نذكر ما عدا ذلك من المطالب ، وشيكة أن تصير كما تصير المناقشات فيها الى مصير كهذا المصير .

اننى ياسيدى قارئك المثابر وخادمك المتواضع[1] : مؤرخ .

---

(١) اعتمدنا فى ترجمة هذه الرسالة على النص الانجليزى المنشور فى الجزء الأول من كتاب ائمة الأدب الامريكى طبع مكملان

Masters of American Literature

معاهـــدة مع سيدة

وهذه رسالة من نوع آخر غير الرسائل الى الصحف وغير الرسائل الى سائر الأشخاص ، كتبها الى السيدة بريون Brillon احدى سيدات المجتمع الرفيع فى باريس ، وكان يكتب اليها باللغة الفرنسية فتصحح له أخطاءه وتدربه على التعبير الفصيح فى الكتابة والكلام بتلك اللغـــة ، وقد كتبت اليه من نيس تعاتبه لأنه انصرف عن الاهتمام بها فى غيابها ووجه التفاته الى سيدات غيرها ، وكان الخطاب فى صيغة المراســـم الدولية ، فكتب اليها الرد فى صيغة معاهدة سياسية وقدم لها بفاتحة تمهيدية (بروتوكول) فقال :

باسى ، فى ٢٧ من يوليو سنة ١٧٨٢ .

... ما أبعد الفارق بينك وبينى ! انك تعدين عيوبى كثيرة حتى لقد تربى على الاحصاء ، وأنا لا أرى لك الا عيبا واحدا لعله من عيوب نظارتى ! . ذاك ضرب من الطمع يوحى اليك أن تعظمى عاطفتى وتستأثرى بها وحدك حتى لا بقية فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات ، وكأنك تحسبين أنها من العواطف التى لاتقبل القسمة الا نقصت وتفرقت، وهى غلطة فى الحساب وفى النظر الى طبيعة الموقف الذى وقفتنى فيه وقضيت به علىّ . فانك تجردين حبنا من كل صلة جسدية غير ما يكون من عناق كعناق أولاد العم عند مقدمهم من الريف . فماذا بقى من العاطفة مما يسوغ لى أن أتجه به الى الأخريات دون أن يغض ذلك أو ينقص من محبتى اياك ؟ ان خطرات الفكر والتقدير والاعجاب والتوقير ، بل العطف نفسه على موضوع من موضوعاته ليقبل المضاعفة والزيادة كلما تضاعفت تلك الموضوعات وازدادت دون أن يخــل ذلك بحق صاحب العطف الأصيل أو يسوغ له الشكاية من ضرر . وانه لفى طبيعته من قبيل تلك الألحان العذبة التى توقعينها على المعزف ببراعتك الألمية ،

ويستمع لها عشرون فيغتبطون بسماعها ولا يغض ذلك من نصيبي الذي تريدين أن يخصني منها ، وقد يحق لي اذن أن أطالبك بمنعها أن تصل الى أذن غير أذني . وسترين على هذا كيف جاوزت بمطالبك حد العدل والنصفة ، وزدت عليها اعلان الحرب عليّ ان لم أذعن لجميع تلك المطالب ، ولو أنصفتني لكان من حقي أنا أن أشكو اليك . وها هو ذا ولدي الصغير لم يسمن ولم يكتنز كمهدي بالأطفال في رسومك الرشيقة، بل هو يهزل ويتضوع الى غذائك المرىء الذي تنكرينه عليه أنت أمه الحنون ؛ ثم هأنتـــذي تتوعدينه بقص جناحيه كي يقعـــد عن البحث عنه في مكان .

ويخيل الى أن الحرب التي تشهرينها لا أغنم منها ولا تغنمين ، ولما كنت أنا الأضعف وجب على أن أصنع ما يصنعه الأحكم ، وأن أبدأ بطلب الصلح ، ولا ضـــمان لدوام الصلح الا أن تصـــاغ شروطه في قالب الانصاف وتبادل الرضا والموافقة ، وهذه هي مواد المعاهدة التي أعرضها للقبول والابرام :

المـــادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصداقة بين الطرفين مدام بريون ومستر فرنكلين .

المادة الثانيـــة

لدوام هذه العلاقات تقبل المدام من جانبها أن يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أن تدعوه الى حضرتها .

المادة الثالثـــة

على مستر فرنكلين أن يبقى بعد حضوره طالما سمحت له بالبقاء .

المادة الرابعـــة

اذا وجد معها فعليه أن يتناول الشاى وأن يلعب بالشطرنج وأن

يستمع الى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها .

المـادة الخامسة

عليه ألا يحب امرأة قط غيرها .

المـادة السادسة

والمذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء .

المـادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضا بالتغيب كما يشاء .

المادة الثامنـة

وأن يفعل ما يشاء حين يكون فى حضرتها .

المـادة التاسعة

وألا يحب امرأة أخرى الا بمقدار ما عندها من دواعى المحبة .

وأرجو أن أسمع رأيك فى هذه القواعد المبدئية ، وفى رأيى أنهـا أصدق تعبيرا عن المقاصـد والنيات التى يرضـاها الطرفان من أكثر المعاهدات ، وبودى أن ألح وأصر على قبول المادة الثامنة وان لم يكن أملى عظيما فى قبولها ، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وان كنت على يأس من لقاء المرأة التى تستولى منى على حب يضارع حبى اياك أيتها الصديقة الغريرة العزيزة[1] ـ للمخلص ب . ف .

بين العـلة والمريض

وكان السيد بريون قرين السـيدة بريون يشكو مرض النقرس الذى أصيب به فرنكلين وحاول كعادته أن يلطف ألمه باستخراج العبرة منه ، فكتب الحوار الآتى مع رسالة الى السيدة للتسرية عن قرينها فى مرضه ، وتكلم عن النقرس بضمير المؤنث وسماه السيدة على سبيل

(١) من كتـاب « كتابات فرنكلين الترجمية » تاليف كارل فان دورن
Franklin's Autobiographical Writings by Carl Van Doren.

التهكم ، فترجمناه بأم النقارس لتصوير العلة فى هذه الصورة بقدر المستطاع .

فرنكلين — آه . آخ . يارب . ماذا ترانى صنعت كى أستحق هذه الآلام القاسية .

أم النقارس — صنعت كثيرا . أكلت أكلا لما ، وشربت شربا جما ، واستسلمت لكسل قدميك فتركتهما فى متعة الراحة الزمن الطويل .

فرنكلين — من ذا يكلمنى ؟

أم النقارس — اننى أنا نفسى أم النقارس .

فرنكلين — عدوى بعجره وبجره .

أم النقارس — لست بعدوك .

فرنكلين — بل عدوى المبين . فانك لا تقنعين بقتل جسدى بآلامك المبرحة وحسب ، بل أراك تعملين على تشويه سمعتى الحسنة ، وتتهميننى بالنهم والادمان ، وكل من عرفنى فقد عرف أنه مامن أحد قط رمانى بهذه التهمة وزعم اننى أفرط فى الطعام أو الشراب .

أم النقارس — ليحكم الناس كما يحبون . فما أكثر مجاملة الانسان لنفسه فى هذه الأيام ! وما أكثر مجاملة الأصدقاء للأصدقاء . الا أننى أناأعلم أن الطعام الذى لا يحسب كثيرا ، وان الشراب الذى لا يحسب لذلك بالنظر الى انسان كثير الحركة ، لهو الافراط بعينه حين يتعاطاه رجل قليل الحراك .

فرنكلين — اننى . آه . آخ . اننى أتريض جهد ما أستطيع ياسيدتى أم النقارس ، وانك لتعلمين طبيعة حياتى « القاعدة » ... فكان فى وسعك ياسيدتى أم النقارس أن تحسبى حسابها وتعفينى من الألم بعض الاعفاء ، اذ لم تكن غلطتى أنا أن أعمل فى استقرار .

أم النقارس — أبدا . ان منطقك ولباقتك عبث ضائع ، ومعاذيرك

لا تساوى قطميرا فى هذا المقام ، فانك اذا كان عملك ساكنا مستقرا فقد وجب أن تكون رياضتك وتسلياتك متحركة ناشطة ، عليك أن تخرج للرياضة على قدميك أو على ظهر جواد ، واذا عز عليك الوقت فتريض بلعب البليار ، فتعال نحاسبك على منهج حياتك وكيف تتصرف فى قضاء أوقاتك _ يكون لديك الكفاية من الوقت بعد منتصف النهار وعند الأصيل فماذا تراك تصنع فى هذه الساعات ؟ انك بدلا من شحذ الرغبة فى الطعام بالرياضة الصالحة تدأب على تسلية نفسك بقراءة الكتب والرسائل والصحف التى لا تستحق فى كثير من الأحيان أقل التفات . ثم تتناول الغداء الفخم وتجرع أربعة أكواب من الشاى والقشطة مع قدتين من الخبز والزبدة عليها قطعة من لحم البقر مما لا يحسب فيما أرى من الطعام اليسير الخفيف على البطون . ثم تذهب الى مكتبك على الأثر حيث تكتب أو تتحدث الى الذين يزورونك فى شئون العمل ، وتمضى على ذلك الى الساعة الواحدة دون أن تروض بدنك أقل رياضة على أننى قد أغفر لك هذا لأنه كما تقول من طبيعة عملك القرير . ولكن تعال نسألك ماذا تصنع بعد الغداء ؟ انك بدلا من التمشى فى حدائق أصحابك الذين تتغذى عندهم كما يصنع أولو الفهم والفطنة ترسخ على المقعد أمام الشطرنج حيث يستطيع من شاء أن يراك مستطردا فى اللعب ساعتين أو ثلاث ساعات . وتلك هى رياضتك الأبدية ، وهى أقل الرياضات موافقة لأصحاب العمل القرير ، لأنها لا تساعد حركة الأخلاط البدنية بل تتطلب الثبات والانتباه الطويل الذى يعطل تلك الحركة ، وكذلك تتلف بنيتك بالاستغراق فى تلك اللعبة التعسة ، فكيف يتوقع أحد أن يعيش تلك العيشة دون أن تركد أخلاط بدنه وتتعرض للفساد ويصبح البدن من جراء ذلك عرضة لجميع الأدواء المضال ان لم أحضر اليك — أنا أم النقارس — بين حين وحين كي أهيج أخلاطك فأصفيها

أو أنفيها . ولو أنك فى زاوية من زوايا باريس بين الأزقة التى لاتتخللها طرق الرياضة تقضى فى لعب الشطرنج لجاز لك أن تتمحل تلك المعاذير ، ولكنك تفعل هذا فى باسى وفى أوتيل وفى مونمارتر وفى ايبانى وفى سانوا حيث تكثر الحدائق والمنازه والنساء وينطلق الهواء النقى والأحاديث الممتعة النافعة وتستمتع بذلك كله وأنت سائر على قدميك . غير أنك تهملها جميعا حبا لتلك اللعبة التعسة لعبـــة الشطرنج . تعسا لك اذن ياسيد فرنكلين ! اننى نسيت نفسى وأنا ماضـــية فى نصحك . فخـــذ الساعة هذه القرصة ، وخذ معها تلك ، وخذ .

فرنكلين — آه . آه . أوه . هات بربك ما شئت من نصائحك بل من لواذعك ولكن بربك لا تزيدينى من هذه التقويمات والتصحيحات !

أم النقارس — على النقيض يا صاح . لن أعفيك من هباءة منها ، فانها لمصلحتك . خذ ! .

فرنكلين — أوه . ايه . من الظلم ياسيدتى أن تقولى اننى لا أتريض فاننى لآخذ رياضتى فى مركبتى حين أذهب الى الغداء وحين أعود .

أم النقارس — تلك بين جميع الرياضات أقلها نفعا وأهونها حركة اذ تهتز المركبة على دواليبها ولا زيادة . ولك أن تحكم على مبلغ الرياضة فى الحركة بمبلغ ما تحدثه تلك الحركة من الحرارة . فانك اذا خرجت للرياضة فى الشتاء وقدماك باردتان لم تلبث ساعة حتى تشعر بالحرارة فى قدميك وجميع أجزاء بدنك ، واذا ركضت على ظهر الجواد فأنت فى حاجة الى ساعات أربع للظفر بمثل تلك الحرارة ، ولكنك اذا جلست فى مركبتك فربما قضيت اليوم كله وانتهيت الى قرارك وأنت بارد القدمين . فلا تخدعن نفسك اذن وتقضين نصف ساعة فى مركبتك ثم تسمينها رياضة ، وما منح الله كل من هب ودب مركبة يمتطيها ، ولكنه منح كل انسان قدمين أكمل وأجمل وأنفع ، فاجعل من شكرك لله على هـــذه

المنحة أن تستخدمها وتنتفع بها . وفى وسعك أن تعرف كيف تتحرك أخلاط الجسم وأنت تتنقل من مكان الى مكان . فلاحظ أنك حين تمشى على قدميك ينتقل ثقل جسمك كله دواليك تارة الى الجانب الأيمن وتارة الى الجانب الأيسر وتضغط هذه الحركة على عروق القدم وتدفع منها ما تحتويه ، ويتسع الوقت لامتلاء العروق مرة أخرى ريثما يتم التحول من قدم الى قدم ، فيتم بذلك انتظام الدورة فى الجسم ، ومن هنا تأتى الحرارة التى تنشأ فى لحظة من الزمن وتنشط الأخلاط وتجرى أمزجة مجراها فيجرى كل شىء على ما يرام : تحمر الوجنتان وتتمكن العافية .

« ولتنظر الى صديقتك فى أوتيل — تلك المرأة التى تلقت من الطبيعة نصيبا من العلم الحق أوفر من أنصباء ستة منكم أدعياء الحكمة الذين يقتبسونها من الكتب ، فانها حين تنوى أن تشرفكم بزيارتها تمشى على قدميها من الصباح الى المساء وتدع أمراض الكسل كلها تتوزع بين خيلها ، فانظر كيف تحافظ على صحتها بل على محاسنها ، وأنتم تنوون زيارة أوتيل ففى المركبة تذهبون ، ولا فرق بين المسافتين : من أوتيل الى باسى أو من باسى الى أوتيل .

فرنكلين — انك تضجرينني بهذا الجدل .

أم النقارس — صدقت . سأمسك لسانى وأمضى فى اداء واجبى . خذ هذه الوخزة . وخذ هذه . وخذ .

فرنكلين — أوه . أوه . لا بل تكلمى . تكلمى . أتوسل اليك تكلمى .

أم النقارس — كلا . ان عندى حفنة من الوخزات حصتك فى هذه الليلة ، والبقية الى الغد .

فرنكلين — رباه . هذه هى الحمى . لقد هلكت . ألا يوجد أحد يحمل عنى هذه الآلام .

أم النقارس — اطلب هذا من خيلك . فانها تتعب لتمشى فى مكانك .

فرنكلين — ما أشد قسوتك . تعذبيننى كل هذا العذاب لغير سبب .

أم النقارس — أما لغير سبب فلا ـ وان لدى لثبتا وافيا أحصى فيه جميع خطاياك فى حق صحتك ، وكلها مسطرة فى وضوح وما من وخزة تتلقاها منى الا وعندى عليها برهان .

فرنكلين — اقرئيه اذن .

أم النقارس — انه شرح يطول ، وسأريكها بعرضها عليك .

فرنكلين — افعلى . فكلى أسماع !

أم النقارس — أتذكر كم مرة عزمت على التمشى فى غاب بولون أو حديقة الصيد أو حديقتك والتنيت عن عزمك ، تزعم تارة أنه برد وتارة أنه حر وفى ساعة أخرى أنها ريح أو أنها رطوبة أو أنها ما لست تدرى ماذا من التعديلات ؟ تزعم ذلك وما فى كل أولئك من سبب الا السبب الوحيد : وهو أنك كسلان !

فرنكلين — أعترف بأن هذا يحدث ـ لعله عشر مرات فى كل سنة .

أم النقارس — اعتراف أبتر ، والحق انه يتضاعف مائة مرة وتسعا وتسعين .

فرنكلين — أيمكن هذا ؟

أم النقارس — نعم ممكن لأنه واقع ، ولك أن تطمئن الى صدق كل ما أقول ، وأنت تعرف حدائق مدام بريون وتعلم أنها ما أصلحها للسير فيها ـ انك تعرف الدرج الذى تعد منه مائة وخمسين من الأرض الى المرتقى الأعلى ، وانك لتزور هذه الأسرة المحبوبة مرتين كل أسبوع فيما بعد الظهيرة ، وانك لأنت القائل ان « التمرين » على صعود الدرج وتزوله أكبر من التمرين على المشى فى السهول . فما كان أجمل الفرص التى تتيح لك أن تجمع بين هذا التمرين وذاك التمرين . فهل انتفعت بهما ؟ وكم مرة ياترى ؟

فرنكلين — لا أقدر على الجواب الصحيح عن هذا السؤال .

أم النقارس — اذن أتولى أنا الجواب عنك ـ ولا مرة !

فرنكلين — ولا مرة ؟

أم النقارس — نعم ولا مرة ـ ففى أيام الصيف الماضى الجميل وصلت ثمة عند الساعة السادسة ، ووجدت ثمة تلك السيدة المليحة وأطفالها الحسان وأصحابها جميعا على استعداد لمزاملتك فى السير وامتاعك بأحاديثهم الرائقة ـ فماذا صنعت ؟ جلست على الشرفة وأثنيت على المنظر الجميل وعاينت جمال الحدائق من تحتك ولم تخط خطوة واحدة لتهبط اليها وتسير فيها ، وعلى نقيض ذلك طلبت الشاى ورقعة الشطرنج ورسخت فى مجلسك حتى الساعة التاسعة ولعبت نحو ساعتين بعد تناول الطعام ، ولم تعد بعد ذلك الى منزلك مشيا كى تتحرك بعض الحركة ، بل عدت اليه جالسا فى مركبتك ـ فأية حماقة تلك التى تسول لك أن تظن أنك مع هذا الشطط تملك صحتك بغير زاجر منى ـ

فرنكلين — الآن أومن بصواب ما قال ريتشارد المسكين حيث يقول ان ديوننا وخطايانا أكثر مما نحسب .

أم النقارس — ذلك حق ، وهكذا أنتم معشر الفلاسفة تملأون أفواهكم بالحكمة وتعملون عمل الجهلاء .

فرنكلين — ولكن أتراك تعدينها من جناياتى ، اننى عدت بالمركبة من عند مدام بريون .

أم النقارس — بكل يقين ، لأنك قضيت اليوم جالسا ولا يسعك أن تزعم أنك قد تعبت من الجهد والمشقة ، أو أنك فى حاجة الى الترفيه عنك بالجلوس فى المركبة .

فرنكلين — فماذا تقترحين اذن ، وماذا ترين أن أصنع بمركبتى ؟

أم النقارس — احرقها ان شئت . انها تعطيك على الأقل شيئا من

الحرارة وهى محترقة ! وان كانت هذه النصيحة لا تروقك فانى باذلة لك غيرها . انظر الى الفلاحين المساكين الذين يحرثون الأرض فى الكروم والحقول حول قرى باسى وأوتيل وشايوت . انك سترى كل يوم بين هؤلاء الخلائق المساكين خمسة أو ستة من الشيوخ أو العجائز قد انحنت ظهورهم ورزحوا تحت وقر السنين فى الكدح والمشقة ، وهم بعد العمل المجهد طوال اليوم يمشون ميلا أو ميلين كى يصلوا الى أكواخهم المصدعة فمر سائقك أن يدعوهم الى المركبة ويحملهم الى بيوتهم ، فانه لعمل صالح تدخره لنجاة روحك ، ولئن عدت فى الوقت نفسه على قدميك من عند السيدة بريون ليكونن ذلك عملا صالحا تدخره لجسدك .

فرنكلين — آه . ما أثقل حديثك !

أم النقارس — نعود اذن الى شغلنا . فلتذكر دائما أننى أنا طبيبتك خذ هـــذه !

فرنكلين — آه . أوه . يالك فى طبك من شيطانة !

أم النقارس — انك لتنكر الجميل اذ تقول ذلك عنى . ألست قد أنقذتك من الشلل بالقيام على تطبيبك ؟ ألست قد أنقذتك من أدواء الاستسقاء أو الفالج التى كانت وشيكة أن تقضى عليك لو لم أمنعها .

فرنكلين — أعترف بذلك ، وأشكرك على ما أسلفت ، ولكنى أرجوك الآن بربك أن تفارقينى فراق الأبد . فقد يلوح لى أن الموت أهون من علاج فيه مثل هذا الوجع ، واذكرى كذلك أننى كنت صديقك ، وأننى لم أدع أحدا لمصارعتك ومنازعتك لا من الأطباء ولا من الرقاة والمخرقين فان لم تفارقينى الآن فأنت خليقة كذلك أن تتهمى بالجحود .

أم النقارس — لا اخالنى شاكرة لك كثيرا على هذا . فانى لأهزأ بالرقاة والمخرقين ، وانهم لقادرون وعاجزون عن المساس بى فى كثير أو قليل . وكم من طبيب حق الطبيب يعرف أخيرا هذه الحقيقة التى

تقول له ان النقرس ليس بالداء ولكنه ضرب من الشـفاء ، ولا لزوم لتعويق أسباب الشفاء ، ولنرجع — بعد — الى عملنا . خذ هذه !

فرنكلين — أوه آه . سألتك بالله الا ما تركتني وأنا واعدك منـذ اليوم ألا ألعب بالشطرنج وألا أدع الرياضة كل يوم ، وأن ألزم الاعتدال مدى الأيام والليالى !

أم النقارس — أعلم انك ستفعل ، وأنك تعد الوعود الجميـلة وما تلبث بعد أشهر قلائل فى الصحة والعافية أن تعـود الى عاداتك ومألوفاتك وتذوب وعودك الجميلة كما ذابت ثلوج السنة الغابرة . فلنعد الى حسابنا ولنوازن بين كسبنا وخسارتنا ، ثم انى بعد ذلك تاركتك على يقين من الرجعـة اليك فى الوقت اللازم وفى المكان الملائم . فانه لمن مصلحتك واننى لك كما تعلم لنعم الصديق ![1] .

الرفق بالحيوان

وكتب فرنكلين الى السيدة هلفيتس Helvétius قرينة الفيلسوف المعروف رسالة بلسان قططها حين علم أنها تنوى أن تتخلص منها بمشورة بعض أصدقائها من القسس لأنها تغير على أقفاص الطير التى تربيها فى قصرها ، فأرسل اليها هذه العريضة بلسان القطط تتوسل اليها أن تبقى عليها . فقال :

حضرة السيدة النابهة العلية الشأن والمقام .

بلغتنا الساعة نبذة من خبر مرعب نغص علينا سعادتنا التى ننعم بها فى حظائر الطير والغاب لديك . بلغنا انك لما سمعته من بعض الوشايات من أعدائنا (الأب موريليه والأب روس) قد حكمت علينا بالنفى وأننا

---

(١) من كتاب الخزعبلات The Bagatelles تاليف ريتشارد اميشر Richard E. Amacher

سنعتقل بوسيلة شيطانية ونحبس فى باطية ويقذفه بنا الى أعماق النهر حيث تترك فيه لرحمة الأمواج ، واننا لنسمع فى هذه اللحظة التى نكتب فيها هذه العريضة المتواضعة ضربات المطارق فى أيدى الحوذية الذين عهد اليهم بصنع الآلة الجهنمية التى فيها هلاكنا .

ولكن — سيدتنا علية الشأن — أتسمحين أن يقضى علينا هكذا دون أن يستمع للدفاع من جانبنا ؟ وهـل ترينا وحـدنا من الذين تطعمينهم وتغذينهم نحرم ما فى صدرك الحنون من العطف والشفقة ؟ اننا نرى يدك الكريمة كل يوم تطعم مئات الفراخ والكنار والحمائم التى لا عداد لها كما تطعم عصافير الجيرة أجمعين وأسراب الشحارير فى غاب بولون ، بل تسخو بالطعام والشراب حتى للكلاب فى هذه الرحاب . فهل نحن وحدنا نحرم هذه الخيرات من يدك ولا يكفينا هذا بل نصبح دون غيرنا هدفا للقسوة التى لا مكان لها بين مآثرك وسجاياك ؟ - كلا - ان سجاياك التى انطوت عليها فطرتك البارة ستعيد الى قلبك من عواطف الحنان ما هو أشبه بهذا الحنان .

واآسفاه ! ما هى جرائمنا التى اجترحناها ؟ . اننا نتهم — وما أكثر ما تفعله الوشايات والتهم — اننا نأكل الفراخ الصغار ونغير من حين الى حين على الحمائم ونرقب طيور الكنار حتى تدنو منا فنقبضها وندع الفيران تعيث فى دارك آمنة مطمئنة !

لكن هل يكفى مجرد الاتهام للادانة بالاجرام ؟ اننا لنستطيع أن ندحض هذه التهم جميعا فى غير عناء ، وينبغى أولا ألا ننسى أنها لا تقوم على بينة أو برهان .

فاذا سلمنا أن هناك بقية من أجل الحمائم وريشها تقدم فى معرض البينة على ادانتنا فهل تصلح هذه البينة للادانة أمام محكمة من المحاكم على وجه الأرض كلها ؟

ان الجرائم يخلقها العوز والحاجة ، ونحن بحمد الله فى رحـابك ثمانى عشرة قطة ننعم بالخير الجزيل ولا نشعر بالعوز ولا بالحاجـة . فهل يعقل مع هذا أن تخدش اليـد التى تطعمنا ؟ ألم تبصرى بعينيك فراخك تدنو منا وتأكل معنا من صحافنا ولا تعترضها حركة مسيئة من جانبنا ؟ واذا قيل لك اننا لا نلتهم الفراخ ونحن نحس رقابة الأعين علينا ، واننا تحت جنح الظلام نجترح ما نجترح من جرائمنا فانما هم أعداؤنا الذين يستترون بجنح الظلام لافتراء الأقاويل علينا . ويحق لنا أن نرميهم بذلك لأنهم ينسبون الينـا الجرائم الليلية التى يدحضها مسلكنا فى وضح النهار .

وقد يقول أعداؤنا ان حظائر سيدتنا العلية الشأن تكلفها خمسـة وعشرين لويزا ذهبا (أى ستمائة ليرة فى العام) وأنها لا تأكل منها أكثر من خمسين يحسب ثمن الواحدة باثنتى عشرة ليرة لحسن تدبيرها وعنايتها بنفقتها . ! فأين تذهب البقية ياترى ؟

ولنا أن نسأل (أولا) هل عدت الفراخ وسلمت الينا فنحن مسئولون عنها ؟ وهل نحن دون غيرنا موضع الشبهة بين أولئك الأعداء المحيطين بها وأولهم أبناء آدم وحواء الذين يخالون أن الفراخ لم تخلق فى هذه الدنيا الا ليأكلوها ؟ فى كل يوم من أيام الآحاد يقدم على باب غاب بولون وفى منتديات أوتيل مئات من صحاف اللحم المفروم . أفلا يجوز أن يكون بعض فراخك قد تسرب فى لطف الى تلك المنتديات ؟ ان كان ذلك كذلك فلم نكن نحن يقينا من يتولى تسليمها الى أصحاب المطاعم والحـانات .

وبعد فنحن لا نريد أن نقف موقف الاعتذار لسارقى الدجاج ، ولكنك — سيدتنا — تسمحين لنا أن نلاحظ أن فراخك على اختلاف الأسباب التى تنقصها وتقلل من عددها انما يجرى هذا النقص فيها على سنن

الطبيعة ويعود عليك بالراحـة والرضا . لأنه يحـد من تكاثر نوعها وزيادتها على مقدارها ، ولو أنها تركت تنمو وتتكاثر بغير حـد مقدور لم يبق في رحابك متسع لها ولم تترك لك فترة للراحة من رعايتها .

أما الحمائم فليسمح لنا أن نقول ان فراخا عدة من نسل «كوكو»[1] قد غابت حقا ، ولكن هذا — مع عطفك عليه الى الحد الذى يبيح له أن يحطم خزفك الغالى ما دام يلقط الحب من يدك — لن يرضيك عن ظلمنا واتهامنا في غير بينة . فأين هو الدليـل الذى يثبت علينا أننـا اعتدينا على ولد واحد من ذريته ؟ وهل يحدث بين نوعنا ونوعـه أن تتقارب وتتلاقى ؟ ألا يزال على نأيه عنا والتجائه الى السقوف والقمم لاتقائنا مما يجيز لنا أن نغضب لكرامتنا ؟ . اننا لنرجو أن تفتش حظيرة الغاب في الربيع القادم ونحن كفيلون في حالة الكشف عن جريمة من جرائم الغيلة أن نسلم الجناة الى أيدى العدالة . لكن الحمائم ليست مثلنا نحن بمعاشر القطط المساكين مرتهنة بالأرض التى ولدنا عليهـا ، وقد تلوذ بالهواء وتطير الى مكان قصى غير هذا المكان ، وربما غار بعضها من ايثار فريق منها لديك على فريق فغادرت الديار طلبا للمساواة في وكن جمهورى من أوكان الطيور ، مؤثرة هذا الفرار على البقاء في الديار ، على مشهد من كبرياء (كوكو) الثرثار .

أما التهمة التى رمينا بها من أجل طيور الكنار فانك لترين عفـوا بغير عنت أنها محض سخافة وتلفيق . فان فتحات القفص الكبير الذى تقيم فيه أضيق من أن تتسع لمدخلنا ، وربما خطر لنا من باب اللعب واللهو أن نزج بأيدينا خلالها فلا نقدر على اخراجها بعد ذلك بغير جهد ومشقة ، وقد يحدث أحيانا أن نسرى عن أنفسنا بالنظر الى تلك الخلائق الصغيرة البريئة ولا نذكر أننا ندين أنفسنا باهدار قطرة واحدة من دمها .

(١) اسم فرخ من الحمام محبوب عند مدام هلفيتس .

ولسنا نحاول أن ندافع بمثل هـذا الدفاع عن أنفسنا فيما يخص العصافير والشحارير والزرازير التى تتمكن من اقتناصها . الا أننا نسوق فى مساق المعاذير أن عدوينا الأبوين طالما اشتكيا هذه الطيور واستنكرا منها تلك المتالف التى تصيب بها أشـجار الكراز والثمرات ، وكثيرا ما سمعنا الأب موروليه يصب اللعنات على الشحارير والزرازير التى تغير على كرومك بغير رحمة ، وتصنع مثل صنيعة بتلك الكروم . ونحن نرى — سيدتنا علية الشأن — أن العنب أهل لأن تأكله الشحارير كما تأكله الآباء ، وأن حملتنا على النابهين المجنحين تذهب سدى ان كنت مع هذا تشجعين النابهين بغير ريش على انتهاب أضعاف ما ينتهبه المجنحون .

واننا لنعلم أننا متهمون كذلك باقتناص البلابل التى تغرد تغريدها الجميل كما يقولون ولا تنتهب شيئا من البستان . ويجوز أننا من حين الى حين نطرف حلوقنا بلقمة سائغة من هذا النصيب ولكننا نؤكد لك أننا نفعل ذلك عن جهل منا بعطفك على هذه الفصيلة وانها لمشابهتها بعض العصافير والزرازير الأخرى يلتبس علينا الأمر بينها ولا ندعى لأنفسنا من الخبرة بفن الموسيقى ما نفرق به بين الزقاء والغنـاء فنأكلها ونحن نحسبها من تلك الزمرة المستباحة لنا . وقد سمعنا من قطة عند الموسيقار بيشينى Piccini أن الخلائق التى لا تحسن من الأصوات غير المواء ، لن تكون حكما خبيرا بأصوات الغناء ، وعلى هذا نعول فى تسويغ ذلك « الاعتداء » .

على أننا منذ اليوم سنبذل غاية الوسع فى التمييز بين الجلكيين وهم العصافير وبين البشينيين وهم البلابل فيما يروى العارفون[1] ولا نلتمس الا العفو عن خطئنا اذا اتفق فى جولة من جولاتنا بين الأعشاش أن نعثر

(١) نسبة الى جلك Gluck الموسيقى الألمانى وبيشينى الموسيقى الايطالى وكان لهما حزبان متناظران فى أندية باريس ومعاهدها الفنية .

على طائفة من البشينيين لم ينبت لها الريش بعد ولم يسمع لها صوت فى الغناء فلا تميز بينها وبين طائفة الجلكيين .

وخاتمة التهم التى نرمى بها — سيدتنا علية الشأن — أننا نترك دارك عرضة لذلك الجيش من الفيران يغير عليها فى أمان ، ويقـال انها تقرض المقادير الجمة من السكر والحلوى وتعدو على كتب علمـائك وحكمائك وتجترىء حتى على قرض أخفاف وصيفتك القديمة الآنسة لويلييه وهى تلبسها وتمشى فيها . !

ويقال فى سياق الاتهام ان العناية الالهية التى ترعى جميع خلائقها فى الحقيقة على السواء لم تخلق القطط الا لاصطياد الفيران . فان هى قصرت فى هذه المهمة فلا جزاء لها على التقصير فى رسالتها الالهية غير الاغـــراق .

والحق — ياسيدتنا العلية الشأن — انه لمن أيسر الأمور أن تنكشف هذه التهمة عن أهواء أعدائنا وأغراضـــهم الشخصية . فان الســيد كابانيس نزيل قصرك الذى لا يزال على استعداد لاختلاس قالب من السكر كلما سنحت له الفرصة لذو مصلحة عظيمة فى اقناعك بجسامة جشع الفيران كلما قرضت قطعـــة من السكر أو شرعت فى لحس قدر من المربى قبل أن يصل اليها ، غير أنه يفتر عن القسوة — لا عن الغرض فحسب — اذ يقضى علينا بالموت لأننــا لا نحول بين تلك الخـــلائق الصغار التى تغتنم ما تقدر عليه من الفرصة لاستغلال خطة النهب التى يقترفها — على جلالة قدره — كل يوم بغير أسف وبغير ندم . أفى وسعه يا ترى أن يشتط فى قسوته وراء هذا الشطط لو أننا نحن كنا مثله ومثل الفيران من آكلات السكر والمربى ؟ ألا يظهر من هذا جليا أن النهم وحده هو الذى يوحى اليه بمثل تلك البواعث النفسية المنكرة ، وهل تسمحين أنت أن تفسحى لها مكانا فى صدرك الحنون ؟

أما كتب الأب دى لاروش وزميله العالم الآخر الذى اطلعنا على خطابه فى الأكاديمية فى صحيفة لففت بها الرقائق التى أنعمت بها علينا من لحم العجل ، فأى ضرر يأترى فى اقدام الفيران على قرضها من حين الى حين ؟ وما هى جدوى ذلك الاطلاع الواسع على أولئك العلماء ؟ أفما يحق لهم أن يعلموا — وقد عاشوا معك — انه لا جدوى من كل معرفة ؟ انهم يعلمون انك طيبة خيرة بغير اطلاع على المقولة فى أصول الأخلاق ، ويعلمون انك مليحة الشمائل بغير اطلاع على كتاب مسجلنا التاريخى منكريف الذى سماه صناعة الارضاء والاعجاب ، ويعلمون أنك سعيدة بغير اطلاع على مقولة السعادة التى ألفها التعس موبرتويس Maupertius . وانهم لشهود يوميون على مبلغ جهالتهم وهم العلماء بكل تلك المعارف عاجزون عن تحصيل تلك المعرفة التى تعرفينها جيدا وهى القدرة على الاستغناء عن كل معرفة . ان علمك بالهجاء كعلمنا ، وان خطك يشبه كثيرا أثاييش أيدينا ، وانك تخطئين فى هجاء كلمة السعادة ولكنك تستمتعين بالشىء نفسه ، دون أن تعلمى كيف تكتب حروفه ، تلك المتعة التى لا يقدرون هم — مع كل ما عندهم من الكتب — أن يستخرجوها من صحائفها . وأنت بعد تفيضين عليهم من عظمة جهالتك ما يحيط بهم ويطويهم بين أكنافها . فليس فى مستطاع الفيران كما أثبتنا بالبرهان أن يصيبوهم بضرر بليغ . وأما أخفاف الوصيفة فان الفيران لم تكن لتدركها لو لم تكن الوصيفة تمشى كأنها نائمة ، والعجب منك — سيدتنا — أن تقضى علينا بالموت لأن وصيفتك تمشى بخطوات حلزون !

وهذه البراهين على قوتها ليست هى عذرنا الوحيد بين يديك من التلف الذى توقعه الفيران بما فى دارك . آه أيتها السيدة العلية الشأن . بأى ضمير يجوز اتهامنا فى حين نراك أنت تصحبين كلبيك المتطشين

الى دمائنا فلا نجترىء على الاقتراب منك لأداء واجب التحيــة التى تنبغى لسيدتنا ؟! كلبان اثنان ! يكفى هذا ياســيدتنا وأنت لا يخفى عليك أنهما من نوع ترى على بغضنا ويملؤنا الرعب كلما استمعنا الى نباحهما على مقربة منا ـ كيف يجوز لأحد أن يظلمنا بالملام اذا ابتعدنا من الأماكن التى تقيم فيها حيوانات بهذه الضراوة وهــذه الكراهية المطبوعة لنا وهذه القدرة على اهلاكنا وهى طليقة لا يكبح لها عنان ؟! ـ

ولو كان الخطب خطب الكلاب الفرنسية وحدها لأمكن أن تخف وطأتها ويهون الخوف من ضراوتها . ولكنك تدخلين فى خدمتك — على خلاف الأوامر من الرقيب العام — كلبا من فصيلة البل دوج تأتين به من البلاد الانجليزية التى تكرهنا ضعفين لأننا قطط ولأننا فرنسيات ! وحسبنا ما نراه كل يوم من أثر بغضائه فى ذنب أخينا المبتور لينــوار Le Noir، ولا شك أن غيرتنا على خدمتك وأذواقنا التى ركبت على اشتهاء الفيران كانت قمينة أن تؤلف منا طوائف للصيد فى مسكنك لو لم نكن منفيين منها بالخوف من أولئك الأعداء الذين تبيحين لهم السيطرة عليها ، فلا يلومننا أحد بعد الآن على التلف الذى يحيق بدارك من غارة الفيران ونحن على ما نحن عليه مجردون من كل وسيلة لقمعها واقتضــائها .

واآسفاه . لقد ذهب ذلك الزمان . ذهب ذلك الزمان الذى كان ذلك القط الفاخر بومبون Pompon يسيطر على هــذه الأماكن جميعا وينام فى حجرك ويضطجع على وسادتك ، وكان ذلك الكلب زميرا الذى يسعى اليوم سعيه لاسقاطنا يتزلف الى ذلك المجدود الذى يحتل الآن مكانه . لقد كنا يومئذ نجوس خلال الدار وأذنابنا مرفوعة فى الهواء ، وكان المرحوم بومبون ينزل أحيانا الى مشاركتنا فى قسمة الأرانب التى كان صاحب الجلالة يبعث بها الينا عقب عودته من رحلات الصيد ، وكنا

فى ظل تلك الحظوة الفاخرة تسعد بالأمن والسعادة .

ونعود فنكرر الأسف على تلك الأيام التى خلت ، وعلى العهد القططى الذى خلفه هذا العهد الكلابى ، وقد كانت الحظوظ حظوظنا فى أيام دولته ، فأما اليوم فكل ما نملكه من العزاء أن نذهب الى ضريحه ونروى بدموعنا غصون البان التى ترفرف على مثواه الأخير .

آه . أيتها السيدة العلية الشأن . لتكن ذكرى ذلك القط الحبيب باعثة فى صدرك على الأقل شيئا من الرأفة بنا ، ونحن لا ندعى أننا من زمرته لأنه كان منذورا للعفة من صباه ، ولكننا من نوعه على كل حال ، ولا يزال طيفه يحوم حول هذه البقاع ويدعوك أن تنقضى ذلك الحكم الدموى الذى يتوعدنا ، وكل ما تسدينه الينا من البقايا الصالحات موقوف منذ اليوم الى أواخر أيامنا على المواء لك بوفائنا الدائم ، حافظين ذكراه الى أبنائنا وأبناء أبنائنا جيلا بعد جيل .

شواغل الشيخوخة

وكان الاقتصادى الانجليزى جورج هويتلى صاحب كتاب أصول التجارة صديقا لفرنكلين يهتم مثله بالمسائل الاجتماعية الانسانية ، فكتب اليه فى الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٧٨٤ خطابا يعتب فيه على تأخير الرسائل ويتناول فيه بعض المسائل التى تعرف من جواب فرنكلين مايو سنة ١٧٨٥ بعد نبذة وجيزة أرسلها اليه قبل ذلك ، واستهل الجواب المسهب بالاعتذار وأتبعه بالرد على المسائل الأخرى . قال :

« كتبت اليك بضعة أسطر منذ أيام ومعها الوسام ، وكان ينبغى أن أكتب اليك أكثر من ذلك لولا أننى فوجئت بفضولى شغلنى الى مساء ذلك اليوم ، فاحتملته جهدى كما أرجو أن تحتملنى جهدك الآن .

فلعلى أفيض فى ثرثرة الفضول بما أجيب به الآن .

لا أعرف كلمة الفونس Alphonsus التى أشرت اليها مستشهدا بها على صوابك فى التشدد اذ تأبى أن تتقبل علة الشيخوخة عذرا من تأخير المراسلة . فما هى تلك الكلمة يا ترى ؟ انك على ما أرى لا تشعر بالداعى الى ذلك الاعتذار وان كنت كما قلت لى تصعد الى الخامسة والسبعين . لكننى أنا أصعد الى الثمانين ، أو لعلى أنحدر اليها ، وأدع الاعتذار الى أن تبلغها أنت عسى أن تكون أدنى الى قبوله والايمان بصحته ، وتراه أنت صالحا للانتفاع به يومذاك .

وأوافقك على أن النقرس سىء وان الحصاة أسوأ ، وأحسبنى سعيدا لأننى لم أجمع بينهما معا فى وقت واحد ، وأدعو معك أن تعيش وتودع الحياة بمنجاة من هذه وذاك . الا أننى أزعم أن صاحب القبرية التى أرسلتها الي على خطأ فيما أوصى بكتابته على قبره وهو : « لم يحفل مقدار ذرة أن يقول القائلون خيرا أو شرا فى ساكن هذه الحفرة » . فانه لمن طبيعة الانسان حيا أو ميتا أن يحب ذكراه بالخير ، ولا أخاله معفى من هذه الرغبة والا لما شغل نفسه بما يكتب على قبره . ولقد كان — كما يظهر من قبريته — يحب أن يقال انه رجل ساخر من أصحاب النكتة . أوليس جديرا منه بمثل هذا الشغلان أن يقال ما كان أصدقه أو أطيبه من انسان ! وتعجبنى أكثر من هذا خاتمة الأنشودة التى عنوانها أمنية الشيخ التى يذكر فيها الناظم انه يتمنى فى الشيخوخة البيت الدافىء فى بلدة من بلاد الريف والجواد الطيع والكتب الممتعة والرفاق الموافقين من ذوى البشاشة والذكاء ، وفطيرة فى يوم الأحد وقنينة من الجعة وأخرى من خمر برجندى الى أن يقول ويعيد هذه المقولة فى ختام كل قطعة :

وليتنى أملك شعورى كالملك المطلق ، وأزداد فى الحكمة والخير كلما

نقصت قواى ، ولا نقرس ولا حصاة ، الى أن تحين الوفاة .

ولقد أضاف الى تلك الأمانى أمنيته الأخرى قائلا : « وبالشجاعة التى لا تهن ولا تضعف ليتنى أواجه اليوم الأخير ، وليت خيار الناس يقولون بعد اليقظة فى الصباح أو بعد الشراب فى المساء : لقد ذهب بغير نظير ، لأنه حكم شعوره حكم السادة المطلقين ! »[1] .

على أنها محض أمنية . وماذا تغنى الأمانى ! ان الأمور لتجرى كما يتفق لها . وقد أنشدت ذلك النشيد ألف مرة فى شبابى ثم بلغت الثمانين فاذا بالمحظورات الثلاثة قد اصطلحت على فتعرضت للنقرس وللحصاة ولم أملك شعورى كالملوك المطلقين ! وكأننى تلك الفتاة المترفة التى نذرت ألا يكون زوجها من طائفة القسس ولا من الكنيسة المشيخية ولا من أبناء ايرلندة . فلما تزوجت اذا بالثلاثة يجتمعون فى واحـد : قسيس ايرلندى من الكنيسة المشيخية .

وانك لترى اذن اننى أتمنى — لسبب معقول — ألا أكون فى الحياة الأخرى كما كنت فى هذه الحياة وحسب ، بل أفضل وأسعد ولو قليلا . ولى رجاء فى ذلك لأننى كشاعركم أومن بالله ، ويؤيد هذا الرجاء أننى أرى فى آيات خلقه دلائل القصد والتدبير ، وهى ظاهرة فى ابداعه وسيلة التناسل والتجديد التى تعمر عالمه بالنبات والحيوان بدلا من خلقها كل مرة من جديد ، وظاهرة كذلك فى جعل الأشياء قابلة للرجوع الى عناصرها الأولى كى تصلح لاستخدامها فى تركيب بعد تركيب بدلا من خلق مادة جديدة فى كل حين ، وهكذا قد يتركب الخشب من التراب والهواء والنار ثم يعود بعد انحلاله ترابا وماء وهواء ونارا . وكلما نظرت فلم أر شيئا يفنى ولا قطرة ماء تضيع فى الغمار لم يسعنى أن أتصور فناء الأرواح

(١) صاحب هــــذه الأبيات فلكى انجليزى هو والتربوب walter pope توفى سنة ١٧١٤ .

ولا أن أعقل أنه يدع الملايين من العقول تزول وينشيء فى مكانها عقولا أخرى باديء ذى بدء كأول مرة . ولهذا أرى نفسى فى الدنيا وأعتقد أننى باق فيها على صورة من الصور ، واننى على كل ما فى الحياة الانسانية من النقائص والنقائض لا أمانع فى اخراج طبعة جديدة منى ، على أمل فى تصحيح الأغلاط التى كانت تشوب الطبعة السابقة .

— أعيد اليك مذكرتك عن الأطفال الذين تلقاهم ملجأ اللقطاء فى باريس من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٥٥ وقد أضفت اليها السنوات السابقة منذ سنة ١٧١٠ مع بيان تسجيلات التنصير واحصاء السنوات اللاحقة الى سنة ١٧٧٠ ، ولم أستطع العثور على غير هذا الاحصاء ، وفى الهامش ملاحظات على التدرج فى الزيادة من اعتبار الطفل عاشرا الى اعتباره ثالثا بين المواليد . وقد مضت خمس عشرة سنة منذ ذلك التاريخ فلا يبعد أن النسبة قد وصلت اليوم الى النصف ! فهل من الصواب تشجيع هـذا النقص فى حاسة العطف الطبيعية ؟ اننى لقيت طبيبا هنا يتهم نساء باريس بقلة الصبر أو قلة القدرة على الارضـاع ، ويؤكد لى ذلك قائلا انك تستطيع أن تعرف ذلك من النظر الى صدورهن السوية ! فليس فيها نمو أكبر من النمو الذى تراه على ظهر كفى ! ومنذ ذلك الحين يلوح لى أن كلامه لا يخلو من الصدق وان الطبيعة أحست أنهن لم ينتفعن بالأثداء فكفت يدها عن ملئها ، هذا وان تكن الحالة قد تغيرت بعض الشيء منذ تكلم روسو بفصاحته المعجبة عن حق الأطفال فى ألبان أمهاتهم فأصبح بعض النساء من العلية يرضعن أبناءهن ويجدن فى أثدائهن اللبن اللازم للرضاع ، وأسأل الله أن تهبط « البدعة » الى الطبقات الدنيا فتبطل تلك العادة التى مردن عليها : عادة القاء الأطفال الى الملاجيء زاعمات فى غير اكتراث ان الملك أقدر على تربيتهم وتموينهم منهن .

وقد اتصل بى من ذوى ثقة ان تسعة أعشارهم يموتون على الأثر مما

يفرج عن الملاجىء التى لا تكفى مواردها لولا ذلك للانفاق على البقية . أما فيما عدا النسوة القلائل من العلية اللائى أشرت اليهن ، وفيما عدا غيرهن ممن يضمن أبناءهن فى المستشفيات فالعرف الشائع أن يدعى بالمرضعات من الريف ليعهد اليهن فى تربية الأطفال هناك . وفى المدينة مصلحة تعنى بالكشف على المرضعات واعطائهن الشهادة التى تثبت صلاحهن لهذا العمل ، وكثيرا ما نراهن عائدات الى قراهن يحملن طفلا على كل ذراع ، ولكن الفئة التى تبلغ بها الطيبة أن تربى أطفالها على هذا النحو قد تعوزها النفقة التى تكفى للتربية ، وتمتلىء السجون بالآباء والأمهات المقصرات فى هذا الواجب وان يكن من العادات المستحبة هنا أن يؤدى المحسنون غرامة أولئك الآباء والأمهات لتسريحهم من السجون ، وحبذا لو أفلح المشروع الجديد الذى يدبر الوسائل لتمكين الفقراء من تربية أطفالهم فى البيوت ، اذ لا مرضع كالأم ، أولا كثير من المرضعات يغنين غناءها ، أن وجدن . ومتى بقى الطفل فى حجر أمه أياما ولم يعجلوا بارساله الى الملجأ تمكن حبه من قلوب أبويه وبذلا من الجهد فوق ما يبذلانه لكسب الرزق والانفاق عليه . وانها لمسألة تعرفها أنت خيرا من معرفتى ، فحسبى ما ذكرت عنها الآن ولا أزيد عليه الا ملاحظة مقتبسة من تاريخ مجمع العلوم تثنى على ملاجىء اللقطاء .

— يسير مصرف فلادلفيا سيرا حسنا على ما سمعت ، وما تدعوه معهد سنسناتى ليس بمعهد من معاهد حكومتنا بل جماعة خاصة ألفها الضباط فى الجيش السابق وتكرهها جمهرة الشعب من أجل ذلك حتى يغلب على الظن أنها ستنحل ، وكان المظنون أنها محاولة لانشاء طبقة وراثية كطبقة النبلاء ، وأوافقك على أنها خطأ ثم أزيد على ذلك ان كل « التشريفات » الموروثة خطأ وسخافة ، فانما الشرف شرف الأعمال الفاضلة لمن يقوم بتلك الأعمال وليس من طبيعته أن ينقل من انسان الى

انسان ، واذا صح أن ينقل من وارث الى وريث وجب أن يقسم بين جميع الوارثين وقل نصيب كل وارث تبعا لتقادم العهد وازدياد العدد ، ودع عنك ما يحدث من الاقتضاب والانقطاع أثناء الطريق .

وظهر أن دستورنا — أو مواد اتحادنا — غير مفهومة لديك ، فلو كان المؤتمر — الكونجرس — هيئة دائمة لكان من الخطر ودواعى الحذر تخويلها السلطان ، غير أن أعضاءها ينتخبون كل سنة ولا ينتخبون ثلاث سنوات على التوالى ولا ثلاث سنوات فى خلال سبع سنوات ، ويجوز على كل منهم أن يستعاد اذا كانت دائرته الانتخابية غير راضية عن مسلكه ، وكلهم من الشعب ويعودون أخيرا الى الشعب بغير صفة دائمة تميزهم الا كما تمتاز حبات الرمل فى الساعة الرملية ، ومثل هذه الجماعة لا يسهل أن تكون خطرا على الحرية العامة ، وأعضاؤها خدام الشعب يجتمعون معا لخدمة الشعب ورعاية مصالحه فلا يتيسر لهم أداء واجباتهم ما لم تكن لهم القوة الكافية لحسن أدائها ، وليست لهم رواتب مجزية غير الأجور اليومية التى قلما تساوى نفقاتهم ، وهم لقلة حظوظهم من المناصب والرواتب والمعاشات التى تعطى فى بعض البلاد لا يدعو الأمر معهم الى الدس أو الرشوة أثناء الانتخاب .

واننى لأتمنى لانجلترا — العجوز — توفيقا كهذا التوفيق فى نظام الحكومة ولا أراه . فان قومك يحسبون دستورهم أفضل الدساتير فى العالم ويظهرون الازدراء بدستورنا ، ولعله من أسباب الرضا أن يحسن الانسان ظنا بنفسه وبكل ما ينتسب اليه ، وأن نعتقد أن دياناتنا ومليكنا وربة بيتنا خير الديانات والملوك وربات البيوت ، ومما أذكره أن ثلاثة من جرينلاند ساحوا نحو سنتين فى أوربة برعاية المرسلين المورافيين فزاروا ألمانيا والدنمرك وهولندة وانجلترا وسألتهم فى فلادلفيا وهم قافلون الى بلادهم الأمريكية عما اذا كانوا بعد ما شاهدوه من معيشة الرجل الأبيض

بصنع يديه يؤثرون البقاء بيننا ؟ فكان جوابهم انهم مسروورون بما شهدوه من المناظر الكثيرة ولكنهم يؤثرون المعيشة بين قومهم وفى ديارهم ، وهى لعمرك أرض صخرية لم يجد المورافيون بدا عن زيارتها من نقل الطين فى سفينتهم من نيويورك لزرع الكرنب فيها .

— أشك فيما بلغ مستر دونالد عن تركيب النظارة التى اخترعتها لقوله انها تصلح لأناس دون آخرين . ويخيل الىّ أن القول بأن التحديب الذى يصلح للقراءة لا يصلح للنظر البعيد صواب ، ولهذا كان لى من قبل نظارتان أبدل بينهما فى السياحة لأننى أقرأ حينا وأحب التطلع الى المناظر حينا آخر ، ووجدت هذا التبديل متعبا لا يسعفنى فى كل وقت فقطعت الزجاج ووضعت نصــفا من كل نوع فى الحلقة الواحــدة ، واستطعت بهذه الوسيلة أن أدير بصرى علوا أو سفلا مذ كنت أستمر على وضع النظارة فوق عينى ، ووافقنى ذلك على الخصوص فى مقامى بفرنسا حيث وجدت أن النظارة التى ترينى صحاف الطعام أمامى لا ترينى وجوه الجالسين على الجانب الآخر من المائدة وهــم يتحدثون الىّ . ولا يخفى أن الأذن اذا لم تكن قد تعودت على تمييز لهجة الكلام فى لغة من اللغات فنظرة العين الى ملامح المتكلم تساعد على الايضاح ، وهكذا أصبحت أفهم الفرنسية بمساعدة النظارات .

— انى أرشح لترجمة رسالتك الشخص الوحيد الذى أعرف أنه يفهم الموضوع كما يفهم كلتا اللغتين ، وهذا عندى هو شرط المترجم والا تعذر عليه اتقان الترجمة ، وهو الآن مشغول بعمل لا يمكنه من الاشتغال بترجمة الرسالة ، وسيفرغ منه قريبا .

— أشكر لك تعليقاتك وأود لو أحصل على غيرها من الكراســات المطبوعة .

— واننا على الدوام مرحبون بالأطفال فى أى وقت تشاء أن ترسلهم

الينا . وكل ما ألاحظه أن لندن تستوعب عددا كبيرا من أبناء الريف ، فمن الحق أن يتسع الريف لمن يعرضهم من أولئك الأطفال ، وهذا مع كثرة الذين يتزلون عن حريتهم الانسانية ليعملوا حينا عمل الخـدم أو يعملوا طوال العمر عمل الجنـد — برهان فى نظرى على ازدحام جزيرتكم . ومع هذا نراها تخاف من المهاجرة .

وداعا أيها الصديق العزيز ، واننى على الدوام صديقك المخلص .

الأعداء فى الوطن

وكتب اليه صهره ريتشارد باخ يقول ان آرثر لى ورالف ازداد من أهل بنسلفانيا المقيمين فى باريس يسوءون سمعته ويشهرون به لأنه اتخذ « تمبل » حفيده سكرتيرا له مع أن أباه كان مواليا لبريطانيا العظمى ، فأجابه فرنكلين بهذا الخطاب :

باسى — فى الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٧٩ .

اننى مستريح البال من ناحية تلك المساعى التى يقوم بها (ل) و (ر) للاضرار بى فى العدوة الأخرى من المحيط ، ومطمئن الى عدالة المؤتمر — الكونجرس — وأنه لن يصغى الى تهمة توجه الىّ دون أن أعلم بها قبل ذلك ويتسع لى الوقت للاجابة عنها ، واننى لأعلم أن ذينك السيدين ينطويان لى على أسوأ النيات وان لم أسىء الى أحد منهما أو أمسه بما يسوغ له أن يشعر بالمساءة . غير أن السـمعة الكبيرة التى تحيط بى والمحبة التى ألقاها من القوم هنا والتوقير الذى يقابلوننى به ، بل التحيات التى يخصوننى بها تحزن ذينك السيدين التعسـين : التعسين حقا بما اشتملت عليه طواياهما من الظلام والحقـد والغـيرة والشبهة والحسد والضغينة . وان النفس الطيبة ليكفيها ما تجده من الحزن لمصائب الآخرين . أما الذين يزعجهم كل حظ طيب يتملاه غيرهم

فلن يسعدوا قط ولن يستريح لهم بال ، وليس بى من حاجة الى الانتقام من أمثال هؤلاء الأعداء غير أن أتركهم حيث أوقعتهم طبائعهم الناقمة مجتهدا أن أحافظ على الخصال التى تجعلنى أهلا للرعاية والتقـدير ، وكلما دامت لى السمعة التى يحيطنى بها الناس أدمتهم فى تلك اللعنة التى يتمرغون بها ، ولا يخطر لى أن أغير من خصالى كى أخفف عنهم بعض مايعانون.

ويدهشنى أن أسمع أن وجود حفيدى تمبل فرنكلين معى يستوجب النقمة منى والسعى فى اقصائه عنى ، وأحسب بحق أننى أحسنت بحمايتى هذا الفتى أن يصبح من زمرة المحافظين الانجليز وابقائه الى جانبى فى زمرة خدام الجمهورية الأحرار ، وأرى من مبادئه الحرة واستقامة خلقه ودأبه على العمل وفطنته المبكرة وكفايته النادرة أنه وشيك أن يكون عظيم النفع لوطنه ، وكفى أننى فقدت ولدى فهل يريدون فوق ذلك أن أفقد حفيدى ؟ اننى شيخ فى السبعين عمدت الى رحـلة شتوية باذن الكنجرس وليس معى من يتولى العناية بى سواه ، ولا أزال هنا فى بلد أجنبى يكلؤنى برعايته البنوية اذا مرضت ويغمض عينى ويحـرس ما عندى من بقية تراث اذا حم الأجل .

ان أدبه فى معاملتى ونشاطه ودأبه فى عمله يرضينى ويفيدنى ، وسلوكه فى عمل الأمانة على السر — السكرتيرية — لا غبار عليه ، واننى لواثق أن الكنجرس لا يفكر فى الفصل بينه وبينى .

واننى كذلك لعظيم الغبطة بولدنا « بن »(١) وأراه خليقا أن يصبح رجلا ذا شأن . وقد انتفع من المدرسة الداخلية التى هو فيها جهد ما ينتفع بالتعليم فى تلك المدرسة ، وقد فكرت فى المدرسة التى تفضلها بعد هذه الخطوة فاستقر عزمى على ادخاله مدرسة أعلى منها بمدينـة جنيف ، والفرصة حسنة لأننى أعرف سيدا من أهل المدينة له ولد فى مثل سـنه

(١) ابن ريتشارد باخ صاحب الخطاب .

يتعلم فى تلك المدرسة بعينها ، وقد وعدنى أن يتكفل برعايته وتبادلت معه فى هذا الصدد رسائل أبعث بها اليكم مع هذا الخطاب ، وقد سافر « بن » فرحا وفهمت أنه سعيد جدا بهذه النقلة الى المدرسة الجديدة . ولقد أوحشنى غيابه عنى أيام الآحاد وفى نيتى اذا عشت أن أذهب الى سويسرة فى الربيع القادم لأراه وأرى فى الوقت نفسه تلك الولايات الثلاث عشرة العجوز فى البلاد السويسرية .

والحمد لله اننى ماض على صحة ورضا ، واننى أكبر وأشيخ ، ولكننى فيما أظن لم يصبنى تغيير كبير فى السنوات العشر الأخيرة ، ويعاودنى النقرس من حين الى حين ولكنهم يقولون انه الى العلاج أقرب منه الى انحراف المزاج ، والله يبارككم ويتولاكم .

جواب على تحذير

وحذره هارتلى من أعدائه وأوصاه باتقاء الخطر على حياته ، فكتب اليه فرنكلين كما جاء فى خطاب نشره حفيده يقول فيه :

« شكرا لك على تحذيرك . غير أننى قاربت النهاية من عمر طويل ولست أبالى كثيرا بما بقى منها ، وانما هى عندى كالفضلة من الثوب يقول البائع للشارى الذى يلح فى المساومة عليها : خذها كما تريد أو بالثمن الذى تريده ولا خلاف بينى وبينك عليها فما هى الا بقية ! وربما كان أنفع شىء يصنع بالشيخ الذى بلغ هذه المرحلة من العمر أن يحشر فى زمرة الشهداء .

بيان عن خدمات وطنية

وكتب الرسالة التالية الى شارل تومسون سكرتير الكنجرس على أثر اشاعة بلغته عن أناس يزعمون أن الحكومة وضعت بين يديه أموالا

كثيرة قد تأخر حسابها ، وكانت الحقيقة على عكس ذلك ، اذ كان الكنجرس يرجىء حسابه ولا يعطيه ما استحقه بخدماته ، ويسأل فرنكلين صديقه عن الوسيلة المثلى لانجاز المحاسبة وتوفية تلك الحقوق :

فلادلفيا فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٨٨ .

صديقى العزيز القديم .

أرسل مع هذا خطابا الى رئيس الكنجرس فى الوقت الحاضر أرجو أن تراجعه وتبلغنى ما تراه اذا عنّ لك فيه ما يدعــو الى الملاحظة أو التنقيح ، واننى أعتمد كثيرا على نصيحتك الأخوية لأنك تعلم ما لست أعلمه عن الأشخاص والأحوال ، وأظن أن فى الوقت متسعا قبل تأليف الكنجرس الجديد للتنقيح الذى تشير به ، على أن يكون تقديم الخطاب — اذا قدم — الى الرئيس القديم .

وستجد فى خطابى الى مستر باركلى اشارة الى « أعمال هامة لم أثبتها فى حساب الكنجرس وأرجو من انصافه أن يكون لها اعتبار فى التقدير ». ولكى تكون على علم بهذه الأعمال أبعث اليك مع هذا الخطاب ببيان مجمل عن الخدمات التى قمت بها للولايات المتحدة ، ومنها أعمال نافلة لا تتصل بوظيفة السفارة ، كعمل القضاء فى البحرية ، وعمل القنصلية قبل وصول مستر باركلى ، وعمل الصرف لمراجعة قوائم المصــارفة وسفاتجها ، وعمل السكرتيرية عدة سنوات ، وسائر هذه الأعمال التى لم أتناول شيئا عنها وكانت لها مكافآت ترسل الى السفراء الآخرين .

وأصارحك اننى آمل — كما جرت العادة فى القارة الأوربية — أن يمنح السفير بعد اعتزاله منحة يستعين بها على اصلاح شئونه الخاصة التى لاشك أنها تصاب بالضرر أثناء غيابه وانقطــاعه عن مباشرتها فى وطنه ، ورجائى أن يتفضل الكنجرس بمنحى قطعة من الأرض فى أقاليم الغرب يستفاد بهــا وتبقى لذريتى شرفا وذكرى ، ولا أخال الا أن

الكنجرس صانع شيئا من هذا القبيل عند النظر فى خدماتى وأعمالى كما أرى من تقديرهم السخى لخدمات مستر لى فى انجلترا قبل ذهابه الى فرنسا ، وهى خدمات وأعمال كان لى ولمستر بولان Bollan معاونة فيها ولم نحصل على مثل هذه المكافأة عنها . وقد كوفىء مستر لى بعد عودته بمنصب حسن كما كوفىء صديق مستر جاى Jay وان تكن هذه المكافأة زهيدة بالقياس الى انعام الملك على مسيو جيرار Gerard عند عودته من الديار الأمريكية .

أما فى أمرى أنا بعد عودتى فما أبعد الاختلاف !

رجعت من انجلترا سنة ١٧٧٥ فتفضل الكنجرس على بوظيفة مدير مصلحة البريد مشكورا على فضله ، وهى وظيفة أحسب أن لى بعض الحق فيها منذ توليتها تحت التاج فأصلحت نظامها وضاعفت مواردها ، وتركتها لصهرى بعد سفرى الى فرنسا يقوم فيها بوظيفة الوكيل ، ولم يمض غير قليل بعد سفرى حتى حولت هذه الوظيفة الى مستر هازارد . وقد عن للادارة الانجليزية قبل ذلك أن تحرمنى هذه الوظيفة فحفظت لى الحق فى اعفاء رسائلى الصادرة والواردة من الأجر كما جرى العرف فى معاملة المديرين الذين يعتزلون الوظيفة لسبب لا يمس كرامتهم . أما فى أمريكا فان هذا الأجر قد طلب منى وبلغ نحو خمسين جنيها ، لكثرة الرسائل التى ترد الىّ على اعتبارى مديرا سابقا لمصلحة البريد .

ولما أخذت معى حفيدى تمبل الى فرنسا رأيت — بعد تعليمه الفرنسية — أن أخرجه فى دراسة القانون والاشتغال بعمله ، ثم استبقيته لعمل السكرتيرية بعد أن وعدت بهذه الوظيفة وتكررت تجربتى للسكرتيرين وتكررت خيبة الأمل فيهم ، ولم تزل تتكرر بعد عودتى الى أمريكا ، حتى فات الوقت الذى يشتغل فيه بالدراسة المطلوبة وانتظمت حياته على غير نظامها ، فلما رأيت أنه — لطول مرانته فى الأعمال

الدبلوماسية — جدير بوظائفها ، وهو رأى يشاركنى فيه ثلاثة من الزملاء ندبوه بغير طلب منى للعمل معهم خلال المفاوضات فى شئون المعاهدات ، رشحته فى خطاب الكنجرس لوظيفة السكرتيرية فكان الرد الوحيد الذى تلقيته على هذا الرجاء الوحيد الذى تقدمت به أمرا بوقف التعيين وانتداب الكولنل همفرى سكرتيرا فى مكانه ، وهو سيد قد يكون له العلم بالشئون الحربية كما هو الواقع ولكنه لم يختبر العمل فى الشئون السياسية ولا يعرف الفرنسية ولا عهد له بالمسلك اللازم فى هذه المهمة .

وانني أفضي بهذا كله اليك — شخصيا — افضاء صديق الى صديق لأننى لم أتعود الشكاية العامة ولا أريد أن ألجأ اليها بعد الآن .

وانني لو استطعت أن أعلم — مقدما — أن الكنجرس سيعاملنى هذه المعاملة التى لا مجاملة فيها ويستكثر علىّ توجيه الشكر الى — لم يكن من شأن هذا أن يوهن من عزمى أو من غيرتى فى خدمته وتأييده ، وقد أعرف بعض الشيء عن أطوار هذه الهيئات التى تتغير حينا بعد حين ويأتى فيها خلف لا يعلم ما قد علمه السلف من خدمات أسديت الى الهيئة ولا يشعر بواجب الجزاء عليها ، مع بعد القائمين بالخدمة فى بلاد أجنبية وامعان واحد أو اثنين من الحاقدين وذوى النية السيئة فى الدس والتأثير على عقول الأعضاء الآخرين ، وان كانوا من أهل الاخلاص والانصاف والمروءة . ولهذا أوثر أن أطوى هذه الخواطر فى أطواء النسيان والكتمان .

واني لألتمس المعذرة منك — ياصديقى — لما جشمتك من متاعب هذا الخطاب ، واذا حاق بك يوما ما يقال عن نسيان بعض الجمهوريات للعاملين فى خدمتها فاذكر على الدوام أن لك صديقا قديما تكشف له عن ذات صدرك فى شخص الخادم المطيع المتواضع .

فرنكلين

وبعد هذا التمهيد تلخيص لخدمات فرنكلين كما أجملها فى ملحق خطابه لتذكير صديقه ، وهى كما يلى :

— فى انجلترا قاوم قانون الدمغة وكتابته فى الصحف ومناقشاته فى البرلمان من الأسباب التى يظن أنها انتهت بالغاء ذلك القانون .

— عارض قانون المكوس ، ولم يتمكن من وقف تنفيذه ولكنه أقنع مستر تولزند بحذف مواد كثيرة منه ، ومنها الملح بصفة خاصة .

— وكتب فيما بعد ذلك رسائل شتى يفند بها دعوى البرلمان أنه يملك حق تقرير الضرائب فى المستعمرات .

— عارض جميع القوانين الجائرة .

— قام بمفاوضتين سريتين مع الوزراء لالغاء تلك القوانين وشرح ذلك فى محضر مكتوب ، وقدم فى سياق واقترح — على تبعته ومع المخاطرة بالنتيجة — عوضا عن الشاى الذى تلف فى حالة نفاذ الالغاء .

— اشترك مع مستر بولان ومستر لى فى جميع الطلبات التى قدمت الى الحكومة لهذا الغرض ، وطبع عدة نشرات على نفقته ينتقد بها اجراءات الحكومة ، واستهدف بذلك للسخط والنفور والاتهام أمام المجلس الخاص ، وعزل من وظيفة يتقاضى منها ثلثمائة جنيه فى السنة ، وهى وظيفة مدير البريد ، واضطر الى الاستقالة من جميع أعمال التوكيلات ومكافآتها ، وهذا بيانها :

جنيه

٥٠٠ من بنسلفانيا

٤٠٠ من مساشوست

١٠٠ من نيوجرسى

٢٠٠ من جورجيا

وصدرت الأوامر الى الولاة الملكيين أن يكفوا عن توقيع كل ترخيص

بالصرف لحساب مرتباته من خزانة الدولة ، ولم تكن الولايات قد عزلته من توكيلها ، ولكنه — مع العلم بضغينة الحكومة الانجليزية عليه — تعذر عليه أن يخدم الولايات وييسر مصالحها لدى تلك الحكومة ، وأحس أن الواجب يقضى عليه باعتزال التوكيلات فاعتزلها ليفسح مجال العمل فيها لمن هم أقرب الى القبول عند الحكومة الانجليزية ، ويحمى نفسه أن يلجئها الى عزله .

ولما قفل الى أمريكا حض على الثورة وعين رئيسا لجماعة « سلامة الوطن » ونظم وسائل الاستيلاء على فيلادلفيا ومقر الكنجرس .

— أرسله الكنجرس الى مركز القيادة العام على مقربة من بوستون مع السيدين هاريسون ولينش سنة ١٧٧٥ لتسوية بعض المسائل مع الحكومات الشمالية والجنرال واشنطون .

— فى سنة ١٧٧٦ أرسل الى كندا مع السيدين شاس Chase وكارول عابرا البحيرات قبل ذوبان الثلج ، فعمل مع زميليه فى كندا على ازالة بعض الشكايات مما كان له أثر فى ضم الشعب الى قضيتنا ، وقدم هناك الى الجنرال أرنولد وبعض خدام الكنجرس مبلغ ثلثمائة وثلاثة وخمسين جنيها ذهبا من ماله على ذمة الكنجرس كانوا فى أمس الحاجة اليها وكان لها نفع كبير فى تلك الآونة فى الحصول على الأزواد لجيشنا .

وقد كان حين تكليفه بهذه المهمة يجاوز السبعين . فشقت عليه مصاعب الرحلة ، اذ كان يتنقل بين الغابات فى ذلك الفصل القاسى من فصول السنة ولم يكد يبل من مرضه حتى أمره الكنجرس بالسفر الى فرنسا ، فسلمهم قبل سفره كل ما استطاع جمعه من المال بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه ، وكان ذلك مشجعا لغيره على اعارة أموالهم لخدمة القضية العامة .

ولم يساوم على المكافآت ولكنه وعد — باقتراع الأصوات —

بمبلغ خمسمائة جنيــه مسانهة مع نفقاته ومبلغ ألف جنيه لوظيفــة السكرتيرية ومصروفاتها .

ولما أرسلته الهيئة النيابية فى بنسلفانيا الى انجلترا سنة ١٧٦٤ بمثل هذه المكافأة سمحوا له بمكافأة سنة مقدما لتكاليف السفر وتعويض الخسائر التى لحقته من جراء الانقطاع فجأة عن مباشرة مرافقه الخاصة ولم يمنحه الكنجرس مثل هذه المنحة بل أنزله فى سفينة رثة لا تصلح للملاحة فى البحار الشمالية ، وحدث فعلا أنها جنحت عند عودتها ، مع سوء تدبير الطعام له على متنها حتى بلغ الشاطىء وهو يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وان خدماته للدولة وكيلا ثم وزيرا مفوضا لمعروفة للكنجرس كما هى معروفة من رسائله ، وربما كانت خــدماته الاضافية مجهــولة فلا داعية الى ذكرها .

ثم مضى فى عمله ولم يعين له السكرتير الموعود . وقام ببعض الأعمال قبل انفصال زملائه ثم قام بها جميعا بعد انفراده بمعونة حفيده الذى سمح له أولا بمقابل للكساء والسفر والسكن ثم بمرتب لم يزد قط على ثلثمائة جنيه فى السنة (الا حين عمل فى السكرتيرية للجنة الصلح) وهو فرق فى المرتب على مدى سنوات مقداره سبعمائة جنيه كل عام .

— وعمل وحده بوظيفة القنصل عدة سنوات الى حين وصــول مستر باركلى وبعد وصوله فترات من الوقت لاضطرار ذلك السيد الى التغيب فى هولندة وبلاد الفلاندر وانجلترا ، وحدثت خلال ذلك محاولات متتابعة لاختلاس دفعة ثانية وثالثة بعد سداد الدفعة الأولى ، وكانت قوائم الحساب عن هذه الدفعات ترد مع كل سفينة وكل بريد وتستوجب الرقابة المتوالية . ولم يستطع مستر فرنكلين أن يسافر للرياضة والراحة كعادته قبل ذلك مما عرضه للاصابة بمرض قد لازمه بقية حياته .

ونوجز البيان فنقول انه على دأبه وصبره طوال حياته لم ترهقه الأعمال كما أرهقته خلال السنوات الثمان التى قضاها فى فرنسا ولم يعتزلها مع ذلك حتى شهد بشائر الصلح وتمت هذه البشائر بخير. ثم ألفى نفسه فى الثمانين من عمره وهى السن التى تخول من يبلغها بعض الحق فى الراحة والاستقرار.

الطيران والحروب

وقد شهد فرنكلين تجارب الطيران الأولى حول باريس وسمع المتفرجين وهم يرقبون المنطاد كأنه لعبة من لعب الفراغ ويتساءلون : وما فائدة هذا ؟ وبأى شيء تنفعنا هذه النفاخات الكبيرة ؟ فكان من جوابه لهم أن يسألهم : وما فائدة طفل وليد ؟ وفى هذا السؤال كل الجواب على الذين لا يعرفون الصبر على المخترعات حتى تنمو وتؤتى ثمرتها ، ولكنهم يعرفون أننا نربى الطفل الوليد الذى لا نفع له فينفع نفسه وينفع غيره اذا أحسنا القيام على تربيته ، ومما كتبه فرنكلين على أثر مشاهداته الأولى لتجارب الطيران خطاب الى صديقه العالم الهولندى جان انجنهوز Ingenhousz الذى كان يصاحبه فى رحلاته العلمية بشمال انجلترا نظر فيه نظرة بعيدة الى مستقبل الطيران فى الحروب قبل أن تستخدم المناطيد والطائرات فى ميادين القتال بأكثر من مائة وثلاثين سنة فقال فى خطابه من باسى بتاريخ السادس عشر من يناير سنة ١٧٨٤ :

« ليس فى المسألة سر. ولست أشك أنك اذا أرسلت رسولا من قبلك أمكنه أن يشاهد مناطيد منتجلفير وشارل المختلفة ويطلع على جميع التعليمات المطلوبة ، واذا أردت أنت أن تصنع منطادا فمن الضرورى ومن الأوفق فى رأيى ، أن تبعث من عندك برسول ذكى لهذا الغرض ، اذ يخشى ألا يلتفت الى بعض الملاحظات أو يسهو عن العلم بها فتحبط

التجربة ويؤدى حبوطها فى هــذه المسألة التى يكثر حولها الترقب والاستطلاع الى تعريضك للملامة الشديدة والمساس بسمعتك . فانه لمن الضرر الوخيم تجميع الناس فى المدن الكبيرة وضواحيها ثم مصادمتهم بالخيبة والغضب . وقد حدث فى بوردو أخيرا أن شخصا زعم أنه صنع منطادا يصعده فى الهواء وأخذ نقودا من أناس كثيرين ولم يستطع أن يرفع المنطاد فهاجت عليه هائجة الناس وعمدوا الى بيته فهدموه وهموا به ليقتلوه .

وظاهر — كما رأيت — أنه اختراع هام يوشك أن يتجه بالشئون الانسانية وجهة جديدة ، وقد يكون من آثاره أن يقنع ذوى السلطان بخطل الاقدام على الحروب لما فى حماية بلادهم من المصاعب — بعد هذا الاختراع — على أقدرهم وأقواهم ، ولعل خمسة آلاف منطاد يحمل كل منها جنديين لاتبلغ تكاليفها ثمن سفن خمس من سفن القتال ، وأين هو الأمير الذى يتسنى له أن يملأ أرضه بالجند فى كل مكان حتى يعجز عشرة آلاف جندى هابطين من السحاب عن اصابته بأخطر النكبات قبل أن يتمكن من حشد القوة اللازمة لصدهم والتغلب عليهم ؟

ومما يحزن أن تحول العصبية القومية — كما بدا لك — دون قيام الانجليز بالتجربة ، فانهم على براعتهم فى فنون الصناعة قمناء أن يسبقوا غيرهم الى اتقان هذا المخترع والانتفاع بكل ما يعود به من الفائدة .

ان منطاد شارل وروبرت كان ممتلئا حقا بالهواء الساخن ، ولوفرة المقدار اللازم كان العمل فى ملئه متعبا عظيم النفقة يحتاج الى يومين أو ثلاثة ليلا ونهارا لانجازه . وللمنطاد صمام عند أعلاه يفك بشــد الحبل الذى يربطه كلما أريد اطلاق جزء من الهواء استعدادا للنزول ، والراكبان يقذفان بجزء من الرمل الذى يوازن الهواء اذا أراد الصعود بعد ذلك ، ولابد أن يكون مقدار كبير من الهواء قد انطلق من المنطاد

لموازنة أحد الراكبين ساعة نزوله ، ولخفة المنطاد بعد نزوله تكفى البقية فيه لحمل زميله ، وهما لا يحملان فى المنطاد نارا كما يفعل مسيو منتجلفير فى منطاده الذى يفتح من أسفله ويوقد فيه التبن لاستبقاء ناره . وهذا الطراز من المناطيد أسرع امتلاء وأقل نفقــة ، ولكنه يستلزم مضاعفة الحجم لرفع الثقل نفسه ، اذ كان الهواء المشعشع بالحرارة لا يقل ثقله عن نصف ثقل الهواء الجوى ، على حين أن الهواء الساخن يقل عن ثقله عشر مرات ، وقد كشف مسيو مورفو الكيمى الشهير بمدينة ديجون هواء ساخنا لا تزيد كلفته على جزء من خمسة وعشرين جزءا من كلفة الهواء الساخن الذى يحدث من صب الزيت أو الزاج على برادة الحديد ، ويقال انه مستخرج من فحم البحر ولم يذكر وزنه بالنسبة الى غيره[1] .

ثمن الصــفارة

وهذه رسالة من رسائله الى السيدة بريون ضــمنها حكاية من الحكايات « المثلية » أو الحكايات التى تستوحى من مغــزاها بعض المعانى الأخلاقية أو الاجتماعية ، وكانت شائعة فى ذلك العصر يؤلفها الكتاب وغير الكتاب لتزجية الفراغ بما يشبه امتحان الذهن بالأحاجى السهلة والألغــاز الخفيفة ، وتتلى هــذه الرسائل عادة فى السهرات والاجتماعات كأنها مادة من مواد السمر والفكاهة ، وقد كتب فرنكلين هذه الرسالة الى صديقته جوابا على رسالة منها تصف فيها نعيم الفردوس كما تتخيله ، فقال بعد أسطر فى التمهيد والاعتذار من تأخير الجواب :

« .. أعجبنى وصفك لجنة الفردوس وبرنامجك الذى درســته

---

(١) هذه الرسالة والرسائل الأربع التى تقدمتها مترجمة من النصوص التى اشتملت عليها مجموعة الكتابات الترجمية لجامعها فان دورن .

للمعيشة فيها . وأقرك كثيرا على ما ختمت به الوصف حيث تقولين اننا — فى الوقت نفسه — ينبغى أن نستخلص فى هذه الدنيا كل ما نستطيع من خير ونعمة . وأرى أننا جميعا قادرون على أن نستخلص منها فوق ما ننال من خيرها ونعانى أقل مما نعانيه من شرها لو جعلنا بالنا الى شيء واحد : وهو ألا نشترى الصفافير بأكثر من أثمانها .

ـ وتسألينني ماذا أعنى ؟ وأنت تحبين الحكايات ـ فاسمحى لى أن أقص عليك احدى حكاياتى حين كنت فى السابعة من عمرى ، فقد حدث فى بعض أيام الأعياد أن امتلأ جيبى بأنصاف البنسات من هبات أصدقائى فذهبت توا الى دكان اللعب واشتريت منه صفارة سمعت بعض الأطفال فى الطريق يصفر بها ، فأعجبتنى وبذلت فى ثمنها كل ما احتواه جيبى .

ورجعت الى المنزل فطفقت بين جوانبه نافخا فى صفارتى راضيا عن نفسى مزعجا كل من فيه من اخوانى وأخواتى وأبناء عمى ، فلما سألونى عن هذه الصفقة وأخبرتهم بها قيل لى اننى بذلت فى الصفارة أربعة أضعاف ثمنها ، وذكرونى بالطيبات التى كنت قمينا أن أنعم بها لو لم أبذل فيها فوق ما تستحقه وضحكوا من حماقتى وغفلتى وأكثروا من الضحك حتى بكيت غما وأسفا وساءنى من التفكير فى الخسارة أضعاف ما سرنى من الصفارة .

ونفعتنى العبرة فلم تبرح ذاكرتى بعد ذلك ، ولم أزل كلما أغريت بشراء شيء لا حاجة بى إليه أعود فأقول لنفسى : لا تبذل فى الصفارة فوق ما تساويه ، وادخرت نقودى ! .

ثم كبرت واختبرت الدنيا وراقبت أحوال الناس فلقيت الكثيرين ممن يشترون الصفارة بأضعاف ثمنها ، وأصبحت كلما رأيت انسانا يطمع فى الحظوة لدى البلاط فيبدد وقته فى التردد على الحشم والحاشية ويفقد

راحته وحريته وفضائل نفسه وربما فقد أصدقاءه فى هذا السبيل — اعود فأقول : هذا الانسان يغالى بقيمة الصفارة ويبذل فيها أضعاف ما تساويه .

وكلما رأيت انسانا مشغوفا بالشهرة يزج بنفسه فى مشاكل السياسة ويغفل عن مصالحه فيجر على نفسه الخراب بهذه الغفلة — أعود كذلك فأقول : وهذا انسان آخر يشترى الصفارة بأضعاف ثمنها .

وكلما عرفت بخيلا يحرم نفسه أطايب العيش وغبطة الاحسان الى الناس ومنزلة التقدير والرعاية بين قومه ومتعة المودة والصداقة بينه وبين خاصته — أعود فأقول لنفسى : يالك من مسكين ! انك أيضا تشترى الصفارة بأضعاف ما تساويه .

وكلما التقيت بانسان من طلاب الشهوات والمسرات يذهل عن تهذيب نفسه وعقله ، أو عن تدبير ماله من أجل متعة جسدية تستغويه وتجور على جسده — أناديه فى ضميرى : أيها المخدوع ! انك تجنى الألم من حيث تنشد اللذة وتعطى الصفارة ثمنا لا تستحقه .. !

وقد أرى انسانا مفتونا بالمظهر والزينة مأخوذا بغواية البيت الأنيق والأثاث الأنيق والعتاد الأنيق مما لا يطيقه ولا تحتمله ثروته وقد يوقعه فى الدين ويسوقه الى السجن ، فأقول : واآسفا . انها الصفارة يشتريها أيضا بهذا الثمن الثقيل .

وقد أرى الفتاة الحلوة الجميلة تتزوج من الرجل السيىء القبيح فأقول : يالها من شقوة وخيبة . انها تعطى الصفارة أضعاف ما تأخذ منها .

وجملة القول ان معظم الشقاء الذى يبتلى به بنو الانسان انما يجنيه عليهم ذلك التقـــدير الباطل لقيم الأشياء ، وذلك البذل المضاعف فى ثمن الصفارة .

على أنى أرفق بهؤلاء البائسين فلا تنسينى هذه الحكمة التى أتشدق بها أن فى هذه الدنيا كثيرا من المغريات ، ومنها تفاحات الملك حنا التى لا تباع لحسن الحظ . ولو أنها كانت مما يباع بالمزايدة لخشيت أن أجر على تعسى الخراب لأشتريها وأعود فأبذل فى الصفارة قيمة لا تساويها[1].

رسائل شخصية

وهذه رسائل متفرقة فى موضوعات عائلية أو عامة كتبها الى أقربائه وصفوة أصدقائه ، ومنها هذه الرسالة الى أخته تعزية لها فى موت أخيه :

فيلادلفيا فى ١٢ من فبراير سنة ١٧٥٦ .

أختى العزيزة :

أشاطرك الحزن فى مصابنا بموت أخينا العزيز . وليكن بيننا مزيد من الحب كلما أصبنا بنقص فى العدد .

وقد عدت الآن من بعثتى العسكرية ووقتى مشغول بأعمال الهيئة النيابية ، وكأنما العناية الالهية تطالبنى بصنوف شتى من الواجبات ، فلا أعلم الآن ما سيأتى بعد ، ولكنى أجد أن شواغلى تزداد كلما بحثت عن الفراغ وتطلعت الى الاعتزال .

وانى أفهم ان « بينى » يميل الى ترك « انتيجوا » . وربما كان على حق ، ولا مانع عندى .

محبتى للأخ وللأطفال ، وانني يا أختاه العزيزة .

. . . .

(١) هذه الرسالة مأخوذة من كتاب الخزعبلات ، وفى هامشها يقول جامع الكتاب ان التفاحات فى الحقيقة كمثريات مسمومة أهداها قس الى الملك حنا صاحب (المجناكارتا) لأنه علم أنه يهم باغتصاب راهبة مصونة .

وكتب اليها هذه الرسالة تعزية فى موت ابنتها سارة :

فيلادلفيا فى ١٠ من يوليو سنة ١٧٦٤ .

أختى العزيزة :

نحن جميعا نشاطرك الحزن فى موت كريمتك . وقد كنت أراها دائما على خلق عذب محبوب وشمائل طيبة تضاعف الحزن عليها فى نفس الأخ ونفسك فوق ما تحتملان ، وكل ما نملكه من العزاء فى مثل هذا المصاب أن نؤمن بأن الله يعلم ما هو أصلح وأجدر ويقدر على صنع الخير مما يبدو لنا أنه شر . وانها لسعيدة تلك السعادة التى لا يشعر بها أحد منا وهو بقيد الحياة .

وكتب اليها فى مسألة من مسائل العقيدة تعنيها بعد الاطلاع على بعض الكتب التى أرسلها اليها من البلاد الانجليزية :

لندن فى ٢٧ من يوليو سنة ١٧٧١ .

وصـــل الى خطابك الكريم المؤرخ فى العاشر من شـــهر مايو . ويلوح لى انك تحسين احساسا شديدا بخطئك فى التعجل باتهامى حتى ليحق لى أن أقول انه الآن دورى فى الأسف لملاحظة ذلك الخطأ ، فقد تعادلت الحسبة اذن فلندعها ولا نعد الى التفكير فيها .

ويخيل الى أننى ذكرت ثمن الكتب فى رسالة سابقة ونسيتها الآن ولكننى أظن أن ثمنها ثلاثة شلنات لكل كتاب .

ولا ريب أن هناك اختلافا فى أمر وجودنا قبل هذا الوجود ، وأحسب أن هذه الفكرة قد صدرت عن حسن نية ، لتبرئة حكمة الله من تعاسة الخلق فى هذه الدنيا بغير جريرة لحقت بهم فى دنيا قبلها ، وربما كان هذا من الفضول بغير داع لتأييد قصة السفينة . واذا كان الاله قد شـــاء أن يلقى عليها سترا فقد يكون الاجتراء على كشف ذلك الستر من قبيل التطفل واللجاجة ، ولعل نجاحنا فى هذه المحاولة لا يربى على نجاح أبوينا فى محاولة المعرفة الممنوعة يوم أكلا من الشجرة .

ولست أعنى بقولى ان بنى آدم بعضهم شياطين لبعض الا أنهم — لارتقائهم على غيرهم من الخلق — لايعذبهم الخلق الآخرون كما يعذبون أنفسهم . ومن جانبى أنا أرانى أتقبل الدنيا على علاتها وأرى أن أشك فى حكمتى كلما فكرت فى وجوه صلاحها واصلاحها ، وانى لأبصر من الحكمة فيما أدرك من خلق الدنيا ونظام تدبيرها ما يلهمنى أن هنـاك حكمة تعادلها فيما لست أدركه وأتقصاه . ومن ثم لا تكون الثقة التى عندى بالله دون الثقة التى عند سائر المسيحيين الأبرار .

ويسعدنى أن التفاهم الحسن مستمر بينكم وبين آل فيلادلفيا ، وقد كان أبونا حكيما جد حكيم ، وكان من عادته أن يقول انه لاشيء أكثر من ظهور أسباب النفور بين المتحابين على البعد اذا اقتربت بهم الديار . ولهذا لم يكن ليستحسن زيارات الآل فى الأماكن البعيدة ، لأنها تطول ولا يمكن أن تقصر الى الحد الذى يتركهم على المودة والوئام حين يفترقون . وقد لمست برهانا على ذلك — العلاقة بين أبى وأخيه بنيامين ، فقد كنت يومئذ طفلا ولكنى كنت أحس الفرق بين عبارات المودة فى رسائلهما قبل اللقاء وبين المناقشات والمجـادلات التى تنشب بينهما اذ يقيمان فى مسكن واحد . غير أنك أنت أدنى الى الصواب فيما تختارينه من التوفيق آنة بعد أخرى لاسداء النصيحة من بعيد فى شئون الآخرين ومرافقهم ، وكله خير ما دام يفضى الى خير .

وأذكر انك أشرت فى احـدى رسائلك الى النظارات ورغبتك فى ارسال بعضها اليك ، وليس لدى هذه الرسالة الآن فلهذا أبعث اليك بزوج من كل مقاس من الواحد الى الثلاثة عشر ، وستعرفين المقاس الذى يوافقك بامتحان زوج بعد زوج على كلتا عينيك فى النظر الى مطبوعة دقيقة ، واعزلى ما لا يوافقك لكيلا تعودى الى تجربتـه مرة أخرى ، وانك لتجدين النظارة التى توافقك بالتجربة والمقارنة على مهل ،

وهو الأمر الذى لا يتيسر فى الدكاكين حيث يعجل الناس باختيار النظارات فترهق أبصارهم وتضرهم ، وأشير عليك بتجربة كل عين على حدة ، اذ قلما يوجد بين الناس من تتساوى لديهم العينان ، ويكاد كل ناظر يعتمد على احدى عينيه فى القراءة والعمل لضعف فى عينه الأخرى ، أو لأنها أصلح للنظر البعيد . ولهذا تفيد النظارة المتساوية تلك العين المهملة ولا توافق العين المعول عليها ، ومتى عرفت ما يوافقك من النظارات فاحتفظى بالأقوى منها للمستقبل حين تحتاجين اليها مع الزمن ، وقدمى ما تستغنين عنه هدية للأصدقاء .

أما الخطأ الذى أومأ اليه فرنكلين فى مقدمة الخطاب السابق فقد يظهر من خطابيه التاليين ، وأولهما بتاريخ الثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٧٧٠ .

قال : « سنحت لى الفرصة ، أثناء انتظار السفينة أكثر من وقتها المعهود — أن أكتب اليك بعد ما فاتنى ، على ما أظن ، أن أفعل حين رجوت ابن عمنا وليامز أن ينوب عنى فى الاعتذار اليك .

وصل الى خطابك الكريم المؤرخ فى الخامس والعشرين من شهر سبتمبر على يد السادة الفتيان الذين حببوا أنفسهم الىّ والى كثير من معارفنا بمسلكهم الحميد . وقد حقق « جوشيا » أمنية قلبه بالتتلمذ على مستر ستانلى الذى استجاب رجائى بعد طول انقطاعه عن التدريس فقبل أن يعلمه بعض الدروس وسرّ من سرعة فهمه وتقدمه ، ويبدو لى أن جوناثان فتى ذو قيمة رصين منتظم يميل الى العمل والتدبير ، وهى مخايل النجاح فى الأشغال ، وانى فى صحبتهم لجد سعيد .

أما الاشاعة التى ذكرتها — وأخبرنى جوشيا فحواها وهو أننى عزلت من وظيفة مدير البريد من أجل كتاب أرسلته الى فيلادلفيا — فربما كان أساسها أن بعض الرؤساء قد ساءهم كتابتى أمثال تلك الكتب ولاح

عليهم انهم يريدون أن يعبروا عن استيائهم على ذلك المنوال ، ولكن أناسا من أصدقائي أشاروا برأى غير هذا الرأى على غير علم منى ، فاضطر خصومى الى القناعة بشتمى—عن سعة—فى الصحف واستثارتى بذلك الى الاستقالة . ولا اخالهم يفلحون فى هذه الاستثارة ، لأننى لا أملك تلك الفضيلة المسيحية فضيلة التسليم [1] . فمن أراد أن يحتل مكانى فليأخذه عنوة !

ولقد سمعت عن عظيم من العظمـــاء كان ديدنه فى أمر الوظائف ألا يطلبها وألا يرفضها ، وأضيف اليه كذلك ألا يستقيل منها ، وقد قلت لأصدقائى اننى ترقيت الى تلك الوظيفة على درجات من الوظائف التى هى دونها ، وكانت مواردها قبل ولايتى لا تأتى بمرتبها فأصبح المرتب بعد ولايتى لا يعطى الا اذا أتت به مواردها ، وكانت فى السنوات الأربع الأولى لا تقوم بتكاليفها حتى بلغ دينى ودين زملائى عليها تسعمائة وخمسين جنيها فاجتهدت اجتهادى حتى وصلت الى ما هى عليه الآن من الوفرة والفائدة ، واعتقدت من ثم أننى صاحب نوع من الحق فيها ، وقد قمت حتى الآن بالأمانة والصدق على أعمالها مما أرضى عنى الرؤساء كل الرضا ، وهو غاية ما كان يطلب منى فى هذه الوظيفة . أما الكتب التى أنفذتها الى فلادلفيا فقد كتبتها فعلا قياما بواجب آخر وهو واجبى نحو وطنى ولا شأن له بعملى فى ادارة البريد ، وان مسلكى فى هذه المسألة لشبيه بمسلكى فى مسألة سابقة لها حين كان الرؤساء يهمون باحتضانى واعتناقى لمساعدتى اياهم فى الغـــاء قانون خاص بالايراد ، ولا يزال شعورى اليوم كشعورى بالأمس فى أمر هذه القوانين التى لا يجوز أن تصدر هنا لتطبيقها فى أمريكا ، وانها اذا صدرت وجب السعى الى الغائها على الأثر ، ولست أعتقد أننى مطالب بتبديل شعورى كلما خطر لصاحب

(١) هذه الكلمة بالانجليزية تفيد معنى الاستكانة والتسليم للمقادير .

الجلالة هنا أن يغير وزراءه ووكلاءه ! وقد كانت هذه عبارتى التى فهت بها لهذه المناسبة ، ثم سمعت أنهم — وان حسبونى حقيقا باللوم وفهموا أن الموظف مطالب بمجاراة الوزير على رضا منه أو على غير رضا — وقد عادوا فنظروا الى مسلكى الطيب وخلقى الشخصى كما تفضلوا فوصفوه ، وقرروا من ثم ألا تنتزع الوظيفة منى .

وجائز أنهم ينكصون عن رأيهم هذا ويعزلوننى ، ولكننى على ثقة أن شيئا من هذا لن يبدل من خطتى السياسية ، وخطتى التى اطمأننت اليها دائما هى ألا أحيد عن خطة فى الشئون العامة رعاية لشأن من الشئون الخاصة ، بل أمضى قدما فى عمل الصواب الذى أعتقده وأدع المصير بين يدى العناية الالهية . وقد كان مما يسّر لى أن أستقيم على النهج فى صباى أننى كنت صاحب صناعة وكنت أعلم أننى أقنع بالقليل فى معيشتى ، ولم يكن من همى يومئذ أن أجمع ثروة كبيرة وأن أذهب مع الأطماع ، قانعا بما أكسبه من الكفاية من موارد عملى . والآن أخال أن الاحتفاظ بحريتى ونزاهتى أيسر على بعد ان بلغت النهاية من مراحل عمرى وقلّت النفقة التى بقيت للبقية منها ، وأن ما أملكه الآن ببركة الله وحسن القصد فيه ليكفينى ، الا اذا وقع من الكوارث العظمى ما ليس فى حسابى ، فلا حاجة بى الى الزيادة عليه من موارد وظيفة أو ادارة .

أبعث اليك فى هذه الفرصة الكتابين اللذين كتبت عنهما ، وثمن كل منهما ثلاثة شلنات ، وقد كنت فى زيارتى السابقة للندن قبل خمس وأربعين سنة أعرف السانة تفكر تفكير مؤلفك اسمها « اليف » أرملة أحد الطباعين ، وماتت على أثر سفرى من انجلترا فكان من وصيتها لولدها أن يلقى علانية فى قاعة صولتر خطابا يؤكد فيه أن هذه الدنيا هى الجحيم الحق مقر العذاب والعقاب للأرواح التى أذنبت فى حياة أفضل من الحياة فنفيت الى الأرض لتجزى على ذنوبها فى أسلاخ الحيوان على اختلاف

أنواعه ، وانقضى زمن طويل منذ اطلعت على الخطاب المطبوع الذى كان يستشهد بالكثير من آيات الكتاب المقدس ، ومرماه أننا سنتذكر بعد الموت ما كنا عليه قبل الولادة وان كنا ننساه أيام المقام فى هذه الدنيا، واننا نذكر كذلك ما لقيناه من العقاب لنعتبر به ويعتبر به سوانا ممن لم يذنبوا مثلنا فلا يقعوا فى الخطيئة اعتبارا بما أصابنا .

والواقع أننا نرى هنا أن كل حيوان من الحيوانات الدنيا له عدوه الذى ركبت فيه الرغبات والغرائز والأسلحة التى تمكنه من تخويفه وجرحه والقضاء عليه . أما الانسان — وهو أرفعها جميعا — فبعضه لبعض شيطان ، وتلك حال تستدعى فرضا كفرض السيد اليف مع الايمان بكرم الله وعدله فى قضائه للتوفيق بين هذا الايمان وكرامة العزة الالهية . إلا أن عقولنا لا تذهب بنا بعيدا حين نسومها أن تبحث عما كان قبل وجودنا أو ما سيكون بعد هذا الوجود لقلة التواريخ والوقائع التى بين أيدينا . وانما يعطينا الوحى معرفتنا الضرورية بهذا ويقصد غاية القصد على الخصوص فيما أعطانا من المعرفة عما كان قبل وجودنا .

— أرجو أن تتابعى الكتابة الى أصدقائك بفلادلفيا ، ومحبتى لأنجالك ، وعلى العهد .. أخوك المحب الودود .

وكتب اليها ينفى اشاعة عن تعيينه فى وظيفة انجليزية أثناء قيامه بالوكالة عن بعض الولايات الأمريكية :

لندن فى ٢٨ من يوليه سنة ١٧٧٤

« .. ان الاشاعة التى أشرت اليها وقيل فيها اننى اقترحت أن أتخلى عن توكيلاتى وأنقطع عن وطنى انما هى أكذوبة خبيثة كما قلت فى خطابك وليست بالاشاعة الكاذبة وحسب بل هى سخيفة مضحكة . اذ هى تفترض على الأقل اننى لا أعرف من الحساب ما أفرق به بين ثلثمائة وألف ! وانهم ليعاودون الاشاعة هنا حينا بعد حين زاعمين أننى ألتمس

الوسائل للعودة الى وظائف الحكومة ، ولعلهم يتمنون ذلك وينتظرونه . فلينتظروا اذن الى يوم الدين .

ان الله لأعلم بسريرتى ، واننى لآسف أن أتقبل أحسن الوظائف التى ينعم بها الملك هنا ما دامت تلك الأفاعيل الجائرة تسلط على وطنى . وثقى أننى لن أصنع شيئا يمسنى فى نظرك أو ينقض المسلك الأمين الذى سلكته حتى الآن فى الأعمال العامة ، وقد احتفظت بوظيفتى السابقة حتى عزلت منها ولم أعتزلها لأننى لم آكن قد تلقيتها مكافأة من الحكومة بل ارتقيت اليها بحق الخدمة فيما دونها والأمانة فى تلك الخدمة ، فجازلى أن أعتبرلى حقا فيها أو حقا عليها ، ولم أشأ أن أيسر لهم الأمر بالاستقالة لكى يبوء منهم من أراد أن يبوء بمسبة حرمانى منهـا ، وقد شرفونى باخراجى من تلك الوظيفة فليكن حـذرى الآن ألا يحملونى المسـبة باعادتى اليهـا .

وكل هذا أكتبه اليك أنت . أما الدنيا فربما خطر لها أن هـذه التصريحات والتوكيدات أمر لا يقبل التصديق ومحض ادعاء يدعيه المرء لتفخيم شأن نفسه . فلا تطلعى أيتها الأخت العزيزة أحدا على هذا ، فانما أكتبه اليك لمرضاتك واراحة ضميرك مما عسى أن يسـاوره من القلق لسماع تلك الاشاعات .

وكتب اليها بعد انتخابه رئيسا للجمعية فى فلادلفيا يعرب لها عن شعوره بالاجماع على انتخابه :

فلادلفيا فى ٤ من نوفمبر سنة ١٧٨٧

وصل الىّ منك أخيرا كتاب كريم سرنى بما علمته من تمتعك بالصحة وأنك اتخذت العدة للشتاء كما أنبأتك . ومطالبك مستجابة محترمة ، وقد يتعذر على أحيانا أن أعرف ما تحتاجين اليه فأرجو ألا تحجمى أبدا عن اخبارى بكل ما فى وسعى أن أعمله لاسعادك فى حياتك .

لقد عزمت من قبل أن اعتزل العمل فى الهيئة النيابية سنة أخرى كى يتسع أمامى الوقت للسفر الى بوستون فى الربيع . الا أننى أذعن للاجماع الذى انعقدت عليه آراء بنى وطنى فأقرونى مرة أخرى على كرسى الرياسة ، وتمّ لى الآن أكثر من خمسين سنة فى الخدمة العامة .

لما أخبرت صديقك الطبيب دكتور كوبر أننى أمرت بالسفر الى فرنسا بعد أن بلغت السبعين ، وقلت له ان « الجمهور » قد أكل لحمى ويريد اليوم على ما يظهر أن يأكل عظمى — أجابنى قائلا : انه يحبذ منهم حسن الذوق . لأن أطيب اللحم ما جاور العظم كما جاء فى الأمثال ، ولابد لى أن أعترف لك بأننى مغتبط بذلك وأحسب أن أختى العزيزة حقيقة أن تسر باختيارى للمرة الثالثة بعد طول التجربة ، وان بنى قومى يتفقون باجماع الأصوات — ما عدا صوتى — على توجيه هذا التشريف الىّ ، وهو أكبر ما يملكونه من تشريف . وان هذه الثقة العامة بغير قيد ولا حد من شعب كامل لأعز عندى وأرضى لكبريائى من أرفع ألقاب النبلاء . فان الأشرطة والحمائل التى يعلقونها حولهم قد تضفى على أصحابها شرف الألفاظ والأسماء ، ولكنها لن تمنحهم لباب الشرف الصميم [1] .

(١) رسائل فرنكلين الى أخته مأخوذة كلها من مجموعة رسائل بنيامين فرنكلين وجين ميكوم Mecom طبع جامعة برنستون سنة ١٩٥٠ .

خرافات وحكايات ذات مغزى

نشأت الخرافات ، أو الحكايات الموضوعية ذات المغزى ، فى أوقات متقادمة قبل الميلاد بعد قرون ، وعرفتها الأمم الشرقية والغربية بأنواعها المتعددة ، ومنها الحكايات التى توضع على ألسنة الحيوانات ، والحكايات التى توضع على ألسنة مخلوقات عاقلة كالمخلوقات الآدمية مع اختلاف الشكل والفطرة كالجن والملائكة والمردة والأقزام ، ومنهـا الحكايات المنتحلة التى تنسب الى بعض الأشخاص التاريخيين أو الذين تدعى لهم صفة تاريخية لاجراء الحكمة القديمة على ألسنتهم ، وكل هذه الأنواع كانت معروفة قبل القرن السابع عشر فى البلاد الغربية ، ولكن هذا القرن — ولا سيما النصف الأخير منه — قد خص بظاهرة منفردة بين القرون الأخيرة وهى شيوع هذه الحكايات فيه بجميع أنواعها وانتقال الكثير منها الى مجال النقد الاجتماعى والآراء التعليمية التى تنزع منزع الحرية واعادة النظر فى حقائق الحياة ، وقد نبغ بين منتصف هذا القرن ومنتصف القرن الذى يليه أعلام بارزون فى هذا الفن من الأدب والحكمة من أمثال لافونتين الذى كان يلقب بايسوب الفرنسيين وأمثال جون جراى الذى كان يلقب بايسوب الانجليزى ، ونبغ فى هذه الفـترة أمثـال فولتير وسويفت الذين اتخذوا من القصص المخترع وسيلة لنقد المجتمع وكشف عيوبه منقولة الى أناس بعيدين أو أزمنة بعيدة لا تخفى على القارىء وجوه الانتحال والاختراع فيها ، وتعليل هذه الظاهرة فى أواخر القرن السابع عشر ليس بالأمر العسير ، لأنه الزمن الذى تفتحت فيه العقول لحرية التفكير ولم تبلغ مداها من الحرية دفعة واحدة ، بل بدأت بالتلميح

والكناية وتدرجت منهما الى التصريح الذى بلغ حد التهجم فى كثير من الأحيان ، وهذه الحكايات بأنواعها أداة صالحة للنقد المستور والحرية الفكرية المقنعة ، يقبلها المنقودون ولا يتذمرون منها لأنها تسليهم بالفكاهة ولا تخص أحدا منهم بالهجوم الصريح عليه ولا تهدد مصلحة معلومة تهديدا يخشى منه أو تعرف عقباه .

وفرنكلين كعادته سريع الى اقتباس كل وسيلة من وسائل المعرفة والتعليم « الأبوى » الذى يهدى الجميع ولا يجرح أحدا مقصودا لذاته ، وقد اقتبس هذه الوسيلة وتوسع فيها كما نرى من بعض رسائله السابقة، واقتبس الخرافة والحكاية ذات المغزى بأسلوبها القديم مع تجديدها بالاتجاه بها الى الحكمة الواقعية فى زمنه ، وقد اخترنا منها هذه الحكايات الأربع لأنها من حكاياته المعبرة عنه وعن شواغل ذهنه وحياته على التخصيص ، فمنها حكاية عن الثورة الأمريكية ، وحكاية عن حدود العقل الانسانى فى طموحه الى أسرار الكون وأصول الحياة وصفات الخالق ومقاصده فى خلقه ، وحكاية عن عمر الحى كيف يتساوى فيه الدهر الطويل واليوم الواحد عند نهاية الأجل ، وحكاية عن السماحة الدينية لها تاريخ خاص بين هذه الحكايات ، وهى حكاية ابراهيم الخليل وحواره مع ربه فى أمر الكفرة الجاحدين ، فهذه الحكاية قد وقع عليها فرنكلين فى بعض مطالعاته ويعزوها بعضهم الى السعدى الشيرازى شاعر الفرس المعروف ،ويقال ان السعدى نفسه سمعها من أصحاب الاسرائيليات ولم يزعم فرنكلين قط أنها من تأليفه ولكنه كان يداعب ضيوفه ويسألهم أن يفرقوا بين الأسلوب الذى وضعها فيه وبين أسلوب الكتب الدينية التى احتواها العهد القديم ، وكان يقول لطائفة منهم أمام بعض القسس انه سيقرأ لهم الاصحاح الحادى والخمسين من سفر التكوين ، ولاوجود لهذا الاصحاح فى الكتاب ، لأنه ينتهى بالاصحاح الخمسين ! ولكنها

دعابة من دعاباته وعادة من عاداته فى محاكاة الأساليب ، وكان يعالج هذه المحاكاة فى ابان تعلم اللغة الفرنسية ليمتحن نفسه قبل أن يمتحن غيره . وقــديما صنع ذلك ، كما مرّ بنا ، بأساليب اديسون وغيره من الكتاب المحدثين ، ولعله لم ينس هنا نزعته القديمة الى مذهب الربوبية Deism وآراء الربوبيين فى طبيعة الوحى الالهى الذى يتنزل على طبيعة البشر ، فانهم يعتقدون أن مضامين العهــد القديم تسجيل توفر عليه الكتاب والحفاظ لاثبات ما وعوه من الأقوال الملهمة على ألسنة الرسل والأنبياء .

وقد أثارت حكاية ابراهيم هذه ضجة لطيفة فى ابان تأليفها والقائها ، ثم أثارت بعد ذلك ضجة أخرى بعد طبعها وجمعها ، وسوّل الحسد لأناس من شانئيه أن يتهموه بالسرقة الأدبية عمدا لظهور هذه الحكاية بين أوراقه المجموعة ، وعملت الخصومة السياسية عملها فى تكبير هــذه التهمة فنشرت فى مجلة الخزانة البريطانية British Repository فى عدد شهر مايو سنة ١٧٨٨ حملة صحفية ترميه فيها بالسرقة والادعاء ، ونفى صــديقه فوجان Vaughan هذه التهمة بخطاب أرسله الى المجلة ونشرته فى عدد تال ، وكتب فرنكلين نفسه الى فوجان يعزز مقاله ويعيد قوله فى المجلة انه ينسبها الى نفسه وليس له فيها من عمل غير الصياغة وما أضافه الى ختامها من الوعد والوعيد [1] . فالحكاية — لما أحاط بها من هــذه الحواشى جميعا — أحق الحكايات ذات المغزى بالنقل فى هذا السياق .

وهذه هى الحكايات الثلاث :

ملك الغــاب

كان للأسد ملك احدى الغابات جند من الكلاب الأمناء مخلصون له ولدولته ، وعلى أيديهم اتسعت تلك الدولة وهابها من حولها جميع الأعــداء .

---

(١) صفحة ١٥٣ من كتاب الخزعبلات Bagatelles

الا أن الأسد — ذهابا مع نصيحة السوء من مشيريه — نفر من أولئك الجند ودانهم بالتهم دون أن يستمع اليهم وأمر بِبِتاره وفهوده ونموره أن تغير عليها وتفتك بها فتكا ذريعا ، وشكا الكلاب فلم يؤبه لهم ورفضت شكاياتهم بغير اكتراث . فلم يكن لهم بدّ من الذود عن أنفسهم وحماية حوزتهم ، وفعلوا مستبسلين .

وكانت منهم فصيلة مدخولة النسب من سلالة الذئاب والثعالب أفسدتهم وعود الملك بالمكافآت الجزيلة فخذلوا سلالتهم وذهبوا الى معسكر الأعداء .

وانتصر الكلاب أخيرا فانعقد الصلح بينهم وبين الأسد أن يصبحوا أحرارا وألا يكون له عليهم بعد ذلك من سلطان .

وتعذر على الأوشاب المدخولين أن يرجعوا الى السكن بين الكلاب فراحوا يلحون فى طلب المكافأة الموعودة ، واجتمع من السباع مؤتمر كبير للنظر فى هذا الطلب ، فاتفق الذئاب والثعالب على عدالة الطلب وأن الوعود الملكية لابد من نفاذها ، وعلى كل مخلص من رعاياه أن يسهم فى تمكين صاحب الجلالة من الوفاء بتلك الوعود .

وخالفهم الحصان وحده فجهر برأى جرىء يجمل بما فى طبعه النبيل من الشجاعة والطلاقة ، وتصدى لهم قائلا : « ان الملك قد أساء نصحاء السوء مشورته وأوغروا صدره على رعاياه الأمناء ، وان وعود الملوك ينبغى أن تنفذ حقا اذا وعد بها من يصدقون الخدمة وكان فى انجازها منفعة للجميع ، ولكنها اذا استنفرت رعاياه بعضهم على بعض فهى باطلة من مبدئها ، ومن جزاء المحرضين عليها والذين اقترفوا جرائم العدوان والغيلة من جراء ذلك التحريض أن يلقوا أشد العقاب بدلا من المكافأة وحسن الثواب ، ولننظر كيف نقصت قوتنا وهيض من بأسنا بما أصابنا من فقدان كلابنا ، فاذا زينتم للملك أن يحسن الى الذين قتلوا اخوتهم

أقمتم بذلك سابقة تغرى من طغى بأمثال تلك الوعود وأصبحت كل مكافأة ينعم بها أولئك الناشزون المنحرفون توكيدا لها وتشجيعا عليها ، وتعرض الخيل والبقر كما تعرض الكلاب لشر الوقيعة فيما بينهم والانقسام بين صفوفهم ، وتتابعت الحروب الأهلية فى ديارنا حتى لا أمان ولا حرية فى هذه الغاب ، ويحيق بنا الضعف فلا حيلة لنا غير الخضوع والانقياد لكل طاغية يحلو له أن ينكل بنا وينعم بافتراسنا حين يشاء » .

ولم يخل المؤتمر من عقل وحكمة ، فأصاخ الى الرأى الصراح ، وقضى برفض ذلك الاقتراح .

أبو معشر الساحر

كبر الفلكى الطبيب أبو معشر فكف عن العمل ، ولاذ بقمة الجبل ، وتجنب عشرة الناس وأنس الى أصحابه من المردة والجان الذين يحبونه ويرفهون عنه الوحدة بالأحاديث والأسمار ، وما فيها من معارف وأخبار .

وزاره بلوبيل المريد ذات مساء ، وهو مارد عظيم تعلو هامته سبعة فراسخ وينبسط جناحاه على رحاب دولة شاسعة ، فاستراح فى لطف وهينة على ذؤابات الشجر فى الوادى وأسند رأسه الى جبل قلبون ، واستقبل خيمة الساحر الكبير بوجهه المنير .

وتحدث اليه الساحر حديث الخشوع والتقوى عن حكمة العلى الأعلى وعما فى مقاديره من الخير والبركة ، وقال للمارد ان نعمته سبحانه وتعالى أجل من أن يحصيها ، وأنه يركض عقله الى أقصاه ، ولا يدرك به الشأو فيما ينقب عنه ويتقصاه .

قال بلوبيل : على رسلك أيها الصديق ولا تسرف فى أمر تلك المزية التى تسميها بالعقل والحكمة ، فانك لو علمت أصلها ولمست مواطن ضعفها كنت الى الخجل منها أدنى منك الى الزهو بها والاتكال عليها .

قال أبو معشر : أنبئني اذن بما لا أعلم ، واكشف عني غشاء الجهالة ، وسدد فهمي بنور الهداية .

قال بلوبيل : تأمل يا أبا معشر في سلم الخلق من الفيل الى الصدفة ، وانظر الى درجة منها بعد درجة تجدها قريبا من قريب حتى لا فجوة بينها ولا تكاد تلمح الفارق بين منازلها ودرجاتها . وان الناس عامة ليجهلون ما يجهلون ، ولكنك أنت — أبا معشر — أهل لأن تعلم ما فوق الفيل من منازل ودرجات الى غاية الغايات من العظائم والطيبات . فلا فجوة هناك بين خلق وخلق ، بل هي درجة فوق درجة وأفق يعلوه أفق ، لا يدركها البصر ولا يستوعبها الضمير ، ولا يرتفع اليها الطرف الا ارتد وهو حسير(١) .

ذبابة الربيع

وألف فرنكلين هذه الخرافة ، أو هذه الحكاية الرمزية ذات المعنى ، بعد رحلة خلوية الى جزيرة مولان جولى Moulin Joli بنهر السين ، مع السيدة بريون التى كانت مشغولة — كسيدات المجتمع الباريسي كله — بالحرب الموسيقية بين المدرسة الألمانية والمدرسة الايطالية ، وكان في الرحلة معها طائفة من العلية المهذبين تحدثوا في مسائل شتى من مسائل الأدب والفن والفلسفة ، وكتب فرنكلين هذه الحكاية ليضمنها عبرة الحياة بعد اليوم الذى قضوه في النزهة أو بعد الأجل المعدود لأجيال الذباب التى تظهر في موسم الربيع وتكثر في جزر الأنهار الفرنسية ولا يطول بها العمر وراء اليوم الذى تولد فيه .

قال وهو يهدى الحكاية ، أو العبرة ، الى تلك السيدة :

(١) الحكايتان من كتاب الخرافات الكبرى جمع كمروف
Great Fables, Komroff

تذكرين ياصديقتي العزيزة أنني في ذلك اليوم السعيد الذي قضيناه في الحديقة البهجة والصحبة الحلوة عند مولان جولي — قد تنحيت هنيهة عن الزمرة وتخلفت وراءها قليلا منفردا بنفسي ، وقد رأينا أثناء ذلك عددا كبيرا من « الهياكل العظمية » لذلك الذباب الذي يسمونه تارة « بالمنا » وتارة بذباب الربيع ، وقيل لنا ان أجيالا منه تحيا وتموت وتتعاقب في مدى النهار الواحد ، وصادفني جمع من هذا الذباب منعقدا على ورقة من أوراق الشجر مستغرقا في الحوار والجدل ، وأنت تعلمين أنني بألسنة هذه الخلائق الدنيا خبير .

ان اشتغالي بألسنة هذه الأحياء لهو العذر الذي أعتذر به من التقدم البطيء في تعلم لسانكم الجميل ، فأصغيت — بداعي الفضول — الى حديث المؤتمر ولم يتيسر لي أن أستوضح جلية القول من كل حديث لأنهم كانوا في اندفاعهم وحمية شبابهم يتكلمون كل أربعة أو خمسة في وقت واحد . الا أنني أدركت من كلمة هنا وكلمة هناك أنهم يتناقشون في المفاضلة بين الطنين الذي يسمع من احدى مدارس الذباب الغنائية والطنين الذي يسمع من المدرسة الأخرى ، وكانوا مستغرقين في هذه المناقشة كأنهم على ثقة من امتداد العمر بهم شهرا أو يزيد .

قلت في نفسي : ما أسعد هؤلاء القوم ! وقلت كأنني أخاطبهم : لاشك أنكم تعيشون في ظل حكومة رفيقة عادلة لا تشغلكم بالشكايات والمظالم عن الاسترسال في أمثال هذه الأحاديث عن الموسيقى الأجنبية التي تبحثون في محاسنها أو عيوبها ، وأدرت بصري عنهم فلمحت واحدا منهم أشيب الرأس منفردا على ورقة أخرى يناجي نفسه نجاء أعجبني وراقني فدونته على الورق لساعته .

كان هذا الحكيم الذبابي يقول : « ان حكماء أمتنا الذين عاشوا قبلنا منذ عصر بعيد يقولون آن هذا العالم الفسيح المسمى بالمولان جولي

لن يعمر أكثر من ثماني عشرة ساعة ، وأخالهم على حق فيما يقولونه لأن هذا النهر العظيم الذى تتولد منه الحياة كلها قد مال فى حياتى الى جانب البحر المحيط حيث يغرق لا محالة وينطفىء وتخمد معه شعلة الحياة فى كل مكان ويدع هذا العالم الكبير مطويا فى غمرة البرد والظلام !

ولقد عشت سبعا من هذه الساعات — عمرا طويلا ولا ريب ، لأنه لا يقل عن أربعمائة وعشرين دقيقة ، وما أقل الذين يعمرون منا مثل هذا العمر الطويل ! لقد أبصرت بعينى أجيالا تولد وتحيا وتموت ، وصحابتى اليوم انما هم الأبناء والحفدة لمن كانوا صحابة لى فى ريعان الشباب ولم يبق منهم أحد أراه وآسفاه .

وانى لا محالة لاحق بهم عما قريب ، فاننى — وان كنت فى صحة وعافية — لن أخرق قانون الطبيعة ولا مطمع لى فى البقاء بعد سبع دقائق أو ثمان . فما غناء هذا العناء الذى عانيته وهذا الشهد الذى جمعته على هذه الورقة حيث أتركه ولا أنعم بمذاقه ! ما غناء الغزوات السياسية التى غزوتها فى سبيل هذه الجماعة على تلك الأجمة . ما غناء الفلسفة ومعضلاتها التى تعمقت فيها عسى أن أفيد بها أبناء النوع كله ! وما غناء القانون فى السياسة بغير أخلاق !!

ان جيلنا الحاضر من ذباب الربيع لوشيك أن يخالطه الفساد والمنكر خلال لحظات ويصبح كغيره وغيره من سكان تلك الأجمات فى ضروب الفساد والشقاء ! أما الفلسفة فما أقصر الخطى التى خطوناها فى مضمارها! وما أصدق قول القائلين : ان الفن لطويل وان العمر لقصير .

ويواسينى أصدقائى فيذكرون لى السمعة التى سأتركها من بعدى ويقولون لى اننى استوفيت حكم الطبيعة وحكم المجد أجمعين . فماذا تجدى السمعة ذبابة قد فنيت وليس لها من وجود ، وماذا يبقى من التاريخ كله بعد الساعات العشر والثمان ، وبعد فناء الدنيا وفناء المولان

جولى نفسها فى غيابة الظلام والخراب ؟ .

انني — بعد السعى الحثيث والدأب الطويل — لم يبق لى من متعة فى العمر غير التدبر فى تلك الأيام الطوال التى أحسنت فيها المقصد والنية، وغير الأحاديث التى أبادلها نخبة من الذبابات الطيبات ، وغير ابتسامة من حين الى حين ، أو أغنية فى يوم بعد يوم ، تجود بهما الحبيبة الحسناء .

ابراهيم والضيف الكبير

ـ وحدث بعد هذه الأشياء أن ابراهيم جلس على باب خيمته قريبا من وقت غروب الشمس .

ونظر فرأى رجــلا حنته السنون مقبلا من ناحية البرية ، متوكئا على عكاز .

ونهض ابراهيم واستقبله وسأله قائلا : بحقك أن تأوى الى خيمتى اغسل قدميك وتستريح طول الليل وتمضى الى سبيلك عند الصباح .

ولكن الرجل قال : لا ـ وقال انه سينام تحت تلك الشجرة .

وكرر ابراهيم الدعوة وألح عليه كثيرا ليقبل دعوته ، فقبل ودخل معه الخيمة وصنع له ابراهيم خبزا فطيرا وآكلا معا .

ولما رأى ابراهيم أن الرجل لم يحمد الرب ولم يتوجه اليه بالصلاة سأله : ما لك لا تعبد الرب العلى الأعلى خالق الأرض والسماء ؟

وأجاب الرجل فقال : انني لا أعبد الاله الذى تتحدث عنه ولا أسبح باسمه . لأننى اتخــذت لنفسى ربا يقيم معى فى بيتى ويزودنى بجميع الأشــياء .

وثارت ثائرة ابراهيم على الرجل فقام ودفع به الى البرية مشــيعا باللطمات والضربات .

وفى منتصف الليل نادى الرب ابراهيم قائلا : أين الرجل الغريب ؟

وأجاب ابراهيم فقال : انه لا يعبدك ولا يسبّح باسمك ، فأخرجته لأجل هذا من خيمتى ودفعت به الى البرية .

وقال الرب : هل أصبر عليه أنا هذه السنين المائة والثمانى والتسعين أطعمه وأكسوه ولا أبالى عصيانه لى وتأتى أنت صاحب الخطيئة فلا تصبر عليه ليلة واحدة ؟

وقال ابراهيم : لا يحم غضب الرب على عبده . لقد أخطأت وأتوسل اليك يارب أن تغفر لى خطيئتى .

ونهض ابراهيم وخرج الى البرية وبحث عن الرجل بحثا شديدا فوجده وعاد به الى الخيمة فأكرمه وتلطف له وشيعه فى اليوم التالى بالهدايا .

وتكلم الرب مرة أخرى مع ابراهيم قائلا : من أجل خطيئتك هذه يتعذب أبناؤك أربعمائة سنة فى أرض غريبة .

ولكن من أجل توبتك أنقذهم وأخرجهم أقوياء بقلوب فرحة وخير كثير[1] .

---

(١) من كتاب الخزعبلات Bagatelles

علميات

الزيت على الماء

والرسالة الآتية كتبها فرنكلين الى [illegible] وليام بروننج من علماء انجلترا الطبيعيين فى عصره ، يطلعه فيها على تجاربه فى تهــدئة البحر الهائج بصب الزيت على الماء ، وقد تليت هذه الرسالة على مجمع العلوم البريطانى فى الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٧٤ ثم نشرت فى مجموعتها الفلســفية ، وقد ترجمنــاها من « الكتابات الترجمية » التى سبقت الاشارة اليها .

لندن فى السابع من نوفمبر سنة ١٧٧٣ .

سيدى العزيز :

أشكر لك ما أبلغتنى من ملاحظات صديقك العلامة فى كارليسل ، وقد كنت فى صباى أبتسم حين أقرأ كلام بلينى Pliny عن عادة الملاحين فى زمنه أن يعالجوا تهدئة الأمواج فى العاصفة باراقة الزيت على البحر ، وهى عادة أشار اليها مع اشارته الى استخدام الغطاسين للزيت ، ولكننى لم ألتفت الى تهدئة الهواء العاصف برش الخل فيه ، وأرى كما يرى صديقك أن المتأخرين أفرطوا فى السخرية من معارف الأولين ، وأرى كذلك أن العلماء أيضا يفرطون فى السخرية من معارف العامة ، ومن الأمثلة على ذلك أن التبريد بالتبخير تجربة عرفها العامة منذ زمن طويل ، وأما تهدئة الأمواج بالزيت فهى من الأمثلة على كلا الأمرين .

ولعلك لا تأبى أن أبسط لك كل ما سمعت وعلمت وعملت فى هذا الصدد ، وهأنذا أستأذنك فى أن أبسطه بين يديك :

فى سنة ١٧٥٧ كنت فى أسطول مؤلف من ستة وتسعين شراعا يتجه الى لويربورج ، ولاحظت أن مؤخرة سفينتين فى الأسطول هادئة على نحو يلفت النظر ، على حين لاحظت الاضطراب فى السفن الأخرى بمهب الريح التى أخذت فى الهبوب . وحرت فى الاختلاف بين المنظرين وأفضيت بحيرتى الى الربان سائلا عن سر هذا الاختلاف ، فقال لى ان الطباخين على ما يظهر قد أفرغوا فى البحر بقايا الماء الوضر فأسلست قليلا جوانب السفينتين ، وكان فى اجابته مسحة من الاستخفاف بهذا الجهل لأمر من الأمور التى لا يجهلها أحد ، ولكننى استخففت أيضا بالتفسير الذى أبداه وان لم يكن فى وسعى أن أعثر على تفسير خير منه ، ثم تذكرت ما قرأت فى بلينى فعولت على تجربة أثر الزيت على الماء عند سنوح الفرصة الملائمة .

وعدت الى البحر منفردا سنة ١٧٦٢ ، فلاحظت أولا ذلك الهدوء العجيب فى الزيت الذى كان على ماء المصباح المترجح الذى علقته فى الكبينة كما وصفته فى أوراقى ، وطفقت أنظر اليه وأظنه ظاهرة ليس لها تفسير . وكان معى من الركاب ربان قديم لم يهتم بالملاحظة لاعتقاده أن الظاهرة من قبيل ظاهرة الزيت الذى يراق على الأمواج لتهدئتها ، وهى كما قال عادة البرموديين كلما أرادوا اصابة سمكة يحول اضطراب الموج دون رؤيتها ، ولم أكن قد سمعت بهذه العادة قبل ذلك فكنت مدينا له بما أخبرنى عنها وان كنت لا أوافقه على التشابه بين ظاهرة المصباح وظاهرة الموج لما بينهما من الاختلاف فى العمل والنتيجة . اذ كان الماء فى احدى الحالتين هادئا حتى يوضع الزيت عليه فيضطرب ، وكان الماء فى الحالة الثانية مضطربا حتى يوضع الزيت عليه فيهدأ .

وأخبرنى السيد نفسه أن العادة متبعة بين الصيادين من أهل لشبونة كلما عادوا الى النهر وأبصروا على حوافى القوارب طفاوات يخشون أن

تغمرها ، فانهم فى هذه الحالة يفرغون زجاجة أو زجاجتين على ماء البحر فلا يطغى على القوارب ويمرون بسلام .

ولم تسنح لى فرصة لتعزيز هذا الخبر حتى تحدثت مع شخص آخر من الخبرة بالملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، فأخبرنى أن الغطاسين هنالك اذا احتاجوا الى النور فى القاع وحال بينهم وبينه اضطراب سطح الماء نفثوا من أفواههم قليلا من الزيت بين حين وحين فصعد الى السطح وهدأ الماء فنفذ منه النور ، وجعلت أقلب هذه المعلومات فى ذهنى وأعجب لخلو كتبنا فى التجارب الفلسفية من الاشارة اليها .

وألفيتنى أخيرا فى كلافام ، وفيها بركة لاحظت يوما من الأيام أنها مضطربة الماء فأرقت عليها قليلا من الزيت ورأيته ينتشر على سطحها بسرعة مدهشة ولكنه لم يؤثر فى تهدئة الماء ، لأننى أرقته فى اتجاه الريح حيث كان معظم الموج فعادت به الريح الى الشاطىء . فقصدت بعد ذلك الى الجهة التى تهب منها الريح ويتموج عندها الماء وألقيت ثمة قليلا من الزيت لا يزيد على ملء ملعقة من ملاعق الشاى ، فما هو الا أن وصل الى الماء حتى سكن على الأثر الى مدى عدة ياردات وراح ينتشر وينتشر حتى بلغ الجانب الآخر مهدئا تلك الرقعة كلها — قرابة نصف فدان — كأنها صفحة مرآة .

بعد ذلك تعودت أن آخذ معى — كلما ذهبت الى الخلاء — قليلا من الزيت فى تجويف القصبة العليا من عصاى لأكرر التجربة حيث تتهيأ لى الفرصة ، فوجدتها ناجحة على الدوام .

وقد لفتنى فى جميع هذه التجارب شىء واحد بصفة خاصة ، وهو هذا الانتشار الواسع السريع القوى الذى تنتشره قطرة واحدة من الزيت على صفحة الماء ، ولا أعلم أن أحدا اهتم بهذه المشاهدة قبل الآن . فان قطرة الزيت اذا وضعت على مائدة من المرمر المصقول أو على مرآة فى

وضع أفقي تلبث في موضعها ولا تنتشر الا قليلا .

الا أنها اذا ألقيت في الماء لا تلبث أن تنتشر على صفحته عدة أقدام وترق جدا حتى تنعكس عليها ألوان الطيف الى مدى غير قصير ، ثم لا تزال ترق وراء هذا المدى حتى لاتبدو للنظر الا ما يكون من أثرها في تهدئة الموج ؛ وكأنما يحدث بين أجزائها تدافع مشترك في اللحظة التي تقع فيها على الماء ، ويكون ذلك التدافع من القوة بحيث يعمل عملا في الأجسام العائمة على صفحة الماء من قبيـــل القش أو ورق الشـــجر أو الحثاثة ، مضطرا اياها أن ترجع عن القطرة كأنها ترجع عن مركز حركة الى مدى غير قريب ، ولم أتبين بعد مقدار هذه القوة ولا قياس المدى الذي يمتد اليه أثرها ، ولكنى أحسبها مسألة من مسائل البحث وأود أن أستطلع سرها .

وقد سافرت الى الشمال تلك السفرة التي سعدت فيها بلقائك في أورماثويت Ormathwaite فزرنا النابه الشهير مستر سميتون على مقربة من ليدز ، وهممت أن أريه التجربة على بركة صغيرة بجوار بيته فقال لنا تلميذ ذكي من تلاميذه — وهو مستر جيسوب — انه شهد هنالك ظاهرة غريبة منذ وقت قريب ، وكان يهم بأن يغسل في إلماء قدحا من أقداح الشاى يضع فيه الزيت فألقى منه على الماء بضع ذبابات غرقت في الزيت ، فما كادت تصل الى الماء حتى أخذت تتحرك وتدور دورة سريعة كأنها حية ناشطة وان كان قد لمسها فعلم أنها ليست كذلك ، فاستخلصت من ذلك على الأثر أن الحركة آتية من التدافع الذى أشرت اليه ، وأن الزيت الذى يرسله جسم الذبابة الاسفنجي تدريجا يدفع تلك الحركة الى الاستمرار ، وعاد التلميذ فوجد في الزيت بعض الذبابات الغـــرقى كررنا التجربة عليها وأردت أن أستوثق من أن الحركة لم تحدث من رجعة الذباب الى الحياة فأجريت التجربة على الفتـــات وقطع الورق مقصوصة على شكل الواو في حجم الذبابة المألوف فوجدنا التيار يدفعها

ويدير الواو الى الجهة المضادة ، وليست هذه تجربة بيتية بين جدران حجرة ، لأنها لا يمكن أن تعاد فى ماء جردل أو اناء على المائدة ولا بد من صفحة كبيرة على وجه الماء تتسع لامتداد قطرات الزيت القليل . أما الطبق أو الاناء فان قطرة الزيت الصغيرة فيه اذا ألقيت فى الوسط شاعت على وجه الماء كله طبقة وضرة صادرة من القطرة وتوقف صدورها لمجرد وصول الطبقة الى جوانب الاناء ، ومنعتها تلك الجوانب أن تتخذ شكلا غير شكل الزيت بمنع الامتداد من مصدرها .

وقد ذهب صديقنا سير جون برنجل بعد ذلك الى سكوتلاند فعلم أن الصيادين الذين يعملون فى صيد سمك الرنجة يستطيعون رؤيتهـا على بعد وأنهم ربما ساعدهم على الرؤية مادة زيتية تنبعث من أجسامها .

وأخبرنى سيد من جزيرة رود أنهم لاحظوا هناك فى ميناء نيوبورت أن الماء يظل ساكنا ما بقيت فيه سفينة من السفن التى تستخدم فى صيد الحيتان ، وربما كان ذلك لأن الآنية التى يودعونها دهن الحوت يرشح منها الدهن الى الماء الذى يفرغونه من سفنهم وينتشر على صفحة الماء فى الميناء فيحول دون اثارة الأمواج عليه .

وسأحاول تفسير ذلك المانع :

فالظاهر أنه لاتوجد بين الماء والهواء طبيعة التدافع التى تمنع اتصال أحدهما بالآخر ، ومن ثم نجد فى الماء بعض الهواء ويعود الهواء بمثل ذلك المقدار الى الماء اذا استخرجناه بالمضخات ، وعلى هذا يمكن أن يمر الهواء على صفحة الماء الساكنة ويحدث فيها الثنايا التى تتكون منها الأمواج ، ومتى برزت موجة — بالغة ما بلغت من الصغر — على وجه الماء لم تهبط على الأثر فتترك الماء الى جانبها على سكونه ، بل يكون هبوطها سببا لبروز موجة أخرى بغير اختلاف فى احتكاك الأجزاء ، واذا ألقى فى الماء حجر نشأت منه موجة واحدة حوله فى أول الأمر ويتركها

فيرسب فى القاع ، ولكن هذه الموجة تهبط فتبرز الى جانبها موجة أخرى فموجة غيرها الى آمد بعيد .

والقوة الصغيرة اذا تكررت كان لها أثر كبير . فالاصبع اذا لمست جرسا كبيرا لمسة واحدة لم تحركه الا حركة يسيرة ، ولكنها اذا لمسته مرة بعد مرة بالقوة نفسها زادت الحركة حتى يصل الجرس الى أعلى ذروته بقوة لا تستطيع الذراع كلها أن تقاومها ، وكذلك الموجة الصغيرة الأولى التى تظل الريح مؤثرة فيها تزداد فى الامتداد وان كانت الريح لا تزداد فى القوة ، وترتفع ثم ترتفع فتمتد قواعدها حتى تشمل مقدارا كبيرا من الماء فى كل موجة وتندفع فى حركتها بقوة شديدة .

أما اذا وجد التدافع المتبادل بين أجزاء الزيت ولم يوجد التجاذب بين الزيت والماء ، فالزيت الذى يراق فى الماء لا يتماسك فى الموضع الذى ألقى فيه ولا يمتصه الماء ، وينطلق ممتدا بغير عائق فينبسط على صفحة واسعة تحول — فضلا عن ملاستها — دون احتكاك الهواء مباشرة بالماء ، ويستمر هذا المانع مع امتداد الزيت حتى يبلغ من الامتداد غايته القصوى فيضعف أثره ويزول .

وانى أتخيل الآن أن الريح متى هبت على ماء مغطى على ذلك النحو بطبقة من الزيت لم يسهل احتكاكها به ذلك الاحتكاك الذى يبرز الموجة الأولى ، بل تنساب فوقه وتدعه ساكنا كما كان ، وهى تحرك الزيت قليلا ولا شك ، ولكنها حركة بين الزيت والماء تساعده على الانسياب وتمنع الاحتكاك كما يمنع احتكاك أجزاء الآلات ، ولهذا يذهب الزيت الذى يراق فى اتجاه الريح الى الوجهة المقابلة ، اذ كانت الريح فى هذه الحالة لا تتمكن من اثارة الخلجات الأولى التى تتكون منها الأمواج ، فتبقى البركة كلها على حالها من الهدوء .

وفى وسعنا اذن أن نقمع الموج حيث نريد اذا وصلنا الى المهب الذى

تنشأ منه أوائلها ، ويتعذر ذلك في البحر المحيط أو يحدث في الندرة القليلة ان حدث ، الا أنه قد يتيسر بعض العمل لتخفيف دفعة الأمواج حين تكون في وسطها فنمنع انكسارها كلما وافقنا ذلك . اذ لايخفى أن الريح كلما هبت من جديد نجم وراء كل موجة خلجات صغار تزعج صفحتها وتهيىء للريح أن تأخذ بمقبضها لتدفعها دفعة أقوى ، وهذا المقبض لا يتهيأ للريح بمنع الخلجات الصغار ، وربما لم يتهيأ كذلك عند تزييت صفحة الموجة فتدفعها الريح الى أسفل بدلا من تحريكها الى جانبها وتعمل بذلك على تهدئة الموج بدلا من استمراره .

وهذا — على اعتباره من قبيل التخمين — لا قيمة له ان لم يكن صب الزيت في وسط الأمواج ذا بال ولم يفسر بعد بتفسير غير هذا التفسير .

ان الريح عندما تهب متوالية بحيث لا تسرع الموجات الى تلبية فعلها تكون رؤوسها خفيفة فتندفع وتتكسر كالرغو الأبيض ، وان الأمواج عادة ترفع السفينة ولا تدخلها ، ولكن هذه الأمواج المرغية المزبدة اذا تعاظمت وارتفعت قد تغمرها وتعرضها للخطر العظيم .

وليس لدينا تجربة تثبت لنا أن هذا الخطر يمكن منعه وأن ارتفاع الأمواج في البحر الزاخر مما يمكن تخفيفه ، لأن ملاحظة بليني عن تجارب الملاحين في عصره لم يلتفت اليها . الا أنني حادثت أخيرا صاحب السعادة الكونت بنتنك الهولندى ، وابنه الربان بنتنك ، والأستاذ العلامة اليماند ، وأريتهم تجاربي في تهدئة الأمواج العالية على رأس البستان الأخضر فذكر لي الكونت خطابا تلقاه من بتافيا عن انقاذ سفينة في زوبعة بصب الزيت على الماء ، وودت لو حصلت على نسخة من هذا الخطاب فسمح لي الكونت بها بعد ذلك ، وهذه هي نبذة من الخطاب المؤرخ في الخامس من شهر يناير سنة ١٧٣٠ يقول فيها مستر تنجناجل للكونت بنتنك :

« انه على مقربة من جزائر بول وأمستر دام لم يوجد ما يستحق التبليغ الا ما حدث من اضطرار الربان طلبا للسلامة أن يصب الزيت على الماء لمنع تدفق الأمواج فيها فكان لذلك أثر بيّن ونجونا بفضله ، ولما كان الربان قد حرص على صب الزيت قليلا بعد قليل فشركة الهنـــد الشرقية مدينة بنجاة سفينتها لست قنينات من زيت الزيتون ، وقد كنت على ظهر المركب عند اجراء هذه التجربة ولم يحملنى على الكتابة بها اليك الا ما وجدته من شك القوم فى نفعها وضرورة العلم بهذا النفع واقرار هذه التجربة بشهادتنا وشهادة الضباط فى السفينة ، مما تيسر لنا بغير مشقة » .

لهذه المناسبة رويت للربان بنتنك فكرة خطرت لى أثنـــاء الاطلاع على رحلات ملاحينا المتأخرين ، وبخاصة حين يذكرون الجزر الجميلة الخصبة التى يتوقون الى الارساء بها اذ يلجئهم الى ذلك الدوار والمرض ثم يحول البحر المضطرب دون بلوغهم شواطئها ، والفكرة التى خطرت لى أنهم يستطيعون الارساء بها اذا ترددوا جيئة وذهوبا على مسافة قريبة من الشاطىء وصبوا الماء أثناء ذلك مع اتجاه الريح الساحلية ، فربما هبطت الأمواج قبل وصولهم الى الشاطىء وهدأت حركتها العنيفة هدوءا يمكنهم من الوصول اليه اذ يكون فى الأمر من الفائدة ما يساوى قيمة الزيت المصبوب .

وتفضل السيد ، الذى أثرت عنه الغيرة على تحقيق كل ما فيه المصلحة وان لم يلتفت الى مخترعاته الذكية الالتفات الواجب لها ، فدعانى الى بورتسموث حيث يرجى أن تسنح الفرصة للتجربة على شواطىء سبتهيد، وتلطف فزاملنى فى الرحلة ووعد باعطائى الزوارق اللازمة لتلك التجربة.

وعلى ذلك ذهبت الى بورتسموث حوالى منتصف أكتوبر الماضى مع بعض الصحاب ، وهبت ريح ساحلية بين مستشفى هسلار والموقع

القريب من جليكر ، فخرجنا من السفينة سنتاءور فى زورق طويل وصندل متجهين الى الساحل ، وكان ترتيبنا هكذا : الزورق الطويل على مسافة ربع ميل من الساحل ، وفئة من الصحبة نزلت على الساحل وراء الموقع القريب من جليكر وهو مكان محمى من ناحية البحر ، ثم جاءت واستقرت على مكان مواجه للزورق الطويل حيث يتسنى لهم أن يراقبوا صفحة الماء ويلاحظوا ما يطرأ عليها من التغيير بعد صب الزيت ، وكانت فئة أخرى على الصندل على اتجاه الريح من ناحية الزورق الطويل فى موضع وسط بينه وبين الساحل تذهب وتجىء وهى تصب الزيت على الماء من قدرة فيها سدادة مفتوحة أوسع قليلا من ريشة الأوزة ، فلم تسفر التجربة عن النجاح الذى رجوناه ولم يلاحظ فرق محسوس على الموج بجـوار الساحل غير أن ركاب الزورق الطويل شاهدوا ممرا هادئا على طول المسافة التى كان الصندل يصب الزيت عليها يتسع كلما اقترب من الزورق الطويل ، وأقول انه ممر هادىء ولا أعنى أن صفحة الماء كانت مستوية ، بل أعنى أنها مع ارتفاع الموج فيها لم يكن ثمة أثر للخلجات الصغيرة التى أشرت اليها آنفا ولا للزبد الذى يعلو فوق رؤوس الأمواج ، وان يكن فى منتجه الريح والجانب المقابل له كثير من تلك الخلجات ، واتفق مرور زورق منشور الشراع هناك فاختار الممر طريقا للعبور .

وقد يفيد وصف التجربة التى لم تنجح عسى أن تصحح التجربة فى مرة أخرى ، ولهذا وصفتها بالتفصيل وأرجو أن أضيف الى وصفها تعليلا لحبوطها وخيبة الأمل فيها .

يلوح لى أن عمل الزيت على الماء « أولا » أن يمنع ارتفاع موجات جديدة بهبوب الريح ، و « ثانيا » أن يمنع اندفاع الموجات التى ارتفعت فعلا بقوتها الأولى فلا تحدث موجات أخرى ترتفع مثل ارتفاعها كما يحدث لو لم يكن على صفحة الماء زيت مصبوب . الا أن الزيت لا يمنع

التموج الذى يحدث لسبب آخر أو قوة أخرى كقوة الحجر الذى يسقط فى بركة ساكنة لأن الموج يرتفع اذن بقوة الحجر الدافعة « الميكانيكية » التى لا تستطيع الصفحة المزيتة أن تمنعها كما يمتنع اتصال الهواء بالماء واثارة الأمواج فيه .

والموجات التى ترتفع بقوة الريح أو بغيرها تعمل عملا واحدا فى الارتفاع والهبوط كما يعمل الرقاص بعد انقطاع عمل القوة التى دفعته الى الحركة الأولى ، وهى حركة تسكن مع الزمن ولكن لابد لها من زمن على أية حال .

وعلى ذلك يمكن أن يضعف الزيت على البحر الهائج دفعة الموج الذى على صفحته فيهبط لامتناع التأثير الجديد الذى يطرأ عليه ، ولكنه لابد من مرور زمن قبل ظهور الأثر على مثال ما يحدث عند هدوء الريح فجأة ، فان الأمواج لا تهدأ فجأة بهذه السرعة بل تأخذ فى الهدوء شيئا فشيئا حتى تنقطع الريح .

ونحن كذلك وصلنا بصب الزيت على الماء الى تهدئة الأمواج التى ارتفعت قبل ذلك ، ولم يكن منتظرا أن تتم هذه التهدئة على الأثر حتى تستوى الصفحة كل الاستواء ، ولا بد للحركة التى بعثتها أن تستمر بعض الوقت وأن تصل الى الساحل بقوة وسرعة اذ لم يكن على مسافة بعيدة فلا يلاحظ عليها ضعف محسوس ، ويجوز أننا — على مسافة أبعد من تلك — كنا نحس للتجربة أثرا أكبر من ذلك لو أننا بدأنا عملنا على مسافة أبعد من الساحل ، أو يجوز أن الزيت الذى صببناه لم تكن فيه الكفاية ، وتظهر النتيجة فى التجارب التالية .

ولقد شكرت الربان بنتنك لمساعدته الطيبة الرضية ، ولا أنسى فضل مستر بانكس والدكتور سولاندر والجنرال كارنوك والدكتور بلاجدن الذين اشتركوا فى التجربة فى ذلك اليوم المضطرب المزعج وصبروا على

الدأب فيها صبرا لا باعث له غير زيادة المعرفة ، وبخاصة تلك المعرفة التى تنفع الناس فى مواقف الشدة والحرج .

وبودى لو أطلعت صديقك الألمعى مستر فاريس على هذه الرسالة مع تبليغه تحيتى واحترامى ، وانى ياسيدى العزيز مع تقديرى الخالص ... الخ الخ .

اجتماعيات

والاجتماعات التى كتبها فرنكلين تتسم — كسائر كتابته — بسمة السماحة الفطرية التى تنظر الى الحقائق من وراء حدود الأجناس والألوان، وتعرف فى الوقت نفسه حدود الطاقة الانسانية فلا تنسى الأعذار وهى تحكم على الذنوب ، ولا تجهل الضرورات وهى تتكلم على الواجبات ، ونجتزىء من هذه الاجتماعيات بفصلين : أحدهما عن الهنود الحمر ، والآخر عن المرأة الخاطئة .

قال بعنوان : « فى شئون المتوحشين المقيمين بأمريكا الشمالية » :
نسميهم متوحشين ، لأن عاداتهم تخالف عاداتنا التى نحسبها غاية الدماثة والأدب ، وانهم ليحسبون عاداتهم كذلك .

وأخالنا لو درسنا عادات الأمم المختلفة بغير تحيز لم نجد شعبا قط يبلغ من خشونته أن يتجرد من قواعد الأدب والمجاملة ، ولم نجد شعبا قط يبلغ من أدبه ومجاملته أن يخلو من بعض الخشونة .

ان الرجال الهنود فى صغرهم صيادون ومقاتلون ، وهم فى كبرهم نصحاء مستشارون ، لأن أمور الحكم كلها تجرى بينهم وفاقا لمشورة الحكماء ، فلا سلطة ولا سجون ولا شرطة تكرههم على الطاعة ، ولهذا تراهم يمارسون صناعة الكلام ، فأبلغهم أكبرهم نفوذا بين قومه .

والنساء الهنديات يحرثن الأرض ويطهون الطعام ويرضعن الأطفال ويربينهم ، ويحفظن للخلف مأثورات السلف .

وهذه الشواغل التى يشتغل بها الرجال والنساء معدودة بينهم من الأمور الفطرية الموقرة . وهم — لقلة مطالبهم الصناعية — يجدون

متسعا من الوقت لتهذيب المحادثة والسمر، وينظرون الى أسلوبنا المجهد فى المعيشة نظرتهم الى ضعة الرق والخسة ، كما ينظرون الى التعليم الذى نفخر به كأنه تفاهة وعبث بغير جدوى ، وقد شهدنا مثلا على ذلك فى معاهدة لانكستر بينسلفانياسنة ١٧٤٤ بينحكومة فرجينيا والأمم الست الهندية . فبعد التفاهم على المسائل الهامة أبلغ المندوبون عن حكومة فرجينيا جماعة الهنود مشافهة أن فى وليامبرج كلية ذات رصيد مخصص لتعليم أبناء الهنود ، وان رؤساء الأمم الست اذ راقهم أن يرسلوا الى الكلية فئة من أبنائهم — ستة مثلا — فالحكومة هناك على استعداد للعناية بهم وتوفير لوازمهم وتعليمهم كل ما يتعلمه أبناء البيض .

ومن آداب الهنود المرعية أنهم لا يجيبون مقترحا عاما لساعته ، اذ يرون فى ذلك شـــيئا من الاستخفاف به وأنه غير جدير منهم بالبحث والمراجعة ، ويستمهلون المقترح ريثما ينظرون فيــه ليدلوا بذلك على اهتمامهم بأمره ، ووفاقا لهذا العرف طلبوا المهلة لليوم التالى كى يجيبوا عن ذلك الاقتراح ، فلما كان الموعد أعرب مدرة القوم عن شـــعورهم العميق بلطف الحكومة الفرجينية فى عرض تلك المنحة الكريمة لأنه يعلم أن البيض يكبرون شـــأن التعليم فى الكلية ، وأن توفير المطالب لأبناء الهنود فى تلك الكلية يكلفها كثيرا من النفقة ، وأن الاقتراح ولا شك ينم على حب الخير ويستوجب منهم الشكر الجزيل .

قال : الا أنكم — بما لكم من الحكمة والخبرة — تعلمون أن الأمم المختلفة تختلف فى النظر الى الأشياء وتقديرها ، وانكم لا تلوموننا اذا كانت آراؤنا فى ذلك النمط من التعليم لا يتفق لها أن تطابق آراءكم . وقد بلونا ذلك بعض الشىء منذ سنوات حيث تخرج نفر من شبابنا من كليات الشمال وحذقوا فيها جميع علومكم ، ثم عادوا الينا لا يحسنون العدو ، ولا يعرفون شيئا عن الحياة فى الغابات ، ولا طاقة لهم بالصبر على

البرد والجوع ، ولا دراية لهم ببناء كوخ أو اقتناص غزال أو الغلبة على عدو ، وقد ساء نطقهم بلغاتنا فلا هم قادة مقــاتلون ، ولا هم نصحاء مستشارون ، ولاهم على الجملة صالحون لأمر من الأمور .

على أننا لا نبخسكم حقكم من الشكر على منحتكم الكريمة لأننا لم تقبلها ، ولكى نعرب عن شعورنا بها نقترح على السادة الفرجينيين أن يرســلوا الينا نحو اثنى عشر من أبنائهم نعنى بهم ونعلمهم على نهجنا وندربهم على كل ما تدربنا عليه ، ونخرج منهم رجالا أشداء .

والهنود — لتعودهم عقد المجالس والمجتمعات للمشاورة — قد كسبوا القدرة على حظ عظيم من النظام واللباقة فى ادارتها . فيجلس الشيوخ فى الصف الأول ، ويجلس المقاتلون فى الصف الثانى ، ويجلس خلفهم النساء والأطفال ، وعمل النساء فى هذه المؤتمرات أن يعلقن فى ذاكرتهن كل ما يجــرى وكل ما يقال فيها ويحفظنه تراثا للأبناء لأنهم لا يعرفون الكتابة .

فالنساء سجلات المؤتمرات ، يحفظن من شروط المعاهدات ما قد مضى عليه مائة سنة ، ونقارن بينه وبين المكتوب عندنا فنرى أنه مطابق له كل المطابقة .

وصاحب الدور فى الكلام عندهم ينهض قائما فيصغى اليه المستمعون فى صمت وسكون ، ومتى فرغ من كلامه وجلس فى مكانه تركوه بضع دقائق يتذكر ويتأنى لعله أن يكون قد نسى شيئا أو خطر له بعد الجلوس ما يستدركه من مقاله فينهض ثانية ويقول ما أراد ، وانهم ليحسبون المقاطعة — حتى فى المحادثة الدارجة — غاية فى سوء الأدب والنبو عن المجاملة . فما أبعد هذا مما نشاهده من نظام المناقشة فى المجلس المهذب مجلس النواب البريطانى ـ اذ يندر أن يمضى يوم دون أن يعرض فيه ضرب من الاختلاط يبح صوت الرئيس وهو ينبه المتناقشين فيه الى

النظام . وما أبعد هذا مما يحدث فى كثير من الجماعات المهذبة على القارة الأوربية ، اذ تحس أنك مضطر الى اتمام عبارتك على عجل والا قاطعك فى وسطها أولئك الذين يحادثونك ولا صبر لهم على كبح لجاجتهم فى الحديث ، ثم لا يتاح لك أن تعود ثانية الى اتمامها .

والحق أن مجاملات الحديث عند هؤلاء القوم قد بلغت حد الافراط لأنها لا تسمح لهم بمناقضة كلام يسمعونه أو تفنيده ، وهم — بذلك — يتجنبون المنازعات ولكنهم لا يظهرون لك حقيقة ما يريدون ولا يعربون عن أثر لكلامك فى نفوسهم ، وقد طالما شكا المرسلون المبشرون من هذه العادة وعدوها احدى العقبات الكبار فى طريق رسالتهم . فان الهنود ليستمعون فى صبر وأناة الى حقائق الكتاب التى تشرح لهم ويردون عليها ردودهم المعهودة من علامات الموافقة والاستحسان ، ويخطر لك انهم قد آمنوا وصدقوا ولا شيء من ذلك هنالك ، وانما هى مجاملات وتقاليد .

* * *

ومن أخبارهم فى ذلك أن قسا سويديا جمع زعماء القبيلة المعروفة بسكويهانا ، وخطب فيهم شارحا لهم أسس الوقائع التاريخية التى تقوم عليها ديانتنا ، كسقوط أبوينا لأكلهما من تفاح الجنة ، وظهور السيد المسيح للتكفير عن هذه الخطيئة وما عمله من العجائب واحتمله من الآلام . فلما فرغ من كلامه نهض خطيب هندى ليشكره ، فقال : « ان ما أخبرتنا به شيء حسن ولا ريب ، وانه لمن القبيح حقا أن يؤكل التفاح بدلا من تخميره واستخراج الشراب منه ، واننا لشاكرون لك ما تجشمت من مشقة لتبلغنا هذه القصص التى سمعتموها من أمهاتكم ، ونود فى مقابلة ذلك أن نروى لك طرفا مما سمعناه نحن من أمهاتنا .

كان آباؤنا الأولون ولا غذاء لهم الا من لحوم الحيوان ، وكانت

حبالاتهم فى الصيد لا تنفع فجاعوا وأوشكوا أن يهلكوا جوعا ، وانهم لكذلك اذ أفلح اثنان من شباننا فى اقتناص غزال فأوقدا نارا فى الغاب ليشويا بعض لحمه ، ثم جلسا يأكلان منه فلاحت لهما على تلك القمة التى تلمحها بين جبالنا الزرقاء فتاة حسناء هبطت من السماء واستوت على ذلك المكان ، فقال أحدهما لصاحبه : لعلها قد شمت رائحة الطعام فجاءت تلتمس نصيبا منه تأكله ، فلنعطها اذن ذلك النصيب . وقدما لها اللسان فالتذت مذاقه وقالت لهما : ان الهدية التى تفضلتما بها لمجزية أحسن الجزاء . فتعاليا الى هذا المكان بعد ثلاثة عشر شهرا تجدا فيه شيئا ينفعكما فى الطعام وينفع أبناءكما الى الجيل الأخير ، فعادا كما قالت وأدهشهما أن يجدا فى المكان نباتا لم تقع عليه أعينهما من قبل ، ولم يزل ذلك النبات ينمو بيننا وننتفع به أحسن انتفاع . وقد نبتت الذرة حيث مست يمينها الأرض ، ونبت اللوبياء حيث مست الأرض بشمالها ، ونما التبغ حيث جلست عليها .

وامتعض القس الطيب من سماع هذه القصة الفارغة وقال لهم : ان ما حدثتكم به هو الحق المقدس وأنتم تحدثوننى بعد ذلك بالترهات والأباطيل . وساء الهندى أن يسمع منه هذه الكلمة الجافية فقال له : ان أصحابك يا أخانا لم ينصفوك بحقك من التعليم ولم ينشئوك النشأة الحسنة فى آداب العرف والمجاملة . ولقد رأيت أننا سمعنا أقاصيصك فصدقناها ، فما بالك أنت لا تقابل منا ما سمعت بالتصديق ؟

ويفد الواحد منهم الى مدننا فيتكوف الناس حوله ويحملقون فى وجهه ويتطفلون عليه حيث يحب أن ينفرد بنفسه ، وهم يعيبون ذلك ويعدونه من الخشونة وسوء الأدب والنقص فى عرف التحية والمجاملة ، ويقولون اننا نتطلع كما تتطلعون ونحب الفضول كما تحبون ، بيد أننا نختبىء لنراكم وراء الآجام ولا نعترضكم فى الطريق أو نتطفل بأصطحابكم حيث تسيرون .

وان لهـم لآدابا متبعـة فى دخول القرى التى يفـدون عليهـا ، فلا يستحسنون من القادم أن يدخل الى القرية فجأة بغير استئذان ، وهم لهذا يقفون على مرأى من أهل القرية ويصيحون ولا يتقدمون خطوة حتى يأتيهم من يدعوهم للدخـول ، وقد جرت عاداتهم أن يسـتقبل القادمين اثنان من شيوخ القرية يهديانهم الطريق الى بيت خال يسمونه بيت الغرباء ثم يذهبان من خص الى خص يبلغان القوم بمقدم الضيوف ، وانهم ربما كانوا فى حاجة الى طعام وراحة ، فيرسل كل منهم مافى وسعه من زاد ومن جلود يستريحون عليها ، فاذا استوفوا راحتهم جاءوهم بالتبغ يدخنونه وبدأوا بالحديث سـائلين عنهم وعن وجهتهم وما هم قادمون من أجله ، وينتهى الأمر أحيانا بعرض الخدمة عليهم لاصطحابهم وتموينهم مسافة الطريق بغير أجر ولا ثمن .

وهذه الضيافة التى يعدونها بينهم من الفضائل العالية مطلوبة من آحادهم كما تطلب من جماعاتهم ، وقد أخبرلى مترجمنا « كونراد ويزر » بالقصة التالية فقال : انه نشأ بين الأمم الست وحذق لغة الموهوك ، وانه فى رحلة من رحلاته بين بلاد الهنود يحمل رسالة من حاكمنا الى مجلس « اونونداجا » زار مسكن « كناستيجو » أحد أصدقائه الأقدمين ، فعانقه الرجل وفرش له الفراء ليجلس عليه ووضع أمامه فولا مسلوقا ولحما وقدحا من شراب الروم مشعشعا بالماء ، فلما استراح وأخذ فى التدخين بدأه « كناستيجو » بالحديث وسأله عن أحواله فى السنوات التى افترقا فيها وعن وجهته والمكان الذى أقبل منه والغرض الذى خرج من أجله ، فأجابه مونراد عن هذه الأسئلة حتى أوشـك الحديث بينهما أن يفتر ويتعثر ، فقال له الرجل : ايه كونراد . انك عشـت طويلا بين البيض وعرفت شيئا من عاداتهم ، وقد زرت أنا اقليم « ألبانى » ولحظت أنهم يغلقون دكاكينهم يوما فى كل سبعة أيام ويتجمعون فى منزل عظيم . فهلا

حدثتني عن ذلك الاجتماع ما مقصدهم منه وماذا يصنعون فيه ؟

قال كونراد : انهم يجتمعون هناك ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورة!

قال الهندي : لست أشك فى أنهم أخبروك بما تقول لأنهم أخبروني بمثله . غير أنني أشك فى مقالهم وأصارحك بأسباب شكي . ثم استطرد قائلا :

ذهبت الى « ألباني » كي أبيع جلودي وأشتري ما أحتاج اليه من الأغطية والسكاكين والبارود وشراب الروم ، وأنت تعلم أنني تعودت أن تكون معاملتي مع هانس هانسون ولكنني فى هذه المرة أردت أن أجرب غيره من التجار . على أنني زرت هانسون بادىء الرأي وسألته بكم يشتري جلد السمور ؟ فقال انه لايزيد فى تقديره على أربعة شلنات للرطل الواحد ، غير أنه لا يستطيع أن يتحدث الى فى أمور المعاملة لأنه اليوم الذي خصصوه لتعلم الآداب والطيبات المأثورة ، وانه سيذهب الى الاجتماع اذ كان لا يقدر على مباشرة عمل من الأعمال .

قال الهندي : فذهبت معه ، وألفيت ثمة رجلا يلبس السواد أخذ يخاطب الناس فى غضب شديد ، فلم أفهم ما قال ، ولكنني رأيتـه ينظر الى والى هانسون فظننت أنه غاضب لرؤيتي هناك ، فخرجت وجلست الى جانب الدار وأشعلت قصبتي لأدخن منتظرا حتى ينفض الجمع ، وظننت كذلك أن الرجل قد ذكر شيئا عن السمور وخطر لى أن الاجتماع كله يدور على هـذه الحكاية . فلما انصرف المجتمعون لقيت تاجري وقلت له : ايه يا هانس ! أظنك قد فكرت فى الأمر وزدت فى تقديرك على الشلنات الأربعة . فأجابني قائلا : كلا ! أنا لا أستطيع أن أعطيك هـذا الثمن ولا أزيدك على ثلاثة شلنات وستة بنسات . وانطلقت أتحـدث الى غيره من التجار فألفيتهم جميعا يعيدون هـذه النغمة بعينها : ثلاثة وستة بنسات ! ثلاثة وستة بنسات ! ووقر فى خلدي من ثم أنني على حق

فى شبهتى وأنهم مهما يزعموا من سبب لتلك الاجتماعات وأنهم يلتقون فيها ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورات فانما السبب الصحيح أنهم يجتمعون ليخدعوا الهنود عن ثمن السمور ، واذا تأملت قليلا — ياكوتراد — فلا شك أنك تثوب الى رأيى وتسلم أنهم لو كانوا يجتمعون ليتعلموا الآداب والطيبات المأثورات لكانوا قد تعلموا طرفا منها قبل ذلك . الا أنهم على جهلهم القديم ، وأنت تعلم عاداتنا معهم اذا قدم منهم أحد الى أكواخنا كيف نعامله كما نعاملك ونجفف ثيابه ان كان بها بلل وندفئه ان كان به برد ونبسط له الطعام من اللحم والشراب ليفثأ ظمأه ، ويشبع جوفه ، ونفرش له الفراء لينام ويستريح ولا نقاضاه أجرا على شىء من هذه الأشياء . ولكننا اذا ذهبنا الى بيت من بيوت البيض فى « ألبانى » والتمسنا لحما أو شرابا سألونا : أين نقودك ؟ فان لم تكن معى نقود طردونى وصاحوا بى : أغرب من هنا أيها الكلب الهندى !

فأنت تبصر اذن أنهم لم يتعلموا تلك الطيبات الصغار التى تتعلمها نحن بغير حاجة الى اجتماعات وخطابات ، لأن أمهاتنا يعلمننا اياها ونحن أطفال ، ومحال أن تكون اجتماعاتهم هذه لغرض من تلك الأغراض التى يدعونها ، أو أن يكون لها أثر فيما يزعمونه ، وكل ما فيها أنها حيلة يحتالونها لخداع الهنود عن ثمن السمور [١] .

---

(١) من كتاب الخزعبلات المتقدم ذكره .

محاكمة السحرة في جبل هولي

وهذه نبذة مترجمة من كتاب أئمة الأدب الأمريكي Masters of American Literature ونشرت أولا في صحيفة بنسلفانيا Pennsylvania Gazette بتاريخ ٢٢ من أكتوبر سنة ١٧٣٠ .

* * *

« في يوم السبت الماضي ، عند جبل هولي ، على مسافة ثمانية أميال من برلنجتون ، اجتمع نحو ثلثمائة انسان للتفرج على تجربة أو تجربتين في أشخاص متهمين بالسحر الأسود ، ويظهر أن المتهمين قد اتهموا بأنهم جعلوا خراف جيرانهم ترقص على أسلوب غير مألوف ، وجعلوا خنازيرهم تتكلم وتنشد المزامير مما أفزع رعايا جلالة الملك الأمناء الوادعين في الاقليم . وقد أصر المدعون على ادعائهم أن المتهمين لو وضعوا في كفة ووضع الكتاب المقدس في كفة لخف ميزانهم وثقلت كفة الكتاب ، وأنهم لو أغرقوا مقيدين طفوا على وجه الماء عائمين .

وأراد المتهمون أن يظهروا براءتهم فقبلوا التجربة واقترحوا أن يوضع معهم اثنان من أشد المدعين اصرارا على الادعاء ، وعلى هذا تم الاتفاق على المكان والزمان وأعلن عن الموعد في صحف الاقليم .

وكان المدعيان رجلا وامرأة ، والمدعى عليهما كذلك رجل وامرأة ، وانعقد الجمع وتلاقى الفريقان فدارت المشاورة بينهم قبل البدء بالتجربة وتفاهموا على الابتداء بالوزن واختاروا جماعة من الرجال لتفتيش الرجال وجماعة من النساء لتفتيش النساء ، تحققا من تجردهم جميعا من الأوزان الزائدة ولا سيما الدبابيس .

وبعد البحث والتفتيش جيء بنسخة ضخمة من الكتاب المقدس يملكها قاضي البلد ، وفتحت طريق فى وسط الزحام من دار القاضى الى مكان الميزان الذى علق بمشنقة أقيمت فى مواجهة الدار ليراها ربات الدار دون أن يخرجن لمخالطة الدهماء ، وتوسطت المكان حلقة على حسب المألوف . ثم خرج من الدار رجل طويل وقور يحمل الكتاب بوقار كوقار السياف الذى يمشى فى لندن أمام عمدتها الكبير .

ووضع الساحر أولا فى كفة الميزان حيث تلى عليه اصحاح من آسفار موسى ، ثم وضع الكتاب فى الكفة الأخرى التى كانت مهبطة على الأرض وأرسلت على الأثر . فما كان أعظم دهشة الناظرين حين أبصروا اللحم والعظام تهبط والكتاب العظيم يعلو ويرتفع ويرجحها اللحم والعظام بكثير ، وتكررت التجربة مع الآخرين فكانت أثقالهم كذلك أعظم من أثقال كتب موسى والأنبياء .

وانتهت هذه التجربة ولم يكتف بها الجمع بل أرادوا أن يتمموها بتجربة الاغراق فى الماء . فتقدم الجمع فى موكب وقور الى البركة حيث جرد المدعون والمتهمون من ثيابهم الا ما يسترهم وقذف بهم فى النهر مقيدين بالحبال وفى وسط كل منهم حبل يمسك به بعض الواقفين على الحافة ، وكان المتهم نحيفا هزيلا فلم يرسب لأول وهلة وبعد لأى ما غاص فى جوف الماء ، وجعل الآخرون يسبحون خفافا على وجه الماء . وقفز ملاح على الحافة فوق ظهر الرجل المتهم يظن أنه يهبط به الى قعر البركة، ولكن الرجل المقيد عاد الى الظهور قبل الآخر بهنيهة وجيزة .

ولما أخبرت المرأة المدعية أنها لم تغطس فى الماء ، وأنها ستعاد اليه عادت وطفت مرة أخرى خفيفة كما كانت فى المرة الأولى ! فراحت تقول ان المتهم قد سحرها وطفف وزنها وأنها تريد أن تعيد التجربة كرة أخرى بل مائة مرة حتى ترغم الشيطان على الخروج منها .

أما المتهم فقد رأى أنه يطفو على الماء فتزعزعت ثقته ببراءته وصاح: لئن كنت ساحرا ليكونن ذلك على غير علم منى .

وكان ذوو المسكة من العقل بين المتفرجين قد آمنوا أنه ما من أحد يلقى فى الماء مكتوفا الا طفا على وجهه ما لم يكن عظاما فى جلد ولا شىء! وأنه يظل كذلك حتى يذهب نفسه وتمتلىء رئتاه بالماء . الا أن الرأى السائد بينهم كان يميل الى الظن بأن فضول الكساء على أجساد النساء تساعدهن على العوم ، فلا بد من تجربة أخرى وهن عاريات فى الموعد المقبل من مواعيد الصيف .

خاتمة

قليل من القراء من يعلم أننى دخلت مدرسة (الصنائع) ببولاق لدراسة الكهربا والتلغراف ، وأقل منهم من يعلم الصلة بين اتجاهى الى هـذه الوجهة وبين اسمين من كبار المخترعين الذين بدأوا حياتهم بالعمل فى الصحافة والكهربا ؛ هما فرنكلين واديسون .

ولست أذكر على التحقيق متى سمعت لأول مرة باسم فرنكلين واسم اديسون ، ولكننى أذكر جيدا أننى لم أعرفهما من كتاب أو من دراسة علمية ، وانما سمعت بهما من موظف فى التلغراف شديد الاعجاب بهما ، على أثر حادث من حوادث المصادفات ، تناولته الصحف بالتعليق السياسى فى ذلك الحين ، ولم تعره شيئا من الاهتمام من الناحية العلمية .

كان ذلك الحادث ، على ما أذكر الآن ، سقوط صاعقة على بناء مجلس الوزراء ، وكنت لا أزال يومئذ فى بلدتى أسوان لم أبرح مدرستها الابتدائية ودار الحديث عن الصاعقة وعن التعليقات السياسية عليها ، وتحدث الموظف بالتلغراف من جيراننا عن رجل يسمى فرنكلين ورجل يسمى اديسون : كلاهما عامل صغير بدأ حياته بالعمل اليدوى فى الصحافة ثم اخترع باجتهاده أكبر المخترعات فى الكهربا ، ثم جرى — فى شىء من اللغط المبهم — ذكر عمود الصواعق وذكر الفنغراف ، وفضل العاملين الصغيرين فى كل من هذين الاختراعين .

وقام بذهنى أن أصنع مثل هذا الصنيع يوما من الأيام ، فلم أزل حتى دخلت مدرسة (الصنائع) فى نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمـرى ، وشعرت يومئذ كأننى أفسر حلما قديما كاد يذهب بين

الوعى والنسيان ، وكاد فرنكلين اذن يتوجه بحياتى وجهة غير وجهتها ، يوم كان اسم فرنكلين يحضرنى مقرونا بالكهربا ولا يحضرنى منه شيء من سيرته الطويلة فى الكتابة والتفكير والسياسة .

ووقع فى يدى بعد ذلك كتيب من سلسلة كبيرة تلخص التراجم والمؤلفات لأعلام النوابغ فى الثقافة الغربية فبدأت به قراءة تلك السلسلة لأنه مكتوب عن صاحبنا القديم فرنكلين .

ومن تحكم الذاكرة أننى أذكر حتى اليوم منظرين من مناظر السيرة التى لخصها ذلك الكتيب الصغير .

أحدهما منظر الطفل الجائع فرنكلين يقضم رغيف الخبز وتترصد له طفلة فى طريقه لا تزال تداعبه وتلح فى مداعبته وتوقع فى روعه أنها تريد أن تخطف الرغيف من يديه ، حتى يوشك أن يبكى من الغيظ الذى لم يكن يكرهه كل الكراهية على ما يظهر !

والمنظر الآخر منظر الحوار بين فرنكلين ورجل من رجال الدين تلقى من يديه عارفة مشكورة ، فاذا هو يشكره بالنيابة عن الله كأنما هو غريب عن الموضوع لا شأن له بين المحسن والمحسن اليه ، ويأبى فرنكلين أن يفوت على الرجل روغانه هـذا من واجب الشكر ، فيقول له انمـا أعطيتك أنت يا أبتاه !

وأقول ان بقاء هذين المنظرين دون غيرهما من مناظر تلك السيرة فى ذلك الكتيب الصغير انما كان من تحكم الذاكرة فيما تأخذ وفيما تدع ، لأننى حين توسعت فى قراءة فرنكلين ، وفى القراءة عنه بعد ذلك ، وجدت فى السيرة الحافلة مناظر لاتحصى مما يصح أن يعلق بالذاكرة ويغطى على منظر الرغيف المهدد ومنظر القس الرائغ من الشكران .. ولا أحسب ، على هذا ، أن أظلم الذاكرة كل الظلم ، فلعل هذين المنظرين يجمعان من فرنكلين فى نفس القارىء الشاب ، ما لم يجتمع من منظرين غيرهما فى الكتيب الصغير .

وقرأت بعد ذلك كثيرا من فرنكلين وعن فرنكلين ، ولم أنس قط أنه كاد يوجه حياته وجهة أخرى فى يوم من الأيام .

ثم دخلت السجن ودعوت بكتاب أتعلم منه اللغة الفرنسية بغير معلم، واخترت القراءة فى الجزء المخصص للمطالعة قبل الجزء المخصص للأجرومية ، فلم أقلب من الكتاب صفحة بعد صفحة حتى التقيت بصاحبنا القديم فرنكلين فى الصفحة الرابعة والسبعين من الكتاب (١) .

والقصة قصة اللقاء الأول بين فرنكلين والعالم الفلكى الفرنسى الكبير دى بايلى De Bailly ، وهى أعجب ما قرأت من نوادر هذا الرجل العجيب .

« فرنكلين مندوب المستعمرات الأمريكية الثائرة على الوطن الأم ، وفد الى باريس سنة ١٧٧٧ ، ورأى الفلكى دى بايلى من واجبه أن يزور الأمريكى النابه ، فاستقبله فرنكلين بترحاب غاية فى المودة وبادله بضع كلمات من التحيات التى تتبادل فى مثل هذا المقام ، وجلس بايلى على مقربة من الفيلسوف الأمريكى وترقب بكل عناية ما يفوه به من الأسئلة، وانقضى نصف ساعة وفرانكلين لا يفتح فمه ، وأخرج بايلى علبة السعوط وقدمها الى جاره دون أن ينبس بكلمة ، فأشار فرنكلين بيده اشارة معناها أنه لا يتعاطاه ، واستمرت هذه المساجلة الصامتة ساعة كاملة ، فنهض دى بايلى واستعد للانصراف ، وبدا على فرنكلين كأنه فرح بلقاء فرنسى يستطيع أن يلوذ بالصمت ويمسك لسانه ، فأخذ بيده وشدها شدة حميمة وهو يقول فى حماسة بينة : حسن جدا ياسيد بايلى، حسن جدا، وتوثقت بينهما المودة بعد ذلك فأصبحا من خيرة الأصدقاء » .

ولم أكد أصدق ما قرأت ، واتهمت جهلى بالفرنسية فاختلست فرصة

---

(١) Hugo French Readings Simplified

من فرص السجن أعرضها فيها على زميلنا الأستاذ حسن النحاس ، فقال لى : التى فهمت منها الصواب .

ان موضـــع العجب فى القصة أن فرنكلين لم يشتهر فى مجالسه بشىء كما اشتهر بلباقة الحديث والسمر وأفانين الكلام المستحب بين الجـد والفكاهة ، فما الذى ألجأه الى ذلك الصمت مع العالم الفرنسى الكبير ؟

لا أعلم ، ولم أجد من سيرته مع هذا العالم أو مع غيره ما يجلو لى سر هذه « الصمتة » الغريبة ، ولكننى عرفت منها حقيقة لا ريب فيها : عرفت منها أن هذا الرجل يستطيع أن يشيع من حوله جو المحبة والمودة وأن يمحو من ظن جليســـه كل احتمال للجفاء والفتور ، ولولا ذلك لانصرف العـــالم الفرنسى من حضرته وهـــو عـــدو مبين ، ولم ينصرف — كمـــا قالت القصـــة وقال التاريخ — صـــديقا من أخلص الأصدقاء المقربين .

ثم حان الأوان وشرعت فى كتابة هذه السيرة وأنا أحس كأننى جددت الصلة الفكرية بصاحب قديم ، وتبينت من مراجع السيرة كلما أمعنت فى تصفحها أنها بنت أوانها ، اذا كان لكتابة السير أوان مفضـــل عـــدا ما تستحقه كل سيرة من التسجيل والتحليل .

فنحن فى عصر التجزئة والتفتيت أحوج ما نكون الى مثـــال كامل لانسان لم يمزقه التخصص شلوا شلوا بين شواغل العقل وشواغل الحياة .

ونحن فى عصر الطغيان على « الشخصية » الفردية أحوج ما نكون الى مثال من غمار الناس لم يستغرقه الغمار ولم يمسح ملامحه المتميزة بين أمواج التيار .

ونحن فى عصر النبوغ العصـــامى نحتاج الى عظمة تقرب العصامية لمن يهابها وتيسر القدوة لمن تروعه هالات العظمة فى أعلام التاريخ فيحجم عن الاقتداء بها ويحسب نفسه من غير معدنها .

فالعظمة فى هذا العصامى من « طينة عامة » حيثما واجهتها كما قال فيه أصدق مترجميه . الا أنك تواجهه من جهات شتى فتلمح فى كل منها تلك العظمة التى تحسبها من الطينة العامة ، وتعرف كيف تكون العظمة الانسانية أحيانا « كالسهل الممتنع » فى بلاغة البلغاء ، يغريك بالمحاكاة والاقتداء ولا تعرف كيف يمتنع عليك الا وقد تمكن منك الاغراء .

وفيما لقى هذا الرجل العظيم من العرفان تشجيع أى تشجيع .

وفيما لقى هذا الرجل من الانكار عزاء أى عزاء ، وربما كان العزاء من سير العظماء أجدى وألزم من التشجيع .

لقد كرمته معاهد العلم فى أمم الحضارة بأشرف ألقابها ، وعرفت له أمته مآثره فى جهاده فاستقبلته كما يستقبل الفاتحون ، ومحضته من الاكبار والاعجاب ما يبسط العذر للحاسدين . فلا عذر لمن يحسد هذا الرجل الا أنه استحق الحسد بفرط ما استحق من اكبار واعجاب .

ولو أن عظيما بين أبناء آدم وحواء ينجو من الحسد لنجا منه هذا العظيم الذى غض من كبريائه باختياره فلم يدع فيه بقية لمن ينكر عليه الكبرياء ، ولو أنكر عليه عرفان العارفين بالقدر الكبير .

مات ولم يشكره مجلس الأمة الذى كان له فيه أنداد وزملاء ، ولبس عليه الحداد مجلس الأمة الذى لم يعرفه الا بالسماع . مجلس الشيوخ يضن عليه بالشكر ومجلس النواب يلبس السواد ثلاثين يوما حزنا عليه .

لعله لو لم يحسد هذا الحسد لقيل انه لم يبلغ من عرفان قومه غاية ما يستطاع .

واليوم وقد أخذ الفناء ما أخذ ، وأبقى الخلود ما أبقى ، لا يضار المحسود بما أصابه كما يضار الحاسد بما أصاب ، ولو كتب لفرنكلين أن يعود الى الدنيا كما تمنى أن يعود كل مائة عام ، لما تمنى — بخبرة الحياة والموت — أن يتبوأ من دنياه مكانا أرفع مما تبوأه بعمله وذكراه .

عباس محمود
العقاد

سن ياتسن أبو الصين

دار الكتاب اللبناني - بيروت



سن ياتسن
(أبو الصين)

كلمة عن كلمة

يسمى سن ياتسن بأبي الصين

ويحق لأبناء الصين الحديثة أن يلقبوه بهذا اللقب . لأنه في الحق قد ولد الصين ولادة جديدة . فهو أب لها بكل معاني الأبوة الروحية .

ومن فضول القول أن نقول إن الولادة الروحية هي ولادة فكرة ، ولعلها فكرة واحدة تنطوي فيها جميع الأفكار .

وفكرة سن ياتسن التي ولد بها الأمة الصينية مولداً جديداً هي هذه الكلمة التي جعلناها تحت عنوان الكتاب .

هي : ما أسهل العمل ، وما أصعب الفهم .

أو هي في صيغة أخرى من صيغها إن العمل سهل ، وأما الصعب فهو فهم ما تعمل .

كانت الصين كلها تقول غير هذا قبل قيام هذا الزعيم بدعوته

كانت تقول نقيض هذا من طرف الى طرف ، فالصعب عندها هو العمل ، والسهل عندها هو الفهم ، وما يتبعه من شروح .

وكانت حكمتها الخالدة : ما أسهل الفهم ، وما أصعب العمل ، أو ما أسهل الكلمات وما أصعب الأعمال .

ومن الكلمات ما يلخص حضارة كاملة .

وأصدق ما يكون ذلك على الحضارة الصينية : تلك الحضارة التي قامت على تقديس الأسلاف وتوارث الحكم من أفواههم أحقاباً أحقاباً ، وأعقاباً بعد أعقاب .

وقد تلخصت حضارة الصين كلها في طلب المعرفة .

وتلخصت المعرفة كلها عندهم في طلب الدعة . فلا شيء أدل على الحكمة وعلى المعرفة من إعفاء النفس من الجهد الذي لا يجدي ، وأي جهد يجدي في عالم لا يتغير ولم يتغير منذ ألوف السنين : حرب بعد حرب ، وعرش يسقط وعرش يقوم ، وحال تتداولها الأيام على وتيرة واحدة ، وشرور معروفة تذهب وتعود . وعمل معروف النتيجة آخر المطاف ، ونتيجة الأمس هي نتيجة اليوم ونتيجة الغد ، ووراءك الماضي مكشوف للنظر إن كان المستقبل أمامك غير مكشوف .

ولقي أبو الصين العنت الأكبر من تلك الحكمة الموروثة ، حكمة الإيمان بصعوبة العمل وقلة جدواه ؛ فكلهم يقول إذا لقيهم شارحا لهم مصائب وطنهم : نحن نفهم ما تفهم يا صاح . نحن نود أن نعمل لو تيسر العمل ، ولو كان بالعمل جدوى ، ولو كان كل ما هنالك أننا نفهم مصائب هذا الوطن المسكين .

إليك عنا يا صاح : ما أسهل الكليات وما أصعب الأعمال .

فلما جاهد الرجل جهاده كانت علامة نجاحه الأولى ، بل علامة نجاحه الكبرى ، أنه وجد من الأعوان أناساً يؤمنون بسهولة العمل متى فهموا ما ينبغي أن يعملوا، ثم عمل شيئاً ولا شك، وإن لم يعمل كل شيء . ولكن الذي عمله لم يكن إليه سبيل لو ظل الناس يرددون حكمتهم القديمة في الفهم اليسير والعمل العسير .

وأسهب الرجل غاية الإسهاب في الفهم . أسهب غاية الإسهاب ، وفصل غاية التفصيل ، ووهم من يسمعه أو يقرأه أنه لا يحسن إلا أن يفهم ويعين التفهيم ، وأنه غارق في الأحلام ، غارق في بحار من الكلام ، وهكذا وصفه الذين عاهدوا أنفسهم ليصغرن كل كبير من بعض نواحيه ، فعابوه بأنه « حالم » . . . ولو أنهم بحثوا عن عظمة له أعظم من أحلامه لما وجدوها ، بل لو أرادوا أن يتخيلوا عملا له بغير الحلم لما استطاعوا أن يتخيلوه .

إن سن ياتسن قد بدأ عمله بالدعوة الى إسقاط أبناء السماء .

فلو لم يكن حالماً كيف كان يخطر له هذا العمل على بال ؟

إن أبناء السماء كانوا يحكمون أربعمائة مليون من النفوس الآدمية ، وكان لهم أعوان من الدول الكبرى يأبون أن يسقطوهم ، لأنهم عاهدوهم على تسليم الغنائم والمزايا ، وعلموا أن سقوطهم ضياع لكل غنيمة وكل مزية ، فمن كان ينهض لإسقاط هؤلاء فهو يحلم ، ولو لم يكن قادراً على هذا الحلم لما كان قادراً بعد ذلك على عمل .

وهذه هي عظمة الرجل !

وبهذا يعاب عند الذين يجهلون كيف يعيبون ، ولكنهم مع هذا يعيبون ، لأن العيب سهل . أما العسير حقاً فهو التعظيم والتقدير . !

وسقطت أسرة ابناء السماء في حياة الرجل ، فمن شاء ان يقول إنه عامل جد عامل فقد صدق . ولكن العمل والحلم سواء عند القادرين على هذه الأعمال ، وعلى هذه الأحلام .

وما استطاع الرجل أن يعمل هذا العمل إلا لأنه استطاع ان يوقع في الأذهان أن العمل سهل متى فهموا ما ينبغي ان يعملوه .

ولعلهم لم يفهموا كل ما أراد ، ولم يعملوا كل ما كان ينبغي أن يعملوه ، فصح بذلك دعاؤه الأول والأخير . إن الفهم عسير جد عسير .

لقد كان سن ياتسن حالماً حقاً ، ولو لم يكن حالماً حقاً لما كان له عمل في قومه . وفي هذه الصفحات تفسير حلم عظيم لأنه حلم رجل عظيم ، استطاع أن يحلم لأمة كاملة حيث لم تستطع قبله أن تحلم لنفسها ، وقلما استطاع أحد أن يحلم لأمة كاملة الا كان له في تاريخها عمل خالد وأثر مقيم .

الصين

لمحة تاريخية

وهذه اللمحة التاريخية التي نقدم بها سيرة زعيم الصين إنما هي اشارة اتجاه من العصور القديمة الى العصر الذي عاش فيه الزعيم ، نرسمها سريعاً بمقدار ما تلزم لتوضيح عمله وابراز دواعيه ، ولا نقصد بها أن نحيط بالتاريخ كله مفصلا أو مجملا ، لأن الإحاطة بتاريخ الصين ـ ولو بمجرد سرد العناوين الكبيرة ـ عمل يستغرق المجلدات الطوال .

واهم اشارة من إشارات الاتجاه أن الصين وحدة وطنية لا نظير لها في العالم ، خلافاً لما روجته سياسة الاستعمار في القرن التاسع عشر لتسويغ قسمتها بين الدول الطامعة فيها . فقد كان الساسة المستعمرون يقولون كلما احتجت حكومة من حكومات الصين على اقتطاع جزء منها أن سيادة الأمة الصينية لا وجود لها ، لأن البلاد التي يطلق عليها اسم الصين إنما هي اصطلاح جغرافي لا يشتمل على سيادة وطنية واحدة .

ولا يصدق هذا القول على الصين الصميمة حتى من الوجهة الجغرافية ، لأنها في الواقع بلاد ذات وحدة جغرافية بينة وحدود أرضية فاصلة ، يكفي ان يخترقها المهاجر ليقال إنه دخل من بلاد الى اخرى وانه يقتحم ارضاً لا تستباح بغير اقتحام .

فمنذ اقدم العصور وجدت الصين الصميمة التي تحيط بها الجبال والسهوب والأنهار ، ووجدت فيها الأرض التي تصلح للزراعة والأرض التي تجاورها غير صالحة للزراعة ولكنها صالحة للمرعى والصيد ، يسكنها أهل البداوة الذين يعتمدون على اهل الحضارة ويلازمونهم ملازمة الجوار ، وإن كان جواراً يجور فيه أحد الفريقين على الآخر حيناً بعد حين ، حسب تقلب الأحوال بين الخصب والجدب والرواج والكساد .

وأقوى من الوحدة الجغرافية في تكوين الوحدة الوطنية وحدة السلالة القومية ، وأقوى من الوحدتين جميعاً وحدة التاريخ المتصل والثقافة المتشابهة ، ولم تجتمع هاتان الوحدتان لأمة من الأمم كما اجتمعت لأمة الصين .

فإذا صرفنا النظر عن قبائل الاصلاء الذين يتفرقون هنا وهناك فالصينيون جميعاً من سلالة واحدة هي السلالة المغولية ، ومقامهم بتلك البقاع يرجع الى العصر الحجري الأول ، بل يرجع الى عهد انسان بكينSinanthropus الذي عثر عليه الحفريون بجوار بكين وزعم بعضهم انه هو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ، وقدروا أنه عاش في تلك البقاع قبل مئات الألوف من السنين ، فإنهم يقولون ان في السلالة المغولية مشابه من انسان بكين في خصائص الجمجمة والأسنان لا توجد عامة شائعة بين جميع السلالات البشرية ، وأن الجنس المغولي قريب اليه لأنه تطور منه مباشرة في مدى التاريخ المجهول .

وقد أسلفنا ان وحدة التاريخ والثقافة أقوى من وحدة السكن والسلالة . لأن اختلاف التاريخ والثقافة قد جعل من السلالة المغولية الواحدة شعوباً متفرقة يعادي بعضها بعضاً ويتعالى بعضها على بعض تارة بصفات الحضارة وتارة بصفات الفطرة والفروسية .

فالجنس المغولي الذي أقام في البلاد المخصبة بين غرب الصين وجنوبها قد شملته ثقافة واحدة منعزلة بين ثقافات الأمم الإنسانية حيث كانت من امم الشرق والغرب أو أمم الشمال والجنوب . فلا توجد لغة كاللغة الصينية ولا كتابة مثل كتابتها ، ولا تشبه هذه اللغة فروعاً من اللغة المغولية الأخرى كاللغة التركية او لغة القبائل في آسيا الشمالية . فهذه الفروع تتولد فيها الكلمات بالملصق والإلحاق ، ولكن اللغة الصينية يتوقف فيها معنى الكلمة على ترتيبها في الجملة وعلى اختلاف نغمتها الصوتية ، وكتابتها كذلك كتابة رمزية صوتية وليست كغيرها من الكتابات التصويرية أو المقطعية الحرفية .

هذه الوحدة الثقافية تساندها الوحدة التاريخية في عصور بالغة في القدم . فإن تاريخ الصين الصميمة واحد منذ تلك العصور التي يتداخل فيها الزمن

المجهول والزمن المعلوم . بل هو واحد قبل أن تصبح أقطار الصين دولة متحدة . فإن وحدة الدولة ووحدة التاريخ شيئان مختلفان . فإذا شمل التاريخ عشرة أقطار ينازع بعضها بعضاً فذلك تاريخ واحد ، وإذا توحدت الدولة وتعاقبت عليها ثقافات متعددة فتلك عدة تواريخ .

وقد مضى تاريخ الصين القديمة على وتيرة واحدة بثقافة واحدة ، حتى في الطوارىء العارضة على حكومتها حقبة بعد حقبة . فإنها يشبه ان تكون دورة واحدة تتكرر على نسق واحد ، فلا يشعر الناس بالغرابة عند قيام دولة وسقوط اخرى ، لأنها تجري على النحو الذي تعودوه وانتظروه وتوارثوا رواية أخباره حتى كاد ان يتساوى فيها العلماء والجهلاء .

تقوم الدولة حتى ينهكها الترف وسوء الحال في الرعية ، فتسقطها ثورة من تلك الرعية او غارة من أهل البداوة المحيطين بها على تربص الطامع الذي ينتهز الغرة ، وهكذا تتعاقب الحكومات الوطنية وغير الوطنية ، فما قام به ثائر من الرعية فهو حكم وطني ، وما قام به مقتحم من الشمال أو الغرب الجنوبي حيث تحوم القبائل المتربصة فهو حكم اجنبي ، وتكررت علامات السقوط حتى اصبحت من العلامات التي يسهل التنبؤ عنها قبل وقوعها ، فما استقرت قط حكومة حاربها الأساتذة والفلاحون ، وما سقطت قط حكومة أيدها هؤلاء وهؤلاء . لأن الأساتذة هم ملاك الدواوين والإدارة في تلك الأقطار الشاسعة ، والفلاحين هم الطاعمون المطعمون ، فإذا تعطلت الدواوين وتعطلت موارد العيش فلا بقاء لدولة قائمة ، وإذا انتظمت الدواوين وطعم الفلاح وأعطى الشعب طعامه فلا ضير على الدولة القائمة وإن عدا عليها المغير من خارجها ، فانها تدفعه فلا يشق عليها دفعه عن أرض لا عون له فيها .

قام على حكم الصين على هذه الوتيرة نحو عشرين أسرة ، من عهد السادة الخمسة الى عهد أسرة المانشو التي سقطت في سنة ١٩١٢ وقامت على آثارها الجمهورية .

ولكن الصين لم تحكمها دولة واحدة الا في عهد الأسرة الرابعة وهي اسرة

شو التي تولت الحكم من سنة ١١٢٢ الى سنة ٢٢٥ قبل الميلاد ، ولم تتمكن من توحيدها الا قبيل سقوطها بزمن وجيز ، ومن نقائض التاريخ ان هذا التوحيد قد مهد لسقوط الأسرة من حيث لا تحتسب ، لأنها وزعت نبلاءها على الأطراف ليحكموها ويصدوا غارة المغير عنها ، ونجح هذا التوزيع في أيام قوة الدولة وقوة العاهل الأكبر ، لأنه كان يدعو اليه الولاة كل سنة ليحاسبهم على أعمالهم في ولاياتهم ، وكان يخرج للطواف كل خمس سنوات على جميع الولايات . فانتظمت الدولة وكانت هيبتها في نفوس الكبار والصغار زاجراً للولاة ومهيمناً على سيرتهم الظاهرة والباطنة في أقصى الأطراف .

فلما ضعفت الحكومة المركزية زادت في ضعفها جرأة الولاة عليها ، فوثبت على العرش أسرة جديدة هي اسرة شين ، وافتتحت عهدها بالقضاء على نظام الاقطاع ، وخطر لعاهلها القوي « شين شيه هوانج تي » أن يستعيض من قوة الولاة في الأطراف بقوة الحجر والقرميد ، فبنى حائط الصين المشهور لصد الغارات عنها من الثغرات المفتوحة ، وبالغت هذه الأسرة في تعقب البقايا المتخلفة من الماضي حتى امرت باحراق الكتب وتحريم النظر فيها ، وقيل في وصف سياستها العجيبة انها أقامت سوراً بين الماضي والمستقبل كما اقامت سوراً على مواقع الأرض بين الصين وجيرانها .

ثم تعاقبت الأسر على هذه الوتيرة ، تارة على اتصال وتارة على انفصال تتخلله الثورات وتنقطع فيه علاقة الولايات بالحكومة المركزية ، وقد تبقى الأسرة المغلوبة مسيطرة على بعض الولايات والأسرة الجديدة قائمة بالحكم في العاصمة الكبيرة ، حتى كانت أسرة « منج » ختام الأسر الوطنية في بكين (١٤٠٣ - ١٦٤٤) وكانت أسرة المانشو فيها ختام الأسر الأجنبية (١٦٤٤ - ١٩١٢) .

***

هاتان الأسرتان هما الأسرتان الحديثتان اللتان ادركتا العصر الحديث من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين ، وفي عهديهما اتصل الغرب بالصين ونشأت العلاقات بينها وبين الحضارة الأوربية ، سواء من جانب السياسة أو من

جانب الثقافة .

ولكنها على حداثتها تعتبر كل منها نموذجاً لأمثالها من أقـدم العصـور ، قيامها كقيام غيرها من الدول الوطنية أو الدول الغربية التي طرأت على البلاد من الشمال او من الغرب الجنوبي ، منذ الوف السنين ، ومحاسنها كمحاسن تلك الأسر الخالية ومساوئها كمساوىء تلك الأسر، بلا اختلاف بين السابق واللاحق كانما وقف الزمن عن التقدم والتغير من الأسرة الأولى الى الأسرة الأخيرة قبل الجمهورية .

وكل ما سجله التاريخ من الوقائع او الأساطير فقد تكرر في كلتا الأسرتين على قرب العهد بنشأة الثانية منهما او الأولى ، بالقياس الى الدول التي تقادمت عهودها قبل الميلاد او بعده ببضعة قرون .

كانت أسرة يوان التي سبقت اسرة منج مغولية من أرض الشمال ، فنبتت بذور الثورة عليها في الجنوب ، وانتشرت الدعوة المعادية لها على يد جماعة البشنين الأبيض ، وهي جماعة سرية تنتحل الصبغة الدينية لمداراة اغراضها السياسية ، وكان زعيمها يدعي ان بوذا نفسه عائد الى الدنيا لاقتلاع جذور الأجنبي الغاصب ، وأنه تلقى الوعد بعودته وحياً من السماء .

ثم جاء الانقلاب على يد « شويوان شانج » ابن الفلاح الـذي جعلته الروايات التاريخية بطلا من أبطال الأمة وكادت روايات القصص الشعبي ان تجعله شخصاً من شخوص الخرافات ، ومن القصص التي يتداولها الشعب عنه انه كان ملحوظاً بالعناية الإلهية منذ صباه ، وأنه كان مدخراً للملك وهو يرعى الماشية لرجل من أصحاب الضياع والكراع ، ومن رعـاية الآلهـة له انـه أولـم لأصحابه وليمة وذبح فيها ثوراً من قطعان مولاه ، ثم غرس ذنبه في الأرض وقال لمولاه حين سأله عنه انه غاص في الأرض وأراه موضع الذنب المغروس ، فلما راح الرجل يجذبه ليظهر بهتان الراعي المختلس ثبت الذنب في موضعه وسمع من باطن الأرض خوار كخوار الثيران .

ويروى عن « شويوان شانـج » هذا انـه تنسـك وتعلـم علـوم النسـاك

والحكماء ، واطلع من ثم على أسرار جماعة البشنين الأبيض ، فقاد ثورتهم وأقام نفسه ملكاً على إقليم « وو » حيث كان يقيم ، فزاحمه على الملك ابن صياد وحشد مراكب الصيد لقتاله ، ولكن الآلهة لم تخذله فقهر مزاحمه واحرق مراكبه في موقعة كبيرة على بحيرة « بويانج » إلى جنوب النهر العظيم ، ثم انهار ملك العاهل المغولي في بكين بعد حملة « شويوان شانج » عليه .

وليس في تاريخ هذا البطل الوطني من غرابة في خبر من أخباره غير القصص الخرافية .

أما ارتقاء راع ابن فلاح الى سرير الملك فلم يكن غريباً قط في مأثورات الصين القديمة والحديثة ، إذ كانت الثورات على الإجمال من قبل الفلاحين والأساتذة ، فإذا اجتمع لابن فلاح علم النساك والحكماء فترشيحه للملك يجري مجرى العادة عندهم في معظم الثورات ، ومن حكمة الصين أن الملك تفويض من السماء ، فمن ملك فهو مختار السماء وابن السماء ولا يعبده قومه كما يتوهم المتوهم من هذه التسمية ، ولكنه ينسب الى السماء لانه مختارها لحكم البشر ، ولا يزال قائماً بالأمر ما دام مختاراً من السماء ، فإذا سقط فتلك آية السماء على نبذه وإبطال اختياره ، ولم يكن نادراً في الصين ان يرتفع العواهل من حضيض الأرض الى عروش ابناء السماء .

وجرى على هذه الأسرة ما كان يجري على الأسر الوطنية او الأجنبية من قبلها ، فازدهرت ايامها على عهود الملوك الفرسيين كلها من ذوي الأيد والحكمة ، ثم آل الأمر فيها الى الخصيان والجواري وسماسرة الشهوات ، فاستبد بالأمر الخصي « وان شن » في عهد ملكها السادس الذي كان يناديه بالأستاذ لأنه رباه من طفولته ، وكان يأمر الرؤساء والعظماء اذا خاطبوه ان ينادوه باسم الأب الجليل ، فطاشت سياسة القصر ووغرت صدور الرعية من الخاصة والعامة ، وعاد المغول الى الطمع في العرش ، ومكنهم منه تقلص الدولة وضياع الأقاليم منها واحداً بعد واحد ، واضطرار ملوكها الى مضاعفة الضرائب لتعويض الخسارة والإنفاق على جيوش الدفاع ، فاتفق الفلاحون والأساتذة كرة أخرى

على خذلان الدولة القائمة ، ولإثبات الدولة في الصين يتفق عليها هؤلاء وهؤلاء .

وطالت المناوشات بين الدولة المدبرة والدولة المقبلة حتى انتهت آخر الأمر بقيام الدولة المانشوية ، واستقر لها الحكم شيئاً فشيئاً مع استمرار المقاومة في الجنوب ، حيث تشتد المقاومة الوطنية دائماً لأنه موطن الصين الصميم ، ولأنه معقل الحضارة على الدوام لما ورثه من الأسلاف وما يستفيده من معاملة الأمم الأخرى التي لا تني ترسل اليه بالسفن والمتجرين يتزودون من موانئه ويحملون السلع من بلادهم اليه .

واتخذت دولة المانشو خطتين مختلفتين في سياسة الجنوب على الخصوص : سياسة من جهة الثقافة وسياسة من جهة العادات والأخلاق . فاجتهدت في اقتباس الثقافة الجنوبية ، لأنها لم تستطع ان تنكر مزية الجنوب فيها ، وأمرت باستنساخ جميع الكتب النادرة فملأت بها خزائن القصور ، وقربت اليها العلماء والمتعلمين للإشراف عليها ومدارستها ، وفتحت لهم أبواب الدواوين يرتقون الى مناصبها بالامتحان جرياً على السنة الموروثة من زمن بعيد .

أما من جهة العادات والأخلاق فقد كانت تنظر الى الشعب الصيني نظرة المترفع المحتقر ، لأنها اعتقدت فيه النعومة والتأنث وضعف المراس ، فحرمت على ابناء الشمال ان يتزوجوا من بنات الشعب او يزوجوا بناتهم لأبنائه ، وفرضت على الصينيين ان يرسلوا ضفائرهم كمايفعل المغوليون ، ودارت الأيام دورتها وعاد الخصيان الى صولتهم وتحكمت جارية بعد جارية في العواهل القاصرين ، وتيقظت النخوة الوطنية بعد حين فرجعت جماعة البشنين الأبيض الى نشاطها الأول ، وقادها في هذه المرة زعيم يتستر وراء الدين ليخفي مقاصده السياسية التي لم تكن واضحة كل الوضوح ، وكانت المسيحية قد دخلت الصين فادعى « هونج » قائد الجماعة انه اخو السيد المسيح ، وحرم الأفيون والخمر وقضى في عقوبة الزنى بالموت ، وعرفت دعوته باسم دعوة « التايبنج تيان كو » اي مملكة السلام السماوية ، فعامله الغربيون المسيحيون معاملة الدجالين لأنهم

لم يقبلوا هذا المذهب من المسيحية ، وعامله الصينيون المحافظون معاملة مارق لأنه يعيب عقائدهم الوطنية ، وجاء المغامر الأمريكي وارد Ward والمغامر الإنجليزي جوردن Gordon في طلب الفتوح المجهولة ، فدخلا في خدمة الأسرة المالكة ودربا لها الجنود المنظمة للقضاء على الثورة ، وتم القضاء عليها بتأييد السياسة الاستعمارية ، لأنها خشيت مغبة انتصار الثورة على بلاط بكين ، ومعه كانوا يعقدون العقود لاستغلال الأسواق والموارد وتثبيت مزايا المعاهدات .

***

كان إخفاق الدعوة الى مملكة السلام السماوية نكبة على الصين في ظاهر الأمر لأنها أطالت اجل الأسرة المالكة التي افسدت البلاد ووقفت وقفة المستيئس العنيد لتحول دون اصلاحها وتبديل أي نظام فيها من النظم العتيقة التي جمدت عليها .

ولكن هذا الاخفاق انما كان نكبة في الظاهر ، نعمة في الواقع ، لأن الصين انما كانت في حاجة الى ثورة يعرف دعاتها ما يعوز البلاد وما يكفل لها السلامة والتقدم ، ولم تكن الدعوة الى مملكة السلام السماوية اهلا لهذه المهمة الضخمة ، بل لعلها كانت نكبة اخرى تخلف النكبة التي ابتليت بها من الأسرة المالكة ، وتستدعي بعد ذلك علاجاً أقوى من علاج الجمهور على القديم .

وكأنما ادخر القدر لهذه المهمة ثورة اخرى تدرك الصين ضرورتها بعد يقظة قاسية من فعل الحوادث تفتح عيونها وتلمسها بأيديها مواضع العجز والقصور منها ، وتلك هي ثورة « سن ياتسن » الذي لقب حقاً بأبي الصين الحديثة .

إن تاريخ هذه الأمة الكبيرة حافل بالعبر التي تكاد تغني عن عبر التاريخ كله ، وأولها عبرة الثقافة المستقلة .

فالثقافة المستقلة قوة ومفخرة ، والثقافة المستقلة ضعف ومهانة ، وفي التاريخ أمثلة كثيرة على هاتين الحقيقتين ، ولكن ليس منها مثال اجسم ولا اجلى من مثاليهما في تاريخ الصين الحديث .

كانت امة مستقلة الثقافة ، وكانت تفخر بهذا الاستقلال ويحق لها ان

تفخر به على من حولها ، لأنها لم تكن ترى حولها غير الهمجية والبربرية والجلافة والجهالة ، وكانت هي قد كشفت الإبرة المغناطيسية والورق والمطبعة والبارود وصناعة الحرير والأنسجة والعملة الورقية وملأت خزائن الكتب بتصانيف الحكمة والمعرفة وآداب السلوك ، وكان كل من يغشاها من الخارج يعزز رأيها ويزيدها احتقاراً لغيرها واغتراراً بمناقبها وفضائلها ، ومن جاءها زائراً من أهل الاطلاع والاستطلاع لم يجد فيها علماً أرفع من علم بلاده وعاد وهو يعجب بها كما تعجب بنفسها .

وظلت على هذه الثقة بارتقائها فظلت هذه الثقة قوة لها وحقاً صحيحاً من حقوقها .

فلما جمدت ثقافتها لاستقلالها بنفسها ، وتقدمت ثقافات الأمم الأخرى لتجاوبها وتنازعها واخذ المتأخرين من المتقدمين فيها - صارت الحال بها الى نقيضها ، وأصابها من تلك الثقة كل سوء تخشاه ، وهي لا تعلم مبعثه ومأتاه .

ترفعت عن التعلم من غيرها ، وجاءها الرحالون الغربيون من طلاب الغنائم والفرص فشهدت من أخلاقهم ما لا يشجعها على محاكاتهم والاقتداء بهم : غش وإسفاف وعربدة وتهالك على المنفعة ورضاً بالدنس طمعاً في الغنيمة وغلظة تبدو للصيني المهذب على الخصوص ، لأنه عاش على آداب السلوك وجعلها قوام الأدب كله وشرط الحضارة الأول في كل انسان على نصيب من الكرامة .

والى هنا كانت على حق في اغترارها بثقافتها واستقلالها بعلومها ومعارفها .

ولكنها شهدت الى جوار ذلك ما يوقظ نائم الكهف لولا ان نوم الغرور اثقل من نوم الكهوف .

شهدت على مقربة منها في الهند شركة تجارية تدك عروش الدول العريقة بسلاح البارود الذي هي كشفته وهي اولى باستخدامه .

وشهدت فئة من سياح البرتغال في ارضها تستخدم المدفع فتهزم به الجموع

الكثيفة المتألبة عليها .

وشهدت بعد ذلك معارك لم تغن فيها الشجاعة ولا العدد أمام هذا السلاح .

وكان قليل من هذا كله كافياً لإقناعها بضرر اكتفائها وقناعتها بما عندها ، وايقاظها للخطر المحدق بها من أقرب الجهات وأبعدها .

ولكن نوم الغرور كما قلنا أثقل من كل نوم ، وبخاصة غرور ذوي السلطان الذين لا يقال لهم الا ما يحبون ان يسمعوه .

فبلغت الحضارة الغربية اوجها وهم غافلون عنها .

ولبث عاهل بكين يؤمن في قرارة نفسه بأنه عاهل العالم كله ، وان ملوك العالم كله اتباع له وعيال عليه ، لا يثنيه عن اخضاعهم عنوة الا ان الأمر مفهوم بالبداهة لا يستحق المشقة ولا يرجى من ورائه غنم جديد .

والى نهاية القرن الثامن عشر كان عاهل بكين « شيان لونج » يعتقد ويقول ان بلاده في غنى عن العالم كله ، وان العالم كله مفتقر الى بلاده ، وكتب الى جورج الثالث ملك انجلترا حين خاطبه في تبادل العلاقة التجارية « ان مملكتنا السماوية تحتوي كل شيء في وفر وغزارة ولا تحتاج داخل حدودها الى مطلب من خارجها ، فنحن في غنى عن جلب المصنوعات من البلاد البربرية بديلا من مصنوعاتنا ، ولكن الشاي والفخار من مملكتنا السماوية مطلب لازم للأمم الأوربية ولكم . . . » .

وكتب اليه جواباً على خطاب آخر : « ان مملكة جلالتكم في مكان سحيق وراء البحار ، ولكنها تدرك واجباتها وتعمل بالقوانين ، ولما كنتم من ذلك المكان السحيق تبصرون مجد دولتنا وتعجبون في احترام وتوقير بكمال حكومتنا ، فقد انفذتم الينا بالكتب والرسائل للنظر فيها ، ونحن نرى أنها مملاة بما ينبغي من روح الإعظام والإكرام ، ونرغب من أجل هذا في قبول ملتمسكم وإجابة أمانيكم ، ونقبل كل ما أرسلتموه من هداياكم . أما رعاياكم الذين تعودوا منذ

سنوات ان يتجروا مع مملكتنا فنود ان نقول لكم إن مملكتنا السماوية تشمل بالإحسان والعطف جميع الأفراد والأمم وتلاحظ رعاياكم بعين السماحة والرأفة ، فلا محل إذن لما تطلبه لهم حكومة جلالتكم . . . » .

ولما أراد السفير الإنجليزي اللورد مكارتني ان يرفع اوراقه بنفسه الى عاهل بكين في عاصمته قيل له استكباراً لوقوف امثاله في حضرة ابن السماء ان تسليم الأوراق للوزراء فيه الكفاية ، فلما الح وعاود الإلحاح قيل له انه لا يؤذن لمثله بالوصول الى العاهل الا اذا سجد امامه ولمس الأرض بجبهته تحت قدميه ، وطالت المفاوضة واستخدمت الرشوة والترضية حتى سعى رجال البلاط في إتمام المقابلة والاكتفاء من السفير بالركوع أمام ابن السماء كما يركع أمام مولاه ، وقيد السفير في موكب رفعت عليه الأعلام ونقشت عليها عبارة معناها أنه سفير من ملك اجنبي وفد على ابن السماء لتقديم الجزية ورفع فروض الطاعة الى سدته السماوية .

وانقضى قرن على هذه المراسلة وبلاط ابن السماء مصر على عقيدة « الاكتفاء » مؤمن بأن الصين في غنى عن العالم كله بما تحتويه بين حدودها ، فلا يفيدها العالم بثقافة ولا حضارة ، ولا تجمل بها غير سياسة واحدة وهي سياسة العزلة والمقاطعة ، وبلغ من التشدد في اتباع هذه السياسة ان الذي يعلم أجنبياً لغة الصين أو كتابتها كان يعاقب بالموت ، وأن الذي يوجد لديه شيء مستورد من الخارج يتعرض لعقاب الخائن المتهم بالمروق .

كان هذا هو الوهم الذي جمدت عليه أمة الصين ، ولبث البلاط جامداً على هذا الوهم بعد ان زالت غشاوته عن أعين المصلحين المخلصين .

كانت الصين في حاجة الى شعور يناقض هذا الشعور ، كانت في حاجة الى من يعلم أنها محتاجة الى غيرها في كثير ، وأن آفتها من جمودها على حالها واكتفائها بما عندها ، وكانت الثورة باسم مملكة السلام السماوية صرخة مريض ولم تكن وصفة طبيب ، فلما سكنت خيل الى الكثيرين أن المريض ميت بعلته ، ولكنه في الواقع كان ينتظر ثورة اخرى تجمع بين صرخة المريض ووصفة

الطبيب ، وتلك هي ثورة سن ياتسن باسم السيادة القومية ، وجاءت هذه الثورة ترياقاً صادقاً لأنها لمست الآفة في مكانها : آفة الاكتفاء يداويها العلم بالحاجة الى كل شيء من الحضارة الحديثة .

الصدمة

كانت الصين كما تقدم مستريحة الى كفايتها وعزلتها .

وكانت على خطأ مزدوج في هذه الراحة الموبقة ، فلا هي مكتفية ولا هي قادرة على العزلة ، ولو أنها شاءت ان تعتزل العالم لم يشأ العالم أن يعتزلها ، فهي طالبة مطلوبة من حيث تجهل ما تطلبه وتجهل ما يطلب منها .

وكل صدمة كانت قمينة بإيقاظها من تلك الغيبوبة السادرة فهي خير وبركة ، أياً كانت عواقبها وأياً كان الثمن الذي تشتري به تلك اليقظة .

فلم تكن هناك عاقبة أشأم من بقائها على غفلتها والعالم يتقدم من حولها ويتحفز لابتلاعها .

نعم . لم تكن مطامع الدول المستعمرة نفسها اشأم من راحتها ومن غفلتها .

فقد شاء حسن الحظ لهذه الأمة الكبيرة أن المطامع فيها كثيرة متعددة ولولا ذلك لضاعت في جوف دولة او دولتين ، وتأخرت يقظتها زمناً بعد القرن التاسع عشر ، وربما مضى القرن العشرون وهي ضائعة عاجزة عن الاستقلال بسيادتها .

كانت مطمع الدول القريبة والبعيدة ، فعلى مقربة منها اليابان والولايات المتحدة وروسيا القيصرية ، وبعيد منها إنجلترا او فرنسا وسائر الدول التي في غرب القارة الأوربية ، ولكنها كانت قريبة منها بمستعمراتها في آسيا الجنوبية وما جاورها .

وكل هؤلاء كانوا يطمعون فيها .

وهذا الذي أنقذها وجعل الصدمة أنفع لها من الراحة الموبقة والغيبوبة السادرة .

فهي اكبر من ان تلتهمها دولة واحدة ، والطامعون فيها أكثر من أن يتفقوا على تقسيمها ، وأنفع لهم أن يتفقوا على سلامتها ويقنعوا باستغلال مواردها ما استطاعوا ، وهو ما سموه بعد ذلك بالباب المفتوح ، وقدروا يومئذ أنه باب مفتوح للدخول وحسب ، ولم يقدروا أنه كذلك مفتوح للخروج .

كان من الواجب للصين أن تصطدم بالواقع وقد اصطدمت بالواقع صدمة كبيرة ، ولكنها لم تكن أكبر منها ولم يكن شرها أكبر من شرور الكفايه التي كانت مخدوعة بها ، أو شرور الراحة التي كانت سادرة فيها .

لم يكن ساسة الصين يجهلون العالم الخارجي او يجهلون وجود القارات الأخرى ، وكثيراً ما فرق السياح على قصر ابن السماء وحدثوا القوم عن بلادهم وأقوامهم حديثاً يشوق ويعجب ، ولكنه لا يهم ولا يزعج ، وغاية ما يثيره في النفس أنه كان كالقصص التي يسمعها الأطفال عن الأمم النائية ما كان منها موجوداً حقاً أو كان من صنع الخيال وأكاذيب الرواة .

وكان ابناء السماء ينهزمون احياناً ولكنهم كانوا ينهزمون أمام ابناء سماء آخرين .

وربما انهزم جيش من جيوشهم في وقعة مع الدول القريبة ، فلا ينتهي خبر الهزيمة الى أقصى البلاد ، ولا يقع من نفوس السامعين له إلا كموقع الهزيمة التي يمنى بها الشرطة في كفاح عصابات المجرمين ، ثم تنهزم العصابة أو تنجلي هاربة الى مأمنها ، وتجري الأمور بعد ذلك في مجراها القديم .

ويظل ابن السماء ملكاً على كل ما تحت السماء .

ويظل الصينيون أقوى الأمم وأرفعها وأوحدها بوصف الحضارة بين البرابرة والمستوحشين .

ولم تنقطع سفن التجار عن موانىء الصين الجنوبية والشرقية منذ عرف

الناس فن الملاحة ، فلما وفد على تلك الموانىء تجار الغرب في القرن الثامن عشر وما بعده لم يكن هنالك ما يستغربه القوم : أناس يطرقون الأبـواب في طلب القليل من الفتات ، فليأخـذوا ما طاب لهـم صدقـة واحسانـاً من سيد العالم ، وملك القريب والبعيد من البلاد .

إلى أن كانت حرب الأفيون .

فإذا بالواردين على الأبواب يطلبون بل يأمرون ، وإذا بهـم يتكلمـون بأسماء ملوكهم ويناصون برؤوس ملوكهم هؤلاء رأس ابن السماء .

ومن سخرية القدر ان تكون يقظة الصين من حرب الأفيون ، وقد كان وشيكاً أن يدخلها في خدر أعمق من خدر الراحة والغرور .

ولم يكن الأفيون في نشأته آفة صينية كما شاع بين الناس الـى الزمـن الأخير .

فما كان الصينيون يزرعون شجرتهولا كانوا يستخدمون ثمرتهـا في غير العلاج .

ولكن التجارة الأوربية هي التي جلبته الى بلادهم من البـلاد الآسيوية الأخرى ، ولم تفطن حكومة الصين لضرره أول الأمر فسمحت ببيعه وحصلت عليه في موانئها ضريبة الدخول الى ما قبل نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٦) فتهافت عـليه الأغنياء وسرت عدواه الى الفقراء فأقبلوا عليه وبذلـوا فيه ثمـن القوت وفضلوه على ضرورات المعيشة ، فتنبهت الحكومة بعد فوات الأوان وأمرت بتحريمه ومصادرة المضبوط منه في موانئها أو في داخل بلادها ، فعمد التجار الى تهريبه وضاعفوا ثمنه على تجاز البلاد الداخلية وضاعف هؤلاء ثمنه على طلابه ، وقيل إن تجار الموانىء تسلموا من المهـربين في سنـة واحـدة (١٨٣٨) ما قيمته أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات ، وباعوها بأضعاف هذه القيمة الى تجار الريف ومـدخنيه ، وهـي ثروة ضخمـة اذا لوحـظ علـى الخصوص أن المهربين كانوا يتقاضون الثمن فضة خالصـة قبـل تسليمـه في عرض البحر حيث كانت تجرى صفقات البيع والشراء .

وعهدت الحكومة الصينية الى رئيس من رؤسائها مشهور بحماسته في حرب هذه الآفة أن يشرف على شواطىء كانتون ليمنع الوارد منه قبل تهريبه الى داخل البلاد ، وكان هذا الرجل الأمين - واسمه (لين تسي هسو » والياً قبل ذلك على بعض الأقاليم فاشتد في تعقب المهربين والمدخنين وعرف له ربات البيوت اللائي فجعن في أزواجهن وأبنائهن هذا الفضل فكن يحطن به ليلثمن أهداب ردائه حيث وجدنه ، فتابع هذه الشدة في رقابته على الموانىء ، ولم يقنع بهذا بل أطلق جواسيسه على مخابىء هذه التجارة الخبيثة حتى جمع منها ذات مرة ما يساوي مليون جنيه ، فأتلفه علانية على مشهد من الأجانب والوطنيين .

ونشط « لين » في بناء المعاقل والمخافر على الشواطىء والتلال ، وأرسل الى القنصل الإنجليزي يطلب منه أن يسلمه خلال ثلاثة أيام كل ما في المستودعات الإنجليزية من الأفيون المخزون ، وأن يستكتب التجار وثيقة يتعهدون فيها بالامتناع عن توريد هذه البضاعة والا ضرب الحصار على كانتون وأجلى منها كل تاجر لم يوقع على تلك الوثيقة ، فلم يقبل القنصل طلبه وأجاب على هذا الحصار بمظاهرة بحرية على ثغرة النهر الغربي لإغلاقها في وجه السفن التجارية ، ثم اعلنت انجلترا الحرب على الصين والمفاوضات جارية بين الطرفين ، فلم تقو الجنود الوطنية على مقاومة الأسطول وأرسل البلاط يطلب الهدنة ويذعن لشروط الصلح بين الطرفين ، فانعقدت بينهما معاهدة نانكين (١٨٤٢) التي استولت انجلترا بموجبها على هونج كونج وأرغمت الحكومة الصينية على فتح جميع موانىء كانتون للتجارة وتحويل القناصل حق النظر في قضايا رعاياهم بغير استثناء للمهربين وبغير اشارة الى تحريم تجارة الأفيون ، وجوزي الموظف الأمين بعزلة وانتداب خلف له ممن يرضى عنهم القناصل والتجار .

ولم تنته مشكلات الأفيون بهذه الحرب الباغية وهذه المعاهدة الجائرة ، فقد أعقبتها حرب الأفيون الثانية (سنة ١٨٥٧) ونشبت هذه الحرب الثانية لأن المراقبين الصينيين حجزوا زورقاً يسمى بالسهم Arrow ورفضوا إعادته الى

القنصل البريطاني حين احتج على حجزه وطالب الحكومة الصينية بإعادته . وحجة الحكومة الصينية أن الزورق وطني وأنه لم يكن يرفع الراية البريطانية ساعة تفتيشه وحجزه ، فاشتركت انجلترا وفرنسا في انذار الصين وطالبتا بالمزيد من الحقوق والامتيازات ، ومنها اقامة السفراء بالعاصمة واحتلال الأماكن التي تختارها الدولتان على الشاطىء ، وهجم الأسطول البريطاني والأسطول الفرنسي معاً على كانتون وتقدما بعد احتلال موانئها الى تينتسن ، وأملى القائدان على الحكومة الصينية شروط المعاهدة التي سميت باسم تينتسن ، وذهب المندوبون المفوضون الى بكين لتوقيعها وضموا اليهم مندوبين من روسيا والولايات المتحدة ، فثارت ثائرة الشعب والموظفين عليهم في الطريق واعتقلوهم رهائن بالعاصمة ، واشتعلت النار في بعض الاماكن الأجنبية خلال الصدام بين الجماهير المتظاهرة وجنود الدول ، فأرسل القناصل في طلب المدد وتقدمت الجيوش الدولية بعد وصول المدد البحري والبري الى بكين ، فلاذت الأسرة المالكة بالفرار وأمر القواد بتدمير القصر الإمبراطوري المعروف بقصر الصيف ، وكانت فعلة وحشية ضاع من جرائها كثير من التحف والذخائر التي يعد ضياعها خسارة على الإنسانية ، ولم يرجعوا حتى ارغموا الحكومة المنهزمة على توقيع معاهدة جديدة والتسليم بامتيازات دولية اخرى غير الامتيازات السابقة ، ومنها الترخيص لمن شاء من الأجانب ان يتنقل داخل البلاد تحت حماية دولته ، وتبادل السفراء ، وفتح ثمانية موانىء لإنجلترا وستة لفرنسا ، ونقص الرسوم الجمركية وتأجير شبه جزيرة كولون لإنجلترا ، عدا الغرامات الثقيلة والتعويضات المجحفة التي اكرهت الحكومة الصينية على أدائها أقساطاً مقدرة يشرف المندوبون الأجانب على طريقة سدادها ، وزاد الطين بلة ان الروس طالبوا لأنفسهم بحصة من الغنائم لأنهم توسطوا في الصلح وتعديل شروط الاتفاق ، فاستولوا على الأقاليم التي تقع الى شمال نهر التنين الأسود وشرق نهر اسوري ، مقابلة للغنائم التجارية التي لم يسهموا فيها .

وانشئت مصلحة الجمارك على تنظيم جديد فطالبت كل من انجلترا

وفرنسا بخمس الرسوم خالصاً بغير كلفة ، وتركتا ثلاثة اخماس الرسوم للحكومة الوطنية مع تكاليف الإدارة والحراسة .

واستمرت المطالبة بالامتيازات الجديدة على أثر كل احتكاك بين الأجانب والوطنيين ، وما أكثر أسباب الاحتكاك في هذه الأحوال ، بين اجانب متغطرسين يغالون في إذلال الوطنيين اعتماداً على حماية قناصلهم ، وبين وطنيين يشعرون بالغربة والهوان في ديارهم ، وقلما كانت تنقضي أيام دون حادث يسميه الأجانب حادث اعتداء وتعصب ويسميه الوطنيون حادث دفاع وكرامة ، ثم تكاثرت هذه الحوادث بعد تغلغل المبشرين والمرسلين في الأقاليم الداخلية ، ومنهم من يقضي الإنصاف بالاعتراف لهم بالفضل في محاربتهم الصادقة لآفة الأفيون ، ومنهم من يقضي الإنصاف أيضاً بملامتهم على حماية الأشرار وطرداء القانون ممن يتهمهم الوطنيون بالمروق وخدمة السياسة الأجنبية ، فقد كان المجرم من هؤلاء يعرف مصيره اذا حوسب على جريمته أمام قضاء بلاده فيظهر التحول الى المسيحية ويكسب بذلك حق اللياذ بالمعاهد الأجنبية ، فلا تمتد اليه يد القضاء في ذلك الملاذ .

وتفاقمت أضرار المعاهدات الجائرة فلم تنحصر في الهوان وسلب السيادة بل سرت هذه الأضرار الى ضرورات المعيشة بين الأغنياء والفقراء على السواء . لأن الدولة احتاجت الى مضاعفة الضرائب لسداد الغرامات والتعويضات مع قلة مواردها الجمركية بعد اقتطاع الخمسين منها لإنجلترا وفرنسا ، ولأن البضائع الأجنبية تدفقت على أسواق الصين عند الشاطىء وفي الأقاليم القاصية تباع فيها بالسعر الرخيص لقلة الرسوم التي تؤديها ، وتفضل على المصنوعات الوطنية لجودتها وسهولة الحصول عليها ، فبارت المصنوعات اليدوية وتعطلت المعامل التي اجتهد أصحابها في إنشائها لمجاراة المعامل الحديثة ، وحل الوسيط الأجنبي محل الوسيط الوطني في معاملات التجارة الكبرى ، وأطبقت هذه المصائب الاقتصادية على الأمة بعد مصائبها السياسية المتلاحقة فتراءت لها أشباح الخراب في كل مكان .

وتدرجت الدول من امتيازات المواني‌ء الى امتيازات المواصلات ،

فتسابقت انجلترا وروسيا وفرنسا والمانيا على انتزاع الامتيازات بمد السكك الحديدية وتحصيل مواردها ضمانا للقروض اللازمة لمدها ، وسهلت دعوى الحملات التأديبية وانتزاع البلاد عقوبة للحكومة الوطنية ، فاستولت فرنسا على أقاليم من الجنوب ، واستولت اليابان على اقاليم من الشمال واستولت امريكا على الفيلبين وصارت الدولة الصينية مقصورة على تلقي الضربات والتسليم بضياع حق بعد حق ، واحتمال خسارة بعد خسارة .

ولقد كانت هذه الضربات المتعاقبة تحز في نفوس الأذكياء والعارفين من أهل الصين ، ولكن ضربة منها لم تبلغ من الإيلام والإزعاج ما بلغته هزيمة الصين أمام اليابان سنة ١٨٩٥ .

فإن الصينيين عاشوا ألوف السنين وهم ينظرون الى جيرانهم من الشرق نظرة الاحتقار والاستخفاف ، فلما انهزمت دولتهم امام اولئك « الأقزام » المحتقرين وقيل لهم إنهم لم يتمكنوا من الظفر بجيوش ابن السماء الا لأنهم تعلموا الصناعة الحديثة من الأساتذة الغربيين ، أصبح احتقارهم المفرط للمنتصرين عليهم اعجاباً مفرطاً بالصناعة التي كانت سبباً لهذا الانتصار . وهرعت جموع الطلبة الى مدارس اليابان وأوربة وامريكا يتعلمون فيها سر هذه القوة التي يعنو لها جبين أكبر الأمم وأعرقها في الحضارة والحكمة والسلطان .

وتشعب أنصار النهضة الحديثة شعبتين : إحداهما تحاول الإصلاح بالأداة الحكومية وزعيمها (كانج يووي) وتلميذه (ليانج شي كاو) الذي قاد حركة الترجمة من الآداب الغربية .

والأخرى ثورية يائسة من صلاح الأداة الحكومية مع قيام أسرة المانشو على عرش الصين ، وصاحب الرأي الأول والأسبق في هذه الدعوى الثورية هو سن ياتسن بطل هذه السيرة .

ولم تكن الدعوة الأولى ـ دعوة الإصلاح بالأداة الحكومية ـ خلواً من حجتها المعقولة ، لأن الإمبراطور الفتي كان على رأي ابناء جيله في ضرورة الإصلاح ، وكان يطلع على المصنفات المترجمة والصحف المجددة ويؤمن

بصواب ما تدعو اليه ، وكاشف اترابه من أمراء الدولة ورؤسائها بعزمه على إعلان الدستور وتجربة الحياة النيابية ، وكانت الفترة مواتية للشروع في هذه النهضة ، لأنها وافقت هدنة من عدوان الدول بعد ان تبين لها أن التنافس بينها سيقودها الى الحرب لا محالة ، فأسرعت الولايات المتحدة وبرزت في الميدان هذه المرة باسم السلام والمصلحة الدولية ، ووجهت (سنة ١٨٩٩) مذكرة الى إنجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وروسيا واليابان تقترح فيها تأمين الصين على سيادتها والاتفاق على احترام هذه السيادة وتطبيق سياسة الباب المفتوح بروح العطف والانصاف، ونزول الدول عن امتيازاتها الجمركية في مناطق نفوذها ، ثم أعلن الوزير هاي سياسة الباب المفتوح على هذا الأساس في السادس من شهر سبتمبر (سنة ١٨٩٩) .

إلا أن الدعوة الثورية كذلك لم تكن خلواً من حجة معقولة بل حجج معقولة متعددة ، لم تزل الوقائع تؤيدها وتدحض حجج المعارضين لها ، وتثبت لطلاب الإصلاح جميعاً ان باب الصين المفتوح للإصلاح باب واحد ، وهو الباب الذي تخرج منه أسرة المانشو الى غير رجعة .

***

من مألوفات التاريخ اذا شاخت الأسر المالكة وحقت عليها كلمة الزوال أن ينجم منها ملك او عضو بارز من أعضائها يبطل الحيلة فيها ويدحض كل عذر يتعلل به أنصارها المتعللون للإبقاء عليها .

ويكاد الناظر في سير هؤلاء الملوك او الأمراء ان يحسب لهم دوراً مرسوماً لا يحيدون عن أدائه لتعجيل سقوط الأسرة وقطع الألسنة التي تماري في عيوبها واستحالة الخلاص منها .

وقد كان من الجائز ان يخلص الحكم للعاهل الشاب المغلوب على أمره (كوانج هسو) فيحاول تجربة الحياة النيابية ويجتهد في محو عوامل الفساد والانحلال وتشجيع عوامل التقدم والإصلاح ، ولكنه لو فعل ذلك لما بلغ منه شيئاً غير تخدير حركة الثورة بضع سنوات ، وغير تأخير البناء الذي لا بد أن

يؤسس على أنقاض العهد القديم ، لأن البناء لا يقبل التكملة من طراز يخالف كل المخالفة في التقسيم والتدعيم .

في وسع الأسرة المالكة ـ عند هذه المرحلة ـ ان تخرج منها من يقضي عليها ، وليس في وسعها أن تخرج منها من يدعم بناءها ويطيل بقاءها .

وقد اخرجت أسرة المانشو معول الهدم على اقوى ما يكون في صورة شيطانية إنسية تقوم مقام الوصية على العاهل الشاب ، فملكت أزمة الدولة كلها في إبان هذه الكوارث ، وكانت هي نفسها كارثة الكوارث التي غطت عليها جميعاً وحولت جهود المفكرين الى غاية واحدة بدلاً من التفرق بين شتى الغايات : تلك الغاية الواحدة هي إزالة الأسرة المالكة واختتام العهود الملكية جميعاً في أقدم الدول الأسيوية عهداً بالعروش والتيجان .

كانت الوصية « تزوهسي » جارية ذات حظوة عند العاهل الراحل وكانت قد أتقنت كل ما تتعلمه الجواري من فنون الرسم والموسيقى والمعارف التقليدية ، وزعم الزاعمون أنها كانت تستظهر حكمة كُنفشيوس وقصائد الشعراء المتقدمين ، وأنها كانت تنظم شعر الغناء وشعر الأمثال وتساجل فيهما الأدباء والشعراء ، فلم يكن لهذه الثقافة كلها من ثمرة غير تمكين غرورها وتشديد ما في نفسها من التعصب على الثقافة الحديثة ، وبخاصة حين علمت أنها ثقافة تشل يدها على السطو والتبذير وتضطرها في سياسة القصر والأمة ان تقف عند حد محدود ، يسمى بحد الديمقراطية والدستور .

فلم تكد تعلم بميول العاهل الفتى حتى أسرعت الى حاشيته من حزب الإصلاح فأبعدتها واكرهته إكراهاً على إلغاء أوامره التي أعلن بها بعض الحقوق الدستورية ، وجعلته يحس الخطر على حياته اذا سولت له نفسه ان يتمرد على سلطانها .

وجاوز الأمر عندها مقت الدستور الى مقت كل مقترح يأتي من جانب حزب الإصلاح ، فوضعت يدها على المال المجموع لإنشاء السفن الحربية التي ظهر من هزائم الصين المتوالية أنها في مسيس الحاجة اليها ، فأنفقته كله

على تشييد قصر في حديقة واسعة تقضي بها ليالي السمر واللهو ومن بعدها الطوفان !

لو كان لهذه الوصية على عرش الصين دور مرسوم ، وكان دورها المرسوم ان تجهز عليه وتفض الأنصار من حوله ، لما استطاعت ان تعمل للنجاح في هذا الدور غير ما كانت تعمله وهي تحسب أنها تدعم العرش وتقوي سلطانه وتشل أيدي المتآمرين عليه .

فلم يبق احد من المفكرين يعتقد إمكان الإصلاح مع بقاء هذا النظام العتيق ، وانقلب دعاة الإصلاح من طريق الحكومة القائمة الى صفوف اعدائها الألداء . ولولا حماية السفارات لأولئك الدعاة حين لاذوا بها لمثلت بهم كما مثلت بغيرهم من أنصار الحياة النيابية وتجديد نظام الحكم ونشر التعليم الحديث .

واتفقت الآراء جميعاً على حصر العلة كلها في الأسرة المتداعية ، فلم يبق لها من نصير غير طائفة من غلاة المحافظين ، تطوعوا للدفاع عنها سخطاً على عدوان الأجانب لا جهلا بعيوبها وجرائمها ، فكانت حركتهم المشؤومة نكبة فوق النكبات المطبقة ، وعجلت بسقوط الأسرة من حيث أرادوا لها التماسك والبقاء .

تطوعت بهذه الحركة جماعة « أي هو شوان » أي الملاكمين المستقيمين المتآلفين ، هم الذين اشتهروا باسم « البوكسرز » بين الأوربيين .

وراحت هذه الطائفة تعرض ألعاب الملاكمة والمسابقة والطعن بالمدى والخناجر وتستهوي بها طلاب الفتوة من الشبان ثم تتدرج في تلقينهم مقاصدها السرية وهي بعبارتها الدينية « طرد الشياطين المتطفلين ، ثم أخذت شيئاً فشيئاً تجهر بمقاصدها هذه وتهتف علانية بتأييد القصر ولعن الأجانب الشياطين . وادعى أحد زعمائهم أن إله الحرب «كوانج كونج» جاءه في الحلم وأنبأه بفناء الأجانب جميعاً بعد أيام . وادعى زعيم آخر أن التنينات الخمسة الساهرة على

مدخل نهر تاكو أنبأته أنه ما من دارعة أجنبية تجترىء على الدنو منه إلا غرقت بمن فيها .

وزينت السخافة للوصية الخرقاء أن هذه الحركة كفيلة بقطع دابر الأجانب وطرد بقيتهم من البلاد ، ولم تخف ممالأتها لها بل أرسلت (في العشرين من شهر يونيه سنة ١٩٠٠) الى السفارات تشهر الحرب على أجانب العالم أجمع وتنذر السفراء وأتباعهم بمغادرة العاصمة خلال أربع وعشرين ساعة . وزحف الملاكمون بعمائمهم الحمر وسيوفهم المشهورة فاقتحموا معاهد الأجانب وقتلوا من فيها وضربوا على السفارات حصاراً دام نحو شهرين ، ثم وصلت جيوش الدول ـ أمريكا واليابان وروسيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ـ فارتفع الحصار وانقلبت الحرب الى مذبحة وحشية لا تذكر الى جانبها وحشية العصابات من الملاكمين وغوغاء الطريق .

أما تلك الخرقاء التي أغرقت عاصمتها في بحر من الدم فقد حملت العاهل الناشىء معها وهربت الى الغرب مستخفية ، ولم تنس صغائرها الأنثوية في تلك المحنة الدامية فلم تبرح العاصمة حتى أغرقت الجارية الأثيرة عند العاهل الصغير ، لأنها همت باللحاق به خوفاً عليه .

ثم أمليت شروط الصلح فإذا هي تقضي بتسليم زعماء الثورة فسلموا ، وبهدم جميع المعاقل على طريق العاصمة فهدمت ، وبفرض غرامة تبلغ خمسة وستين مليون جنيه ، فدفع منها ما حضر وبقيت أقساطها عبئاً على كواهل الأمة أربعين سنة بعد ذلك التاريخ .

هذا مثال من الفارق بين حركات الشمال وحركات الجنوب في البلاد الصينية ، فالغالب على حركات الشمال حيث يضعف أثر الحضارة انها عصبية جامحة تندفع ولا تدري عاقبة اندفاعها ، والغالب على حركات الجنوب حيث طالت آماد الحضارة وتتابعت الصلة بالعالم الخارجي انها تمهد بالثورة لنظام معلوم .

وقد أنجزت الوصية الخرقاء دورها المرسوم فقطعت جهيزة قول كل

خطيب ، وبطل اللجاج بين طلاب الإنقاذ في بقاء الأسرة او زوالها ، وتمهدت السبل لدعوة الجنوب فوجد سن ياتسن أسماعاً صاغية لرسالته الكبرى ، ولم تمض على هذه الحوادث عشر سنين حتى ذهب آخر عرش لأبناء السماء .

المعتقدات والعادات

على أثر الفتنة التي قام بها الملاكمون ـ خاصة ـ راجت في الغرب تهمة التعصب الديني وتذرع بها الساسة لتسويغ حملات التنكيل والانتقام التي كان أولئك الساسة يشفقون من سريان أخبارها بين الأمم الغربية ويضطرون الى إثارة الشعور لمداراة أهوالها وفظائعها . فقد كانت أخبار حرب الأفيون تقابل في الغرب بالنفور والاشمئزاز وتصورالنزاع بين الدول والصين في صورة نزاع بين أمة تحمي نفسها من آفة خبيثة وطائفة من التجار الجشعين يكرهونها على فتح أبوابها لتلك الآفة ولا يبالون بالربح الحرام من أي مصدر تلقفوه ، ثم يجدون من ورائهم جيوشاً وأساطيل تخضع الأمة المغلوبة لمآرب أولئك التجار .

فلما تكررت الثورات والمنازعات ألفى المستعمرون أنفسهم في حرج شديد مع أقوامهم ، وراحوا يبحثون في حجة تسترهم وتسوغ حملاتهم فلم تسعفهم حجة في ذلك الوقت غير حجة التعصب الديني وساعدهم على اشاعة هذه الحجة أن الملاكمين ينتحلون المصطلحات الدينية وان المصابين من الأجانب كان معظمهم من المرسلين والمبشرين .

إلا أن العارفين بالصين كانوا يستغربون هذه الدعوى ولا يخفى عليهم ما وراءها من التضليل والافتراء . لأن التعصب الديني الذي يغري صاحبه باستباحة دماء المخالفين شنشنة لم تعرف عن أهل الصين ولم يحدث قط في تاريخهم اضطهاد لأصحاب دين من الأديان إلا لباعث من بواعث السياسة ، إذ كان القوم يدينون بعبادة الأسلاف وليس من دأب الإنسان ان ينازع أحداً في أسلافه أو يجبر أحداً على مشاركته فيهم ، وكل عقيدة غير عقيدتهم في أرواح

الآباء والأجداد وفي أرواح الآلهة البيتية عامة فهي من قبيل آداب السلوك التي يعاب من يهملها كما يعاب من يهمل أصول التهذيب والمروءة في الأمم الأخرى ، ولا يتعدى الأمر ذلك إلى القتل والاضطهاد .

ومن الدلائل البارزة على هذا الخلق في أهل الصين عامة أن زعيمهم الأكبر سن ياتسن كان يدين بالمسيحية ، ومثله تلميذه الكبير شيان كاي شيك الذي خلفه زمناً على قيادة الأمة . وما كان لأهل الصين أن ينظروا الى الزعيمين بغير نظرة الاحتقار الذي يتعرض له الصابئون المرتدون عن دين آبائهم لو كان التدين عند الصينيين على مثال التدين عند الأمم الاخرى . انما الدين عند القوم آداب سلوك قبل كل شيء ، وقوامه الأول توقير ارواح الأسلاف وأرواح الأرباب الموكلة بأمر البيت ، فكل بيت فيه معبده ، وكل قبيلة فيها هيكلها ، ولكل ان يوقر أسلافه ولا ضير في ذلك على غيره ، فلا موضع بينهم للعداوة والشحناء من أجل العبادة والمعبودات .

ولا يفهم الصيني من إيمانه بالمسيحية او البوذية أو الإسلام انه مرق من دين آبائه وأجداده ، فإنه ليحافظ على قداستهم بعد ايمانه بتلك الأديان ولا مانع عنده من التردد على هياكلهم والصلاة أمام أضرحتهم في المواسم العامة أو الخاصة ، ولهذا ذهب سن ياتسن الى ضريح أسرة « منج » ليؤدي صلاة الشكر ويؤكد عهد الولاء بين يديه ، وهكذا كان يفعل الصينيون الذين دانوا بالمسيحية على أيدي المرسلين اليسوعيين في القرن الثامن عشر ، فقد رخص لهم أولئك المرسلون في أداء فرائضهم البيتية وفي تسمية اللّه باسم السماء باللغة الصينية ، ولبثوا على ذلك حتى نمي إلى كنيسة روما أن القساوسة يقبلون شعائر الوثنية فحرمت عليهم قبولها في كنائسهم ومحافلهم ، ولكن المسيحيين الصينيين لم يتحولوا عن دينهم ولم يزل منهم من يرتضي الدين الجديد على أنه طريق من طرق شتى الى الصلاح والاستقامة ، وشعارهم في هذا شعار البدوي الذي قال :

خذا بطن هرشى أوقفاها فإنمـــا كلاجانبي هرشى لهن طريـــق

كان هذا شأنهم في كل زمن ، وكان هذا شأنهم يوم رحل ابن بطوطة الى بلادهم وروى ما روى عن كاهن منهم أو ساحر « يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لو كنت معه لنصرته ، ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب أحسن الذكر ، ويجاري الشيعة في كلامهم عن معاوية ويزيد » .

وكان هذا شأنهم كما تحدث عنهم الرحالون الغربيون في أواسط القرن التاسع عشر (هوك جاليت من سنة ١٨٤٤ الى سنة ١٨٤٦ Huc Galet) فإنهم عرضوا المسيحية على أناس من كهان التيبت فاستحسنوها وقالوا إنهم لا يتحرجون من اعتقادها واعتقاد البوذية ، وكل ما يوصينا بالخير فهو خير .

ويؤمن الصينيون بالانسان الأول (بان كو) وأنه هو الذي فرق السماء والأرض أول مرة ، وقدر للسماء أن تعلو كل يوم عشرة أقدام ، وللأرض ان تكثف كل يوم عشرة أقدام ، وأن تطول قامته هو كل يوم عشرة أقدام ، فلما انقضت عليه ثمانية عشر ألف سنة اصبحت السماء بهذا الارتفاع وأصبحت الأرض بهذه الكثافة ، وسالت الدموع من عيني (بان كو) فجرى النهران الكبيران في الصين ، وتنفس فانطلق الهواء ، وتكلم فقصف الرعد ، ولمح بعينه فومض البرق ، ومات فاستحالت عظامه جبالا واستحالت عيناه شمساً وقمراً واستحال شعره نباتاً ، وسال شحمه فزخرت منه البحار وفاضت سائر الأنهار .

وإيمانهم بالسماء (تيين) هو في الواقع إيمان بإنسان عظيم ، لعله عندهم سلف الأسلاف أجمعين ، فهم يكتبون اسمها في صورة رجل يشير بيديه الى الأعلى ، ويذكرونها أحياناً باسم الإله الرفيع ، ولم ينسبوا اليها خلق الدنيا في عقائدهم القديمة ، بل تدرجوا في نسبة الخلق اليها حتى ثبتت هذه العقيدة بعد دخول الأديان الكتابية الى الصين .

والقوم عمليون ارضيون في شعائرهم الدينية قلما يتعمقون بها او يحلقون في الآفاق العلوية ، فإله الأرض « شي » أولى عندهم بالقرابين لأنها

تعطي الثمرات وتنطوي فيها الأجساد بعد الممات ، ولها في كل قرية أكمة من التراب ترمز اليها ويتجه اليها الزراع بالقربان والدعاء ، ورمزهم القومي التنين هو الوسيط بين الأرض والسماء لاستدرار المطر أيام القحط والجفاف .

أما السماء فصورتها في أخلادهم صورة « السلطة » الحاكمة التي تجري المقادير وتهدي الحاكمين الى الصراط المستقيم ، ولا يعلم مشيئتها أحد غير ذوي الدراية والنجامة ، ومن وسائلهم قراءة الغيب المسطور على جلد السلحفاة أو تأمل الطوالع على السوق والأوراق في بعض الأعشاب .

وأقوى عباداتهم كما تقدم هي عبادة الأسلاف ، وهذه الناحية مهمة جداً في فهم شعور الصيني نحو وطنه ، فهو لا يحسب نفسه فرداً في أمة عددها اربعمائة مليون يعيشون اليوم ، بل هو فرد من ملايين لا تحصى منذ القدم ، لها حق كحق الأحياء في حاضر الأمة ، وتضاف اليها قداسة العبادة بعد الموت ، فيمتزج الحاضر والغابر عمراً واحداً للأمة بأسرها ، ولا يزال الحديث جزءاً يضاف كل عصر الى القديم ، فلا يخطر على البال ان القديم متروك من أجل هذا ، بل هو الذخيرة الباقية التي ترجع اليها خير الذخائر في الزمن الحديث .

ومن هنا يبلغ تقديس الآباء عندهم حداً لا يعرف له نظير في أمة اخرى .
ومن دلائل البر بالآباء في ديانتهم أن يقذف الابن بنفسه من أعلى الأكمة المقدسة فدية لأبيه إذا مرض هذا وتعذر شفاؤه ، كأن القدر يتقاضاهم روحاً فيهب الابن روحه بدلا من روح أبيه .

وهم يرجعون بكل خير وكل حالة حميدة الى الماضي البعيد ، فالعصر الذهبي في عرفهم هو عصر الآباء الأولين ، الذين كانوا يعمرون الدنيا في زمن يسوده الناموس الأعظم ، فكل ما فيه عدل وحق مستقيم على سنته السواء بغير إفراط ولا تفريط ، فمما ينسب الى الحكيم الأكبر كنفشيوس في الكتاب المعروف باسم « لي يون » أي أطوار الخير أنه قال : « لم أرَ قط عهد تطبيق الناموس فعلا أيام الأسر الثلاث ، وإن حسبت أنني أفهم كيف كان . فيوم

جرى الناموس مجراه كان كل شيء ملكاً للجميع ، وكان التقديم لذوي الكفاية والفضل والمقدرة ، وكان صدق النية سجية وآداب الصداقة مرعية ، ولم يكن أحد يخص بالمحبة آباءه دون غيرهم أو يخص بالحنان أبناءه دون سائر الأبناء ، وكان الرزق مضموناً للشيوخ الفانين حتى الممات ، والعمل مضموناً للقادر عليه وتكاليف التربية مضمونة للناشئين ، وكان الأرامل واليتامى والشيوخ العقماء والعجزة المقعدون موضع العطف حيث كانوا فلا يعوزهم المأوى ولا المؤنة ، وكانوا يأبون على أنفسهم ان يتركوا خيرات الطبيعة مهملة غير مثمرة ، ولكنهم كانوا كذلك يكرهون تكديس المال وحبسه على أنفسهم ، ولم يكن ثقيلا على طبائعهم أن يعملوا ويكدحوا ولكنهم لا يعملون ولا يكدحون ليستأثروا وحدهم بخيراتهم ، وبهذا يقضى على الكيد والدسيسة ويمتنع ظهور اللصوص والمحتالين وذوي التمرد والخيانة ، وتفتح الأبواب بغير حجاب » .

هذه صورة العصر الذهبي في عهد الناموس كما تصوره الحكيم الأكبر ، وها هنا عبرة للباحثين في أطوار الشعوب ليستندوا الى عاداتها وأمزجتها فيما تقبله وما ترفضه وفيما يكون بينها وما لا يكون .

فمن هؤلاء الباحثين من كان يحسب ان الامة التي تقدس القديم هذا التقديس وتعظم شأن الأسرة هذا التعظيم محصنة كل التحصين من دعوة المذاهب الاجتماعية المتطرفة ومن كل دعوة تهدم القديم وتنبذ المأثور . . . فإذا بالأمة الصينية تهدم القديم باسم القديم ، وتنكر ما هي فيه إيثاراً للعصر الذهبي الذي تريد أن ترجع اليه كما وصفه الأسلاف ، فمن الباب الذي ظنه الباحثون موصداً على دعوات التغيير والتبديل كان دخول هذه الدعوات باسم الناموس الخالد الذي لا يقبل التغيير والتبديل ! وهكذا تحتال الحوادث حيلتها وتتلمس اطوار التاريخ مناهجها ، فيأتي الطارق من جانب الحصن الحصين وهو آمن ما يكون عند الذين يقدرون للأمم مصائرها ، فتضحك الأقدار .

وقد اخترنا هنا كلمة الناموس لكلمة « الطاو » الصينية التي يترجمها بعضهم باسم الطريق ، وهي في الواقع كلمة لا تفي بمعناها المصطلح عليه

كلمة الطريق ولا كلمة الناموس . إذ هي أعم من ذلك بكثير ، لأنها تشمل معنى العناية ومعنى القدر ومعنى المعيار الذي يعطي كل شيء حقه ويرد كل شيء الى نصابه طبعاً وأصالة في أحوال الناس وأحوال الطبيعة وأحوال الغيب المجهول ، فكلمة الناموس أقرب الى هذا المعنى من كلمة الطريق .

والناموس هذا هو موئل كل عقيدة دينية وكل أدب من آداب السلوك ، وهي كما قدمنا لباب الدين كله عند حكماء الصين ، بحيث يصح ان يقال ان السماء نفسها تلتزم آداب السلوك في تصريف المقادير .

والمثل الأعلى للحكيم المهذب ان يوفق بين اخلاقه وأفكاره وبين هذا الناموس الشامل الكامل ، وآية هذا التوفيق المعيشة السواء بغير جماح ولا إحجام ، او المعيشة التي تتزن وتعتدل فلا إفراط فيها ولا تفريط ، ويكاد حب الاتزان والاعتدال ان يفتنهم فتنة لا اعتدال فيها ، ومن فتنته أنهم يسمون الصين كلها المملكة الوسطى (شن كو) ويزعمونها في موضع القسطاس من العالم تمنع جوانبه ان تميل ! .

ومن عباراتهم السائغة عبارة « المدارس » المائة التي يشيرون بها الى اختلاف مذاهب الحكماء المقتدى بهم في العلم والأدب ، ويريدون بها التحلل من قيود الحجر حيث يستنكر المستنكرون بعض المذاهب ليحصروا الفضل كله في سواه .

والواقع أن غايات هذه المذاهب غاية واحدة ، وهي حكمة الاتزان .

وإنما الخلاف كله في التمهيد والتفصيل . فمنهم من يطلب الاتزان بالكف عن الطلب ، ومنهم من يطلبه بالمعادلة بين المطالب ، ومن حكمائهم المتشائم المعرض عن الدنيا ومساعيها ، ومنهم المتفائل المقبل عليها ، وقد كان كنفشيوس نفسه يغني ويحب الغناء ويعتبر الموسيقى من دروس الأخلاق النافعة للعلية والسواد .

ومن حكمائهم من يقول بتغليب الشر على طبيعة الإنسان ، ومنهم من يقول بتغليب الخير عليها .

وبعضهم يقول إن الإنسان يطلب الخير لأنه محروم منه شاعر بما ينطوي عليه من الشرور ، ويرد عليه معارضوه متسائلين : كيف يخطر طلب الخير في قلب شرير ؟ فيجيب أنصار هذا المذهب بأن طالب الخير انما يطلبه مضطراً غير مختار ، لأنّ الشر حالة لا يستقر عليها القرار ،.ومن تصادم الشرور يشل بعضها بعضاً فيأتي الخير بغير تدبير .

وما من عجب ان تتعدد المذاهب في أمة مضى على حكمائها ألوف السنين وهم يتدارسون الأخلاق والآداب بين عهود تتعاقب وأحوال تتباين وأقاليم تتباعد المسافات بينها بآلاف الأميال ، ولكن العجب حقاً أن تصطبغ هذه المذاهب بصبغة واحدة لا تخفى على من يلمحها لأول نظرة ، وصدق من قال إن أفكار الصين كمصابيحها تختلف ما تختلف بالألوان والأشكال ، ولكنها تحمل طابعاً واحداً من وراء جميع الألوان والأشكال .

وقد دخلت الصين مذاهب من بلاد قريبة أو بعيدة ، فلم تلبث ان اصطبغت بهذه الصبغة وخالفت ما كانت عليه في بلادها الأولى . دخلتها البوذية من الهند فنقلت اليها فكرة الروح الباقية ، ولكنها فهمت هذه الروح كما كانت تفهم ارواح الأسلاف غير مقترنة بحالة النعيم أو حالة العذاب ، واستباح البوذي الصيني أكل الحيوان ومتاع الحريم ، ومن شذ عن هذه الإباحة كان بدعة في شذوذه مخالفاً فيه لأشد المتنطسين من أصحاب المذهب الأصيل ، فكان عميد أسرة ليانج في القرن السادس يجاوز تحريم ذبح الحيوان الى تحريم تصويره على الحرير، لأنه يتعرض للقص والتقطيع . . . . ولم تحل هذه الغيرة على الحياة عند هذا البوذي العجيب دون قتل الألوف من جنده وجند أعدائه في حروب الفتح وغارات الانتقام . . . وأعجب ما فيه أنه كان من القادة الأشداء الصلاب ولم يكن حالماً ولا قانعاً كما يسبق الى الخاطر من تورعه عن المساس بالحيوان حتى في الرسوم .

والذي حدث للبوذية من التطور في عقول الصينيين حدث للمسيحية في العهود الأربعة التي دخلت فيها الى الصين ، وقد دخلتها أربع مرات : مرة مع

النسطوريين بين القرن السادس والقرن السابع ، ومرة مع رهبان القديس فرنسيس (الفرنسيسكان) في القرن الثالث عشر ، ومرة مع اليسوعيين في القرن السادس عشر ، ومرة مع الإنجيليين في القرن التاسع عشر ، ولهذا يقل عدد المسيحيين الإنجيليين من أهل الصين عن عدد الكاثوليك ، فهم أقل من ربع المسيحيين ، وعددهم اليوم جميعاً يزيد على أربعة ملايين .

وقد حظي النسطوريون عند أبناء السماء وتقربوا اليهم بمعلوماتهم الرياضية والطبية ، ونقشوا صورهم على جدران الكنائس ، وظل الشعب يسمي هذه الكنائس بالمعابد الفارسية ، لأن النسطوريين قدموا الى الصين من بلاد فارس ، ثم أصيبوا بجور السياسة في أيام الملوك الذين كانوا يتوجسون من الأجانب ، ولكنهم عكفوا على معابدهم وحافظوا عليها الى القرن الثالث عشر ، اذ قدم الرحالة ماركو بولو الى الصين فوجد لهم معابد على طول الطريق من بغداد الى بكين .

ولم يكن لرهبان القديس فرنسيس مثل هذه الحظوة لأنهم دخلوا الصين في إبان القلاقل على حدودها الغربية .

أما صاحب الأثر الأكبر في نشر المسيحية بين القوم فهو الأب اليسوعي مانيو ريتشي الذي سبر غورهم وتألفهم باتخاذ عاداتهم في ملابسهم ومآكلهم ، وتسمى باسم صيني فعرف بعد ذلك باسم « لي هي ثاي » ثم حذق اللغة الصينية وترجم اليها دروس الجغرافية والفلك والرياضة ، ومهد الطريق لتلاميذه فندب بعضهم لوظيفة الفلكي الإمبراطوري وخصص له مكان من قصر ابن السماء ، وكان يتسمح مع القوم فيثني على حكمة كنفشيوس ويأذن لهم في تكريم أسلافهم متدرجاً بهم من عبادة أرواحهم الى ذكرهم بالترحم والتحميد ، وقبل منهم ان يطلقوا اسم السماء على الإله ، ولم يدعهم قط الى المسيحية على اعتبارها ديانة أشرف وأصدق من ديانتهم ، ولكنه جمع بين الأيسر والأقوم من الديانتين ، فلم ينفروا من الإصغاء اليه .

واتبعه أناس من تلاميذه على سنته ولكن بغير مقدرته وسماحته ، حتى وقع الخلاف بين هؤلاء التلاميذ وبين الآباء البيض (الدومينيكان) على مسائل

التوفيق بين الديانة الصينية والديانة المسيحية ونمي الخبر الى كنيسة رومية (سنة ١٧٠٤) فانفذت احد وكلائها ـ الأب تورنون ـ الى بكين لتصحيح الموقف وأشفق هذا عند وصوله الى العاصمة من مجابهة القوم برسالته فتردد في تبليغها ثلاث سنوات ثم اضطر الى اعلانها وانذار من يخالفها بالحرمان إن لم يبرح البلاد الصينية وينفض يده من أعمال كنائسها .

وغضب ابن السماء من إعلان هذا الأمر في بلاده ، واستكبر أن يسيطر احد بالأمر والنهي على رعاياه ، فاعتقل القائمين بمعارضة القساوسة الموفقين وأصدر أمراً آخر ينذر فيه كل من يسمع الى المعارضين بالنفي من البلاد .

ولما قدم المبشرون الإنجيليون لأول مرة في اوائل القرن التاسع عشر (١٨٠٧) كان معظم مقامهم في الموانيء والمناطق التجارية المباحة ، وأعقب مقدمهم ظهور طائفة مسيحية وطنية يدعي صاحبها أنه الأخ الأصغر للسيد المسيح ويبشر بعقيدة وسطى بين عقائد أهل الصين وعقيدة الإنجيليين ، وأوشك هذا الرجل ـ واسمه هونج ـ ان يسقط ابن السماء من عرشه ، إذ كان قد استولى على نانكين ونادى بنفسه ملكاً سماوياً على الصين بأسرها ، ولكنه أخفق بعد نجاحه عشر سنوات لأنه خسر المسيحيين والوطنيين وأنصار الأسرة المالكة وأعداءها بخطته في التوفيق الذي ينكره كل فريق ، ولم تمت ثورته مع هذا كل الموت بل كانت بمثابة « المسودة » الأولى للثورة المنتظرة ، فنشأ أبناء الشطر الأخير من القرن التاسع عشر وهم يتذاكرون حركته ويفكرون في أسباب نجاحه وأسباب إخفاقه ، وفي طليعتهم سن ياتسن زعيم الثورة التالية التي كتب لها النجاح بعد هذه التجارب والتمهيدات .

واتسعت اعمال المرسلين الإنجيليين خلال هذه المرحلة ، بعد السماح للأجانب بالتنقل في داخل البلاد . ثم صادف هذا التوسع اقبالا من الناشئة على العلم الحديث وثقة بفضل الثقافة العصرية فتسابقوا الى مدارس المرسلين ولم يتردد بعضهم في قبول الشعائر والعبادات التي فرضتها هذه المدارس على طلابها ٧٠ سيما المدارس العليا التي لم يكن لها في ذلك الوقت نظير من

المعاهد الوطنية .

****

والإسلام هو أكثر الديانات أتباعاً في الصين بعد الديانة الوطنية ، ويتراوح تقدير المسلمين بين عشرين مليوناً وخمسة وخمسين مليوناً أو أكثر من ذلك في تقدير بعض الرحالة المسلمين ، ومعظمهم من سكان الأقاليم الغربية ، ويسميهم الصينيون هوي هوي ، إما من كلمة هو بمعنى الغرب أو من كلمة هوي بمعنى الالتفات والاستدارة ، لأنهم يستقبلون الغرب في الصلوات .

وقد اتصل خبر الفتوح الإسلامية بملوك أسرة تانج من جيرانهم أمراء الفرس الذين لاذوا بعرش ابن السماء يستنجدونه على جيوش العرب ، ووجدت في سجلات الأسرة صحيفة تذكر بلاد العرب ونشأة الإسلام وتقول عن الجزيرة العربية (تاه شيه) إنها كانت ولاية فارسية وإن رجلا منها تلقى وعداً من السماء بملك العالم والانتصار على كل من يحاربه . ولم يستجب العاهل (تاي تسنج) رجاء الأمراء الفارسيين على كل حال ، سواء لاتقائه الاشتباك في حرب مع الجنود الموعودين بالنصر أو لقلة الجدوى من تلك الحرب على أطراف الدولة النائية ، ثم تقدم العرب في آسيا بقيادة قتيبة ووصل رسل الخليفة الوليد الى العاصمة الصينية ، فرضي ابن السماء لأول مرة أن يعفي هؤلاء الرسل من قواعد (الكوتو) أو البروتوكول الصيني الذي يقضي بسجود كل داخل الى ساحة العرش ثلاث مرات قبل الوقوف في حضرة ابن السماء . لأن اولئك الرسل هموا بالعودة من حيث اتوا وقالوا ان دينهم ينهاهم أن يسجدوا لأحد غير الله ، وبقيت للدولة الإسلامية هذه السمعة المرهوبة الى الجيل التالي ؛ فأرسل العاهل (شي تيه) يستعدي أبا جعفر المنصور على الثائر لوشان ثم سمح للجيش العربي الذي هزم ذلك الثائر الخطر بالمقام في الأرض الصينية ، فمن ذرية هذا الجيش جلة المسلمين الصينيين ، ثم لحق بهم طوائف من المسلمين رجعوا مع ملوك التتار بعد غارات جنكيز خان وأتباعه ، فاستحبوا المقام وتزاوجوا وتناسلوا حيث أقاموا ، ولم يزالوا محافظين

على عاداتهم من تحريم الخمر ولحم الخنزير والمعاملة بالربا ، واقتبسوا من العادات الوطنية غير قليل ، ومنها المغالاة بتعظيم الأسلاف ، لأن هذه العادة لم تكن غريبة عن طباع العرب او ابناء القبائل البادية التي تألف منها جيش المسلمين في ذلك الحين .

فتاريخ الإسلام في الصين يخالف تاريخ البوذية وتاريخ المسيحية ، لأنه تاريخ سلالة اسلامية انتقلت بعقيدتها من تخوم البلاد الخارجية ، ولم يكن للتبشير عمل في نشر عقيدتهم ، إلا ما كان من تحول الزوجات والجيران المقتدين بجيرانهم . ومما لاحظه المؤرخون على المسلمين الصينيين انهم لم يحفلوا بنشر الدعوة الدينية حولهم ، وان شهرتهم العسكرية كفت عنهم عدوان القبائل التي تحيط بهم ، وأنها في كثير من الأحيان كانت تغري ابناء السماء باستخدامهم في جيوشهم ، فكان منهم قادة مشهورون الى أيام أسرة منج الوطنية ، وكان أشهر قادتها (شنج هو) يسمى بالحاج ويقود الحملات البحرية كما يقود الحملات البرية ، واشتملت احدى حملاته (سنة ١٤٠٥) على نيف وستين سفينة عليها من المقاتلين نحو ثلاثين ألفاً من أبناء الملل المختلفة .

وتعتبر الثورات الإسلامية نذير الخطر في تاريخ الصين الحديثة خلال القرن التاسع عشر على الخصوص . فقد تعددت ثورات المسلمين منذ أول ذلك القرن فكانت علامة على سوء الحال واليأس من صلاح الأمور ، وبلغت ثورتهم الكبرى اشدها بأقاليم شنسي وكانصوه سنة ١٨٤٧ ، فلم تمض ثلاث سنوات حتى أعقبتها الثورة المعروفة باسم التايبنج أي دعوة السلام السماوية ، واحتدمت نيران هذه الثورة أكثر من عشر سنين ، ثم تلاحقت الثورات بعد ذلك من الشمال والجنوب ، ولم تنحسم ثورة المسلمين الجنوبية بإقليم يونان إلا بعد إخماد ثورة التايبنج بسبع سنوات .

***

هذه لمحة عابرة الى أحوال التدين في الأمة الصينية ، مدارها على بيان

الصبغة التي تصطبغ بها الملكات العامة في تلك الأمة العريقة ، ونعني بالملكات العامة ما كان من قبيل الشعور الوطني أو الشعور العنصري أو الشعور الديني أو ضروب الشعور التي تشترك فيها الأمم والطوائف الكبيرة ، ومن هذه اللمحة العابرة نرى ان الشعور الديني ـ على كونه في الصين قوة غير مهملة ـ لم يكن محور الأطوار الكبرى في سياستها وتقلب الدول فيها ، ويندر في تاريخ الصين أن يضطهد قوم لعقيدتهم الدينية دون سبب آخر يجعل لهم صفة سياسية أو اجتماعية خاصة ولو في وقت من الأوقات . ومن هذا القبيل اضطهاد كهان «التيبت» لمخالفيهم حين جمعوا في أيديهم سلطة الكهانة وسلطة الحكم واحتكار تجارة الشاي ، فكانت اغراضهم السياسية والتجارية سبب هذا الاضطهاد ومن هذا القبيل أيضاً ان بعض الأسر اضطهدت البوذيين لأنها نظرت اليهم نظرها الى الاجانب الممالئين للدول الأخرى ، أو اضطهاد أتباع كنفشيوس لأن دعوتهم الثقافية كانت تحبب الى الشعب نوعاً من الحكومة غير الحكومة القائمة .

ولما ثار المسلمون غير مرة كان السبب الغالب سوء الحال وأنهم بطبيعتهم أقل خضوعاً للحكومة الظالمة من عامة أهل الصين ، وتأتي الأسباب الدينية عارضة مع هذا السبب الغالب ، ولهذا كانت ثوراتهم تعقبها ثورات اخرى من أهل الصين الذين يدينون بغير الإسلام ، ويسخطون على حكوماتهم لغير البواعث الدينية .

وليس جنكيز خان وأولاده مثلا صادقاً للذهن المغولي كما ارتقت به الحضارة الصينية العريقة ، ولكنهم مثل صادق لهذا الذهن في النظرة التي تنظر بها الى الأديان المتعددة . فقد كانت شريعة جنكيز خان تفتتح بنص يسوي بين خدام الأديان جميعاً ويعفيهم جميعاً من الضرائب بغير تفرقة بين كهنة البوذيين وقساوسة المسيحيين وشيوخ المسلمين ، وجرى حديث بين الراهب فرا ربروكيز **Rubruquis** ومانجو خان حفيد جنكيز خان فقال مانجو : إن اللّه جعل في اليد خمس أصابع وجعل للإنسان مذاهب شتى . اعطاكم الكتاب

وأنتم لا تعملون به ، فهل في كتابكم أن يذم بعضكم بعضاً ويقدح أحدكم في أخيه ؟ .

قال الراهب : كلا . وقد ذكرت لسموكم آنفاً أنني لم آت لأخاصم أحداً أو أدخل في مساجلة مع أحد .

قال الأمير : لست أعنيك . ولكنني اقول هذا وأقول أيضاً إن كتابكم ينهى الإنسان ان يحيد عن العدل طلباً للمنفعة .

قال الأب : إنني لا أطلب مالا ، وقد أبيت أن آخذ شيئاً مما أعطيت . . . وشهد كاتب من كتاب الأمير كان حاضراً بأنني رددت قضيباً من الفضة وثوباً من الحرير .

فعاد الخان يقول : ليس كلامي عنك ، ولكنني اتكلم عن أناس يتلون الكتاب ويخالفونه . ونحن اعطينا الكهان والسحرة ولا نخالف ما يوحى اليهم .

ومن طريف ما يروى أن هذا الراهب كان يتحدث الى رجل من حاشية الخان فقال له : هذه ارادة السماء ، فقال خادم الأمير : وهل صعدت الى السماء ؟ وكان يظن ان المتحدث عن السماء ينبغي أن يتصل بها كاتصال كهانهم وسحرتهم ، ولا حجاب دون السماء .

***

أما عادات أهل الصين وأخلاقهم فيما عدا هذه العاطفة العامة ـ عاطفة الدين ـ فالتخصيص فيها يتطلب كثيراً من الأناة .

إذ يقال في بعض الأحوال عن خلق نادر او شائع انه من اخلاق أهل الصين فإذا هو من الأخلاق الإنسانية التي تتماثل في جميع الأمم ، ويجب أن نوطن النفس على تكرار جميع الأخلاق الإنسانية في أمة بلغت أول القرن العشرين أكثر من أربعمائة مليون ، وبلغت في القرون الغابرة عشرات الملايين حين كانت أكبر الأمم لا تزيد على بضعة ملايين . فمن المتعذر جداً

أن يوجد خلق انساني لا يظهر في هذه الأمة ولا يتكرر فيها ، وكل خلق يسبق الى الذهن أنه خاص بها لا يلبث بعد البحث ان تظهر له مشابهات كثيرة في غيرها .

انما تتخصص في هذه الأمة وامثالها عادات الاجتماع دون عادات الطباع .

ففيها مثلا عادة حبس قدمي البنت منذ الطفولة الباكرة ، وعادة الإزراء بالجندية على خلاف المعهود في الأمم القديمة ، وعادة التخاطب بالعبارات المصطلح عليها مما يشبه القوالب المحفوظة .

وهذه وما شابهها جميعاً ترجع الى أحوال المجتمع الصيني التي يجوز أن يتخصص فيها بموافقات لا تعم سائر المجتمعات .

فالأمة التي تصبح فيها مسائل السلوك ديناً مرعياً لا نعجب فيها من المغالاة بالأناقة ودلالات الترف والدلال ، ومنها اناقة المرأة وتلطيف جوارحها وأعضائها ، فإذا ثبت فيها المجتمع على ديدن المحافظة آلاف السنين فيكفي فيها أن تظهر البدعة جيلا واحداً حتى تتوارثها منه الأجيال أعقاباً بعد أعقاب .

أما عادة الإزراء بالجندية فلها جملة أسباب خاصة بالصين في تاريخها القديم : منها أن أهل الصين لم يشهدوا من الجندية إلا جانبها الذي يغري بالإزراء والجفاء . إذ كانت صناعة الجندية صناعة المرتزقة في الحروب الأهلية ، يعمل فريق على قتل فريق من أبناء الوطن الواحد ، وقلما عملوا في دفع الغارات الأجنبية التي من أجلها عظم الناس الجندي وهو يواجه الموت في الذود عن قومه ووطنه ، ولهذا تواتر عندهم المثل القائل ان الحديد الجيد لا يصنع منه مسمار والإنسانية الجيدة لا يصنع منها جندي ، ولا يقصدون بذلك الا طائفة الجند الذين لا مرتزق لهم من صناعة ولا دراية الا أن يبيعوا أنفسهم لكل من يعطيهم رزقاً في سبيل أطماعه وأهوائه .

ومن أسباب هوان الجندية عندهم ان عهد الإقطاع كان قائماً على القادة

في كـل اقليم ، فـلمـا قضـي علـى هـذا العهـد جعلـوا الـولاية فنـا يتـولاه الأصلح بالامتحان ، وساعدهم على ذلك تقديس الحكمة في صورة الأبوة ، فأصبحت الطاعة للحكيم الخبير عادة غير مستغربة بعد الطاعة للآباء المجربين والأجداد المقدسين . وقد عانى زعماؤهم المعاصرون اشد العناء في تشجيع شبانهم على الأعمال العسكرية التي ساءت ظنونهم بها عشرات الأجيال ، فلم يقبلوا عليها إلا بعد ضربات الهزيمة المتوالية، وبعد أن علمتهم هذه الضربات أن الهوان لاحق بهم بين شعوب العالم ، ومنها الشعوب التي كانوا يحتقرونها ويترفعون عنها ، ما لم يقوموا هذه القيم من جديد .

ولصقت بأهل الصين عادة التخاطب بالعبارات المصطلح عليها ، لأن الكتابة عندهم هي في الواقـع قوالـب منقوشة تتكرر بدلا من الحـروف في الكتابات الأخرى ، ولأنهم أهل مراسم وأنظمة موروثة يحفظهـا أصحـاب القصور ، ويقتدي بهم الخاصة فمن دونهـم الـى العامـة ودهمـاء السوقـة ، والناس على دين ملوكهم ، ولا سيما الملوك أبناء السماء .

ومن عاداتهم العقلية حب المقابلة والتناسق في التفكير ، يملكهم النسق حتى يذهلهم عما وراءه من النقائض الخفية ، ولم يفلح في مخاطبتهم من لم يفطن الى هذه العادة العقلية فيهم ، وبخاصة وعاظ الأديان .

قال الأب ليكونت (Le comte) في كتابه ذكريات السياحة عشر سنين في الصين : « إنهم على الخصوص يؤخذون جداً بالمقارنات والحـكايات ذات المغزى والمرويات التاريخية ، وهم على كونهم لم يألفوا تلك السورة أو تلك الحمية التي نألفها في وعاظنا ، تراهم تجيش نفوسهم حين يخاطبون بلهجة الجد والاكتراث » .

وهذا أيضاً أثر من آثار الحكمة الطويلة التي تلخصها كلمة « الاتزان » وأثر من آثار الحوادث التي عودتهم ان يتريثوا ولا يندفعوا ، وأثر من آثار الولع بالرسم والتنسيق في الكتابة والتصوير والنسيج والشعائر والمجاملات .

***

لوحظ في بيئات الحجاب والصيانة المفرطة ان الفتاة اذا زلـت في هذه البيئات خرجت من كل عنان ، لأن المنزلة الوسطى بين الحجاب الشديد وبين الجماح المطلق غير موجودة .

ويصح أن يلاحظ مثل هذا في ثورات الأمم التي ريضت على الاتـزان والنسق المطرد ، فإنها إذا ثارت ثارت بعد بطلان كل حيلة ، فليس أصعب من إثارتها إلا أن تكبح ثورتها حين تخرج عن عقالها .

مذاهب السياسة

من الطبيعي أن تكثر مذاهب المفكرين في الحكم وآداب السياسة بين الأمة الصينية . لأنها قديمة العهد بالحكومة ، قديمة العهد بالأساتذة والمفكرين حتى اوشك هؤلاء ان يكونوا طبقة كبيرة تقابل طبقة الولاة الإقطاعيين في سائر الأمم .

وقد كثرت فعلا هذه المذاهب حتى اجتمع منها النقيضان في وقت واحد .

فكان من فلاسفتهم أتباع الطريق أو الناموس من ينكر ضرورة الحكم ويقول إن القانون يخلق المجرم ، وإن الخلاص من واضعي الشرائع أول واجب على الناس ، فإذا لم تكن شريعة لم يكن مجرمون ، ويتعلم الناس مع الزمن أن اقتناء الأموال مجلبة للنزاع والخصومة والإجرام فلا يقتني أحدهم ما ليس في حاجة إليه .

ويقابل هذا المذهب مذهب الفلاسفة المعروفين بالشرائعيين ، وخلاصته أن الشريعة ضرورة لا غنى عنها ، وإن صلح الحاكم وحسنت نيته ، لأن الحاكم ينبغي أن يتقيد أمام الناس بقوانينه ، وألا يحكم بشخصه بل بالأحكام الموضوعة للراعي والرعية .

وبين المدرستين مدرسة ثالثة لا تنكر التشريع أصلا ولا تستلزمه أصلا . بل تقول إن مهمة المجتمع الكبرى هي تربية أبنائه حتى يجيء الوازع من أنفسهم لا من الأوامر والزواجر ، فإن هذه الأوامر والزواجر تعلم الناس كيف يحتالون عليها فيقع في الشرك من هو قليل الحيلة ويفلت منه من هو أقدر على الاحتيال وأحق بالعقاب .

وكان حكيم الصين الأكبر كنفشيوس على رأس القائلين بإسناد الحكم إلى الحكماء .

ولكنه على جلالة قدره وجد من الحكماء أنفسهم من يفند رأيه ويبطل حق الحكيم خاصة في ولاية الأمور ، وعلى رأس هؤلاء شانج شن Shangchun الذي يقول : « إن الحاكم اذا اختار العقلاء وذوي الدراية لمناصب الدولة فمن دأب هؤلاء أن يستخدموا عقلهم ودرايتهم في موافقته طلباً لمرضاته وحذراً من سخطه ، ويفضي الأمر الى خلل الحكم وشيوع الفوضى »

ويرد على هؤلاء من يرى أن توضع الشروط أولا للوظيفة والموظف ، وأنه على فرض الخطأ في الشروط فإن الشروط التي تخطىء خير من إغفال الشروط كل الاغفال . ويضرب الحكيم كوانتزي Kwantse المثل على فضل القانون في جميع الأحوال فيقول « انه على الأقل يريح خواطر الرعية . ومثال ذلك أننا إذا قررنا تقسيم الحصص بالاقتراع بين المال والخيل لم تأت الأنصبة على سواء ، ولكن الاقتراع يرضي أصحاب الأنصبة لأنه يمنع المحاباة » .

وقد قيل في أصل الحكومة كل ما قاله فقهاء الغرب في القرون الأخيرة مع اختلاف الأساليب . فمن حكماء الصين من يجعل الحكومة ضرورة لانطباع الناس على النزاع والعدوان ، ومنهم من يجعلها ضرورة لأنها تتفرغ لعمل لا تتفرغ له الرعية كلها . ويكاد الحكماء أن يتفقوا على أن مصلحة الرعية هي أساس الحق في الحكم ، وشعارهم جميعاً قول كنفشيوس ان السماء تقول ما الشعب قائل وتسمع ما الشعب سامع ، وإن خلع الحاكم علامة على رجعة السماء في تفويضها .

ولا يشذ عن هذا الرأي من يقول إن الأرض ملك لابن السماء ، فإنهم يحسبونها ملكاً له باعتباره مسؤولاً عن مصالح الرعية ، ويقولون ان تحصيل الضريبة لا يحق للحاكم ما لم تكن جزاء على عمل نافع لمن يؤديها .

إلا أن هذه المذاهب على قدمها وكثرتها لاتعدو مباحث النظر ومساجلات المفكرين ودروس المعلمين ، فلم يكن لها أثر في إقامة دولة وإسقاط دولة ،

وانحصرت فائدتها في تثقيف بعض الولاة والملوك . فمن كان منهم مطلعاً على آراء الحكماء عمل بما يروقه من آرائهم ، ومن وكل منهم الرأي الى الوزراء من الأساتذة والمؤدبين فالناس منتفعون بحكمة وزرائه كلما اقتدروا على العمل بحكمتهم ، ولم يحدث قط ان الدولة قامت لتطبيق مبدأ أو سقطت لمعارضة مبدأ ، وإنما تأتي الفائدة وفقاً لما يستحسنه الملوك والوزراء .

وهناك تجارب سياسية أو ادارية تولدت في الصين من اجتماع ظروف فيها لم تجتمع على هذا المنوال في غيرها .

ومن هذه التجارب القضاء على أمراء الإقطاع بعد نظام الإقطاع الذي أسسه شو كنج ووضع فيه كل ما يمكن من الأقسام ، ومنها إقطاع المدن الذي عرف باسم تيين وإقطاع الإمارات او الدوقيات الذي عرف باسم هو ، وإقطاع الحكومات القديمة التي حفظ لها حقها في بلادها الى حين ، وكانت تعرف باسم (وي) وإقطاع الحدود الذي كانت مهمته حراسة حدود الدولة وكان يعرف باسم هوانج .

وقد كان هذا التقسيم على غاية من النفع في بداءته وظل كذلك عدة قرون . إذ عملت كل ولاية على تمدين القبائل الهمجية فيها بنشر المعارف الزراعية والعادات التجارية بين أهلها ، ثم ضعفت الحكومة المركزية فضعفت رقابتها على الأطراف القاصية ، وجاءت الأسرة التالية فبطشت بأمراء الإقطاع كافة واستبدلت بهم حكاماً توسمت فيهم الكفاية والأمانة ، ثم وضعت نظام الولاية بالامتحان ورشحت كل من أنس في نفسه القدرة على أداء الامتحان المطلوب ، وساعدها على ذلك ان الصينيين يقدسون الأسلاف ويتوجسون من الجندية ، ولو أنهم استطاعوا لقصروا الولاية على الآباء والشيوخ المحنكين ، فإذا كان الآباء لا يؤخذون بالاختبار والامتحان ، فالبديل منهم ذوو الحنكة والدراية الذين يثبتون خبرتهم بالاختبار ، أو الامتحان .

هذه الضربية قضت على الإقطاعيين باعتبارهم طبقة تجمعها جامعة واحدة وتنتقل سيادتها بالوراثة . فمن ارتفع بعد ذلك الى مكان الولاية واستولى على

ضيعة أو إقليم فإنما هو فرد لا تضمه الى غيره طبقة متساندة وقد يخلفه والٍ من عامة الشعب لا عصبية له ولا مزية له على العامة غير درايته واحترام الرعية لعلمه وفهمه .

واختفى مع الإقطاع ، نظام آخر لازمه قديماً في غير البلاد الصينية ، وهو نظام الرق ، واستعباد المغلوبين بالمئات والألوف ، وأعان على اختفاء الرق أن الحاجة اليه غير لازمة مع وفرة الأيدي العاملة وتقسيم الأرض الزراعية بين أقرباء الدم والمصاهرة .

ومن ظروف الصين التي خصت بها على نطاق واسع ، أنهم اختبروا الملكية المشتركة من أقدم العصور ؛ ولبثت بقية منها متخلفة الى زمن قريب .

فالأرض كانت ملك القبيلة على المشاع ثم تكاثرت القبائل فأصبحت ملكاً للدولة ، وأصبحت للدولة حصة من المحصول تتسلمها عيناً وتقدرها على حسب المسافة بين العاصمة والأرض المزروعة ، فالأرض البعيدة ، ترسل المحصول حبوباً ، والمتوسطة ترسل الحبوب في السنابل ، والقريبة ترسل الحصيد كله ، ويتفاوت المقدار في كل حصة ، للتسوية بين الضرائب في جميع الجهات ، ومن هنا تكفلت دواوين الحكومة قديماً بضروب من التجارة والتوزيع ، لتصريف المحصولات التي تجبيها .

وحلت الأسرة محل القبيلة زمناً في الملكية الزراعية ، ثم تقسمت الأنصبة فتاتاً يصغر شيئاً فشيئاً ، ويحتاج مالكه الى استئجار الأرض من غير ملكه ، اي من الوالي الذي ينوب عن الدولة في الاقليم .

وكانت في كل إقليم ـ خلال هذه العصور جميعاً ـ أرض شائعة يتطوع الفلاحون لخدمتها ، وهي الأرض الموقوفة على هيكل السلف الأكبر في ذلك الإقليم ، فمن غلة هذه الأرض ينفقون على بناء الهيكل وترميمه وخدمته وإقامة محافله ، ويعمل الفلاحون فيه بدعوة من الكاهن والوالي أو بالتفاهم على المناوبة ، ولا يتقاضون أجراً من أحد .

***

وتنتهي بنا ظروف الصين الخاصة بها والمشتركة بينها وبين غيرها ـ الى نتيجتين :

النتيجة الأولى ان تجاربها الماضية تجعلها باباً مفتوحاً لكل تجربة محتملة ، تدخلها غريبة وتصطبغ فيها بصبغتها الوطنية ، اذ لم يكن من طبيعة الأنظمة الحكومية التي سبقت فيها أن تغلق الباب على نظام جديد يطرأ عليها .

والنتيجة الثانية ان أحداثها السياسية تحسب من قبيل التغييرات المتشابهة ولا تحسب من قبيل التطورات المتجددة . فإن أسرتها الأخيرة نسخة من أسرها الأولى قبل الميلاد بعدة قرون ، ومحور التغيير فيها قوة الأسرة وضعفها . فإذا كانت الأسرة وطنية،تربصت بها القبائل الساطية غرة الضعف والغفلة فانقضت عليها واغتصبت منها عرشها ، ثم تضعف هذه الأسرة الأجنبية وتعتريها الغفلة مع الزمن ـ فتسقطها أسرة وطنية اخرى او غارة جديدة من القبائل الضاربة حول بلاد الحضارة ، فليس في هذه التغييرات تطور لنظام الحكم على مبدأ جديد .

وكل ما أثر عن الحكماء من المذاهب والنصائح فإنما هو من الوصايا التي تساق الى كل حاكم على كل نظام من أنظمة الحكم الملكي او الجمهوري او الفردي المستبد أو الشوري النيابي ، او ما شئت من الأنظمة العتيقة والمبتكرة . فما من حاكم إلا يجوز ان يقال له ان العدل خير من الظلم،وإن الكفاية،أولى بالاختيار من الحظوة الشخصية ، وإن القوانين عصمة الملك ورضى الرعية ، وما لم يكن هنالك برنامج مفصل يصلح لنوع من الحكومات ولا يصلح لنوع آخر،فلا محل للانقلاب من جراء تلك المذاهب التي يسلمها من يسلمها،او يناقشها من يخالفها مناقشة النظر والدراسة .

ومرجع النقص في عوامل التطور هنا الى سببين على الأرجح : اولهما العزلة عن العالم ، وأحداثه الفعالة بين الأمم القريبة والبعيدة . وثانيهما العزلة الداخلية ، ونعني بها عزلة الحكومة المركزية عن الأطراف القاصية وعن مباشرة التفصيلات في ادنى الولايات وأقصاها على السواء .

فالبلاد التي تشرف فيها الحكومة على تفصيلات الحكم في كل إقليم من

أقاليمها يتطور نظامها الحكومي عند كل تطور عظيم يطرأ على المجتمع . لأن الحكومة فيهاهي كل شيء بالنسبة الى الأعمال العامة ، فلا مناص من تغيير نظامها كلما تغيرت مطالب المجتمعات التي تتولاها .

وهذه حالة غير حالة البلاد المترامية الأطراف . فإن العلاقة بين أقاليمها وحكومتها المركزية تتراخى فلا تشرف هذه الحكومة على تفصيلات الحكم في الأقاليم ، ولا يتحتم انقلابها كلما طرأ على هذه التفصيلات طارىء جديد .

فإذا لم يكن ثمة طارىء جديد فالانقلاب من باب أولى ليس بالحتم المقضي لا محالة ، وقد كانت بلاد الصين جميعاً بمعزل عن العالم وأحداثه وتغييراته ، وكانت مكتفية بنفسها فخورة باكتفائها ، فلا تسقط فيها الحكومة المركزية الا إذا عجزت عن حماية نفسها وتفاقمت مساوئها فخذلها من كان ينصرها .

ودام الحال على ذلك عشرات القرون . .

ثم مرت بالبلاد عشرون سنة بدلت كل شيء غاية التبديل ، فلا عزلة عن العالم الخارجي بل لجاجة في الاتصال واشتباك العلاقات ولا استغناء عن الحكومة المركزية في كبير الأمور او صغيرها ، بل هي الحكومة التي لا بد من صلاحها او تغييرها : تغييرها هذه المرة تغيير التطور في النظام وفي جملة السياسة وتفصيلاتها .

وهبت في البلاد ثورات ، ولكنها كانت من ثورات التاريخ الماضي،وعلى سنته البالية ، فلم تفلح ولم تغير شيئاً ، لأنها هي نفسها أحوج ما كان الى التغيير .

وانتظرت البلاد ثورة من التاريخ الحديث .

فجاءتها الثورة من تاريخ العصر على يد الرجل الذي سمي بحق ابا الصين الحديثة ، وسمي بحق نبي الوطنية في الصين .

ابو الصين

أبو الصين

نعم . سمي سن ياتسن بحق أبا الصين ونبيّها الوطني ، وهي لم تعرف نبوة في غير الوطنية .

وكان أبا الصين ونبيها الوطني حقاً لأن الصين كانت فريسة لجراثيم اليأس والموت ، فنفخ فيها روح الأمل ونقل إليها جراثيم الحياة .

ولم يكن بدعاً بين الزعماء . فهناك أعمال عملت له قبل مولده ، وهناك أعمال عملت له بعد مولده ولم يطلبها ولم يتعب في تدبيرها .

وهكذا جميع الزعماء في جميع الأمم في جميع العصور .

إلا أن نصيب هذا الرجل من فضل الزعامة كان أعظم من نصيب الزعماء في زمانه . فكتبت له وحده رسالة الزعامة التي لا غنى عنها ولا تجدي موافقات الحوادث شيئاً بغيرها .

فمن الصعب أن نفهم كيف كان سن ياتسن يقدر على رسالته لو لم يولد حين ولد ، فكانت ولادته قبل ذلك بعشرين سنة ، أو بعشر سنين .

ومن الصعب أن نفهم كيف كان يقدر على رسالته لو لم تكن نشأته في الجنوب حيث نشأ ، ولو لم يكن تعليمه كما تعلم ، ولو لم يكن أخوه الأكبر الذي أشرف على تعليمه بعيداً عن أرض الصين يوم بلغ الصبي سن المدرسة .

ولكن الأصعب من هذا أن نفهم كيف كان رجل غيّر سن ياتسن مقتدراً على مهمته لو لم تكن له سليقته وعزيمته وبديهته وخليقة اليقين في وجدانه وبث اليقين في وجدان الآخرين .

ولد سن ياتسن في نوفمبر (سنة ١٨٦٦) والناس يتحدثون بثورة التايبنج

وأنصار هذه الثورة يلوذون بالجنوب ، بعد القضاء على حركتهم واتفاق الدول الصينية والدول الأوروبية على مطاردتهم واستئصال بقاياهم .

وقضي على الحركة يومئذ ولم يقض على جماعاتها السرية التي تغلغلت بين قرى الشمال والجنوب من أقصى الأقاليم الصينية إلى أقصاها .

وكان من الطبيعي أن تلوذ بالجنوب لأن العطف فيه على الحركات الثورية أعظم وأصدق ، ولأن الأنصار المؤيدين فيه للأسرة المالكة أقل وأضعف .

ففتح سن وين[1] الصغير أذنيه على أخبار الثورة ، وفتح عينيه خفية على تنظيماتها ولجانها ، وقاده تطلع الطفولة قسراً إلى استبطان أسرارها واستقصاء أحوالها وتواريخها .

وليس أقدم من تواريخ الجماعات السرية في البلاد الصينية . ففي أيام أسرة هان قبل عشرين قرناً كانت جماعة (الحواجب الحمر) قوة مرهوبة في الحرب الأهلية ، وسميت كذلك لأن صبغ الحاجبين باللون الأحمر كان علامة بينهم حين يتعرف بعضهم إلى بعض في غير بلد غريب .

وأشهر هذه الجماعات في العصور الوسطى - جماعة الزنبقة البيضاء - نشأت على أيام الأسرة المغولية ، وعادت إلى الظهور على أواخر أيام أسرة (منج) الوطنية فاجتاحت الأقاليم الجنوبية وخمدت ثورتها بعد أن قتل عشرون ألفاً من أعضائها .

وفي القرن التاسع عشر تجددت هذه الجماعة ونشأت إلى جانبها جماعة الثالوث إشارة إلى السماء والأرض والإنسان ، وجماعة (كولاوهوي) أي الإخوة الكبار ، وكانت تعيث في جوانب الأرض انتقاماً من الأسرة المالكة وإزعاجاً لها ، ولكنها لم تكن ذات برنامج سياسي أو خطة مرسومة لولاية الحكم بعد سقوط الأسرة الحاكمة ، ومن لجانها طائفة كبيرة ناصرت الحركة

---

(١) هذا هو اسمه في شهادة الميلاد وأما (ياتسن) فهو من صيغ التكريم عند أهل كانتون حيث كان يقيم عند بلوغه مبلغ الشباب ومعناها الحر .

الوطنية بعد إعلان الجمهورية .

ولم ينقطع تأليف هذه الجماعات بعد انهزام جماعة التايبنج فنشأت جماعة الملاكمين ، ونشأت بعدها جماعة الحواجب الحمر ونشأت هنا وهناك جماعات إقليمية للدفاع أو للهجوم ، ولكنها كررت أخطاء التايبنج ولم تعتبر بدروسها .

فنشأ سن ياتسن في صباه وهو يحلم بتأليف جماعة من هذه الجماعات . . . ولو لم تكن هذه الجماعات وأمثالها حلم طفولة لقد كان الأحرى بإخفاقها أن يثنيه عن محاولاتها وجرائرها .

***

وكان مولده في قرية سيانجشان بإقليم كوانتنج . وقيل إن أباه كان من أعضاء جماعة التايبنج المسيحيين الذين يؤمنون بمذهب زعيم الجماعة في المسيحية ، ومنه ادعاؤه أنه أخ صغير للسيد المسيح . وقيل غير ذلك إنه كان من أعضاء الجماعة ولم يؤمن بنحلتها الدينية .

وكان مولد سن ياتسن في الجنوب ترشيحاً آخر للمطالبة بالحرية ، إذ كان الجنوب يعادي الأسرة المالكة التي كان فريق من أهل الشمال يتعصبون لها ، لمجيئها من الشمال ومقام ذويها وأتباعها في عواصمه وقراه ، وإذ كان الجنوب أقرب إلى الحرية والحضارة الحديثة وأكثر اختلاطاً بأمم العالم واطلاعاً على شؤونها ، إما بمعاملة الوافدين إلى الموانىء الجنوبية وإما بالرحلة إلى الديار الخارجية .

ونحن نستصغر اليوم أثر هذه النشأة في مستقبل طفل صغير . لأننا نتوهم حالة الصين يومئذ كأنها حالة عصرية يطلع فيها القارىء على أخبار الصحف والإذاعة حيث كان ، ولكننا نصحح هذا الوهم في أخلادنا متى ذكرنا أن الصحافة لم يكن لها وجود بين الشماليين وأن الاطلاع هناك على أخبار الخارج ممتنع بغير حاجة إلى مانع من الحكومة . وهذا هو الفارق البعيد بين اطلاع

الناشىء في الجنوب على شؤون العالم وبين اطلاع أبناء الشمال على تلك الشؤون ، وحسبنا أن نراجع تواريخ هون سيوتسوان زعيم التايبنج وكانج يووي زعيم النهضة الأدبية وليانج شيكاو زعيم المدرسة الدستورية الملكية ،وأن نراجع تراجم تلاميذهم العاملين ، لنذكر معنى النشأة الجنوبية في ذلك الجيل .

وقد لاحظ المؤرخ جرين صاحب كتاب « قصة ثورة الصين » أن التنافس بين الشمال والجنوب ظاهرة مألوفة بين أمم كثيرة شرقية أو غربية . . . فهو مألوف بين أبناء الشمال والجنوب في الولايات المتحدة ، ومألوف بينهم في إيطاليا ، ومألوف بينهم في بروسيا وألمانيا الجنوبية ، ويحدث هذا التنافس تارة لأسباب عنصرية وتارة لأسباب سياسية أو اقتصادية ، كما يحدث أحياناً لمجرد الولع بالمفاخرة وميل الإنسان عادة الى تفضيل مكانه وعشيرته وجيرته وكل منسوب إليه على حسب درجاته من القربى .

***

ومن تمام الموافقة في نشأة سن ياتسن ، بعد مولده في الجنوب ، وعلى أعقاب ثورة التايبنج - أن تعليمه المدرسي كان تعليما عصرياً رشحه لقيادة الجيل المعاصر من نابتة المدرسة الحديثة من خريجي الغرب واليابان والمعاهد الصينية المترقية .

كان والده فلاحاً وأخوه تاجراً من أصحاب المعاملات في الخارج ، فدرج وهو يعرف متاعب الفلاح الصيني ومتاعب التجارة الصينية أمام المزاحمة الأجنبية مستغنياً بالمشاهدة عن التعليم . وأراد أبوه وأخوه أن يعداه لحياة غير حياة الزراعة والتجارة ، وكان أخوه يتجر في هنولولو فطلب إلى أبيه أن يرسله إليه تخفيفاً عن الأسرة وتمكيناً للصبي الصغير من تعليم أصح وأوفى من التعليم الذي يتهيأ لمثله في بلاده . فوصل إلى هنولولو وهو يناهز الثالثة عشرة وانتظم بمدرسة حديثة يديرها الآباء الانجيليون ، وقضى ثلاث سنوات قيل إنه اطلع خلالها على بعض الكتب المسيحية فمال إليها وأبلغ أخاه رغبته في التنصر ،

فبادر هذا وأعاده إلى بلده ولم يشأ أن يتسلمه من أبيه على دين أجداده وأن يعيده إليه وقد صبأ إلى دين آخر . إلا أن الصبي كان شديد المراس من صغره وكان أساتذته يشكون من عناده ويعاقبونه على مخالفاته ، فلم يكن جنوحه إلى المسيحية بتلقينهم وتشجيعهم بل بمحض مشيئته واعتقاده : فلما قفل إلى قريته أصر على عقيدته وتعمد الجهر بمخالفة العقيدة الموروثة عسى أن يقصيه أبوه عن القرية إلى مدينة يتمم فيها دروسه على المناهج العصرية . فهجر القرية فعلاً إلى كانتون ورآه هناك طبيب من أعضاء البعثة البروتستانتية الأميركية فنصح له بدراسة الطب وأرسله إلى هونج كونج ليتعلم الطب في مدرستها الكلية ، فتخرج منها سنة ١٨٩٢ وانتقل إلى مكاو وهي تابعة للحكومة البرتغالية ـ لمزاولة الصناعة فيها ، فلم تمهله حكومتها أن أمرته بمغادرتها متذرعة بما اتصل بها عن نشاطه السياسي ، وكارهة في الواقع أن تفتح على أطبائها باب المنافسة من طبيب صيني متخرج من مدرسة إنجيلية ، ولم يلبث بعد أن عاد إلى كانتون أن ابتدأ دعوة الإصلاح بعريضة مفصلة اقترح فيها على حكومة بكين تعميم المدارس الزراعية على النمط الحديث ، فطوت الحكومة هذه العريضة ولم يكسب منها الفتى المصلح إلا أنهم أضافوا اسمه إلى السجل الأسود ، وفرضوا الرقابة على حركاته وعلاقاته .

***

هذه الموافقات المتجمعة من مولده ونشأته وتعليمه لم تكن من عمله ولا تحسب له من جهوده .

ولكنها موافقات يشاركه فيها مئات الناشئين في تلك الفترة ، كلهم من أهل الجنوب ، وكلهم من أبناء الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ، وكلهم متعلمون في المدارس الحديثة .

وقد سألنا في أول هذا الفصل : ترى ماذا كان في استطاعة سن ياتسن أن يصنعه لو أنه ولد قبل مولده بعشرين سنة ، أو قضى شبابه في قرى الصين المنعزلة بين شمالها ومغربها ، أو تعلم على الطريقة التقليدية التي لا تؤهله

لقيادة دعوة يتصدى لها المثقفون وذوو الآراء المتجددة ؟

ومن يسأل هذه الأسئلة خليق به أن يسأل معها : ترى ماذا كان في وسع زعيم غير سن ياتسن أن يصنع في قيادة تلك الدعوة إن لم تكن له صفاته ومزاياه ؟

لا شيء ! ولو كان في وسع أحد غيره أن يغلبه على القيادة لغلبه عليها في مبدأ الأمر على الخصوص ، قبل أن يضفي عليه النجاح سرابيل الهيبة والقداسة .

إن المزية الكبرى التي وهبها سن ياتسن ليست من المزايا التي توهب لكل إنسان .

وتلك المزية هي القدرة البالغة على التأثير والإقناع طواعية بغير كلفة أو هي بعبارة أوضح وأصدق أنه كان يملك الثقة ويعطيها ، وهي خصلة واحدة تجتمع فيها خصال شتى ، يصعب إحصاؤها ، بل يصعب إدراكها بارزةً على وجه الأمور .

كان في شبابه يراجع بعض الكتب بالمتحف البريطاني فالتقى بفئة من الثوار الروس ـ منهم شسشرين ـ ولعل منهم لينين ـ وسألهم عن غاية رجائهم من جهادهم . . . ثم قال لهم انه يرجو أن تحقق الثورة الصينية غايتها خلال ثلاثين سنة . . فتهافت الروس متعجبين : أفي ثلاثين سنة تحقق غايتك ؟ لو تحققت غاية ثورتنا بعد مائة سنة لكان هذا قصارى ما نتمناه ، وها نحن أولاء نجاهد من الآن !

قال جرين صاحب كتاب قصة ثورة الصين ـ وليس هو من الأسخياء بالثناء عليه ـ : « إن شخصية سن ياتسن لا تجحد . وهو أطول من عامة أهل الصين ، يوحي إليك منظره قوة الكيان . . ويلقي في روعك أنك أمام رجل لديه ذخيرة من القدرة غير التي تلمحها عليه لأول نظرة ؛ أهي قدرة الخلق أو العزيمة أو المغناطيسية لا تدري . ولكنها ولا شك هي القدرة التي أتاحت له أن يلعب بالجماهير من أبناء وطنه كما يشاء » .

ومن الكتاب الذين لا يسخون بالثناء عليه كذلك لاتوريت **Latowrette** صاحب كتاب (الصينيين ـ تاريخهم وثقافتهم) وقد وصفه فقال : « إنه كان داعية ناجحاً جد النجاح ، وكان مثالياً على خلاف طلاب المغانم من زعماء عصره العسكريين ، وكان مع اطلاعه الواسع على ثقافة الغرب والصين خبيراً بالمجتمع فيلسوفاً في المسائل الاجتماعية ، يحلم بالطوبى على المثال الأوفى ، وآراؤه التي يقترحها لتجديد بلاده لا تخلو من الإغراب وما لا يصلح للتطبيق ، ولكنها لا تخلو كذلك من نفحة العبقرية . وللرجل خاصة تجذب إليه الآخرين لم يوجد من يضارعه في سلطانه على خيال الناشئة من قومه ، وله قدرة خارقة على الايحاء وتنظيم الحركة الثورية ، أما الإدارة الحكومية فقد كان فيها بيّن الإخفاق » .

ولا بد أن قدرته على التأثير والإقناع كانت تفوق المشهور حتى عن زملائه من أصحاب السلطان على أتباعهم ومريديهم ، فلم يكن تأثيره وإقناعه مقصورين على الجموع الذين يتأثرون أحياناً بتنبيه غرائز الجماهير فيهم ، بل بلغ من سلطانه على الآحاد ما يشبه التنويم والسحر المزعوم ، واتفق غير مرة أنه استخفى من مطارديه وأن الحكومة جعلت على رأسه مكافأة مغرية لمن يأتي به حياً أو ميتاً أو يدل عليه ، وعرفه بعضهم أثناء استخفائه فاستطاع بحسن بيانه وقوة سلطانه أن يثنيهم عن تسليمه ويحولهم الى تأييده والاجتهاد في إخفائه .

وكثيراً ما تسرب اليأس الى خاصة أعوانه من الذين يعتمد عليهم في إحياء الآمال وانبعاث العزائم ، وكان لهم العذر من يأسهم لتوالي الهزائم عليهم وكثرة الضحايا من إخوانهم وقلة المال في أيديهم وتقاعد العامة والخاصة عن معونتهم أو ارتدادهم عليهم طمعاً في مثوبة الحكومة وخوفاً من عقابها ونشاط جواسيسها ، فما هو إلا أن يسمع بطائفة من هؤلاء غلبهم اليأس وخانتهم العزيمة حتى يلقاهم ساعة أو بعض ساعة فيخرجون من عنده الى المخاطر التي ندبهم لها وقد نسوا ما كانوا يعتلون به قبل ذلك من علل اليأس والانصراف عن الحركة ، ومنها ما هو حاضر أمام اعينهم لا تسهل المماراة فيه بأحاديع النفوس .

وأسعفته هذه الملكة الخارقة حين استدرجه عمال الأسرة المالكة في سفارة الصين بلندن فأوقعوه في كمين نصبوه له باسم الوطنية وجلب الأعوان إلى الحركة . فلولا اقناعه لأحد الحراس بإبلاغ رسالة منه الى أصدقائه لحملته السفارة الى بكين حيث ينتظره العذاب والتنكيل .

هذه الملكة الخارقة قد اتفق عليها مؤرخوه وناقدوه ، وانما اختلفوا في ملكته الإدارية وذهبوا في اختلافهم الى الطرفين المتقابلين : فريق يرفعه فيها الى ذروتها ويحسبها من مزاياه التي يخصها بالتنويه ، وفريق يجرده منها كل التجريد .

ولعل شهادة لينين هنا من الشهادات التي لا تهمل ، لأنه خبير بالرجال وليس من دأبه السخاء بالثناء على أي انسان .

قال : « إن سن ياتسن تعم أفكاره روح ديمقراطية مناضلةٌ ولا يبدو عليه أثر من العي السياسي وقلة الاكتراث للحرية ولا هو يقبل القول بأن الحكم المطلق كفؤ لإنجاز مطالب الإصلاح الاجتماعي في الصين . . »

ولا نظن أن النقاد الذين أنكروا عليه القدرة الإدارية سألوا أنفسهم عن المهمة التي فرضوا عليه النجاح فيها ، أو عن الرجل الذي كان خليقاً ان ينجح حيث أخفق ، وأن يعمل شيئاً أكبر من عمله وأبقى .

فقد كان المطلوب خلق ادارة جديدة على أنقاض الإدارة البالية ، وكان عليه أن يعمل بالأيدي القديمة قبل تدريب من يخلفها ، وأن يحسب حساب الخيانة والإحباط المتعمد كما كان عليه أن يحسب حساب الجهل والمخالفة بين أقرب المقربين اليه . وقد اعترضته الحرب العالمية بعد قيام الجمهورية بنحو ثلاث سنوات ، وسبقتها دسائس اليابان ومناوشاتها ، وهي عوارض خليقة أن توقع الخلل والاضطراب في إدارة الحكومات التي طال عليها العهد بالاستقرار والطمأنينة ، فكيف بالإدارة الحكومية بين قديم عاجز متهم وجديد عاجز لا يطمأن اليه وإن سلم من الاتهام ؟

إن العمل بعد إعلان الجمهورية كان أعسر جداً وأثقل جداً من العمل

قبل إعلانها ، وكلاهما عمل جبارين لا يقوى عليه غير أولي العزم والقوة .

وكفى دليلا على شيء منه ، ولا نقول عليه كله ، أن سن ياتسن كان يلام على الهوادة مع الشيوعية وعلى التشدد معها في وقت واحد .

ففي سنة ١٩٢٢ ـ أي بعد اعلان الجمهورية بعشر سنوات ـ رميت دار الزعيم بالقذائف وقاد الثورة عليه رجل من الجمهوريين اعتقد ان الزعيم يمالىء الشيوعيين ، وكان الزعيم يومئذ يقنع أدولف جوف مندوب الروس بكتابة البيان الذي يقرر فيه ان الشيوعية لا تصلح للصين في ذلك الحين . فنجا من داره بأعجوبة وعاش شهرين غادياً رائحاً على متن زورق صغير .

وفي هذه الفترة يتهمه المتطرفون بالتخلف والرجعية ويطلبون منه أن يلغي مبادىء الوطنية والسيادة ليقبل بجملته على الشيوعية ، وتتمادى الحملة عليه من المتطرفين حتى يواجهوه باتهام مكتوب يجيب عليه كتابة كأنه يؤدي الحساب أمام القضاء ، فلا يأنف ان يجيبهم ويقول في جوابه : « إن دعوى القائلين بتخلف مبادئنا إنما يبعثها فرط التعصب أو التعبد للثورة الروسية من جانب الطلاب الناشئين » .

وقد مضت بين إعلان الجمهورية وإعلان الحرب العالمية سنوات لا تحسب من عمله . لأن رئيس الجمهورية يوان شي كاي بيت النية على قلب الجمهورية وإعادة الملكية وتنصيب نفسه على عرش الصين عاهلا جديداً باسم ابن السماء . وأوشك ان يبطش بسن ياتسن لولا يقظة هذا وإسراعه الى مغادرة البلاد والإقامة باليابان مهدداً فيها بالتسليم . لأن ابن السماء المنتظر كان يترضى اليابان ويتقبل مطالبها لتنصره على خصومه الجمهوريين .

ونحن حين نكتب سيرة رجل عظيم نذكر على الدوام أن احوج الناس الى الإنصاف هم العظماء المظلومون . فما من عظيم الا وهو مظلوم على عمد وروية وعلى غير عمد وروية : يتعمد ظلمه أعداء موتورون ضيع عليهم نعم الرفعة والمجد والشهرة ، ويتعمد ظلمه صغار محنقون يتعوضون من شعورهم بالنقص أنهم ينصبون الميزان للعظماء ويعيبون هذا أو يتكرمون بالثناء على

ذلك ، ويظلمهم على غير عمد جهلاء لا يفقهون ما تتطلبه الأعمال الكبار وما يعترض تلك الأعمال من العقبات والأخطار .

ولا نكتم القارىء أننا نكتب سير الأفذاذ العاملين لتعظم عظمتهم ونلتمس مواطن العذر لهم في تقصيرهم ، وشعارنا أن معرفة المزايا أعسر من معرفة النقائص ، وأن الإنسانية فيها الكثير من النكرات والصغار فلا حاجة بها الى زيادة عليهم ، وانما حاجتها الكبرى ان تعطي العظمة حقها . . . فما كانت العظمة لتضيع ويبقى بين الناس حق لإنسان .

وسيرة أبي الصين مثل من أمثلة عدة للفضائل التي تحتاج الى تقدير وتقويم والأعذار التي تحتاج الى إيضاح وتذكير .

من سنة ١٨٩٢
إلى سنة ١٩١١

في كل مسألة من مسائل العالم الكبرى شيء لم يقع في التقدير .

ومن الصواب إذن أن نحسب للمجهول حسابه في كل مسألة من هذه المسائل الكبرى . فليس من اللعب بالألفاظ أن يقال إن المجهول في هذه المسائل عامل ثابت لا يمكن تجاهله ، لأن التاريخ لم يسطر لنا قط تدبيراً عظيماً لم يعرض له طارىء مجهول . فهو عامل صحيح كالعامل الذي نقدره وندبره ونحسب حسابه قبل وقوعه ، وإنما الفارق بينهما أن المجهول قد يأتي معجلا كما يأتي معوقاً او معطلاً ، وليس في طاقة الانسان أن يشق من احدى الحالتين قبل وقوعها . وان كان في طاقته ان يحتملها ويرجحها ويدخلها في حسابه على هذا الاعتبار : أي على اعتبار التعجيل واعتبار التعويق والتعطيل .

وسنعنى في هذه السيرة بالإشارة الى موقع هذه المجاهيل أو هذه المصادفات ، لأن إهمالها يخل بكل حساب صحيح .

كان الثوار من الشبان الروس يقدرون لنجاح ثورتهم مائة سنة ، وكانوا يحسبون زميلهم الصيني مبالغاً في التفاؤل حين قال لهم إنه يرجو أن يحقق غرض الثورة الصينية خلال ثلاثين سنة ، وكان هو يقول - وإن لم يعلن ذلك قبل نجاح الثورة - إنه لم يقدر سقوط الأسرة المالكة في حياته ، وإنه بقي الى سنة ١٩٠٥ يتحاشى ذكر الثورة في الجماعات التي يؤلفها ، ويسمي هذه الجماعات باسم الرابطة المتحدة .

ثم دارت الأيام دورتها فلم تأت سنة ١٩١٧ حتى كانت القيصرية هاوية وكانت الثورة قابضة على مقاليد السلطان في عاصمة القياصرة ، أي قبل انقضاء

عشرين سنة من المائة التي قدروها ، لأن هزيمة روسيا في الحرب العالمية كانت هي « المجهول » الذي طرأ ولم يكن له حساب ، فعجل بنهاية العهد القديم ودفع بطليعة العهد الجديد ثمانين سنة الى الأمام .

أما سن ياتسن فقد ظهر انه بالغ في إطالة السنين ولم يبالغ في تقصيرها ، فلم تنقض عشرون سنة على ابتداء دعوته حتى ذهبت الأسرة المالكة الى غير رجعة ، وكان يحسب أنه اذا سمى الحركة ثورة في سنة ١٩٠٥ صدم أسماع المدعوين الى تأييدها ، فلم تمض ست سنوات حتى كانت حكومة الثورة الصينية حقيقة يتسامع بها المشرقان والمغربان .

لقد كان يعتقد ان الأسباب مقنعة له ولأمثاله من ذوي البصر والعزيمة ، وأن جماهير الشعب لاحقة به وبهم بعد زمن طويل ، وأن غاية ما في وسعه ان يصنعه لتعجيل اليوم المنظور ان يثير النفوس بالهجمة بعد الهجمة والمجازفة بعد المجازفة . فتكفلت الحوادث بمعونته من حيث لا يحتسب بل تكفلت أسرة المانشو نفسها بمعونته من حيث تحسب أنها تحمي عرشها وتوطد أركانها : قبلت الهزائم وهي تظن ان السلامة في التسليم ، وأثارت ثورة الملاكمين فضربتها الثورة في صدرها ، وذهبت تلم شعثها وتجمع المغارم المفروضة عليها ، فثقل محملها على الكواهل وسقطت حين ضعفت هذه الكواهل الهزيلة عن حملها : أسقطها الضعفاء يوم عجزوا عن القيام بها ، ولولا ذلك لما قوي على إسقاطها العصبة الأشداء .

بدأ سن ياتسن دعوته بعد أن تخرج من الكلية الطبية وتفرغ للدعوة السياسية في السادسة والعشرين من عمره .

وقد بدأها في الواقع قبل ذلك بسبع سنوات على أثر الهزيمة التي منيت بها جيوش الدولة العتيقة أمام فرنسا سنة ١٨٨٥ . . .

إلا أن دعوته لم تجاوز يومئذ أصحابه وزملاءه ، ولم تكن عدتهم أولا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، ثم ازدادوا سنة بعد سنة وجاءته الزيادة من البلاد التي احتلها الأجانب أو البلاد التي وصل إليها الصينيون الذين ضاقوا

بالعيشة في وطنهم فهجروه الى البلاد الاسيوية .

نعمة من نقمة . . . فقد كانت تلك الأقاليم المحتلة أصلح لايواء الثائرين وتنظيم حركتهم من الأقاليم التي بقيت في ظل عرش ابن السماء .

وراح يجمع المال من الجاليات الصينية وينفقه على شراء السلاح ، وتأتى له في حملة واحدة أن يدس إلى داخل البلاد خمسمائة مسدس لتسليح أنصاره وابتداء الثورة بالشغب والمناوشة ، فتنبهت اليه جواسيس الحكومة وقبضت على طائفة من أصدقائه فقتلتهم بعد محاكمة سريعة ، وأعملت التنكيل والتشريد في بقيتهم آخذة بالشبهة حيناً وبغير شبهة في كثير من الأحيان .

وكانت السنوات الخمس من هذه السنة (١٨٩٥) إلى سنة (١٩٠٠) كما سماها سنوات انهيار . ثم كان بناء الحركة من جديد بعد ثورة الملاكمين ، وكان في هذه المرة ينظم جيشاً مسلحاً ولا يقنع بتأليف اللجان والجماعات ، واستعان على تنظيم الجيش بضباط من اليابان وآحاد هنا وهناك من الأوربيين المغامرين ، واستعان على النفقة الكبيرة بجمع الأموال من الجاليات الصينية في البلاد الاسيوية والأمريكية والأوربية ، وأخذت الهبات من أهل الصين تتوالى عليه غير مقصورة على الجنوبيين او المقيمين بالأقاليم المحتلة ، فانتظم له سنة ١٩٠٧ جيش في (بنلي) هزم جيش الدولة ، وكان وشيكاً أن يزحف الى العاصمة منتصراً لو لم تخذله الحكومة اليابانية الجديدة وتمنع تزويده بالسلاح وتحرم على المتطوعين امداده بالجند والمال .

وندع لسن ياتسن نفسه تفصيل رحلاته وحركاته فيما ترجمناه من كلامه في الفصل الأخير من هذا الكتاب ، ونكتفي بالإشارة المجملة الى المخاطر التي أفلت منها والمخاطر التي لاحقته الى ديار الغربة من اليابان الى امريكا الى انجلترا الى القارة الأوربية ، وجملتها في كلمات موجزة ان حكومة بكين رصدت ثلاثين ألف جنيه لمن يقتله حيث كان ، وأن سفارات الصين لم يكن لها من عمل تتقرب به الى العرش إلا أن تراقبه وتتعقبه وتنسج الشباك لاصطياده ، وتبلغ أخباره وكلماته حرفاً حرفاً ويوماً بعد يوم الى حكومة بكين . . .

إن الرقمين اللذين جعلناهما عنواناً لهذا الفصل يحددان وقت الدعوة العامة إلى الثورة في سيرة سن ياتسن ، ولكنهما لا يحددان وقت المخاطرة والمجازفة في تلك السيرة التي اقترن فيها الحساب الدقيق والمصادفة العجيبة أيما اقتران .

فإن الرجل قد استهدف للخطر وهو يافع متهم في قريته بالاجتراء على شعائر قومه ، فلم يأمن البقاء فيها وفارقها على عجل الى كانتون . وقد استهدف للخطر مرات بعد إعلان الجمهورية بسنوات .

وفي جميع هذه المخاطر كان الفضل في نجاته يرجع يوماً إلى يقظته ، ويوماً إلى حيلته ، وربما رجع الى خبرته بالملاكمة التي أغراه بالتدريب عليها شيوع الثورة المعروفة باسم ثورة الملاكمين ، وربما رجع الفضل في نجاته الى قوة تأثيره وقدرته على الإقناع .

غير أن المصادفة وحدها هي التي انقذته من أكبر أخطاره ، وهو خطر الاعتقال في السفارة الصينية بلندن في شهر اكتوبر سنة ١٨٩٦ .

كان يزور واشنطن فنمي اليه أن سفارتها الصينية ترصد الكمائن لاقتناصه ، فبرحها الى لندن باسم مستعار ، ولم تمض أيام حتى علمت سفارة لندن بوجوده ونصبت شباكها حوله ، وليس أيسر من نصب الشباك حول رجل يريد أن يلقى في العاصمة الإنجليزية كل صيني يتمكن من لقائه ، ولا عمل له غير نشر الدعوة بين هؤلاء الصينيين .

وإنه ليسير ذات يوم في طريقه اذ اقترب منه شابان صينيان وسأله أحدهما : أمن اليابان أنت أم من الصين ؟ فلما قال له إنه صيني من كانتون واستمع الى لهجته الكانتونية أصغى اليه وطفق يسأله عن أحواله وأحوال اخوانه ، وخطر له أنها فرصة ملائمة لتأليف لجنة من لجان الدعوة الثورية فاسترسل مع الشابين حتى بلغا قصراً كبيراً فتح بابه فجأة واندفعت منه شرذمة من الخدم والسعاة جذبوه الى داخل القصر وحبسوه في حجرة من حجراته ، وتركوه هناك لا يزوره غير خادم يحضر له الطعام وحارس يتفقده من ساعة الى ساعة ، ومضى عليه أحد عشر يوماً وهو بهذه الحال يسمع كل يوم إن وقت الفرج قريب !

وأسعفته قدرته على التأثير فاستطاع ان يقنع أحد الحراس بتبليغ رسالة صغيرة إلى صاحب العنوان المكتوب عليها ، وهو السير جيمس كانتلي Cantlie أستاذه القديم ، فبر الحارس بوعده ورمى بالرسالة وراء الباب وطرقه طرقاً عنيفاً وتوارى في منعطفات الدروب .

ولم يتوان الأستاذ لحظة ، لأنه يعرف حكومة الصين ويعرف عقابها للثوار ولا يجهل مصير تلميذه اذا ظفر به التنين : دق العظام ورض المفاصل وسمل العينين وصلم الأذنين ثم الإجهاز على الفريسة ان بقيت فيها بقية للموت .

هرول السير جيمس الى دار الشحنة Scotland Yard واستحثهم للنجدة فلم يزيدوا على إبداء الأسف والاعتذار بحصانة السفارات ، وأن أيديهم مغلولة عن التعرض لها بغير طلب من السفارة أو وزارة الخارجية .

فهرول الى وزارة الخارجية يعد اللحظات خوفاً من فوات الوقت وخروج الأمر من يد الوزارة . ولم يلق اهتماماً من الموظفين المسؤولين لولا صديق له منتدب لبعض دواوينها ، فبذل هذا الصديق جهده لإبلاغ المسألة الى اللورد سالسبوري ، وسئلت السفارة فأجابتهم بغير اكتراث :
إن الرجل ينقل الى بلده رحمة به واستجابة لتوسل أهله . لأنه مجنون يخشى عليه !

ونجاة سن ياتسن على هذه الصورة ترجع الى أكثر من مصادفة واحدة أو مصادفتين .

فمن المصادفات انه اعتقل ولم تكن بالميناء القريب سفينة صينية تأمنها السفارة على سرها ، وتطمئن الى إيداعه خفية بين ركابها ، ولو قيضت للسفارة سفينة تتوافر لها شروطها لحملت أسيرها قبل أن يعلم باعتقاله احد ينفع .

ومن المصادفات وجود السير جيمس بالعاصمة الإنجليزية ،وأنه كان على معرفة بالزعيم المعتقل .

ومن المصادفات وجود الموظف الذي يعرفه السير جيمس بوزارة

الخارجية . والواقع ان السير جيمس قد شك في نفع وساطته بعدما رأى من مراوغة الموظفين ورجال الشحنة ، فنشر الخبر في صحيفة التيمس وتحدث به الصينيون كما تحدث به رجال السلك السياسي ، فلم تقدر وزارة الخارجية على معالجة المسألة بالتسويف والمطاولة .

وأصبحت حجرة السفارة الروسية بعد هذا الحادث من الأماكن التاريخية . فهي في الدار الفخمة بميدان بورتلاند مزار يحج اليه وتقام فيه الصلاة كل سنة يوم ذكرى وفاته ، ولولا تلك المصادفات لما بقي لساكنهامنذ ذلك اليوم ذكر في الحياة ولا بعد الممات ، إلا أن يشهره التنكيل به علانية مع شهداء الثورة يوم يكتب لها النجاح .

ومن الكلمات التي تذكر بهذا السياق أن ما يعمل للحقيقة وما يعمل ضدها يخدمانها على السواء .

وهكذا يقال عن مناصرة القضايا الكبرى ومقاومتها ، فإن حكومة بكين لم تكن لتقدم على نصب الشباك لقنيصتها لو علمت عواقبها وما استفاد الرجل منها . فقد سمع باسم سن ياتسن بعد هذا الحادث من لم يكن يسمع به ، وتفتحت له مكاتب الصحف والاحزاب ودواوين الحكومات الأوربية والأمريكية ، وتنبه المهتمون بأمر الشرق الأقصى الى البحث عن مكانته ومبلغ نفوذه ؛ ولو انه سعى لنفسه ولقضيته جاهداً لأعنته المسعى قبل أن يدرك شيئاً مما ساقه اليه الأعداء بغير عناء .

* * *

وبهذه السمعة التي راحت تضخم يوماً بعد يوم حق له أن يخاطب الدوائر السياسية والدوائر الاقتصادية باسم الصين المقبلة ، ويحذر المصارف والشركات من معاملة الحكومة القائمة لأنها شبح ميت يوشك ان يطويه الغد القريب . وكانت تحذيراته هذه إحدى العقبات التي أوصدت على حكومة بكين وجوه الحصول على القروض ، وهي في أمس الحاجة إليها .

وإذا كان سن ياتسن قد سمى سنوات الفشل الأولى سنوات الانهيار لقد

كان الانهيار في الجانب الآخر أسرع وأخطر ، إذ كان هدماً ليس وراءه بناء ، خلافاً لهدم الثورة الذي كان وراءه من يقيمه على الأثر ، فضلا عن فائدة الثورة من تداعي أركان الحكومة المختلفة ، فكل ركن ينهدم من بناء الحكومة هو ركن يرتفع من بناء الثورة .

وأحاطت الحيرة بحكومة بكين من الجهات الأربع ، فكل حيلة تحتالها للخلاص تنقلب عليها معولاً من معاول الخراب ، ويظهر أن هذه الأسر المتداعية سواء في تواريخ جميع الأمم . فهي لا تخشى الخطر الا من خارجها ولا تتخيل انها تسقط الا بهجمة من عدو يواجهها وتستعد له بدفاع يصده ، وأما أنها هي تعمل بيدها ما يسقطها فذلك غريب عن خيالها . وهل تعمل دولة على إسقاط نفسها ؟ كيف هذا ؟ إنه اللغو والمحال في المقال بله الفكر والخيال !

وفي التواريخ العالمية أمثلة شتى على هذه الأسر التي يسلطها عمى البصيرة على نفسها في أواخر أيامها ، فتمضي في سباق مع أعدائها على تعجيل زوالها ، ويبدو للناظر أنها كانت خليقة أن تبقى بغير حاجة الى مجهود غير الكف عن مساوئها وحماقاتها ، ولكن المشكلة الكبرى أنها لا تستطيع أن تكف عن تلك المساوىء ، وآية عجزها هذه هي بعينها آية الفناء ، او هي آية استحقاقها للزوال .

ودارت الحلقة الوبيلة التي دخلت فيها أسرة المانشو ولم تزل تدور وتدور : حاجة الى المال ، فإرهاق للشعب المحروم،فسخط من الشعب ،فإلحاح على طلب المال للحراسة ودفع الثورة والتمادي في السرف والترف . . . كأنما السرف والترف على وداع .

ولم تكف الضرائب . فزين نصحاء السوء للحكومة المنهومة أن تبيع المرافق العامة عسى أن تتقرب بها الى الدول وأن تنفعها تلك الدول عند الحرج حرصاً على مرافقها ان لم يكن وفاء للحكومة المهددة . فسلمت فرع سشوان من سكة حديد بكين ـ كانتون ، ولما يفرغ أصحاب الأرض الوطنيون من تعويض تكاليفها وأثمان اسهمها ، فهب سكان الإقليم يتناصرون ويتوعدون ، وتألفت

منهم جماعة باسم حماة السكك الحديدية ، وانضم الى هذه الجماعة ألوف .

وسرت العدوى الى الإقليم المجاور- إقليم هوبي - فتنبه حاكمها وعثر في بعض المنازل التي فتشها بسجل الأسماء المشتركين في جماعة من أمثال تلك الجماعة ، وحدث هذا مساء التاسع من شهر اكتوبر (سنة ١٩١١) فلم يصبح الغد حتى فاجأه الثوار قبل أن يفاجئهم ، وعلموا أنه هو الموت المحقق اذا انتظروا ، وأنهم بين الموت والحياة اذا ابتدروه ، فأقدموا ولم ينتظروه .

وحان أوان المصادفة الأخيرة قبل إعلان الجمهورية ، إن كان للمصادفات أوان .

فإن جنود سن ياتسن لم يقدروا للثورة ذلك الموعد ، ولم يكن سن ياتسن نفسه بينهم ، بل كان في رحلة الى الغرب لجمع المال والعتاد ، ثم انفجرت قذيفة في إحدى الدور بالمنطقة الروسية ، وكان انفجارها خطأ غير مقصود ، فسرعان ما تسامع بها الناس ودهم الشرطة من الروس تلك الدار وجمعوا كل ما وجدوه من أوراقها ، وفيها أسماء الألوف من جنود الزعيم المنبثين في كل مكان .

هي الثورة اذن بغير انتظار .

ومهما يكن من فعل المصادفات في هذه الحوادث الجسام ، فقد ظهرت معها مزية التنظيم وحكمة الخطط المرسومة وضرورة الاستعداد للتوجيه والقبض على زمام الحركة حين تأتي الحوادث الجسام بمصادفاتها او بتقديراتها ، فلو لم تسبق هذه الحوادث خطة مرسومة للحكم الجديد ، تتولاها هيئة معروفة للثائرين ، لضاعت الحوادث المتفرقة حادثة بعد حادثة ولم تجمعها وجهة واحدة .

وكم في الواقع من عجب يعيى بمثله الخيال .

لقدْ كان موليير يمزح بالطبيب على الرغم منه ، ويحسبه كما يحسبه النظارة من افتنان الخيال .

فأعجب من طبيب على الرغم منه قائد ثورة على الرغم منه ، وذلك هو

القائد الصيني « لي يوان هنج » الذي انتزعه الثوار من فراشه ليقودهم ، وتوعدوه بالقتل ان لم يذعن لمشيئتهم ، فأذعن الرجل على كره منه وقاد الثورة مخلصاً للفن العسكري وإن لم يكن مخلصاً للثورة ، فاستولى بتلك الشراذم على ووشانج وهانكو وهنيان ، وهي قلب الصين ووقفت العاصمة تتردد بين التسليم وبين الاستنجاد بقائدها القديم المغضوب عليه ـ يوان شي كاي ـ وليس أقدر منه على تطويع الجنود للدفاع في ذلك المجال .

وعبرة الموقف العظمى هي أن المصادفة عامل يحسب له حسابه في كل قضية خطيرة ، ولكنها تضيع عبثاً إن لم تجد من كان مستعداً للانتفاع بها وقيادتها قبل ذاك .

فتلك الشراذم من الدهماء قد الهمت أن تطلب القيادة فانتصرت بها كرة بعد كرة ، ولكنها بقيادتها وانتصاراتها كانت ضائعة ولا شك إن لم تسبقها خطة مرسومة يتولى القائد تطبيقها ، ولم يكن قائدهم المغضوب عليه يعلم ما يصنع بعد الانتصار .

إنما كان علم هذا عند جماعة سن ياتسن ، وباسم هذه الجماعة تنادى الثوار المتفرقون وترقبوا منها ان تتجه بهم الى وجهتها ، وتردد اسم سن ياتسن على كل لسان .

اما قصر ابن السماء فقد كانت له أيضاً مصادفاته في هذا المأزق العصيب .

أيسلم للثوار أم يرتمي على أقدام قائده المغضوب عليه !

إن التسليم لثوار الجمهورية خسارة مائة في المائة ، وليس في استدعاء يوان شي كاي خسارة أكبر من هذه الخسارة اذا انهزم ، وقد ينتصر فيكفر انتصاره عن مذلة استدعائه ، وفي الغد متسع لرد هذه المذلة اليه صاعاً بصاعين .

وكان يوان شي كاي كما قال المثل « إن كنت ريحاً فقد لاقيت اعصاراً » . . .

فلم يرفض الدعوة ، ولم يقصر في الدفاع ، وانتصر في معركة بعد

معركة ، وبقيت المعركة الأخيرة بينه وبين صاحب الدعوة الى الجمهورية والصين كلها تتأهب لاستقباله بعد أيام .

أيقضي على الثورة فيسحقها ويسلم مقاد البلاد للوصية الماكرة تنتقم منه لمذلتها واضطرارها ساعة الحرج عليه ؟

لم يكن سحق الثورة يسيراً ، ولم يكن مأموناً ، فلتبق الثورة حية تخيف القصر الى أجل ، وليبق له القول الفصل في النزاع أو المساومة بين الخصمين

ووقف القائد الداهية على مفترق الطريق .

وأرسل يفاوض الزعيم المقبل ، ويتوسط لحقن الدماء ، وبدا للعالم بأسره يومئذ انه واسطة خير وبشير سلام ، وبدا للعالم بأسره بعد شهور انه استبقى العرش لنفسه ، وقبل الجمهورية على أن يكون رئيسها الأول ، ثم يزيح الزعيم بعد الخلاص من العاهل والوصية ، ويخلو له الجو كما يشاء حيث يشاء .

وجاء سن ياتسن فلم يشأ أن يتشبث برئاسة الجمهورية ، ولم يشأ ان يضع في الأفواه كلمة الاتهام المعهودة ، وما اسرعها وأيسرها على كل لسان في ذلك المقام !

إنه يخرب الوطن ، إنه يمزق الوحدة ، إنه سعى للرئاسة وعزّ عليه أن يفقدها ، فلا كان ولا كان مسعاه .

وهكذا ولد العهد الجديد في البلد العريق .

وهكذا نجحت ثورة ذلك اليوم : ثورة عشرة عشرة إحدى عشر ، كما تسمى الى الآن ، أي ثورة اليوم العاشر من الشهر العاشر من السنة الحادية عشرة في القرن العشرين .

ومهما يكن من المصادفات والدسائس والمناورات ، فهي بحق ثورة تستحق جهودها وتكاليفها .

وعلامتها الأولى اسمها .

فلأول مرة تقبل الأمة عيداً لا يحسب تاريخه بشهورها العتيقة ، وكانت شهوراً لا هي بالقمرية ولا بالشمسية ، يضاف النسيء إليها على هوى الكتبة والحسبة ،، أو هوى الخزانة والمحصلين ، فتحسب السنة اثني عشر شهراً أو ثلاثة عشر أو أكثر من ذلك أو دون ذلك ، ويحـاب تبديلهـا غـيرة على كرامـة الأسلاف .

ورب عنوان يغني عن تفصيل .

وعنوان (عشرة عشرة إحدى عشر) بعض هذه العناوين .

ثقافته السياسية

كان اتجاه الشاب الصيني الى تعلم الطب في أواخر القرن التاسع عشر كافياً وحده للدلالة على تحرر عقله من موروثات الدهور بين قومه .

فالقواعد الرياضية التي يعتمد عليها المهندس الصيني علم صحيح سواء عرفه بالخبرة أو اقترنت خبرته فيه بالقواعد النظرية ، ولا يبعد ان يمتاز المهندس الصيني على زميله الاوربي بالمهارة الفنية ولطافة الذوق وحسن استخدام الخشب وما إليه في موضع الحجر والملاط .

والاختلاف في أساليب الزراعة قد يكون اختلافاً بين الآلات والأصناف ، ويتساوى الفلاحون شرقاً وغرباً فيما يرجع من تلك الأساليب الى العقائد والتقاليد .

وليس بدعاً في الآداب ان تختلف آداب الأمم على تقاربها في الموقع والزمن وأصول اللغة .

أما الطب فالاختلاف بين حديثه وقديمه يشمل كل اختلاف بين العلم الصحيح وبين السحر والشعوذة .

ومن كان يؤمن بمزية الطب الحديث فقد تقدم شوطاً بعيداً في التحرر من القديم والاستعداد للتصرف والتجديد .

وربما أضيفت الى هذه الدلالة دلالة اخرى ذات شأن في التعريف بصاحب الترجمة ، وهي حب الإصلاح والتجرد للخدمة العامة . لأن المصلحين الشرقيين قد شاع بينهم بعد منتصف القرن التاسع عشر أن رسالة الإصلاح القومي ان هي إلا رسالة طبية صحية قبل كل شيء ، إذ كان وباء الهيضة

(الكوليرا) يفشو بين الهند والصين واليابان من حقبة الى حقبة ، فلا تنقضي عشر سنوات متواليات دون ان تنكب به أمة من هذه الأمم ، ثم يمعن فيها اصابة وفتكاً ويذهب كما جاء مجهول الأسباب في الجيئة والذهاب .

وقد دخل سن ياتسن مدرسة الطب وهو يؤلف الجماعات لتجديد الصين وإصلاحها ، ويجعل مهمته الكبرى تجديد الصين لا مجرد الاشتغال بالسياسة والحملة على الحكومة .

ولعله لم يتعمد أن يتعلم الطب ليستفيد منه التفكير على الأسس العلمية . . . ولكنه ـ تعمد ذلك أو لم يتعمده ـ قد استفاد هذا التفكير فعلاً وظهرت آثار النظرة العلمية في جميع مباحثه ودراساته ، فقد يصيب فيها أو يخطىء ولكنه لا يزن الأمور بغير الميزان السليم من الوجهة العلمية .

وقد اشتغل بالطب فترة قصيرة بعد تخرجه من المدرسة ، ولكنه لم يستطع ان يجمع بين التخصص للطب وبين التنقل لنشر الدعوة وتأليف اللجان وجمع المال واجتناب المطاردين والمقبلين ، وشغلته السياسة بدروسها ومطالعاتها كما شغلته بمساعيها وتنظيماتها ، فلم يكن ينتقل من بلد الى بلد الا بصحبة كتاب أو عدة كتب من مراجع الدساتير وأنظمة الحكم وأخبار الثورات في الأمم المختلفة ، حتى وعى من هذه المعلومات ما تضيق به صدور المتخصصين والمتفرغين .

ويدهشنا حقاً أن يقال إن الرجل من الحالمين الخياليين ، فإن الحالم الضارب في تيه الخيال تأخذه الدعوة النظرية فلا يميز فيها بين فكرة وفكرة على حسب الواقع في تطبيقاتها وفي مواطنها المتعددة . وهذا هو العيب الذهني الذي لا تتبينه من دراسات الرجل وتعليقاته ، فلا تشابه عنده بين نظام واحد في بلدين ، ولا بين الكلمة الواحدة في موضعين ، ولم يكن ينعى على ببغاوات السياسة في بلده امراً كهذه الخلة المعيبة ، فكانت نصيحته التي لا يمل تكرارها ان الاستقلال في الولايات المتحدة غير الاستقلال في الصين ، وأن مبادىء الثورة الفرنسية معقولة في زمانها وبين قومها ولكنها غير معقولة في زمان آخر ولا بين أقوام

آخرين ، وأن كارل ماركس لا يحل كل مشكلة ولا يعالج كل مرض ، بل استخدم صناعته في التعبير المجازي فقال عنه إنه طبيب توصيف وليس بطبيب علاج ، وإن توصيفه على هذا لا يوافق كل بنية ولا يستغني عن التعقيب والتصحيح .

كان يقول إن (الحرية والمساواة والإخاء) شعار له معناه عند الثوار الفرنسيين ولكنه لغو بغير معنى حين يجري على ألسنة ثوار الصين .

فقد كان الفرنسيون يطلبون الديمقراطية في الواقع ويمهدون لها بطلب الحرية والمساواة والإخاء . أما الصين فلا حاجة بها الى تحرير الفكر من سلطان الحكام لأن الناس فيها يقرأون ما يشاؤون ويكتبون ما يشاؤون ويعتقدون ما يشاؤون ، ولا حاجة بها الى تقرير مبدأ المساواة لأنهم بعد شخص الإمبراطور سواء أمام القانون . وأعظم وزرائهم ورؤسائهم نبغوا من سواد الشعب فلم يكن مولدهم بين ابناء الطبقة الفقيرة حائلا دون ولاية المناصب والتصدي بقيادة الأفكار بالعظات والدروس ، ولا حاجة بين الصينيين الى تقرير مبدأ الإخاء لأنهم آمنوا بوحدة وطنهم وجعلوا حدوده كجدران البيت الواحد تسكنه الأسرة الواحدة ، ويقدسون الأسلاف حتى ترتفع الى السلف الكبير في مجاهل التاريخ .

والفدرالية حسنة في الولايات المتحدة لأن ولاياتها كانت متفرقة فالتمست توحيدها من طريق الفدرالية . فالوحدة الوطنية هي الغرض من هذا الاتحاد ، وليس من الحكمة أن نفقد الوحدة في سبيل الفدرالية . بل المصلحة أن نجعل الفدرالية وسيلة الى الغاية الأولى ، وهي توثيق كيان الصين .

وكثيراً ما عاب على المتحذلقين لغطهم بما يسمونه حرب الطبقات وسألهم مرة بعد مرة : اين هي الطبقات ؟ وأين هم النبلاء المتوارثون ؟ وأين هي الكهانة ودرجاتها الكنسية والاجتماعية التي يسميها الغربيون بالهيرارشية ؟ .

وكان يقول إن حرب الطبقات عند كارل ماركس أصل من أصول التطور ، ولكنها في الحقيقة عارض مرضي يظهر كلما استشرى البلاء وعز

التعاون بين أصحاب المصلحة المشتركة ، ولو كانت أصلا من أصول التطور لكان أحسن الناس من يعمل لخلقها والحض عليها ، فكيف اذا كانت مرضاً يمنع كما تمنع الأمراض ؟

إن النداء بالديمقراطية أجدى على الصينيين من النداء بالحرية والإخاء والمساواة ، فما طلب الغربيون الحرية والإخاء والمساواة الا لأن الحجر على الأفكار وتفاوت الطبقات كان العقبة الكأداء بينهم وبين الديمقراطية .

ولما وضع مبادئه الثلاثة ـ وهي مبادىء القومية وسيادة الشعب وتيسير المعيشة ـ لم تكن بغيته كلمات تقال محاكاةً للدعوات التي تهتف بكلماتها وترددها على أسماع جماهيرها ، ولكنه توخى من كل كلمة هدفاً يلائم الصين ويوافق حاضرها ومستقبلها .

فوضع مبدأ القومية لدفع خطر التقسيم باسم الفدرالية ، واتقى به خطر المذاهب التي تسخر الجهلاء لتقويض أوطانهم وبث بذور العداوة بينهم وبين اخوانهم ، وتصوير هذه العداوة لهم كأنها بلاء دائم لا تجدي فيه الحيلة ولا تصلحه نظم السياسة ولا الأخلاق .

ووضع مبدأ السيادة الشعبية لإلغاء المعاهدات الأجنبية الجائرة وتخويل الأمة ان تختار موظفيها وتعزلهم ، وان تنكر على سلطان لا يستمده صاحب السلطان منها بمحض رضاها ، وأن تكون السياسة والإدارة والتشريع قائمة كلها على هذا الأساس .

ووضع مبدأ المعيشة الميسرة للجميع ، لأنه اعتبره غاية المذاهب قاطبة في كل زمن ، واعتبر الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية وسائر مذاهب الاجتماع وسائل عارضة لتلك الغاية الثابتة ، وما من مذهب منها يستحق ان يبقى بعد إنجاز مهمته وتحقيق غايته ، فما وضعت الاشتراكية او الشيوعية او الديمقراطية لذاتها ، ولا وضعت لتبقى في كل زمن وكل آونة ولكنها وضعت لتدبير معيشة الرعية واتباع وسائل مستحدثة لتيسيرها كلما قصرت وسائلها الأولى .

ولو شاء سن ياتسن أن يتخصص لتدريس العلوم السياسية لأغناه ما اطلع عليه من أمهات الكتب الغربية والشرقية في هذه العلوم ، وقد صادفت نشأته فترة حافلة بالمصنفات الحديثة والقديمة في نظم الحكم ومبادئه وفلسفة الاجتماع ومدارسه المتعددة وأصول الاقتصاد وعلائقه بالحكومات والهيئات الاجتماعية ، وكان يتابع هذه الكتب ويطلع عليها كلما صدر كتاب منها ، فادخر منها محصولا وافياً كأوفى ما يكون الاطلاع لو شاء أن يتخصص لتدريسها .

إلا أن براجمه تكشف عن غرضه من هذه المطالعات ، فإنما كان يتتبعها ويستقصيها ليفهم منها ما يصلح للتطبيق وكيف يكون تطبيقه في بلاده . ولم تكن هذه المطالعات من أجل هذا مصدر ثقافته السياسية دون غيرها . بل جعل وكده ان يمتحن مدارس السياسة وهي تعمل وتضطلع بتبعاتها ، فلم ينزل بلداً من بلاد الشرق والغرب الا اغتنم فرص الفراغ من نشر الدعوة وتنظيم اللجان لدراسة نظامه الحكومي وأدواته العاملة وعلاقته بالمجتمع وسائر طبقاته وهيئاته ، وقد شملت رحلاته بلاداً متباعدة في الموقع الجغرافي وفي النظم السياسية ، من اليابان الى الولايات المتحدة الى انجلترا الى فرنسا الى المستعمرات والولايات الخاضعة للدول الأجنبية ، ولقي في كل منها زعماء الحكم وزعماء المعارضة وسمع من هؤلاء وهؤلاء ما يقولونه نقداً او موافقة للنظم المتبعة ، فكانت مصادره من هذه الثقافة السياسية زاداً وافياً الى جانب زاده الواقي من المطالعة والمراجعة ، ويشهد له باستقلال الرأي أنك لا ترى انقياداً منه لمدرسة واحدة بين هذه المدارس أو نظام واحد بين هذه النظم ، فهي في ذهنه كالمائدة المطهوة يدخلها كل صنف من الأصناف ممتزجاً بما يصلحه ويعدل مذاقه كما يعدل مادة الغذاء فيه ، ويخطىء من يقول عن الرجل انه تلميذ لهذا او مريد لذاك ، فكلهم أساتذته ومعلموه ، وهو من أجل ذلك يختار الأستاذ والمعلم كما قال سعد زغلول عن الجامعة الأزهرية حين حضر على أساتذتها ومعلميها .

إلا أن براجمه وتعليقاته تشير الى المصادر التي كان لها القسط الأوفر من مطالعاته ومراجعاته ، ويمكن ان نحصرها في مصادر ثلاثة يؤثرها باهتمامه وتعقيبه وان لم يذكرها بأسمائها .

فأولها فقه الدستور الإنجليزي . وقد بلغ من إعجابه بتطبيقاته أنه ود زمناً لو تتهيأ للصين حكومة ملكية دستورية على النمط البريطاني ، وفي هذه الفكرة أيضاً لم يستسلم للقدوة دون العمل ، فقد عدل عنها بعد أن راقب أحوال الحاشية الصينية وأيقن أن تطبيق الملكية المقيدة في بلاده اعسر من تطبيق النظام الجمهوري ، وانه اذا لم يكن بد من التجربة فلتكن تجربة النظام الجمهوري أولى وأحق بالابتداء والانتظار .

والمصدر الثاني الذي كان يبدو من برامج سن ياتسن أنه كان مدمن الاطلاع عليه هو فلسفة كارل ماركس ، فقد شغل بها لتفنيدها وتوضيح الفارق بين الأحوال التي راقبها كارل ماركس والأحوال التي تقلبت عليها الصين منذ أقدم عصورها ، وأنكر من الفلسفة الماركسية كل شيء إلا الاهتمام بالمسائل الاقتصادية وإعطائها حقها الكامل في تكوين المجتمع ومصاحبة أطواره ، فهو لا يقل عن كارل ماركس اهتماماً بهذه المسائل ، وإنما الخلاف بينه وبين كارل ماركس أنه لا يحصر أهتمامه بها ولا يغفل عن مثل هذا الاهتمام بغيرها ، وأنه لا يعلق نبوءات المستقبل على شؤون الاقتصاد دون سواها .

والمصدر الثالث أحق هذه المصادر بالالتفات اليه ، لأنه أدل المصادر على سعة اطلاع الرجل وحسن استعداده للإفادة من الرأي الصواب حيث وجده ، ولو لم يكن صينياً لقلنا أن سنته الأولى أن يطلب العلم ولو في الصين .

هذا المصدر هو كتاب خامل ألفه بعد الحرب العالمية الكبرى طبيب أسنان روسي من الأسر التي هاجرت الى امريكا أيام القيصرية فراراً من مظالمها ، ترك اسمه الروسي وتسمى باسم موريس وليام وانخرط في سلك الثوار ثم في سلك الشيوعيين الى أن ساوره الشك في التفسير المادي للتاريخ فألف كتاباً بسط فيه شكوكه وانتهى منه الى تفسير التاريخ من الوجهة الاجتماعية النفسية ، بعد أن شرح نقائض القول بحرب الطبقات وتصدع المجتمع الديمقراطي واستحالة الإصلاح بغير هدمه والبناء من جديد على أنقاضه . ولم يطلع على هذا الكتاب عند صدوره غير آحاد معدودين منهم زعيم الصين ، وكان يومئذ قد فرغ من

إقامة الجمهورية وشرع في تدوين البرامج المفصلة لتنظيم المجتمع الصيني وإصلاح شؤونه وترتيب مرافق المعيشة فيه ، فكان اعتداده بآراء المؤلف الخامل وهو في اوج شهرته العالمية آية على النزاهة وحب المعرفة حيث وجد السبيل اليها .

ومن النقائض التي ابرزها الطبيب الروسي ان عصر الإقطاع قد زال على رأي ماركس لأن الطبقة الوسطى البرجوازية بلغت غاية الثراء ، وأن هذه الطبقة الوسطى تزول على رأيه لأن طبقة العمال ستبلغ غاية الحرمان ولا يبقى لديها ما تفقده غير سلاسلها ، ولا يمكن ان يكون هذا تسلسلا لعامل واحد على سنة واحدة . فلم يحدث مثل هذا قط قبل الآن بين الطبقات السابقة والطبقات اللاحقة .

ومنها أن معيشة العمال تتحسن وأن العمل الفردي يزداد خلافاً لنبوءة ماركس عن اطراد السوء في معيشة العمال واستحالة التوفيق بينهم وبين أصحاب الأموال .

وقد كان سن ياتسن يلاحظ هذا التناقض قبل صدور كتاب « التفسير الاجتماعي » لمؤلفه الروسي الطبيب ؛ ولعله تنبه اليه لما بينهما من زمالة الصناعة وزمالة الاشتغال بالدراسات الاجتماعية والسياسية ، فلم ينس ملاحظاته بعد ذلك على كونه لم يستفد منها غير شواهد العرض والتنسيق .

***

وإنه ليخلص من ثقافة العلم والعمل الى عقيدة راسخة،الحكومة الجمهورية والنظام الدستوري على الأصول الديمقراطية ، ويحسب الحساب لجدة هذا النظام في الشعب الأمي فيرجىء التوسع فيه ويرجو ان يؤتي ثمرته بعد فترة من الإرشاد وفترة من الإعداد ، مع إعلان سيادة الشعب عند إعلان الجمهورية .

وقد كان سن ياتسن أباً كسائر الآباء ، يتعجل الأمل حيث تبطىء به الحوادث ما ينتظر منها وما يأتي فجأة على غير انتظار ، فظن ان الشعب يتعود

النظام الجديد بعد سنوات ، ثم يتوسع فيه كلما درج عليه مرحلة بعد مرحلة ، فلما خاب أمله كانت مرارة الخيبة على قدر قوة الأمل ، ولم يغالط نفسه ولا اخفى على غيره وقع هذه الصدمة فقال في ألم شديد : « أرادت الصين منذ الثورة ان تقتدي بأوربة وأمريكا في تطبيق الديمقراطية السياسية ، ولما كانت الديمقراطية السياسية الغربية قد وصلت الى النظام التمثيلي وجب تطبيق النظام التمثيلي أيضاً في الصين ! إلا أن الجوانب الحسنة من النظام التمثيلي لم تدركها الصين وأدركت مساوئه عشرة أضعاف بل مائة ضعف . ومسخ اعضاء المجلس خنازير ملوثين بالقذر والفساد على مثال لم يعهد من قبل ، ويا لها من بدعة مذهلة في الحكم النيابي . فإن الصين لم تقصر في الاقتداء بالديمقراطية الغربية وحسب ، بل جاءتها هذه الديمقراطية ممسوخة فأصابتها بالضرر وأفسدتها .

***

قال بعض مترجميه « إنه مزيج من أنبياء المسيحية الأولى ، ومن نابليون ، ومن ثوار أمريكا الوسطى » .

وذلك وصف صادق للرجل ولا سيما يقين القداسة فيه ، فما من صورة لسن ياتسن تكمل بغير ملامحها الدينية من جانب ايمانه بالقداسة او جانب اعتماده على ايمان الآخرين بها .

كان نبياً للوطنية حيث لا أنبياء للدين ، وكان يعلم تقديس أبناء قومه لأسلافهم فيحرص على هذا التقديس ويحاول ان يجريه في مجرى الإيمان بالوطنية والفخر بالتراث القومي ، عسى ان يعتصم به القوم في مستقبلهم ولا يبددوه كله على الماضي وذكراه الخالية .

ومن نبوته الوطنية أنه كان عظيم الاعتداد بعهد الولاء ، فإذا فرط اتباعه في أمانتهم آلمه هذا التفريط وراح يتقصى أسبابه فلا ينسى منها - بل في مقدمتها - أنهم لم يعطوا العهد ولم يقسموا يمين الولاء . وكان على يقين ان تفريط رجل لا تراجعه ذكرى يمين أقسمها سهو غير مستغرب . اما الذي توقظ له الذاكرة قسماً راصداً في كل لحظة فالتفريط منه مقترن بشعور الإجرام ، وقد يثنيه وخز الضمير

عن الخيانة التي يشهد بها على نفسه كلما ذكر العهد وردد يمين الولاء ، وأشفق من وصمة الإجرام والنزول بنفسه منزلة المجرمين .

لقد كان يعمل عمل الزعماء .

وكان يشعر شعور الآباء ، ويحاسب الناس حساب القديسين الشهداء .

في الحياة البيتية

من الأقوال الشائعة ان العظماء ليست لهم حياة خاصة .

وإذا كان هذا القول محل الخلاف فيما يتعلق بمعيشتهم وهم بقيد الحياة فلا محل للخلاف عليه فيما يتعلق بتواريخهم وتراجم حياتهم بعد المهات . لأن فهم الحوادث وتقدير الأعمال وتعليل العلاقات قد يتوقف على أخبار البيت والأسرة وقد يكون ما يساعد العظيم في حياته العامة أو يكون منها ما يعوقه أو ما يصبغ علاقاته الخارجية بصبغة خاصة ، فلا يتساوى في نظر المؤرخ عند ترجمة العظماء ان تكون لهم حياة بيتية او لا تكون لهم زوجات وأبناء وأصهار وأقرباء .

ويصدق هذا القول على سن ياتسن كما يصدق على سائر العظماء ، أو لعله أصدق عليه من كثيرين غيره ، لأنه أخذ على عاتقه تجديد الصين وجاء زواجه فنقل رسالة تجديد الصين الى بيته وجعله من مسائله وهمومه . إذ كانت زوجته الأولى نموذج المرأة الصينية على التربية القديمة ، وكانت زوجته الثانية نموذج المرأة الصينية على التربية العصرية ، فليس أحدث من تربيتها في أوربة أو أمريكا بله الصين وما شابهها من الأقطار الآسيوية .

زوجه أهله من قرينته الأولى (لو ـ زو) وهو يناهز العشرين ، وكان غرضهم من هذا الزواج أن يغريه بالاستقرار ويربطه بالتبعات البيتية فلا يعرض حياته للمخاطر ثائرا على العرف وذوي السلطان . فكان زواجاً مناقضاً لوجهته كلها في الحياة ، وإن كانت هذه الزوجة مثال ربة البيت بشهادة المترجمين للزعيم والعارفين بأسرته أجمعين .

واضطر سن ياتسن على كل حال أن يتنقل بين البلاد ويطيل الغيبة

سنوات ، ولا يغشى الأماكن التي تعرف له علاقة بها لأنه كان طريد السلطان بعد زواجه فلم تتوثق بينه وبين هذه الزوجة أواصر الإلفة والتفاهم على رسالته الكبرى التي تصغر عنده الى جانبها كل رسالة .

من هذه الزوجة رزق ثلاثة أولاد احدهم سن فو الذي اشتهر في سياسة الصين بزعامة الحزب اليساري المنادي بالوحدة القومية والمعارض للحرب الاهلية ، والذي يجعل محاربة اليابان غرض السياسة الصينية ويتقبل الائتلاف مع كل قوة تعادي اليابان وتتألب على إحباط سياستها الآسيوية ، ومن الطريف ان امرأة أبيه الثانية وأخاها من أنصار هذه الهيئة ، وإن كانت امرأة أبيه تناصرها بالتشجيع ولا تنتظم في عداد اعضائها ، لأنها تجتنب العمل السياسي ولا تستريح الى انقسام الأحزاب .

ولد (سن فو) سنة ١٨٩١ وأتم تعليمه الابتدائي بهواي - كأبيه - ثم تخرج من جامعة كولمبيا بالولايات المتحدة ، وعاد الى الصين وهو في السادسة والعشرين (سنة ١٩١٧) وعمل كاتباً لأبيه ثم محافظاً لكانتون فمديراً للسكك الحديدية فرئيساً للجمعية التشريعية ، وعارض شيان كاي شيك معارضة شديدة بعد وفاة ابيه ، وسافر الى موسكو غير مرة يحاول التوفيق بين روسيا والصين ، وسبق ذلك بمحاولة التوفيق بين الشمال والجنوب وبين حزب الكومنتانج اي الحزب الصيني الوطني والحزب الشيوعي . فعرض حياته للخطر من ناحية أنصار اليمين ومن ناحية اليابان في وقت واحد ، ودبر الجواسيس اليابانيون تدبيرهم لقتله في احدى الطائرات ، فأسقطوها ولكنه كان قد تخلف عن ركوبها ، فنجا من المكيدة اليابانية واوشك ان يقع في مكيدة وطنية ، فحالفه التوفيق ونجا منها .

ويقول الذين عرفوه انه نسخة من أبيه لولا انه طموح لا يزهد في المنصب والمال زهد أبيه

ومن التجوز ان يقال إنه يؤثر في سياسة أبيه بالإيحاء والإقناع ، وإنما الصحيح الذي لا شك فيه ان الزعيم كان يتخذه مثالا لأنداده من أبناء جيله ،

وكانت خطته في قيادة هذا الجيل مستمدة من مراقبته لعواطف ابنه وآرائه ، فما كان طبيعياً من عواطف ابنه وآرائه حسبه طبيعياً من أنداده وزملائه وشمله بحنانه ورعايته كأنهم كلهم من أبنائه .

أما والدة سن فو فلم تشتغل بالسياسة قط ، وقضت معظم أيامها بعيدة من الصين تارة في هواي وتارة في المستعمرة البرتغالية مكاو ، وتنصرت كما تنصر زوجها وشغلت اوقاتها بتوزيع الكتب الدينية على سيدات البيوت .

وكانت زوجته الثانية وسطى بنات سونج الثلاث ، وهن آي لنج (اي رأفة وعمر طويل) وشنج لنج (أي سعادة وعمر طويل) وسي لنج (اي جمال وعمر طويل) .

وبنات سونج هؤلاء أسرة فذة في تاريخ العالم ، لم يعرف عن أخوات قط انهن تزوجن في عصر واحد مثل زواجهن من ناحيته السياسية او ناحيته الاجتماعية او ناحيته الشخصية .

فالبنت الكبرى تزوجت من الدكتور كونج الذي تولى رئاسة الوزارة غير مرة ، ويكاد ان يقام مقام التقديس في الصين لأنه ينتمي الى اسرة كنفشيوس ويحفظ اسماء نيف وسبعين جدا يصلون بينه وبين امام الصين الكبير .

والبنت الوسطى تزوجت من الدكتور سن ياتسن ابي الصين ونبيها الوطني .

والبنت الصغرى تزوجت من القائد شيان كاي شيك الذي قاد الصين قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها ولا يزال رئيساً للصين الوطنية .

وقد اهلتهن لهذا الزواج تربية عالية وانتساب الى أب قوي النفوذ في دوائر المال والثقافة ، وهو شارل سونج العصامي النابغ ، الذي تعلم في أمريكا ليعود الى الصين رئيساً وطنياً للمرسلين ، فحولته أزمات السياسة والاقتصاد الى عمل آخر لا مناسبة بينه وبين هذا العمل ، وهو التوسط لبلاده عند ملوك المال لتفريج ازماتها ، ثم الانقطاع للأعمال المالية مع الانتفاع بنشأته الدينية في حماية الدعوة الوطنية .

ويباهي الصينيون بزعامة هؤلاء الأخوات للمجتمع الصيني الحديث ، إذ ليس في أميرات الأسر المالكة ولا في بنات رؤساء الأمم من تفوقهن ثقافة وكياسة وسمتاً وخبرة بآداب المجتمعات ، وكلهن يعرفن أكثر من لغة أجنبية ويقرأن المأثورات اللاتينية والإغريقية ويطلعن على الأدب الصيني القديم ، ويحذقن الموسيقى الغربية والشرقية كأحسن ما يحذقها المتعلمات غير المحترفات ، ويعتبرن طرازاً رفيعاً من الجمال والرشاقة بين الصينيات ، ويضارعن أرقى الأسر في تقاليد التهذيب بين بنات الصين ، ويضارعن أرقى الخريجات من جامعات أمريكا في التربية العصرية .

وقد أحبت وسطاهن الدكتور سن ياتسن وهو يناهز الخمسين ، ووجد رواة الأخبار في هذا الزواج مادة صالحة لقصة غرامية في حياة المشاهير ، فأذاعوا ان الدكتور شغف بالفتاة وغلب على أمره حباً فتزوجها مع ما بينهما من فارق السن ، ونسجوا حول ذلك الزواج ما راقهم من نسج الخيال وزخارف التلفيق .

وليست القصص الغرامية بالشيء النادر في سير الزعماء والمشاهير ، وليس في هذه القصة خاصة ما يوجب التفنيد او التصحيح لو كان غاية ما في الأمر ان الزعيم احب الفتاة ، ولكن بيان الحقيقة في هذه القصة خاصة يكشف عن خصلة جوهرية من خصال الدكتور ، ويرينا مثلا قوياً من الاعتبارات التي يلحظها في أعماله ، وهي اتقاء القيل والقال .

فالواقع ان سن ياتسن كان صديقاً لشارل سونج والد الفتيات الثلاث وكان سونج من كبار الماليين الذين جندهم الزعيم لخدمة القضية الوطنية ، وكان لا بد له من تجنيد طائفة من أصحاب المصارف والشركات الوطنية لتصنيع البلاد وتزويد الحركة بما تحتاج اليه والوساطة في الأزمات الاقتصادية بين الصين وبيوت المال الأجنبية .

وأخلص سونج لصديقه مجازفاً بثروته وحياته ، فافتتح داراً للنشر والطباعة تعنى بنشر الكتب الدينية ظاهراً وتطبع النشرات الثورية سراً وتبثها مع

وكلائها في طول البلاد وعرضها بمأمن من رقابة الجواسيس على الجماعات السرية .

ولجأ سن ياتسن مرات الى بيت سونج يختبىء به كلما تعقبته الشرطة واحتاج الى مأوى بعيد من الشبهات ريثما يتمكن من مغادرة البلاد .

وأراد الزعيم ان يختار امينة لسره تتوافر لها شروط الكفاءة وشروط الأمانة ، ومن شروط الكفاءة معرفة اللغات وفهم دخائل القضية القومية ، ومن شروط الأمانة الغيرة الشخصية على كتمان أسرارها ، وهي شروط لا تتوافر لأحد كما تتوافر لبنات سونج ، لأنهن على نصيب وافر من الثقافة وسر الزعيم هو سر أبيهن . فوقع اختياره على كبراهن أي لنج وظلت تعمل معه الى ان تزوجت بالدكتور كونج هسيانج ، وكان يومئذ رئيس جماعة الشبان المسيحيين ، فاختار اختها الوسطى شنج لنج ، ولم يطل عملها معه حتى جاءت ابويها ذات يوم تبلغهم انها اعتزمت ان تخطب الدكتور لنفسها ، فراعهم من الخبر ان تجترىء فتاة على خطبة رجل لنفسها ، وراعهم فوق ذلك ان الرجل صاحب زوجة لم يطلقها ، وإن كان معلوماً لديهم ولدى الخاصة من اصدقاء الدكتور أنه لا يعيش معها .

قال بربردج الذي كتب موجز التاريخ للأسرة بإيحاء من شيان كاي شيك وقرينته : « إن احتجاج الأبوين ذهب سدى وأصرت شنج لنج على عزيمتها وخرجت من بيت أبويها لتلحق بالدكتور[1] وتم الزواج ولما تنقض على خروجها من بيت أبويها بضعة أسابيع (٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٥) .

وواضح من القصة أن الدكتور اختار الكبرى من البنات ثم الوسطى اختيار وظيفة لا اختيار حب وخطبة ، وأنه كان في تلك الحالة بين خطط ثلاث لا معدى له عن واحدة منهن . فإما أن يقصي الفتاة عنه ، وإما أن يبقيها على صلة به معرضة للقيل والقال ، وإما الزواج .

وقد كان الزواج أكرم هذه الخطط ، وكان كذلك اشبهها بعاداته

---

(١) من رسالة الصين الناهضة : شيان كان شيك وقرينته تاليف بربردج Burbridge

وخلائقه ، لايثاره ـ كلما شجر الخلاف ـ ان يختار ما يحسم القال والقيل ، وكادت هذه الخصلة أن تحسب من مواطن ضعفه في رأي المعجبين به ورأي ناقديه ، فإن هذا الرجل الذي كان يواجه الموت ولا يبالي الضنك والعذاب كان يحفل من سوء السمعة ويختار الحل الذي يعفيه منها ، ويذكر له من الشواهد على ذلك أنه سلم للقائد يوان شي كاي ان يرأس الجمهورية بدلا منه ونزل له عن الرئاسة دفعاً لشبهات من يقول انه رفض هذا المقترح تشبثاً منه بالمنصب ، وجازف بسقوط الجمهورية وهي في مهدها لكيلا يسبقه أحد الى رئاستها .

والخوف من القال والقيل موطن ضعف في الزعماء على الخصوص اذا كان الحرص على السمعة هو الباعث الوحيد عليه ، ولكنهم اذا اشفقوا من سوء سمعتهم محافظة على القدوة الحسنة ووقاية للمصلحة العامة فالخوف من القال والقيل شجاعة والمجازفة بالتعرض له جناية . وقد كان اصرار سن ياتسن على رئاسة الجمهورية خليقاً ان يلقي في روع أبناء الصين وهم ينهضون لخدمة أمتهم ان المناصب مقدمة على مصالح الأمة ، وكان هذا الإصرار معطلا لنزول الأسرة المالكة عن العرش ولتسليم القائد يوان شي كاي بالنظام الجديد ، ومثيرا لمعارك الشقاق في معسكر الجمهورية نفسه ، فلم تكن سمعة الزعيم هي المصاب الوحيد من جرائر القال والقيل .

ولو أنه استخف بالقال والقيل في مسألة زواجه من أمينة سره لأساء الى سمعتها قبل أن يسيء الى سمعته ، ونكبت أسرة صديقه بفاجعة بيتية لا تستحقها منه ، وفعل ذلك بغير موجب يستحل من أجله هذه الجريرة ، لأنه كان على نية الزواج بعد تطليق امرأته التي لم يكن في وسعها أن تصاحبه في حياة الزعيم المجدد والرائد المتقدم للنهضة العصرية .

وقد بنى بزوجته الثانية بعد التفاهم بينه وبين الزوجة الأولى على الانفصال في سلام ، لتملك حريتها ولا تتقيد به وهو منفصل عنها . ونعم الزوج الكهل والزوجة الشابة بعيشة بيتية يضرب بها المثل في الوئام والمودة ، وكانت شنج لنج على الرغم من اعتدادها باستقلالها وقدرتها على تحدي العرف ومشيئة الاسرة مثلا صالحاً لزوجة الرجل السياسي المشتغل بالمسائل العامة وقرينة الزعيم المهدد في

مأمنه ، فلم يدفعها الفضول مرة الى استطلاع امر لم يفاتحها فيه ، ولم تحجم عن مواجهة الأهوال التي استهدف لها إبان الخلاف بينه وبين خصومه . وحدث بعد انتخابه للجمهورية للمرة الثانية ان العصاة قصدوا الى منزله يحاصرونه ويطلقون المدافع على المنزل ومن فيه ، وكان خبر الثورة قد نمي اليه قبل هجوم القائد الخائن ليلا بسويعات قليلة ، فأيقظ زوجته لتصحبه ولم يبال فوات الوقت مع اقتراب الهجوم ، ولبث يقنعها بالهرب وهي تقنعه بصعوبة خلاصهما معاً ووجوب انطلاقه فرداً وهو يتلمس مسالك النجاة ، وكتبت هي بعد ذلك تصف تلك الليلة العصيبة وصفاً مسهباً نجتزىء منه بما يلي . وذلك اذ تقول :

« حوالى الساعة الثانية من صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيه ـ ١٩٢٢ ـ ايقظني الدكتور من نومي وطلب مني ان اسرع باللبس والاستعداد لأننا مهددون ولا بد لنا من الإسراع بالنجاة ، وكان قد تلقى بالتلفون خبراً عن تأهب القائد شين للهجوم علينا ، فأراد البدار الى زورق مسلح نوجه منه رجالنا لمقاومة العصاة . ورأيت من التعويق له ان يرتبط بمصاحبة امرأة في مهربه ، فألححت عليه ان يتركني الى حين غير متوقعة عدواناً على شخصي وأنا على انفراد . وبدا له صوابي بعد برهة ولكنه لم يتركني مع هذا قبل ان يوكل بالبيت خمسين حارساً من اهل ثقته . ثم مضى منفرداً ولم تمض نصف ساعة على انصرافه حتى سمعنا طلقات الرصاص . . . . وصياح الصائحين . اقتلوا سن وين[1] اقتلوا سن وين . . . . ثم اقتربت الساعة الثامنة ونفدت ذخيرتنا او كادت فوقفنا اطلاق النار محتفظين بالبقية الى اللحظة الأخيرة ، ثم لاح لنا ان البقاء غير مجد ونصح لي رئيس الفرقة بمغادرة المكان ووافقه الجنود على ان يبقوا حيث هم لصد كل مطاردة ، وعلمنا اخيراً بمقتلهم جميعاً .

. . . ومضت ساعات في الممر قبل ان نصل الى حديقة ديوان الرئاسة ، ولمحنا بعد نصف ساعة ومضة خاطفة وشطراً من القنطرة يتهدم وينقطع علينا من ثم سبيل العبور . . . واندفع العصاة نحو ديوان المالية ومكتب الرسوم الجمركية

---

(١) تقدم ان سن وين هو اسم الميلاد ، ومن عادة الصينيين ان يضيفوا الى اسمائهم القاباً عند الزواج والانتقال الى دور مهم من أدوار الحياة .

لينهبوها ، فانسللنا بين الزحام غير معروفين والفينا أنفسنا في زقاق بعيد من المشتغلين بالنهب والسلب ، وكنت لا اقوى على السير من فرط الإعياء ، فتوسلت الى الجند الذين معي ان يطلقوا النار علي لأستريح ، ولكنهم حملوني بين جثث القتلى . . . ثم سدت طريقنا مرة اخرى . . . وتهامسنا الا نجاة من هجمة الغوغاء المقبلين الا بالرقاد على الارض بين الجثث كاننا بعض الموتى . . . ثم تمكنت من الاستخفاء بملابس امرأة ريفية . . . وعلمت بعد ذلك ان امرأتين مسكينتين قبض عليهما لأنهما تشبهانني . . . وبرحت كانتون عصر اليوم التالي . . . فلقيت الدكتور سن مساء ذلك اليوم على احدى السفن بعد معركة حياة وموت وأسرعنا بالذهاب الى هونج كونج مستخفين » .

***

هذه حادثة من حوادث الزوجين في السنوات التسع التي ارتبطا فيها برباط الأسرة الوثيق . ولو تتبعنا اوقاتها من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٢٤ التي ختمت بها أيام سن ياتسن لكانت اوقات الشدائد هي القاعدة الغالبة وأوقات الأمان هي الاستثناء النادر ، وإن لم تكن كلها من قبيل هذه الشدائد الدامية .

فهما بين منفى واستخفاء وصراع ورحلة يلاحقهما الجواسيس والمتربصون وشغل من أشغال المنصب مرهق تنوء به الجبال .

والحياة الزوجية بين هذه المتاعب كل ثقيل او معونة على الكلول والأثقال . ومن الحظ الحسن أنها كانت في حياة الزعيم المثقل بالأعباء معونة جاءت على حين الحاجة اليها ، فكانت زوجته الفتاة المترفة الناشئة بين احضان النعمة والدلال خير معوان له على مصابرة الحوادث ، وعوضها حب الإعجاب والإكبار عن حب الغرام والفتنة ، فهانت عليها المتاعب والأهوال رعاية للرجل الذي اعجبت به وأكبرته . ولعل الأزواج من أمثال سن ياتسن في عصره لم يرزق احد منهم قرينة تضارع قرينته في ثقافتها واطلاعها على أسرار السياسة من حولها ، فهي احق زوجة ان تشارك زوجها في عمله وتقرن رأيها برأيه ، ولكنها لم تسمح لنفسها ان تجاوز وظيفة الكاتب الأمين الذي يعمل ما يطلب منه عمله

ويحضر ما يناط به تحضيره ، ولزمت حدودها هذه طوال ايام حياته ، ولم تخالف هذه الخطة الا بعد وفاته بزمن طويل : خالفتها كلما خطر لها ان أتباع الزعيم قد حادوا عن نهجه وانحرفوا عن سوائه ، وسوغ مقامها ما لا يساغ من غيرها ، فرفعت صوت المعارضة يوم خفت بين قومها كل صوت معارض ، واستمعوه منها طوعاً او كرهاً ، كأنه صوت الزعيم المقدس يرتفع بعد الممات .

من أعماله

من أعماله

في سنة ١٩١٢ ترددت البشائر بين أنحاء الكرة الأرضية بنجاح الثورة الصينية وقيام الجمهورية مقام عرش ابن السماء .

وبعد ذلك بعشر سنين ، حوصر زعيم الثورة وطوردت زوجته وتنادى العصاة بقتله ، وتعالى الهتاف بموته حيث تعالى الهتاف له من قبل بالحياة والبقاء .

عشرون سنة مرت من فاتحة الجهاد في سنة ١٨٩٢ الى قيام الجمهورية في سنة ١٩١٢ .

واثنتا عشرة سنة مرت من يوم نجاح الزعيم الى يوم وفاته .

شطران غير متعادلين في حساب الأرقام ولا في حساب الحوادث ، وأشقاهما الشطر الذي كان بعد النجاح .

وصح في سيرة هذا الزعيم ، كما صح في سير الكثير من الزعماء ، أن اعباء النجاح اثقل من أعباء الاضطهاد والكفاح !

بل كان هذا أصح ما كان في سيرة زعيم الصين .

لأن ثورته كانت سعياً متلاحقاً الى الأمام ، ولكن عمله في الحكومة كان أشبه بساع يسعى وهو مشدود الى الجهات الأربع ، فكل تقدم من ناحية نكوص من أنحاء .

كان عليه في سياسته مع الدول أن يبطل سيادتها على بلاده ويلغي « حقوقها » المغتصبة ويزيد الرسوم على تجارتها التي تتدفق على بلاده بغير رسوم ، او تؤخذ رسومها عوضاً من الغرامات والديون .

وكان عليه في الوقت نفسه أن يقترض منها لتصنيع الصين وتعميرها وتجديد مرافقها على أحدث طراز ، كي تدفع المزاحمة الملحة عليها من مصانع الدول الاجنبية .

وكان عليه ان ينقذ الصين من الخراب اذا بقيت « حقوق » الدول جاثمة على صدرها ، وان ينقذها من الخراب اذا أبت هذه الدول ان تسخو له بالمزيد من القروض .

كان عليه ان يهادن اليابان لأنها تصد الدول عن بقاع القارة الاسيوية وتنادي « باسيا للآسيويين » .

وكان عليه ان يهاجم اليابان لأنها تعني ان الصين لليابان دون سائر الدول الغربية ، حين تذود تلك الدول عن القارة الآسيوية .

وفي سياسة وطنه كان عليه ان يسكن أو يتحرك الى الجهات الأربع ، وليس السكون او الحركة الى الجهات الاربع مما يطاق .

كان عليه ان يحمي الجمهورية وان يسلمها لغيره !

وكان الشمال والجنوب في وطنه قد انقسما بعد الاتفاق على خلع الأسرة المكروهة العاجزة ، فلما زالت الأسرة عاد الخلاف بعنوان جديد ، بل عاد بجملة من العناوين .

ومن ذلك انه كان يعهد بالوظائف الى الموظفين الكفاة من اهل الجنوب لأنهم المتعلمون على أصول التعليم الحديث ، ولأنه يعرفهم معرفة الثقة والتجربة ، فينسى الطامعون في وظائفهم ان « سن ياتسن » ابو الصين ، ولا يذكرون الا انه جنوبي يحابي الجنوبيين !

ومرافق الصناعة والتجديد نعمة ونقمة في نفس واحد .

ايستغني بلد من البلدان في القرن العشرين عن سكة الحديد ؟

كلا ! ولا استثناء للصين ، أو لعلها احوج اليها من سائر بلاد

العالم ، لترامي أطرافها وكثرة سكانها .

ولكن هذه النعمة الكبرى جرت معها البلاء وراء كل قاطرة وكل مركبة ، لأنها يسرت وصول البضاعة الأجنبية الى أقصى الأطراف ، فضربت صناعة الوطن وعطلت ايدي العاملين ، وسهلت لهم الانتقال من بقعة الى بقعة طلباً لعمل الزراعة أو عمل النقل او طلباً للعمل كائناً ما كان . فلا هم واجدون عملا ولا هم مردودون الى مواطنهم ، ولا هم نازلون منازل الحفاوة والترحيب ، وقد يخاف منهم العبث والفساد بغير عمل وبغير سكن وبغير قوت .

يجب ان يغلق الباب المفتوح .

يجب ان تفتح الابواب للقروض .

يجب ان تبنى المصانع على عجل .

يجب ان تستورد من الخارج ادوات البناء .

يجب ان نتحرك الى الجهات الأربع ، ونحن مشدودون الى الجهات الأربع . . .

وإذا همت الحكومة الجديدة بتحصيل الضريبة من الأمة المنزوفة وجدت هذه الضريبة مستوفاة الى سنوات على عهد الحكومة البائدة ، واستحال تحصيلها على نظام جديد : نظام يحصي الأرض والسكان ويقرر الحدود بين الملاك والمستأجرين ، ولا احصاء ولا خرائط ولا يعرف لأموال الدولة حساب غير حساب الكيل الجزاف .

واوشك كل عامل او عاطل في الصين ان يزج بسن ياتسن الى الجهات الأربع ، وأن يشده الى كل جهة من هذه الجهات .

ومن اعضل المعضلات تفصيل السياسة الصينية كما كانت تتبع في تلك الآونة ، ولكن الإشارة اليها تكفي لتقدير المتاعب كما اضطلع بها الزعيم الظافر .

الزعيم المسكين لأنه ظفر بمقصده . فانتقل من السير على طريق واحد الى

السير على الجهات الأربع .

وهذه إشارة عابرة الى بعض هاتيك الجهات !

رئاسة الجمهورية

كان العلم الخماسي - علم الثورة - يرتفع على كل سارية في عواصم الصين ، رمزاً الى الأمم الخمس التي تتألف منها القومية الصينية ، وهم الصينيون والمنشوريون والمغول والمسلمون وأهل التيبت ، ولم يبق بعد أيام اثر للعلم الإمبراطوري - علم التنين - في غير قصور بكين .

وسمع سن ياتسن بثورة أنصاره التي انفجرت قبل أوانها وهو يطوف المدن الأمريكية لجمع المال استعداداً للثورة التي تقرر موعدها بعد ذلك بسنة . وعلم من الصحف الأمريكية انه رئيس الجمهورية المنتظر . . . فلم ير التعجيل بالعودة الى بلاده ، واهتم قبل كل شيء بوقف صرف الأقساط المتفق عليها من القروض الدولية لحكومة بكين ، والسعي عند الدول الكبرى للاعتراف بالحكومة الجديدة والاتفاق على السياسة المقبلة .

وسافر الى لندن باسم مستعار ، فوجد هناك برقية أرسلت اليه بعنوان المفوضية الصينية التي لم تزل تنوب عن ابن السماء ، يعرضون عليه رئاسة الجمهورية بصفة رسمية . . . وفي دار هذه المفوضية كان معتقلا قبل سنين لتسليمه الى حكومة بكين !

ولقي المسؤولين من رجال الحكومة الإنجليزية ، وأعضاء مجلس الديون ، ثم انتقل الى فرنسا فتحدث مع بعض وزرائها ونوابها في شأن الحكومة الجديدة ، وبرح أوربة الى بلاده وهو على شيء من الارتياح الى موقف الدول من الوجهة الرسمية .

وقبل أن يصل الى بلاده بستة أيام كان المندوبون في حكومة بكين والمندوبون عن اللجنة الثورية قد اتفقوا على اللقاء بشنغهاي للتفاهم والتقريب

بين الطرفين ، فظهر من سياق البحث بينهم ان الطرفين كانا على وعد من اليابان بالمؤازرة ، ونمي اليهم ان اليابان همت بانـزال جنودهـا على الارض الصينية والتقدم الى العاصمة ، فاستمهلتها انجلترا صديقتها يومئذ وذكرتهـا بمخالفة العمل المنفرد للاتفاقات الدولية ، وحقيقة الأمر على ما اعتقده الطرفان المتفاوضان أن انجلترا خشيت ان يؤدي التدخل اليابانـي الى بسط الحماية على عرش الصين بطلب من الأسرة المالكة ، وهي نتيجة يأباها الثوار بطبيعة الحال ويأباها القائد يوان شي كاي لأنه يطوي النية على تنصيب نفسه ملكاً بعد فترة الثورة الأولى ، وتأباها انجلترا او الدول الكبرى لانها تقضي على نفوذهن جميعاً وتسلم الصين فريسة سائغة لدولة واحدة .

فأسرع الفريقان الى التفاهم على وقف القتال قبل ان تنطلق الدسائس الأجنبية من عقالها .

ووصل سن ياتسن شنغهاي في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر (سنة ١٩١١) ونودي به رئيساً للجمهورية في التاسع والعشرين منه ، وافتتح مراسم العهد الجديد بزيارة ضريح العاهل الوطني عميد اسرة منج التي كانت تحكم الصين قبل الأسرة المانشورية ، فبايع روح الأسلاف على إحياء الصين الخالدة وصد المغيرين على استقلالها ، واختار للدولة علماً مثلث الألوان من الأزرق والأبيض والأحمر ، رمزاً لمبادىء الثورة الثلاثية وهي الوطنية وسيادة الشعب والاشتراكية او رخاء المعيشة ، وفيه اثنا عشر شعاعاً تنبعث من الشمس رمزاً الى أقسام الصين الأرضية .

ووجه اهتمامه الأكبر الى تدعيم القواعد الدستورية ، فأذاع الدستور المؤقت مشتملا على الحقوق الأساسية وأصول التشريع . وأعترضته عقبة الهيئة النيابية في تلك المرحلة . فلم يكن من المتيسر انتخابها بغير معدات الانتخاب التي لم تعهدها الصين من قبل ، ولم يكن من المتيسر الانتظار إلى ما بعد تحضير هذه المعدات ، وأبى ان يحصر النيابة عن الأمة الصينية بين اعضاء حزبه ولجانه التي كانت تنبث في الحواضر والأقاليم لنشر الدعوة وتنظيم المقاومة ، فاكتفى بما تيسر يومئذ وجمع المجلس الأول من المندوبين الذين اختارتهم دواوين الحكومة

وبلجان الجماعات الثورية ، وذوي الرأي بالشهرة المستفيضة ومنهم من لم يصطحب معه توكيلا من الدواوين او اللجان ، وارتضى المسؤولون جميعاً تأليف المجلس على هذه الصورة على ان تخلفه بالانتخاب هيئة من مجلسين خلال عشرة شهور يناط بها وضع الدستور .

واختار الزعيم وزراءه من أكفأ رجالات الصين الحديثة ، ومنهم من كانت له شهرة عالمية كالدكتور وانج شنجهوي الذي عين بعد نحو عشرين سنة (سنة ١٩٣٠) قاضياً بمحكمة لاهاي الدولية ، واتخذ نانكين عاصمة للدولة الجديدة : عاصمة بلا خزانة ولا سجلات ولا دواوين ولا موظفين . ثم شعر بقيود المنصب ومحرجاته وعنَّ له أن يندب غيره للرئاسة ويفرغ للقيادة الشعبية . فوافق ذلك مقترحاً من القائد يوان شي كاي يندبه هو للرئاسة اثناء فترة الانتقال بين النظام الملكي والنظام الجمهوري ، ورأى سن ياتسن ان يستفيد من هذا المقترح للدولة الناشئة فعلق قبوله على نجاح يوان في اقناع الأسرة المالكة بالنزول عن دعاواها وحقوقها بسلام ، فانقضى شهر في المساومة والمناورة قبل الوصول الى نتيجة يحسن اعلانها .

وفي الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٩١٢ أعلنت الوصية باسم الإمبراطور الصبي سوان تونج وثيقة النزول عن العرش ، وفيها تقول : « إن الأمة اليوم جانحة كلها الى حكومة ذات شكل جمهوري ، وبدت هذه الرغبة واضحة في أول الأمر من الأقاليم الجنوبية والأقاليم الوسطى ثم وعد القادة العسكريون من الأقاليم الشمالية بتأييدهم لهذه الرغبة . ونحن برعاية ميول الشعب نعلم مشيئة السماء ، وليس بالجميل منا أن نقاوم ميول الشعب حرصاً على مجدنا ، فنحن ـ والإمبراطور الى جانبنا ـ نولي الشعب حقوق السيادة ونأمر بانشاء حكومة دستورية على النظام الجمهوري ، ولا يحدو بنا الى هذا القرار حبنا لرضى شعبنا الذي طال حنينه الى حسم الشقاق السياسي وكفى ، بل تدعونا مع ذلك رغبتنا في اقتفاء وصايا الحكماء الأقدمين الذين علمونا أن السيادة ترجع آخر الأمر الى مشيئة الأمة » .

واشتملت وثائق الاتفاق على شروط اخرى تضمن للعاهل الصبي ان

يحتفظ بلقب الإمبراطور مدى حياته ، وأن يتقاضى من الدولة معاشاً سنوياً يزيد على نصف مليون جنيه ، وأن يترك له قصر الصين وحاشيته وحرسه ، وأن تصان أضرحة الأسرة وتتكفل الدولة بإتمام الناقص منها .

ووعد يوان بتحويل العاصمة من بكين الى نانكين في الجنوب ، وأبرق بهذه الوثائق الى سن ياتسن كأنه يتعجل انجاز الوعد باختياره رئيساً للجمهورية ، فاعترض سن ياتسن على الصيغة التي كتبت بها وثيقة النزول وقال انها تجعل الجمهورية بمثابة المنحة الملكية التي يجوز للإمبراطور ان يستردها متى شاء ، مع احتفاظه بلقبه وقصره ومراسمه وحاشيته ، فوافقه الكثيرون من النواب والساسة على تأويله ولكنهم حسبوا ان مسألة الصيغة لا تساوي مشاكل الخلاف ومصائب الحرب الأهلية ، وقبلوا نزوله عن رئاسة الجمهورية للقائد يوان ، وأسرع هذا الى ابرام الأمر الواقع فعين سن ياتسن مديراً للسكك الحديدية .

ولا نعلم عن التحقيق اسرار المفاوضات التي دارت بين يوان والأميرة الشابة (لنج يو) الوصية على العاهل الصغير ، الا انه قد هدم اعصابها بوسائل شتى ولم يقتصر على وسيلة واحدة ، فمن وسائله انه اوعز الى ضباط الفرق ، وكلهم ممن تعلموا على يديه وترقوا برعايته ، ان يبرقوا اليه معلنين اخلاصهم للنظام الجمهوري وثقتهم بحكمته وحنكته واقتداره على حل المشكلة بما يرضي الأمة ويصون الوحدة القومية ، وانه اوقع في روع الوصية انه لا يستطيع ان يعمل بغير مال يشتري به الثوار ويقسم به صفوفهم ويضمن مرتبات جنوده زمناً مخافة ان ينفضوا عنه وينقلبوا عليه قبل انفراج الازمة ، فسلمته الوصية خزانة الدولة واكتتبت مع الأمراء والأميرات بالذهب والفضة بعد افراغ الخزانة العامة فلم يبق لديهم ماينفقونه على المعارك والمساعي السياسية لو خطر لهم ان يخالفوه ويركنوا الى مشورة احد غيره . وربما زعم للوصية المتحطمة ان الحكومة الموقوفة ظل زائل ، وان الإمبراطور ربما بلغ سن الرشد وهي في خبر كان ، وانه باق على ولائه للبيت المالك عند الحاجة اليه ، ولا يدعو الموقف حينئذ الى اكثر من مرسوم يصدره الإمبراطور بمشيئة الشعب الذي سيضجر مع الزمن من عجز العهد

الجديد ولا يصعب على الوصية ان تقبل هذه التعلات فهي احب اليها بأية حال من كفاح لا يعاونها عليه احد ، ولا تضمن من عواقبه ما ضمنته لها وثائق الاتفاق . وقد رؤي هذا الباقعة في مؤتمر الاسرة المالكة الأخيرة يضرب الأرض بجبهته ويبكي ويأبى ان يرفع وجهه خجلا من النظر اليها وهي تستسلم لمصيرها ، وسمعت الوصية تقول للعاهل الشاب : إذا كنت الآن لا تزال بقيد الحياة فالفضل في بقائك لهذا الصديق النصوح ، وكان يوان قبيل ذلك بلحظات يقول لهم : ان لويس ملك فرنسا لو وجد حوله من يقنعه بالإصغاء الى صوت العقل لما هلك وهلك معه ذووه !

ولقد عز على ناس من خلصاء الرئيس سن ياتسن ان تؤول الثورة الى هذا الباقعة الذي لم يثبت قط على الولاء لأحد ، ومن هؤلاء شيان كاي شيك خليفة سن ياتسن على قيادة الصين ، فإنه اعتزل منصب العسكرية وعاد الى اليابان يستكمل دروسه ويترقب من ثم تقلب الحوادث والأحوال . وأخل يوان بأول شرط من الشروط المطلوبة وهو تحويل العاصمة من بكين الى نانكين ، فتعلل ببوادر الفتنة ـ وهي من تدبيره ـ للبقاء بالعاصمة الشمالية وحراسة الأقاليم من ورائها ، واجل الانتقال الى العاصمة الجنوبية الى اجل غير محدود .

ثم سرت مساعي يوان شيئاً فشيئاً من طريق الدعوة السياسية ، فلما نظم سن ياتسن حزبه باسم (الكومنتانج) اي الحزب الوطني ، نظم يوان حزباً يقابله باسم حزب التقدم (شنبتانج) ودس اعضاءه في دواوين الحكومة ومراكز النفوذ وكلف عالماً من علماء القصر الدستوري الأمريكيين وخبيراً من أساطين الصحافة الانجليزية ان يدرسا الحالة العامة من الناحية الفقهية والتقليدية ويكتبا بالرأي الذي يريانه تقريراً مفصلا معززاً بالشواهد والأسانيد للاستئناس به عند تقرير النظام الدائم عما قريب !

هذان الخبيران الدستوريان هما الأستاذ فرانك جودناو **Goodnow** والدكتور موريسون **Morison** مراسل التيمس ، وكلاهما معروف الرأي عند القائد يوان وان لم يكن رأيهما مكتوباً بالتفصيل . فخلاصته كما عرفها القائد من أحاديثهما

ان النظام الملكي اصلح الأنظمة للصين خاصة في احوالها الداخلية وعلاقاتها الدولية . لأنه نظام ذو جذور متغلغلة في تكوين المجتمع وعادات اهل البلاد ، وعلى تقرير هذين الخبيرين وغيره من الوثائق المستمدة من تقارير اعوانه وصنائعه بنى السند الدستوري الذي خوله ـ وهو لا يزال رئيساً للجمهورية ـ ان يطيل مدته ويوصي بالرئاسة بعده لمن يرتضيه .

أما سن ياتسن فقد تقبل مهمة الإشراف على تنظيم المواصلات غير مترفع عنها بعد رئاسة الجمهورية . والواقع ان منصب المدير العام لمواصلات الصين لا يقاس على نظائره في البلاد الأخرى ، لأن علاقات الدول بالصين تدور على خطوطها الحديدية ومواصلاتها البحرية والبرية . وتعمير الصين من أقصاها الى أقصاها يتوقف على مستقبل هذه الخطوط ومعضلاتها المتجددة اكبر من طاقة الدولة الصينية برمتها . وهذه المعضلات هي التي اراد يوان ان يمتحن بها طاقة الزعيم المحبوب ، فهو ملاق فيها الفشل والحيرة لا محالة ، وكل اولئك خير لإمبراطور المستقبل يوم تتهيأ الفرصة للتشهير بالرئيس القديم .

ومن مهازل النقد والتاريخ ان ألسنة يوان من الصحفيين الأجانب اخذوا على سن ياتسن انه أمر باعداد خريطة للصين ترسم عليها المواقع التي يراد الاتصال بينها فأعدوها له ورسموا الخطوط المطلوبة غير حافلين بما يعترضها من الجبال والأنهار والعقبات . واستدل النقدة المؤرخون بهذا على جهل الزعيم وتصديه لما لا يحسنه ولا يدريه . . . وفاتهم ان يتهموه بالعمى عن رؤية مواقع الجبال والأنهار . . . . فليست المسألة اذن جهلا بهندسة المواصلات فما من أحد يجهل ان الجبال والأنهار تعوق المواصلات ، وانما هي مسألة نظر يرى الجبل في موضعه او لا يراه . . .

وحقيقة المسألة ان الخريطة الأولى وضعت كما قال اولئك النقدة المؤرخون ، ولكنها خريطة تعقبها خرائط لرسم القناطر والأنفاق او رسم المنعرجات الطوال والقصار حيث لا يتيسر بناء القنطرة وفتح النفق ، ولا بد من الخريطة الأولى والخرائط التي تليها في بلاد لم توضع لها خريطة قط لغرض من هذه الأغراض .

وقد وجه يوان مساعيه الخفية جميعاً لإحباط مشاريع السكك الحديدية والاستيلاء على جميع القروض التي يحصل عليها من خزانة الديون .

ومضى في الاخلال بجميع الشروط المتفق عليها بينه وبين رؤساء الجمعية الوطنية ، ومنها شروط لا تستقيم مع الاخلال بها حكومة دستورية . فأغفل البرلمان جملة في مسائل القروض والمعاهدات ، واتصل بمندوبي مجلس الديون Consortium دون عرض الأمر على الهيئة النيابية القائمة ، وهذا المجلس هو الهيئة التي تألفت من مندوبي الدول ذوات القروض والإتاوات : وهي انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا والمانيا وروسيا واليابان . وقد سمحت للقائد المخاتل بما طلب على شدة ضنها بالمال . . . لأنها حمدت منه استمراره على سنن ابناء السماء في ضمانات هذه القروض ، ولم يعترض على هذه الضمانات احد غير الرئيس ويلسون لمساسها بسيادة الصين ، خلافاً للعهود المتفق عليها بين الدول « ذوات المصالح والامتيازات . . » .

والمفهوم من موالاة القائد يوان لمجلس الديون انه يدخره للمستقبل عسى ان يعترف به امبراطوراً على الصين بعد الغاء الجمهورية ، وإنه اقترض المال وحصل على عدة ملايين فلم ينفق منها كثيراً ولا قليلا على مشروعات التعمير ، بل انفقها كلها على تسليح الفرق الموالية له ورشوة القادة المسلطين على الأقاليم .

والمفهوم ان سن ياتسن وانصاره نقموا على هذه السياسة خوفاً على مستقبل الجمهورية ، وانتظاراً منهم لتسوية مسائل القروض والديون والجمارك والمواصلات على أساس جديد يناسب الدولة الحديثة ، مع مناداتهم باحترام المعاهدات الى ان تتم التسوية المنتظرة ، خوفاً من تأليب الدول على العهد الجديد .

وكان من رأي سن ياتسن ان يستعان ببيوت المال والصناعة في اليابان على تمويل مشاريع التعمير الأولى ، لاعتقاده ان اليابان لا تستطيع ان تنفرد بامتياز يخصها على حدة ، وأنها اذا حاولت ان تنفرد بامتياز كهذا صدتها الدول مجتمعات دون ان تنتظر التخويف او الإثارة من قبل الحكومة الجمهورية . فالواقع ان

الدول لا تحمي سيادة الصين غيرة عليها بل خوفاً من غلبة احداها على هذا الميدان الفسيح ، ومن تغلبت عليه طغت على العالم بقوة تخشاها الدول جمعاء .

وقد عرف من مفاوضات يوان انه قبل ضمان الملح في الدولة الشاسعة لسداد قروضه الأخيرة ، فأبرق سن ياتسن الى الدول يحذرها ، واعلن الرئيس ويلسون كما تقدم تنحي الولايات المتحدة من مجلس الديون .

ووقعت الواقعة بين الرئيسين .

وصرح الشر باسمه بين العاصمتين .

وتمادى يوان في أساليبه فنكل بخصومه وأرسل الى زعيم معارضيه بالمجلس (سنج شيو جين)من يقتله وهو على رصيف محطة شنغهاي يهم بالسفر الى الشمال ، وقبض على قاتله في مكانه ولكنه خنق في السجن قبل ان يوجه اليه سؤال .

وتتابعت حوادث الاغتيال وتعطل البرلمان بوقف جلساته او فصل اعضائه من حزب الكونتانج او رشوة الأعضاء الآخرين ، وتدرج يوان من اكراه الأعضاء الباقين على تجديد انتخابه الى الغاء الجمهورية واعلان الإمبراطورية ، فنادى بنفسه امبراطوراً ولما تنقض على الجمهورية أربع سنوات (يناير سنة ١٩١٦) .

وكانت الحرب العالمية الأولى قد شغلت الدول الغربية عن الصين وعن اليابان ، وسنحت الفرصة لليابان فوجهت الى حكومة يوان مطالبها التي اشتهرت بالمطالب الواحدة والعشرين ، ومنها اعتراف الصين بحق اليابان في الاستيلاء على مخلفات المانيا وامتيازاتها ، والاعتراف باحتلالها لمنشوريا ومنغوليا الشرقية ، وتخويلها حق الرقابة على مناجم الفحم والحديد ، وان تتعهد الصين بألا تسمح لطرف ثالث باحتلال موانئها ومراكزها التجارية ، وان تقبل المستشارين والخبراء من اليابان للإشراف على شؤونها السياسية والعسكرية والاقتصادية .

ولم يسع يوان ان يجابه اليابان برفض مطالبها ، لاشتغال الدول عنه واشتغاله بمكافحة الثورة الداخلية ، فوقع المعاهدة بينه وبين اليابان (في الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٥) على هذه الشروط المجحفة بعد تعديل طفيف لا يقدم ولا يؤخر في جوهرها . وكان اذعانه لهذه الشروط احدى الضربات القاضية عليه ، فزادته خذلانا بين خصوم الجمهورية فضلا عن دعاتها وانصارها ، ومكنت سن ياتسن من مقاتله ومن تجميع القوى شمالا وجنوباً على حكومته . فاعتقد أهل الصين انه باع البلاد وباع الأسرة المالكة وباع الجمهورية ليشتري لقب الإمبراطور. وجاءته النكبات من المخلصين وغير المخلصين ، فلم يبق حوله احد من الوزراء الاكفاء الذين قبلوا معاونته بموافقة سن ياتسن حثاً له على انجاز برامج الإصلاح ورياضة له على الاعتدال واتقاء للبغتة والمفاجأة . واقتدى به غير المخلصين فاشتغل منهم بولايته ووجد من يبايعه بالإمارة على هواه ، ولا فائدة هنا من تعديد الأسماء فإنها تبلغ المئات لم يثبت اسم منها طوال الأزمة على ولائه لهذا الفريق أو لذاك الفريق ، ومن بقي منهم على عهد الثورة لم يبق على خطة واحدة من خطط الحرب او خطط المسالمة .

وغني عن القول ان نقمة بكين كلها كانت تنصب على رأس رجل واحد هو سن ياتسن صاحب الاسم الذي تدور حوله كل دعوة الى مقاومة السلطان المطلق . وكان هذا الزعيم الامين صريحاً مع الطاغية الباقعة فأبرق اليه منذ الخلاف الأول (ابريل سنة ١٩١٣) يعلنه بالعداء ويقول له في غير مواربة « إنك تخون الوطن ، وإنني لمحاربك منذ الساعة كما حاربت الأسرة المانشوية » . . . وعاد بعد شهر فأبرق اليه يطلب اليه الاعتزال ، وعاد بعد شهرين فأبرق الى رؤساء الأقاليم يدعوهم الى خذلانه والثورة عليه . صارحه بهذا العداء منذ ركب رأسه وتصرف بأموال الدولة كأنها من ماله ، ووضح من كل استعداد له انه استعداد لقمع الشعب والتزلف الى الدول بالتفريط في حقوقه ومصالحه ، فما كادت اليابان ان تفرض على البلاد دعاواها الواحدة والعشرين حتى قبلها بعد يوم واحد من توجيهها اليه . ابرقت اليه بمطالبها في السابع من شهر مايو سنة ١٩١٥ واجابها اليها بغير تعديل ذي بال في التاسع من الشهر ،

ووقع الاتفاق المهين بعد اسبوع .

وخيل اليه انه يخدع البلاد والدول جميعاً عن نياته ، وانه ضمن الاعتراف من الدول سلفاً بسياسة الخنوع والرشوة ، فجمع من انحاء الشمال والجنوب مؤتمراً وطنياً يتألف من ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين عضواً وصلوا الى العاصمة قبل ختام السنة ، وسئلوا رأيهم فكانوا جميعاً على رأي واحد : وهو تغيير نظام الحكومة واقامة الملكية الدستورية ومبايعة يوان شي كاي ملكاً دستورياً بلقب الإمبراطور .

وانكشف الإخراج المسرحي حين كتب الى المؤتمر الوطني يرجوه ان يعيد النظر ويعفيه من الإلحاح عليه ويقول له :.« انه ما دام قد اجمع على اقامة الملكية الدستورية فلا محل لاعتراض رئيس الجمهورية على هذا الاجماع . الا ان ترشيحه هو للملك قد أذهله . . . وأن السماء هي التي تخلق الشعوب وتولي الملوك ولا تبديل لما تريد ، وإنما يستحق ولايتها من كان على فضيلة نادرة . . . »

ثم قال : « وإنني أنا الرئيس قد خدمت الدولة ثلاثين سنة وبلوت الخير والصروف وما حصلت على شيء . وقد مضى على قيام الجمهورية سنوات اربع لقيت فيها الصعاب الجمة واقترفت الأخطاء الكثيرة ، فكيف وما اتسع الوقت بعد لتصحيح تلك الاخطاء استحق ذلك الشرف ؟

ثم استطرد الى محاسبة الضمير فتساءل : كيف يستريح من وخزه وهو يفكر في مولاه النازل عن عرشه ؟ او يفكر في قسم الولاء للحكومة الجمهورية ؟

ثم قال انه لا يقوى على هذه المحنة الا اذا شفع له فيها وعده بنسيان نفسه والتضحية بكل عزيز عليه فداء لوطنه ، وإنه ليرجو مع هذا الا يلجئه المؤتمر الى مأزق يأباه ولا يزج بنفسه فيه وهو راض ، وأمامه المرشحون للملك يختار منهم من يشاء عداه ، وهو من يبايعه ويرضاه .

فلم يمض غير قليل حتى عاوده رسل المؤتمر بسجل طويل سردوا فيه فضائله ومزاياه وعددوا فيه مآثره على البلاد وخدماته للعرش وللجمهورية ، وذيلوه

بالفتوى التي تحله من حساب ضميره . فقد كان عليه ان يبر بقسمه للجمهورية ما دامت الجمهورية ، ولكنها تزول يوم يزيلها الشعب فلا توجد ولا يوجد لها قسم في الرقاب ، وانما المسؤول من أزالها لو لم يكن له حق في ازالتها او ابقائها ، ولا نكران لحق الشعب في الحالتين . . . فلا شأن « لإمبراطورنا » يوان شي كاي بما قضاه رعاياه .

هذه فصول من المسرحية تلتها فصول اخرى ، كلفت الدولة الصينية كما هو واضح جهد الجبابرة لو صح ان يوصف بالجبروت هزل كهذا الهزل ومجون كهذا المجون ، ولو انها كانت مسرحية تمثيل كلفت ممثليها ومخرجيها عشر هذه التكاليف لنجحت اضعاف هذا النجاح ، ودام تمثيلها على الأقل بضعة شهور واستعيدت بعد سنوات ، ولكنها بعد كل هذا العناء لم تشغل من مسرح السياسة الصينية اكثر من بضعة اسابيع . فإن « الإمبراطور » « على الرغم منه » وضع التاج على رأسه وأسبغ الطيلسان على كتفيه في مطلع السنة (١٩١٦) وخلعهما - باختياره - في الثاني والعشرين من شهر مارس مستجيباً هذه المرة أيضاً لمشيئة الشعب ، وأذاع انه قانع برئاسة الجمهورية ما دام الشعب ينفر من لقب الإمبراطور .

وبديه انه لم يلبس التاج والطيلسان مطيعاً للشعب ولم يخلعهما لطاعته ، وانما افترى على الشعب اولاً وآخراً وحاول ان يتشبث بالملك ما استطاع ولم يحسب حساباً لصدق النفوس في الوطنية ولا لخسة المطامع في امثاله وبين صميم اعوانه ، فعصف به خلل الحساب ، وما كان له من قدرة يفخر بها غير صواب الحساب .

وما هو إلا أن جلس على عرشه يتقبل التهاني من حاشيته واذنابه حتى تجاوبت ارجاء الصين بصيحة اعوان سن ياتسن الذين اطلق عليهم اسم الاخوان المتعاهدين : انقذوا الجمهورية ! انقذوا الوطن . ولم تبال الطوائف الفتية منها ان تخرج للمظاهرة والهتاف بهذا النداء بين سمعه وبصره ، واثبتت التجربة كرة اخرى ان عادات الشعوب الاصيلة انفع لها والصق بها من النظم المستعارة ، فان

الاحزاب السياسية لم تبلغ من خدمة وطنها في هذه المحنة بعض ما بلغته الجماعات و « الأخوات » التي تعودتها الصين منذ آلاف السنين . وكانت جماعة « الاخوة المتعاقدين » انشط هذه الجماعات واقدرها على تلبية الرأي العام وقيادته ونشر الاخبار سراً وجهرة بين جماهيره الى اقصى اطراف البلاد النائية ، وثابرت على نشاطها بعد سقوط الطاغية وذهاب « الإمبراطورية » المغتصبة .

ومن الصدق للتاريخ ان يقال ان فعل الخيانة في هذه المحنة لم يكن اهون وقعاً على يوان وزمرته من فعل الامانة والنخوة ،ولكل شيء آفة من جنسه كما قيل .

ففي اسبوع واحد حذا المحتالون من أصحاب المطامع حذوه وإعلنوا استقلالهم بأكثر من عشرة اقاليم . وحز في نفسه ان معظم هؤلاء كانوا من اذنابه ومأجوريه ، فاعتزل الملك واخبار الممالك الداخلية المستقلة تلاحقه حتى اطبقت عليه الطامة الكبرى باستقلال رشوان وهونان وعليهما اقرب اعوانه وصنائعه . . . فقضى عليه الغم والكمد في السادس من شهر يونيه ، ولما ينقض على صعوده الى العرش ستة شهور ولا على نزوله عنه ثلاثة شهور .

روى التاريخ ان يوليان المرتد كان ينادي قبيل وفاته بينه وبين خاصته وبينه وبين نفسه : ايها الجليلي . لقد انتصرت ! يعني (السيد المسيح) .

ورواية التاريخ هذه لم تثبت ثبوت اليقين ، بيد أنها رواية معقولة لاداعي لنفيها واستغرابها ، فقد كان الباقعة الصيني ، المعتز بدهائه وسلطانه وما يفعله المال والسلاح يعجب قبيل نزوله عن العرش ويعيد العجب قبيل موته ، كيف يطاع من ياتسن هذه الطاعة بغير دهاء وبغير سلطان او مال او عتاد ، وتكاد صيحة يوان ان تكرر صيحة يوليان .

ولم ينفرد باقعة الصين بهذه الدهشة من فعل الزعامة القوية ، فقد كانت دهشة مستشاريه الغربيين اعظم من دهشته . وجاء في كتاب برنارد مارتين عن الحمية العجيبة **Strange Vigour** ان الدكتور موريسون صاحب الفتوى الفقهية الاجتماعية التي سوغت ليوان اغتصاب العرش وقررت ان الملك اصلح

انظمة الحكم للصين ـ دعا اليه الدكتور جيمس كانتلي استاذ سن ياتسن ساعة احتضاره وهمه ان يعترف له قبل مفارقة الدنيا بانه قد جهل قوة سن ياتسن وعظمته الشخصية وانه لو كان عرفه حق معرفته لاتخذ تاريخ الصين مجرى غير مجراه . قال : وبودي لو يصبح اعترافي هذا معروفاً للناس !

وتتجلى المكانة الهائلة التي رزقها هذا الرجل من نوادر لا عداد لها يقصها الأجانب والوطنيون ويتحدثون فيها عن الخاصة والعامة من قومه ، وربما كانت كلمة المكانة اضعف من التعبير الصحيح عن هذه الخاصة العجيبة التي لا يرزقها جميع الزعماء ، فلولا انها مكانة ثقة أو محبة لكانت كلمة السطوة احرى ان تدل عليها حق دلالتها ، ولولا انها سطوة روحية لما نجح بشخصه منفرداً ـ كما روى الجنرال موريس كوين ـ في اقناع قائد جيش عاص بالارتداد مع جيشه وراء المدينة ، تهدئة لروع السكان .

وتقدم من بعض الاخبار ما يشير الى عادته المرعية في تحميل التبعات والمحاسبة عليها . فإنه لا يشهر العداء على احد حتى يبرىء ذمته من تذكيره ونصحه ، وجرياً على هذه العادة أبرق بعد وفاة يوان الى وكيله لي يوان هنج يحذره من تحدي الدستور ومجاراة طلاب الانقلاب الملكي واعادة الامبراطور الصيني « بوتي » الى عرشه . وكان هذا الوكيل يتولى منصبه ويقيم بالعاصمة الشمالية بعيداً من سن ياتسن وأشياعه ، فلما وصلت اليه البرقية تخلى عن منصبه وعن المنصب الذي اسندته اليه الحكومة الموقوتة ، ولم يحفل بغضب القادرين عليه مرضاة للزعيم الذي يطارده الأقوياء ولا يكاد يأمن على رأسه .

ويعلم المتتبعون لتاريخ الصين الحديث ان الصلابة والعناد ابرز صفات القائد شيان كاي شيك خليفة سن ياتسن على زعامة الصين ، ولم يكن شيان على وفاق مع استاذه في كل موقف وكل خطة ، فخالفه مرات ولم يخطىء دائماً في هذا الخلاف ، بيد انه كان يخالفه وهو بعيد ، ويروغ من لقائه كلما تسنى له ان يداري روغانه خجلا من مخاطبته وجهاً لوجه بالخلاف ، ولم ينفرد شيان بهذا الأدب مع استاذه العظيم ، بل كان مثلا يحكيه غيره من تلاميذ الرجل او معارضيه ، فهم جميعاً يتقون لقاءه بالمعاندة والمكابرة ، ولا يجترىء عليه الا من

يجهله ويجترىء بسورة البهيمية الجامحة على كل مقام .

ومكانته هذه بين العامة من قومه هي التي قاومت طغيان يوان ومناوراته واحابيله التي ينخدع بها الدهماء من كل أمة ، فلما اجتمع مؤتمره واجلسه على العرش ونشرت وثائقه في الصحف وعلى المنابر وبين جماهير المستمعين كان السؤال الذي يتردد على كل لسان : وماذا يقول سن ياتسن ؟ واين توقيعه مع الموقعين ؟ ثم يوصد السائل اذنيه عن كل مقال !

وطالما تضاحك الامريكيون من هذه السذاجة كلما صادفتهم عرضاً في دوائر الأعمال والمعاملات . فمن ذاك ان أهل الصين المقيمين بالولايات المتحدة عرفوا اسم الدكتور موريس وليام الذي سبقت الاشارة اليه عند الكلام على مصادر ثقافة الزعيم ، فاذا استرابوا في وثيقة تجارية او نصيحة من محام او محادثة من صحفي - وهم بمانهتان حيث يقيم الدكتور - قالوا لمن يناقشهم : هاتوا لنا كلمة من الدكتور وليام ، ولا تجدي محاولة قط ما لم يسمعوا الكلمة من الدكتور .

ولم تضعف هذه الثقة الى سنة ١٩٤١ بعد وفاة الزعيم بست عشرة سنة . فلما ارادت مسز فرانسس ماسون امينة صندوق الاعانة الصينية ان تغتنم مناسبة ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ لنشر الدعوة للصدقة يوم الاحتفال بعيد الجمهورية ، واقترحت على طائفة من عامة الصينيين ان تنشر صورهم في الصحف مشفوعة باحاديث مروية عنهم ، تستجلب بها العطف على فقراء بلادهم ، كان جوابهم : نعم . نفهم هذا ، ولكن لا نفهم لماذا تصوروننا لاعانة اناس يعيشون هناك ؟ وماذا عسى ان تعمل صورة هذا الشيخ او تلك المرأة لتقوية الجند على حرب اليابان وضمد الجراح واطعام المنكوبين ؟ . . . وكادت السيدة ان تجن من الغيظ وان تصرف المصورين الذين حضروا في مكاتبهم وصبروا نحو ساعة على سماع حوارها . وذكر احدهم اسم دكتور موريس وليام مستشهداً به على مسألة لا علاقة لها بموضوع الحوار . فلاحت على وجه زعيم الطائفة مستر بنج بارقة حياة ، بعد ان لبث برهة كالصفحة الممحوة بلا كتابة ولا رمز ولا اشارة

وسألهم : أأنتم من معارف الدكتور ؟ فلما قالوا له نعم ونقلوا اليه بعض اخباره قال لهم : حسن . الآن احدثكم بقصة عن بلادنا وآذن لكم ان تنشروا معها صورتنا . . .

وكان لتسعة من التجار الصينيين مشكلة مالية فاستشاروا احد المحامين فأنبأهم انها تستدعي ذهابهم الى المحكمة وإدلاءهم هناك ببعض البيانات . قالوا : إن أشار علينا الدكتور وليام بالذهاب ذهبنا ، والا فنحن مختارون للمشكلة محامياً غيرك . . . وحاول المحامي ان يفهم علاقة الدكتور بالقضية وهو طبيب أسنان ، فلم يفهم منهم شيئاً حتى اتصل بالدكتور على التلفون وعلم منه سر هذا « التفويض » القومي الغريب عند جميع الصينيين بالمدينة ، ولا سيما الوافدين حديثاً من غير المتعلمين[1] .

ليست هذه طاعة رعية لرئيس جمهورية ، ولكنها ثقة أبناء الوطن بمن سموه أبا الوطنية في بلاد تقدس الأسلاف ، وتنسى ان أبوة الزعامة أبوة مجاز فلا تفرق بين الولاء لها والولاء لعبادة الآباء والأجداد .

ولم يؤثر عن أبناء الصين أنهم من ذوي الخيال او ذوي المزاج الذي يسميه الغربيون بالمزاج « الرومانتيكي » ويقصدون به صبغ الحياة بصفة الحماسة الشعرية والفخامة الوهمية . فالقوم كما قدمنا عمليون ارضيون يقدرون الأمور بمقادير الحس القريب ولا يعجبون الا بما يبصرونه ويدركونه ويلمسون شواهده في معارض الواقع والعيان . فزعيمهم سن ياتسن لم يسخرهم بالخيالات والأباطيل بل كسب الثقة منهم بيقين لا يمتري فيه اثنان ، وليس ادعى الى الثقة بالعظيم عند الناس من ثبوت نزاهته امام المغريات والمخاوف ، ويقينهم انه لا يبالي مخاوف الموت ولا مطامع الحياة . وقد رسخ هذا اليقين عندهم في نزاهة الرجل حتى اصبح الشك فيها كالشك في رؤيته وسماعه ووجود شخصه ، فبلغ بهذا اليقين ما لا تبلغه رئاسة الرؤساء وقدرة الزعماء .

والواقع ان الرجل فني في رسالته حتى لم يبق له وجود بمعزل عنها ،

---

(١) من كتاب موريس ويليام وسن ياتسن Maurice William and Sun yatsen

واذهل انصاره وخصومه بنشاطه بعد قيام الجمهورية كما اذهلهم قبل ذلك بالسعي الحثيث الى اقامتها ، واوشك ان يحسب من اصحاب طبائع الجان التي توجد في كل مكان ، فبينا هو بكانتون اذا هو بشنغهاي واذا برسالة له تقل من اليابان او من الجزر والسواحل المستطيلة من الجنوب الى الشمال . . . ويخيل الى مطارديه انهم احاطوا به وسدوا المنافذ عليه ثم يسمعون باخباره على قيادة جيش او على ظهر سفينة او على منصة مؤتمر حاشد لا يدرون كيف احتشد وكيف وصلت دعوته اليه ، وبينا يخيل الى اتباعه واشياعه انه قد يئس واستكان اذا بالأوامر منه تثيرهم الى النضال وتحتم عليهم النصر « وعليهم ان يظفروا لأنهم لا طاقة لهم بالهزيمة » . . . فالنصر ايسر المطلبين .

وقد ولاه وكلاء الأمة المجتمعون في الجنوب كل منصب تشتد حاجتهم اليه . ولوه قيادة الحملة على الشمال ، وأعادوا انتخابه لرئاسة الجمهورية وفوضوا اليه السفارة مع من يشاء ، وكان قبوله لكل منصب من هذه المناصب بمثابة التسليم للموت والنكبة ، فقبل اخطرها واعسرها ولم يتردد الا حين لا خطر ولا عسر ولا مظنة فيهما . بل قبل مرة ان يكون واحداً من سبعة لإدارة الحكومة على نظام القنصلية ، رداً لدسيسة الطابور الخامس الذي كان يعمل في الجنوب بإيعاز من بكين .

وساوموه أياماً على قسمة الشمال والجنوب وطنين منفصلين ، بكين كمعناها عاصمة الشمال ، ونانكين كمعناها عاصمة الجنوب ، فكان على كراهته للحرب الأهلية يجيب على المساومة بصيحة « الصين الكاملة » ويقول ان الصين لو بقيت في مثل نصفها متحدة كاملة أصبح وأقوى من الصين ذات العاصمتين المنعزلتين .

وعمّت الفوضى حتى أصبح سلطان العاصمة ينتهي عند جدرانها ، وحتى اصبح حكم « الانتخاب الطبيعي » بين القواد هو الحكم الذي تقره دواوين العاصمة ، فإذا غلب القائد من ينافسونه وينازعونه فوظيفة العاصمة ان تقر هذا « الانتخاب الطبيعي » ويشيع المغلوب بالذم والعقاب !

وإذا كان صبر يضرب به المثل فهو صبر الزعيم الجليد بين مذاهب هذه الفوضى ومنازع هؤلاء القادة : كان يفتتح المدارس العسكرية لتخريج القادة منها بعد سنوات قادرين على قهر القادة المتنازعين ، وإلزامهم الطاعة بحكم « الانتخاب الطبيعي » الذي احتكموا اليه !

وجرب من مرارة الصبر ـ او من حلاوته ـ أنه كان يرى ألد خصومه يثوبون الى رأيه حقبة بعد حقبة نادمين على مناقضته وعصيانه ، فكان يقول لهم باسماً : لا تحتفظوا للغد بالندم على مخالفة اليوم !

وقد عابه الناقدون من الأجانب على الخصوص بالتشبث والعناد لغير ضرورة لأنه أصر على رفض كل مساومة ترمي الى التقسيم كائناً ما كان المصير ، وكان أناس من قومه يوافقونهم كلما كلفتهم المقاومة عنتاً يودون لو أعفاهم منه الزعيم العنيد ، فلما قضى نحبه ونزلت النوازل بعد فوات الوقت كان منهم من يحسب أنه لم يتشبث كما ينبغي ولم يبلغ الكفاية من تشديد النكير . . . ولو انه عاش لما فرغ من الملامة التي يؤجلون الندم عليها الى الغد بعد الغد ، بغير انتهاء .

مع الدول

يسمي الصينيون بلادهم بالبلاد الوسطى او مركز العالم ، فكل ما ابتعد منها فهو أطراف ومجاهل .

وكانت بلاد العالم تبادلهم هذا الشعور وهذه العقيدة . فمن أقام على مقربة من تخوم الصين يعلم أنه على مقربة منها ، ولكنه يتكلم عنها كأنما يتكلم عن حيز من الأرض معزول وراء جدار . ولا يزال بعض أصحاب النحل الذين يقيمون الى غرب القارة الآسيوية يعتقدون أن الصين هي العالم الأخير ، فمن فارقت روحه العالم فإنما تفارقه لتذهب الى مطلع الشمس من بلاد الصين !

وزاد الشعور ببعد الصين ، أو بغرابتها ، ان الذين طوحوا بأنفسهم في الأسفار ووصلوا اليها قفلوا الى أوطانهم يهولون ويبالغون في التهويل كدأب الرحالين الذين يحبون ان يوهموا الناس انهم ركبوا الأهوال من أجل شيء يساوي مراكبها ومعاطبها ، فلا يقنعهم الغريب حتى يغربوا في وصفه الى الغاية من الإغراب . وجاء زمان كان المستمع فيه الى كل غريب يحسبه لأول وهلة حديثاً عن الصين ، وأصبح من مضارب الأمثال حين يغلو المتكلم في استغراب كلام ان يقول : « هذا صيني بالنسبة الي » أي هذه لغة لا تدخل في عداد اللغات التي يتفاهم بها السامعون .

ومن حظ الصين أنها اقتربت جد الاقتراب من أيدي المستعمرين وهي لا تزال بهذا المكان من الغرابة عند أمم المشرق والمغرب .

فالجزر البريطانية والبرتغال وأسبانيا وفرنسا وهولندة قائمة على شواطىء البحر الاطلسي ولكنها كانت قد وصلت برواد الاستطلاع والاستعمار الى الهند وما جاورها ، فأصبحت من الصين قاب قوسين ، وأصبحت الصين خط

الامتداد الوحيد أمامها كلما طمعت في التوسعة او ضاق بها المقام بين الطامعين المتغلبين .

ولما هب النائمون وفتحوا أعينهم على ميادين الاستعمار كانت الصين أقرب ما تناولوه ، فتناولوا منه ما قدروا عليه . . .

هبت روسيا واليابان لسباق الاستعمار بعد منتصف القرن التاسع عشر الذي عرف بالهجمة الاستعمارية الكبرى . وعلمت روسيا أن الاقتراب من الهند غير مأمون العاقبة ، فلم تجد أقرب اليها من الصين .

أما اليابان فلا خيار لها في القربى ، وإنما تأخر بها الزمن ولم يتأخر بها المكان ، فانتهبت نصيبها مع المنتهبين .

كل هذا والدنيا لا تستغرب أخبار هذه المنهبة العالمية ، فكل ما جاء منها فهو مكسب للبشرية من تلك المجاهل الغريبة ، وكل مأخوذ فهو حق مباح .

ذلك من حظ الصين أو من سوء حظ الصين .

وبقيت في المكيال بقية تبرعت بها الدولة الصينية على غير قصد منها ، فلم ينقل الناقلون عنها الا كل غريب يسوغ تلك النظرة الغريبة ، ويملي للقوم في الاستباحة والانتهاب .

وكانت هجمة بغير عنان ، ثم توقفت على كره من الهاجمين ، وتجمعت الدواعي من شتى الجهات لتوقيف ذلك الهجوم .

فأول هذه الدواعي ان الهاجين على الغنيمة اشفقوا ان يتنازعوا عليها ، فتريثوا على قلق وارتقاب .

وجاء الداعي الأهم بعد هذا من قبل الولايات المتحدة خوفاً على ميزان الأمان في المحيط الهادي .فقد اخرجت اسبانيا من الفيليبين فلم تلبث ان وجدت امامها من هو اخطر من الاسبان يتسابقون الى غنيمة اكبر واضخم من جزر الفيليبين : وهي الصين . ووافق حذرها هذا حذر الدول المستعمرة من تنازعها وتنافسها على الحصص الباقية ، او حذرها ان يموت صاحب التركة ولما يتفقوا على

تقسيم ميراثه ، فتوقفوا واستمعوا نصيحة الولايات المتحدة بالتوقف ، وحرموا على احدهم ان ينفرد بالدار المفتوحة لكل واغل وداخل ، وسموا هذا التحريم الخاص او هذه الاستباحة العامة بسياسة الباب المفتوح .

وداع غير هذه الدواعي ان التنين الغريب زالت عنه الغرابة ، وزالت عنه حجة الاستباحة .

كان ابن السماء يحتج على استباحة ارضه ، فيثبت باحتجاجه انه يرطن وانه من عالم آخر تفصله الوف الفراسخ والوف السنين .

وكانت رعاياه ـ رعايا ابن السماء ـ تحتج وتغضب فتضيف المئات من الفراسخ والمئات من السنين الى تلك الألوف ، فلم يكن اغرب من ابن السماء الا أبناء أرضه دعاة السلام ، أو الملاكمين دعاة الصراع . . . ولما اراد رسول التايبنج ان يقترب بعض الاقتراب قال قولته التي جعلته اعجوبة الأعاجيب في ارض العجائب . قال انه شقيق المسيح الأصغر ، فكان الوثنيون من قومه أدنى الفريقين الى العقول والأسماع !

ثم فتح العالم اذنيه على صوت جديد : صوت ليس بالغريب عن الصين ، وليس بالغريب عن العالم ، في لهجته نبرة صينية لا خفاء بها ، وفيها نبرة انسانية لا خفاء بها كذلك ، اولعلها أدنى الى الانسانية من بعض ما يسمعونه بينهم ، عصر القوة والقسوة والعداء والاعتداء .

ذلك صوت النهضة الحديثة من العالم القديم .

ذلك صوت « الصينية » التي تفهم ولا يضرب بها المثل في الابهام والخفاء على الأفهام .

وانبرى العالم يتفهم ويتقرب .

اصبحت الصين جزءاً من العالم . . .

ومن حظ الصين هذه المرة ايضاً أنه العالم المنقسم على نفسه ، فكل قسم منه يريد هذا الطارق الجديد الى جانبه . . . الا انه يريده ليأخذه من طريق

التفاهم بعد طريق السطو والسطوة ، ولا يريده ليسلم ويسلم معه من غائلة القوة والقسوة ، وبلاء العداء والاعتداء .

فالسياسة الاستعمارية أبت بعد النهضة الصينية ان تعلم ان الصين تجشمت متاعبها وبذلت ضحاياها لتخلص من مساوىء العهد القديم لا لتبقيه وتطيله كأنها لم تتجشم متعبة ولم تبذل ضحية ، فصمدت على دأبها من الطمع والإهانة ، وخيل الى ساسة الغرب ان احتلال بقعة من بقاع الصين واغتصاب جزء من سيادتها قد صار مظهراً من مظاهر الوجاهة الدولية ، يعاب على الدولة ان تفقده بين نظرائها ولو لم تكن لها مصلحة فيه . . فلما رأت ايطاليا أنها تصعد على مراتب الدول نظرت الى ما يعوزها من مظاهر الوجاهة فلم تجد لها فرضة على سواحل الصين ولا مرفقاً من مرافقها فطلبت منها ان تؤجر لها إقليم فيوكين البحري وميناء (سان تو آو) . . . وأوشكت ان تجرد عليها حملة لإرغامها على قبول مقترحاتها .

لا جرم تعود الدول سنة ١٩٢٢ فترى انها لا تزال كما كانت قبيل بداية القرن العشرين ، وتتفق الدول التسع على معاهدة واشنطن لتعطي الصين أماناً على سيادتها وتحرم على إحداهن ان تنفرد بمزية فيها ، وتعيد فتح الباب الذي يتسع لدخولهن مجتمعات على سنة المساواة . . .

ولما انقسمت الصين بين حكومة الشمال وحكومة الجنوب رحبت الدول بهذا الانقسام وجعلته ذريعة للمزايدة في المطالب بين الخصمين المتنازعين ، ولم تعترف بخير الحكومتين بل أفهمتهما معاً أنها تعترف بمن يذعن لأمرها ويتقبل مطالبها ويتابع السير على سياسة العهد القديم بجميع تفصيلاتها .

وفحوى ذلك بعبارة موجزة أنها لا تعرف حكومة سن ياتسن ولا تعمل على مؤازرته ولا تزال تنظر الى الصين كأنها سوق مستباحة ، وتحسب انها خاسرة يوم تصبح الصين حوزة لا تستباح .

والمطلوب ان يكون الرجل « سياسياً عملياً » باللغة التي تعنيها السياسة الاستعمارية .

وكل شيء تقوى عليه الطاقة البشرية إلا أن يصبح « أبو الوطن » سياسياً عملياً بهذا المعنى .

وذلك هو الحرج ، أقسى الحرج في زعامة الأمم .

وتلك هي مسكنة العظمة ومظلمة الصدق والشرف .

لقد كان كل نهاز محتال في بكين سياسياً عملياً حكيما عليما بمنطق الواقع ، مرجحاً على سن ياتسن في هذا المضمار ، بميزان الخيانة والاستعمار .

أما سن ياتسن فغاية ما استطاعه من الحكمة العملية أنه صرح بحاجته الى رؤوس الأموال الأجنبية ، وأراد ان يكون فتح الباب لتثمير الأموال في مشاريع التعمير عوضاً عن الحقوق الاجنبية المدعاة والامتيازات القضائية والاقتصادية المفروضة على الشعب والحكومة ، فتلغى المعاهدات الجائرة باتفاق الطرفين . ويتفق الطرفان على تثمير الأموال بما يعمر الصين ولا يحيف على استقلالها وحرية حكومتها .

ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى كانت للصين فيها سياستان متعارضتان : سياسة الشمال وسياسة الجنوب .

فأما سياسة الشمال فكانت تعطي كل شيء ولا تأخذ شيئاً : كانت تسلم لليابان بما يشبه حقوق الحماية ، وتقطعها الأرض التي جلا عنها الألمان وتخولها الإشراف على الدواوين والمعسكرات ، وتشترك في الحرب العالمية .

وأما سياسة الجنوب ـ او سياسة سن ياتسن ـ فهي تلتزم الحياد او تدخل الحرب على ضمان ، ولا ترى على أية حال موجباً للاشتراك في الحرب مع قبول مطالب اليابان .

وواضح ان سياسة الشمال هي السياسة التي لا مصلحة فيها لغير حكومة بكين ، ولا باعث لها غير التزلف الى الدول للاستعانة باموالها ومناوراتها السياسية على البقاء .

وواضح ان سياسة الجنوب تكسب للصين ان كسبت ، ولا تكلف

الصين خسارة أكبر من الخسارة الواقعة ، ان خسرت .

وواضح اي السياستين هي السياسة العملية الحكيمة بالنسبة الى الصين ، وأيهما هي السياسة العملية الحكيمة بالنسبة للاستعمار .

ولا احد من الساسة الاجانب يرتضي الحكمة العملية بالنسبة الى الصين مهما يكن حظها من الوضوح ، ولا استثناء لسياسي اجنبي في هذا المجال مهما تكن صبغته وصبغة الحكومة التي ينتمي اليها ، ومنها حكومات ثورية تنكرها جميع الحكومات .

فمن سخرية القدر ان رسول حكومة الثورة الروسية قصد الى بكين بعد انتهاء الحرب العالمية بثلاث سنوات ، ولم يعترف اول مقدمه بحكومة الجنوب ، وكان هذا الرسول ـ ادولف جوف ـ يزف الى اهل الصين بشرى النزول عن حقوق المعاهدات وهي بشرى يتقبلها سن ياتسن بالترحاب لانها عنوان سياسته واصل من أصول برامجه الدولية والوطنية ، ولكنه عندما كشف عن رسالته لم يعجب احد لاعترافه بحكومة الشمال وتجاهله لحكومة الجنوب .

كان هذا الرسول يبلغ الصين نزول حكومته عن حقوق خرجت من يديها، ويحتفظ بالمنافع التي تملكها ، وهي منافع السكك الحديدية .

وهذه السكك الحديدية أقرب الى الشمال .

وحكومة بكين اقرب الى المساومة فيها .

فمن السياسة العملية ان يستقرب الشمال ، وإنه مع الجغرافية والسياسة معاً لقريب المنال .

* * * *

إن القوى التي تعتبر مقياساً لعظمة الزعامة نادرة ، لندرة العظمة بطبيعتها ، وندرة اجتماع قواها في نفس الزعيم الواحد . ومن أندر هذه القوى ـ إن لم تكن أندرها جميعاً ـ قوة الزعيم على مغالبة اليأس وابتعاث الرجاء من

مكامنه حيث يضيع كل رجاء .

ويحار الباحث حين يبحث عن مصادر ذلك الرجاء في حوادث العالم او علاقات الناس ، فيبدو له أنها أحرى ان تكون من مصادر اليأس والتثبيط ، ولا يهتدي الى مصدر لها في غير سليقة الزعيم التي تخلق الرجاء لصاحبها وتخلقه للآخرين .

وقد امتحنت قوى الزعامة في نفس سن ياتسن مرات بعد مرات ، من ايام الدعوة الى ايام الثورة الى ايام الرئاسة الى ايام الانقسام في امته وبين اعوانه واعدائه ، فلا نحسب انها تعرضت لامتحان قط اعضل من امتحانها ايام الحرب العالمية الاولى .

فلو انه التفت الى عوامل اليأس في حوادث العالم او في حوادث امته او في حوادث اصحابه وخاصته لوجد في كل منها ما يملأه يأساً ويحجب عنه كل أمل يراود الحالم الممعن في الخيال .

كانت حكومة الصين قد استجابت دعوة الحكومة الأمريكية فقطعت علاقتها بألمانيا ، ثم انتهت الحرب وانعقد مؤتمر الصلح وجلست الصين مع الدول المنتصرة ، فإذا هي تعامل معاملة العدو المنهزم ، واذا بالمؤتمر يتبرع بإقليم شانتونج لليابان كأنه من تركة المانيا ولا علاقة له بالأرض الصينية !

ولم يجرؤ مندوبو بكين على توقيع معاهدات الصلح مع اشتهارهم بالاستسلام للدول الغربية ، وغشيتهم الرهبة من الثورة التي اثارها سن ياتسن في الرأي العام فاكتفوا بالتوقيع على صلح النمسا واحجموا عن التوقيع على صلح المانيا ، وفارقوا باريس وهم على وجل مما ينتظر حكومتهم بين سخط الرأي العام وسخط الدول المسيطرة عليها .

وقبل انعقاد المؤتمر بسنتين كانت حكومة الثورة الروسية تخلف حكومة القياصرة وتعلن لها سياسة خارجية غير سياستهم في الشرق الأقصى على الخصوص ، وكان سن ياتسن يقول ان الثورة الروسية نسخة من الثورة الصينية التي سبقتها بست سنوات ، فأبرق الى لينين يهنئه بزوال عهد القياصرة

والاستعمار ويتفاءل بحسن المصير .

ثم تمضي سنوات بعد الحرب العالمية وترسل حكومة الثورة على القيصرية برسلها الى الأمة الصينية ، فإذا هم يقصدون الى بكين ، او يقصدون الى حيث تكون المساومة على الأقاليم والامتيازات ، ويتجاهلون الثورة الصينية وقادتها ومقاصدها ، لأنهم قوم لا يسامون ولا يساومون !

من أين يأتي الرجاء في السياسة العالمية !

من الغرب او الشرق ؟ من المحافظين او الثائرين ؟ من القارة الأمريكية او القارة الآسيوية او القارة الاوربية ؟ أو من الأمة التي لها قدم في اوربة وقدم في آسيا ؟

لا رجاء اينما تقلب نظر الناظر بين الآفاق والأرجاء .

ولكنه هناك في ينبوع واحد لا يفقد رجاؤه ، وهو قلب زعيم .

وتشاء المقادير ان تغلق بكين ابوابها في وجه رسول الثورة الروسية ، لأنها لا تفتح ابوابها بغير اذن الدول الكبرى .

فانفتح امام الرسول باب الجنوب ، والتقى هذا الرسول - ادولف جوف - بنواب سن ياتسن ، وتبعه داعية من اقدر دعاة التنظيم والتهييج في الثورة الروسية ، وهو ميخائيل بورودين ، او (بيرج) كما كان يسمى في امريكا حيث تلقى دروسه الأولى ، او جروسنبرج Grusenberg كما كان يسمى في المكسيك حيث ذهب بأمر الدولة الثالثة لنشر الدعوة ، وقد عرف بلاد اخرى غير روسيا وأمريكا الشمالية والوسطى ، إذ كان في سكوتلاندة يحرض على الثورة ، ثم كان مستشاراً لمصطفى كمال .

وأراد سن ياتسن ان يستطلع الأمور على حقيقتها في البلاد الروسية ، فأشخص اليها تلميذه الأكبر شيان كان شيك ، واستقصى الأخبار والمعلومات من الطلاب الصينيين الذين كانوا يقصدون مدارس روسيا بعد شيوع السخط على اليابان .

ولم يفت بكين ان تغتنم الفرصة السانحة للتشهير بسن ياتسن في الصين نفسها وفي البلاد الاوربية والأمريكية التي تساومها ، فأطلقت ألسنة الصحف الوطنية والأجنبية تتهم الرجل بإفساد العلاقة بين بلاده وبلاد العالم المتمدن ، وترويج الدعوة للشيوعية ومذاهب الفوضى بين قومه ، وتدق ناقوس الخطر من جانب الزعيم « المارق من حظيرة الوطن وحظيرة الحضارة . . . »

وبينا هذه الضجة المسخرة تصسم الآذان في المشرق والمغرب ، ومؤامرات الاغتيال تدبر لقتل الزعيم وخاصته من جراء هذه التهم والشبهات كان الرجل يبدأ كل مناقشة بينه وبين سفراء الروس بالتنبيه الى المبدأ المرعي في كل اتفاق ، وهو استقلال الصين وصيانة حقوق السيادة لها على ارضها والتفرقة بين الصداقة السياسية والدعوة الشيوعية . ثم لا يكتفي بالتفاهم على هذا المبدأ في المناقشات الخاصة فيطلب من السفراء ان يرجعوا الى حكومتهم لإقراره في بيان عام يذاع على الملأ بتوقيع الطرفين .

وصدر هذا البيان في السادس والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٣ وفي مطلعه : « إن الدكتور سن يرى أن أحوال الصين لا تسمح بتطبيق النظام الشيوعي او نظام المجالس السوفيتية ، وأن مسيو جوف يقره كل الإقرار على هذا الرأي ، ويضيف اليه ان قضية الصين التي هي اولى من كل قضية بالاهتمام والتعجيل هي استكمال وحدتها واستقلالها . . . »

ويلي ذلك كلام عن قواعد الاتفاق على مسائل السكك الحديدية ، ثم وعد قاطع بأن الحكومة الروسية لا تعمل على استقلال جزء من أجزاء الصين وإشارة خاصة الى أقاليم منغوليا وما جاورها .

****

والسياسة العملية التي توخاها الزعيم بهذا البيان هي اغراء الدول بهذه القدوة ، وجلاء الحقيقة عن موقفه من الدعوة الشيوعية ، ودرء المخاوف الباطلة داخلاً وخارجاً من نيات الحكومة الوطنية او حكومة الثورة كما كانوا يسمونها . ولخص علاقاته الدولية بكلمتين : كلمة عن علاقته بالروس وهي « صداقة

روسية ولا شيوعية » وكلمة عن علاقته بالدول الغربية وهي « عصرية ولا غربية » أو تجديد ولا تغريب **Modernisation and no Westernisation** وتجمعها كلمة واحدة : وهي المحافظة على كيان الصين ، ويريد بذلك كيانها الروحي فلا تفرط في ميراثها العريق من أجل الحضارة الحديثة ، وكيانها السياسي فلا تشوبه دعاوى الدول ولا تقيده المعاهدات الجائرة .

وفي يوم المؤتمر العام الذي دعا اليه أعضاء حزبه بعد إعلان خطته نحو الدول دخل عليه كبار اعوانه في حجرته قبل انعقاد المؤتمر فرأوه مستغرقاً في خريطة كبيرة يمثل عليها رسماً بيانياً لسياسة الاحزاب والجماعات . . . وكان هذا الرسم هو صورة دائرة كبيرة يدور محيطها على حلقات صغيرة كتب على بعضها كلمات الاشتراكية والديمقراطية والشيوعية ورأس المال والماركسية وترك بعضها بغير كتابة ، فسألهم : ماذا تريدون ان تكتبوا في هذه الحلقات ؟ اكتبوا ما تشاؤون من الأزمات **Ismisms** اي من عناوين المذاهب التي تنتهي في اللغات الافرنجية بهذه الحروف ، ولا يهم ما تكتبون ما دامت هذه الدائرة الكبرى محيطة بجميع الحلقات ، وهي دائرة الوطنية الشاملة .

وعلم كل من يعامله من الوطنيين والأجانب ان المحافظة على كيان الصين هي القاعدة الراسخة التي لا هوادة فيها .

سعى اليه السفراء الرسميون وغير الرسميين من قبل الدول يزينون له الاستقلال بما في حوزته ويعدونه ان تعترف الدول باستقلاله على اثر اعترافه بحكومة بكين ، فلم يعن بالجواب على هذه المساومة ، او كان جوابه عليها مطالبة الدول بالكف عن التعرض لشؤون الصين الداخلية سواء كانت خاصة بحكومة الشمال او حكومة الجنوب .

وطالب الدول بالتخلي عن الجمارك في كانتون فلم تحفل بطلبه ، وظنته « لجاجة شرقية » تبتدىء وتنتهي بالكلام . فاحتل الجمارك واخذ في تحصيل الرسوم على البضائع الواردة ، فلم يكد المندوبون الدوليون يصدقون اعينهم وهددوا بالمحاصرة واتبعوا التهديد بتسيير السفن الحربية وانزال الجنود فيها .

ونزلت الجنود فعلا فانذرهم في اليوم الذي نزلت فيه الى البر ليزيدن الرسوم الجمركية أو ترجع الى مراكبها ، واضطرت الدول الى تغطية هذه المظاهرة والتفاهم على شروط جديدة لتحصيل الرسوم ونظام الاستيراد .

واحست حكومة الشمال انها تفقد « شعبياً » كلما كسبت « دولياً » من مجاراة المطامع الأجنبية ، وانها لا تأمن على وجودها طويلا ان لم تصطنع مجاراة الأمة مع مجاراة الدول الكبرى ، فأصدرت (في سنة ١٩٢٣) دستوراً عصرياً مستمداً من الدستور الفرنسي وبعض الدساتير الأوروبية الحديثة ، وتخيرت فيه أرقى النظريات النيابية عسى ان تتقرب به الى طوائف المجددين من أبناء الشمال وابناء الجنوب ، فلم يلبث هذا الدستور ان طوي قبل نشره وتطبيقه ، لقيامه على أساس ينكره سن ياتسن ويعتبره مناقضاً لقاعدة المحافظة على كيان الصين ، وذاك هو أساس الحكومات الفدرالية ، وظاهرها حسن مطابق للنظام الأمريكي الذي ارتضاه جمهرة من الناشئين المتخرجين من الجامعات الامريكية ، وباطنها سيء يرمي الى المساومة بين حكام بكين وحكام الولايات الطامعين في الاستقلال باسم الوحدة الفدرالية . وقد رأى القراء فيما تقدم وسيرون فيما يلي أن سن ياتسن كان شديد الحذر من هذه القدوة الخاطئة ، فإن الفدرالية كانت صلة الاتحاد بين الولايات الأمريكية المتفرقة . أما الفدرالية في الصين فهي تفريق للأمة المتحدة بين أصحاب المطامع والخوارج المتمردين .

ولم تملك حكومة الشمال ان تتجاهل نفوذ سن ياتسن بعد هذه المحاولات التي احبطها جميعاً باعتراضه عليها واتهامه للأغراض المبيتة من ورائها ، فتوسلت اليه تدعوه الى زيارة بكين للتفاهم على قواعد الوحدة ، وكانت هذه الدعوات تأتيه من قبل فيرفضها لضعف مركزه في الجنوب وخوف انصاره في بكين من الظهور بتأييده ، فاعتقد انها فخاخ تنصب لاغتياله او اعتقاله واسترهانه لمساومة أعوانه الجنوبيين على التسليم ، فلم يستجب لتلك الدعوات واكتفى بشرح آرائه ومطالبه في المسائل المعروضة عليه .

اما هذه الدعوة فقد جاءته والقوة في جانبه والرأي العام في بكين نفسها يناصره ويشيد بذكره ، وحكومة بكين مهددة مستضعفة بين المتمردين عليها

والمتربصين بها من رعاياها ، فاستجاب لها وأرسل قبل سفره الى بكين طائفة من المقترحات وبياناً بالهيئات التي تدعى الى الجمعية الوطنية لتمثيل الامة برمتها ، واشترط ان يشهد تلك الجمعية مندوبون عن الجامعات ومعاهد الصناعة وغرف التجارة ولجان الفلاحين والعمال ، وسائر الطوائف من جميع الطبقات .

ثم أزمع السفر فبلغه في الطريق ان حكومة بكين رفضت مطالبه ومقترحاته ، فلم يشأ ان يعود أدراجه وواصل المسير الى عاصمة الشمال فوصل اليها في الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر (سنة ١٩٢٤) وأراد أن يواجه حكومتها بما يلزمها الحجة ويرد عليها دعواها التي تعودت أن ترميه بها ، كلما أبى ان يقرها على سياستها .

إلا أنه لم يكد ينزل بالعاصمة حتى تراكمت عليه متاعب السفر ومتاعب المرض الذي كان يعاوده ولا يجد متسعاً من الوقت لعلاجه، فانتقل الى المستشفى وأجمع الأطباء على التعجيل بإجراء العملية الجراحية ، وظنوا انه يشكو خراجاً في الكبد فظهر انه سرطان مزمن لا أمل في شفائه ولا جدوى من علاجه ، ولم تخف الحقيقة على الطبيب المريض فقضى ايامه الباقية في بيت صغير يلقى فيه اصحابه وزواره ولا يشغله عن الاستعداد للموت إلا أن يملي على خلفائه وصايا العمل من بعده ، وهو يعلم وهم يعلمون أنها أيام معدودات يفارقهم بعدها الفراق الأخير .

***

مات سن ياتسن في الثاني عشر من شهر مارس (سنة ١٩٢٥) وآخر كلمة في وصيته ان تنعقد الجمعية الوطنية لتوحيد الأمة وإلغاء المعاهدات الجائرة وتبادل الصداقة مع الأمم التي تعامل الصين على سنة المساواة .

الأحزاب والتلاميذ

أقسى المصائب ما يصيب الإنسان او الشعب في كبريائه ، وهو كذلك أنفعها له وأفعلها في تنبيهه لعيوبه وإيقاظه من غفلته . وقد كانت هزيمة الصين في حربها مع اليابان (سنة ١٨٩٥) إحدى هذه المصائب النافعة ، فأخذت تتساءل عن علة هزيمتها وعوامل القوة التي اتاحت لجارتها المحتقرة ان تنتصر عليها ، فاتفقت آراء المفكرين فيها على تعليل ذلك بنظام الحكم وضرورة العمل بالأنظمة العصرية التي أخذت اليابان بنصيب منها .

وشرع الإمبراطور الناشيء في اقتباس النظم النيابية بمشورة نصحائه ، وصدرت مراسيمه الأولى (سنة ١٨٩٨) ببعض التعديلات الدستورية تمهيداً لاتباعها بغيرها ، واستعد ولاة الأمر للسير المتدرج على هذا المنهج لولا المرأة المشؤومة التي كانت تسيطر على البلاط في ذلك الحين ، واسمها ـ لسخرية القدر ـ تزوهسي اي « الأمومة السعيدة » !

فهذه المرأة المشؤومة تطيرت من حركة الإصلاح فأحكمت دسائسها داخل القصر وخارجه لانتزاع السلطان كله من يدي الإمبراطور الناشيء . وخيل إليها ان هذه الحركة الدستورية ألاعيب أطفال وأنها تعرف الأساليب التي تطرد بها الأوروبيين من مملكة ابن السماء، فكان تدبيرها لفتنة الملاكمين احدى هذه الأساليب ، وشاء القدر على غير قصد منها أن تضرب العهد القديم كله بيديها ، فارتدت اللكمات الى صدرها ، كما قال المستهزئون ، وما أكثرهم في ايام المحن والأزمات .

وولد اول حزب سياسي على أثر الحركةالرجعية التي تعقبت حركة الإصلاح الدستوري بالإلغاء واضطهاد القائمين بها داخل البلاط ودواوين

الحكومة ، فأنشأ سن ياتسن جماعة (هسنج شنج هوي) أي جماعة تجديد الصين بمقاطعة بكاو التابعة للبرتغال ، وكان ذلك سنة ١٨٩٢ بعد حركة الإصلاح الأولى بنحو أربع سنوات .

ووسع هذه الجماعة سنة ١٩٠٥ أيام مقامه في اليابان وبعد طوافه في أوربة فسماها جماعة (شنج كوتنج منج هوي) أي جماعة الأخوة الصينية ، ولم يجعل لها رئيساً بل جعل لها مكتب ادارة يتولى العمل فيه باسم « تسنجلي » اي المدير العام ، وتتشعب فروعه في الصين وبين الجاليات الصينية حيث وجدت في البلاد الأجنبية .

واتبعت هذه الجماعة نظام الجماعات السرية الى ما بعد اعلان الجمهورية ، فحولها الى حزب علني باسم الكومنتانج اي حزب الوطن ، وضم اليها جماعات اخرى كانت تعرف باسم الحزب الديمقراطي المتحد وحزب التقدم الشعبي وحزب التقدم الديمقراطي وحزب الشعب العام ، وهي احزاب كانت تدعو الى الاصلاح الدستوري ولا تستلزم اسقاط الأسرة المالكة ، فاتفقت مقاصدها ومقاصد سن ياتسن بعد اعلان الجمهورية ، وانتخبته للرئاسة بإجماع الآراء ، فقبل الرئاسة مؤقتاً ثم تنحى عنها كعادته لصديقه (سنج شياو جن) وهو من أقطاب الدعوة الجمهورية وحراسها الأمناء .

وبعد نزول سن ياتسن عن رئاسة الجمهورية للقائد يوان شي كاي عمل هذا على مقاومة الكومنتانج بفصل بعض الأحزاب منه وتأليف حزب يسمى « شنبتانج » أي حزب التقدم ، فتألف هذا الحزب الجديد ممن يسمون بالحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي وحزب الاتحاد ، وذهب رئيس الكومنتانج « سنج شياو جن » ضحية هذه المكيدة ، فقتله أعوان يوان في العشرين من شهر مارس سنة ١٩١٣ ولم تكد تمضي سنة على قيام الجمهورية .

ورأى سن ياتسن ان الحزب يحتاج الى تأليف جديد بعد خروج من خرج منه وتسلل الطابور الخامس اليه من سماسرة يوان وأمثاله . فأعاد تأليفه في طوكيو بعد سنة من مقتل رئيسه وعاد الى إدارته باسم « تسنجلي » أي المدير العام ، ثم

انتقل مركز ادارته من طوكيو الى شنغهاي بعد وفاة يوان شي كاي ، وكان أعضاء هذا الحزب موقدي الثورة في كل مكان يوم نادى يوان بنفسه امبراطوراً على عرش ابناء السماء ، فلم تهدأ الثورة في ديرين وشنغهاي وهونان وشكيانج ويونان وكويشو وكوانجزي وكوانجستنج وشنسي الا بعد نزول يوان عن عرشه ، وتلك هي الأقاليم التي عرفت بانتصارها لدعوة سن ياتسن من أوائل أيام الجماعة السرية .

وفي سنة ١٩٢١ انتخب سن ياتسن رئيساً لحكومة كانتون المؤقتة ، ثم نجمت الفتنة التي دبرها احد القواد الخونة بدسيسة من حكومة بكين وساسرة الدول الأجنبية ، فعاد سن ياتسن الى تنظيم حزبه وتأليفه من جديد سنة ١٩٢٤ ، وتيسر له هذه المرة ان يوجه الحزب الى أعمال غير أعمال التنظيم الحزبي ، فأنشأ جامعة (كوانج تنج) العلمية وجامعة هوامبو العسكرية ومدارس متفرقة ثانوية وابتدائية ، وفتح لجان الحزب للطلبة والصناع على نظام يناسبهم ويكفل للحزب ان يمثل ابناء الصين كافة من جميع الطبقات والأعمار .

وتحقيقاً لوجهته الكبرى التي تتلخص في المحافظة على كيان الصين تقبل اشتراك الشيوعيين في مؤتمرات الكومنتانج بصفتهم الشخصية ، مع التفاهم بين الجميع على اختلاف احوال الصين وحاجتها الى ضروب من الإصلاح الاجتماعي غير التي يدين بها الشيوعيون في روسيا ، وأولها احلال التعاون القومي محل التنازع بين الطبقات وتغليب احداها على المجتمع كائنة ما كانت منزلتها فيه .

والظاهر من تاريخ الدعوة الشيوعية في حياة الزعيم ان رؤساء الدعوة كانوا يعتقدون حقاً ان الصين لم تستعد في تلك الآونة على الأقل لتطبيق النظام الشيوعي ، وعمدتهم في هذا التقدير أن الصناعة لم تتطور وأن عمال الزراعة لا توحدهم جامعة ثورية ، وقد روي عن ستالين الى سنة ١٩٤٥ انه كان يقول ان الحركة الشيوعية عامل غير خطير في سياسة الصين ، ووجد زعيم الشيوعية الصينية (ماوتسي تنج) عناء شديداً في إقناع أصحاب النظريات داخلاً وخارجاً بسوء تقديرهم لعوامل الثورة بين الفلاحين من اهل الصين على الخصوص .

وأيا ما كان الباعث على قرار التفاهم بين الكومنتانج والحزب الشيوعي في حياة سن ياتسن فقد كان الفريقان يرعيان حق الاستاذية لأبي الصين ، ويفهم من يسمعهم يذكرون « الأستاذ » ولا يزيدون أنهم يقصدونه دون غيره بهذا اللقب الذي خصوه به كما خصوه بلقب « الأب » الكبير .

وبقيت للرجل مكانته المرعية بعد وفاته بأكثر من ثلاثين سنة ، فمن خالفه منهم لا يتهمه ولا يعيبه ، وإنما يعالج تفسير كلامه على الوجه الموافق لرأيه ، او يعلل مخالفته اياه بمضي الزمن وتبدل الحال ، ويقول إن « الأستاذ » كان خليقاً ان يرى رأيه ويعمل عمله لو كان بقيد الحياة .

برامج الإصلاح

قالت الكاتبة الصينية اميلي هاهن في كتابها عن اخوات سونج The Soong Sisters « إن سن ياتسن فصل في أيامه الأخيرة براجمه فبقيت بعده توراة لقومه ، وأنها كما ينبغي لكل توراة صالحة ان « تزود » كل من شاء بالأفكار التي يرجع اليها ، وتتنوع التنوع الكافي للاستشهاد بها على المذاهب المتقابلة ، فالدكتور سن ياتسن يستشهد به اليوم على لسان كل أحد في الصين : على لسان شيان كاي شيك ووانج شنج وي ، بل على ألسنة اليابانيين ، فهم جميعاً يغوصون في مبادىء الأمة الثلاثة ليخرجوا منها بالفكرة الملائمة » .

وأصابت الكاتبة البارعة ، فإن وصايا سن ياتسن لهي في بابها توراة سياسية صينية بكل ما للتوراة من الخصائص في هذا الباب ، فقد تحتدم المعركة الحامية لتقديم كلمة منها او تأخيرها تأييداً لهذا الحزب او تفنيداً لغيره ، وهي كما قالت ترد على كل لسان حتى السنة اليابانيين .

وذلك حظ من القداسة لم يرزقه غير القليل من القدماء .

وليس هذا الحظ مقصوراً على اقوال الزعيم في أيامه الأخيرة ، فإن اقواله في بروسل ـ وهو دون الأربعين ـ قد أضيفت الى مراجعه الأخيرة ، فأصبحت مبادىء الشعب الثلاثة (سان مين شوآي)ومبادىءالدستور الخماسي (ووشوان هسين فا) أسفاراً معتمدة من تلك التوراة الصينية ، ولحقت بها من التعليقات مجلدات تتلوها مجلدات بغير انقطاع .

إن هذا الرجل الطموح كانت له غايته التي تتقاصر دونها الهمم منذ خطوته الأولى ، فقد كان يناهز السادسة والعشرين يوم عقد العزيمة على « تجديد الصين » ولم يقصر جهده على إسقاط الأسرة المالكة او تغيير اداة الحكم او إعلان

الجمهورية . فما كان شيء من ذلك في نظره الا وسيلة الى الغاية العظمى التي تهون في سبيلها الوسائل ، بل تهون الغايات .

ومن مقاصده البعيدة ما لعله اجل شأناً من تجديد بلاده من الوجهة الاجتماعية أو السياسية ، فإنه أراد ان يجدد « النفس » الصينية في اهابها العتيق .

فطفق في سنواته الأخيرة يبدأ ويعيد حول معنى الفهم والعمل ، ويؤكد حكمته العزيزة عليه ، وهي الحكمة التي لخصناها بالكلمة الأولى من هذا الكتاب ، وفحواها بمختلف العبارات وفي مختلف المعارض ان الفهم هو العسير ، أما العمل فلا عسر فيه ، وهذا ما أفاض في شرحه وسماه تدعيم النفس الصينية ، فلم يكن يغنيه أن يتجدد بناء الصين دون بناء النفس الصينية على قوام جديد .

وفي ايامه الأخيرة الف كتابه عن « تنمية » الصين بين الدول ، وبسط فيه وجوه الإصلاح وجهاً وجهاً على اوسع ما استطاع من الإسهاب ، ولم يقصد به أن يضعه على الأثر موضع التنفيذ العاجل ، ولكنه علم ان تعمير البلاد - ولا سيما البلاد التي تشبه الصين اتساعاً وازدحاماً - عمل متداخل متشابك لا يرتجل قطعة بعد قطعة ، ولن يفلح في هذا العمل من يبدأه وهو لا ينظر عند ابتدائه الى منتهاه ، فبسط وجوه الإصلاح والتعمير ليحسب العاملون حسابها خطوة بعد خطوة ومرحلة وراء مرحلة ، وهذه الخطة العملية هي التي سماها خصومه حلماً من أحلام الخيال .

ومن خصومه هؤلاء من هم خصوم فكرة او خصوم مزاج لا يضمرون له العداء ولكنهم لا يطيقون ان يجروا معه في اشواط الحماسة الروحية ، ومنهم من كتب اليه حين اطلع على مشروعاته يقدر له ملايين الأموال التي تتطلبها وعشرات السنين التي تستغرقها ، كأنما هو قد بسط تلك المشروعات ليضرب عليها بعصا الساحر فيفتحها له « سمسم » تامة عامة في طرفة عين .

وقيل عن هذه المشروعات كثيراً انها مرتجلة متعجلة ، ولكنها على التحقيق لم تكن وليدة عام ولا بضعة اعوام ، بل لازمه درسها وتقليبها على جوانبها اكثر من عشرين سنة ، ومات وهو ينقح برامجه التي استهل بها حياته السياسية ،

ويرتب المراحل التي تتدرج عليها الى منتهاها ، مع تذكيره القراء والمستمعين انها قابلة للتنقيح المتعاقب اثناء الطريق .

مات وهو يقول ويعمل لتثبيت مبادئه الثلاثة : الديمقراطية والسيادة الشعبية ورخاء المعيشة او الاشتراكية .

ولم يخطىء التقدير الا حين خطر له ان الصين قادرة على البدء بتطبيق تلك المبادىء عقب اعلان الجمهورية ، فانقضى اكثر من عشر سنوات والجمهورية تبتلى بمحنة بعد محنة . والبدء بالتطبيق يتأخر سنة بعد سنة ، فلم يزل برنامجه الى اخريات ايامه محتاجاً الى ادواره الثلاثة : دور التوطيد ودور التوجيه ودور الحكومة الدستورية .

فمنذ اعلن في بروسل مبادئه الثلاثة قرر لمريديه أن بلاداً تتسع اتساع الصين لن تستغني عن القوة لتوطيد امنها واستقرار امورها عقب اعلان الجمهورية ، ثم يتوجه بها خدامها او زعماؤها الى وجهتها القويمة مع ايمانهم بسيادة الشعب وصدورهم عن هذا الايمان في اعمال التشريع والإدارة ، ثم تستفيد كل ولاية من تجاربها المحلية وتجتهد اجتهادها لتوثيق علاقتها بالحكومة المركزية . وساوره الرجاء ان تتم المرحلتان الاوليان بعد ثماني سنوات ، ولم يحلم برؤية النتيجة ايام حياته ، ولكنه لم يستبعد ان يفارق الحياة وهو مطمئن الى نتيجة مرضية يشهدها الجيل الذي يليه .

وفي الباب التالي الذي نفرده لاقتباس اقواله زبدة من آرائه ومشروعاته نختارها من كتبه وندع لصاحب الترجمة ان يترجم لنفسه بقلمه ولسانه ، فإن سن ياتسن لم يكن زعيم سياسة ولا رئيس حكومة وحسب ، وانما كان قبل ذلك وبعد ذلك صاحب مدرسة اجتماعية ودعوة فكرية ، ومن كان كذلك فهو ذو حق في توضيح آرائه وتوضيح معاذيره وتوضيح منحاه في الفهم والعمل .

وذلك ما نتركه له في الباب التالي ، متبعين فيه ترتيب « الأهمية » غالباً وترتيب التاريخ ما تيسر ، وهما على الجملة متقاربان ، لأنه ـ كما قدمنا ـ قد أخر الابتداء بالعمل من فترة الى فترة ، فلم يتباعد الشوط بين الابتداء والختام .

من أقواله

ذكريات
من كتاب « مذكرات صيني ثائر »

منذ سنة ١٨٨٥ ـ أي من عهد الهزيمة في حربنا مع فرنسا ـ وضعت نصب عيني خلع أسرة تاي تسنج وتأسيس حكومة جمهورية على أنقاضها ، وابتدأت باختيار الكلية التي أدرس فيها لنشر دعوتي ، ناظراً الى صناعة الطب كأنها العمة الرؤوم التي تقود الى طريق السياسة العامة .

ومضت عشر سنوات كيوم واحد ، وكنت في كلية كانتون الطبية قد صادقت شن شي ليانج الذي كان على اتصال واسع بمعارف كثيرين لهم علم حسن ببلاد الصين . فلما فاتحته في شأن الثورة وأمثلتها العليا وجدت منه موافقة وصارحني باستعداده للاشتراك في الحزب الذي يعمل لها على شريطة أن أتولى أنا قيادته ، ونمي إلي بعد سنة في كلية كانتون الطبية ان مدرسة طبية انجليزية ذات برنامج أوسع من برنامج مدرسة كانتون قد افتتحت في هونج كونج ، فذهبت اليها يستهويني خاطر العمل على نشر الدعوة في نطاق أوسع مع إتمام تعليمي ، وقضيت أربع سنوات عاكفا على نشر الدعوة طوال الوقت الذي افرغ فيه من دروسي ، متنقلا ما بين هونج كونج وأموي . ولم يكن لي يومئذ أعوان غير ثلاثة مقيمين في هونج كونج هم : شن شاوبو ويوشاو شي ويانج هولين ، ورجل واحد مقيم بشنغهاي هو لوكو تنج ، واجتنبني الآخرون لأنني ثائر متمرد كاجتنابهم من يخافون من عدوى الطاعون .

وكنت مع أصحابي شن ويوويانج نعيش معاً في هونج كونج ولا نكف عن حديث الثورة . وتشبثت افكارنا بموضوعات الثورة في الصين ، فعكفنا على قراءة تواريخ الثورات وأصبحنا ولا سرور لنا في غير التحدث بهذه الموضوعات .

ومضت سنوات عرفنا خلالها بين أصحابها باسم الأوغاد الكبار المتلازمين ، وكانت بالنسبة إلي فترة مباحثة وتدريب .

وحصرت عنايتي بعد التخرج من المدرسة بمكانين هما اموي ويانج شن لمزاولة الطب ظاهراً ونشر الدعوة الثورية في الواقع ، وكان شن شي ليانج في الوقت نفسه يجمع الأعضاء للحزب ، ثم خرجت انا ولوكو تنج الى الشمال قاصدين بكين وتينتسن لنزوز قوة الأسرة المالكة ، ثم قصدنا الى وشانج كي نتفقد الأحوال هناك .

وسنحت لنا فرصة حسنة سنة ١٨٩٤ فقصدنا الى الفيليبين لتأسيس جماعة تجديد الصين على أمل الارتباط بالجالية الصينية ونلقى المساعدة منها وغاب عنا أن الوقت لم ينضج للثورة فلم تسفر دعوتنا في الفيليبين إلا عن عشرة استجابوا لها بعاطفتهم لم يقبل منهم غير اثنين اخوين ان يضطلعا بشيء من التضحية في سبيل القضية العامة .

حدث هذا والجيوش الإمبراطورية تنهزم في معركة بعد أخرى ، وهيبة المانشو تتضاءل بعد ضياع كورية ولا يخامرنا الشك في انحلال أسرة المانشو وتداعيها ، وقد كتب الينا زميلنا بشنغهاي سن يويه لو يلح علينا وجوب العودة ، فعدت انا وتن ين نان وثلاثة من الزعماء الى موطننا على نية تنظيم الثورة بكانتون والاستيلاء عليها .

وكانت جماعتنا في هونج كونج وفرع منها في يانج شن ، وكان في الجماعة تن ين يان ويانج تسوي ين وهون ين شان وشن شاوبو وآخرون يدأبون على التحريض ، وكان لوكو تنج وشن شي ليانج في فرع يان شي مع مدربين من أمريكا وبعض القادة ، وجعلت انا اتردد بين كانتون وهونج كونج ، وكانت مهمتنا وقتئذ محدودة واضحة الخطوط والاستعداد تجري على قدم وساق ، وقد اجتمعت لنا قوة لا بأس بها وفي استطاعتها بضربة واحدة ان تحدث حدثاً ذا بال .

إلا أن السلطات في ذلك الوقت كانت قد علمت بأمر تهريب السلاح الى

الداخل (خمسمائة مسدس) وقضت على عضو من أمثل زملائنا بالموت وهو لوكو تنج فكان ذلك اول ضحية لنا على مذبح الثورة الصينية ، وحدث في الوقت نفسه ضبط تسي هسي وشو جوي والقضاء عليهما بالموت ، وضبط نحو سبعين آخرين من بينهم الأميرال سن كوي جوان .

وحلت بنا أول هزيمة ثورية في اعتقادي تاسع سبتمبر سنة ١٨٩٥ وكنت لا ازال بكانتون بعد هذه الهزيمة بثلاثة ايام ، ولكني اضطررت الى اللياذ بهونج كونج بعدها بعشرة ايام من الطرق الجانبية ثم برحتها الى اليابان مع زملائي شن شي ليانج وشن شاربو قاصدين النزول بمدينة يكهاما . وقصصت ضفيرتي واتخذت الملابس الأوروبية لأن موعد عودتنا الى الصين غير معروف ، ثم برحت اليابان الى الفيليبين وقفل زميلي شن شي ليانج الى الصين كي يعيد الأمور الى ما كانت عليه قبل هزيمتنا ، وبقي شن شاو بو باليابان لدرس الأحوال السياسية ، وكنت قد اتصلت يومئذ بسوني وميازاكي من الجمعية اليابانية ، فكان هذا بدء الاتصال بين الثوريين الصينيين واليابانيين .

واخذت بعد وصولي الى الفيليبين أضم الزملاء الى حركة تجديد الصين . . . ولكن زملاءنا أنفسهم لم يكتموا يأسهم بعدما حل بنا من الهزيمة وتنكر غيرهم لمبادئنا واعوزتنا العوامل التي تساعد على تطور النزعة الثورية فتراخى العمل فيها بعض حين ، ولم أجد من البواعث ما يستبقيني بالفيليبين فاعتزمت السفر الى أمريكا لربط العلاقات بيننا وبين المهاجرين من أبناء وطننا هناك .

وصادفني في أمريكا جو أمعن في الهجوم من جو الفيليبين ، وقطعت القارة من سان فرنسسكو الى نيويورك ، وتريثت أياماً خلال الطريق لا تزيد في مكان على عشرة أيام ، وطفقت حيث نزلت انادي بإسقاط أسرة المانشو لإنقاذ الصين من الدمار ، وأهيب بكل صيني ان يسهم في بناء وطنه على أساس ديمقراطي جديد .

ولم يكن مقامي بأمريكا ذا بال في تقدم الثورة الصينية ، ولكنه على هذا أثار الخوف والتوجس عند الحكومة الإمبراطورية ، فلما وضعت قدمي بلندن حتى

الفيتني في براثن السفارة الصينية ، ولم ينقذني من خطر الموت غير استاذي الدكتور جيمس جنتلي .

فلما نجوت من لندن قصدت أوروبة لدراسة نظمها السياسية ، والتعرف الى هيئات المعارضة والمقاومة ، وفي اوروبة علمت ان الدول الأوروبية على نجاحها في أسباب القوة ومبادىء الحكم القومي لم تنجح في توفير أسباب السعادة والرضا لرعاياها ، ولهذا اتجهت مساعي الثوريين الأوربيين الى الثورة الاجتماعية ، ونبتت عندي فكرة الجمع في وقت واحد بين حل مشكلات الاقتصاد والاستقلال والحرية الشعبية ، ومن هنا كانت نشأة الـ « سان مين شو آي » أو الديمقراطية القائمة على دعائمها الثلاث .

إن الثورة هي رسالتي الكبرى في الحياة ، فاعتزمت التعجيل بإنهاء عملي في القارة الأوربية حرصاً على الوقت اللازم لتحقيق الثورة ان يضيع سدى . وأقلعت الى اليابان معتقداً أننا نستطيع على مقربة من الصين ان نواصل جهودنا الثورية ، فلقيني في يكهاما اثنان من زعماء الحزب القومي اليابانيين ، ثم التقينا بعد ذلك في طوكيو اصدقاء قدماء وتناولنا البحث فيما له علاقة بالصين على اتم ما يكون من الصراحة ، واتفق في ذلك الحين ان الحزب القومي تولى الوزارة واختير اكوما وزيراً للخارجية ، فقدمت اليه والى الساسة اليابانيين الآخرين ، وكان ذلك بدء اتصالنا بالدوائر اليابانية الحاكمة ، ثم التقيت بسوزيما وغيره من ممثلي المعارضة اليابانية .

وكان المهاجرون الصينيون باليابان يبلغون عشرة آلاف ، يسودهم جو فتور وجمود وتفزعهم خواطر الثورة شأنهم في ذلك شأن المهاجرين الى الأقطار الأخرى ،وجاهد زملاؤنا بينهم سنوات فكان قصارى ما صنعوه انهم ضموا نحو مائة الى حركة الثورة وهم نحو واحد في المائة من جملة المهاجرين .

وإذا كانت مهمة الدعوة الثورية بين المهاجرين على هذه الحال من العسر وقلة الشكر ، فقد كانت الدعوة أعسر من ذلك وأقل شكراً بين الصينيين في صميم بلادهم ، فمن لم تصدهم فكرة خلع المانشو وانضموا الينا كانت

مداركهم قاصرة وكانت الأواصر بينهم واهية ولم يكن لهم يقين متين بشيء من الأشياء ، وغاية نفعهم أنهم وسيلة سلبية لا يعتمد عليهم بحال من الأحوال في العمل الجدي لأغراض الثورة .

مضى من سنة ١٨٩٥ ، أي من عهد هزيمتنا الأولى ، إلى سنة ١٩٠٠ خمس سنوات كانت كلها فترة مشقة وعناء للحركة الثورية الصينية ، وانهار ما بنيناه خلال عشر سنوات سواء نظرنا اليه من وجهة اعمالنا الفردية او وجهة الدعوة العامة ، ولم تفلح الدعوة الخارجية الا قليلا . وحدث كذلك ان المنظمات الملكية نمت ونشطت خلال هذه الفترة ، وأوشكت آمالنا ان تتقوض لولا وفاء زملائنا الذين طردوا اليأس عن نفوسهم ونظروا الى المستقبل قدما في ثقة وشجاعة .

ارسلت شن شاو بو الى هونج كونج لاصدار صحيفة تنشر الأفكار الثورية وبعثت بلي كيانج جو الى مقاطعة شكيانج لتنظيم القوات فيها ، ووضعت التعليمات لشن شي ليانج ليشخص الى هونج كونج وينشىء فيها مكتباً يتولى تجنيد اعضاء جدد للحزب . ولم يلبث جماعة تجديد الصين ان اندمجوا في هيئة واحدة مع المنظمات التي تأسست في إقليم كوانتنج وغيرها من أقاليم وادي اليانجزي ، واتفق كذلك ان ظهرت في ذلك الحين جماعة الملاكمين « البوكسر » بإيحاء من أسرة المانشو ، فأنفذت ثماني دول جنودها الى الصين وباشروا حملاتهم العسكرية . وقررت الا تضيع الفرص السانحة فأمرت شن شي ليانج بمغادرة هونج كونج الى هوشو لتنظيم حركة عصيان فيها وانفذت لي كيانج جو الى يانشن للغرض نفسه ، وذهبت انا الى هونج كونج مع بعض الضباط الاجانب بينما كان هذا الاستعداد يجري مجراه قاصداً ان اصل بحراً الى موطني للاشراف بنفسي على قوات الامة الموثوق بها وتنظيم جيش مدرب ينقذ الصين من مصيرها الى الخراب ، ولكني لم البث ان فوجئت بوغد يعترضني ويغري السلطات بتفتيشي وحجزي عن النزول ، فلم يتسنَّ لي المضي في خطتي الأولى وعهدت بالتبعة كلها الى شن شي ليانج في هوشو وأرسلت اليه ريانج تسويا وين لي تسي وشن شاوبو وغيرهم لمساعدته . وعدت الى اليابان ثم ذهبت منها الى فرموزا على نية الاحتيال

على دخول الصين ، وكان حاكم فرموزا يومئذ (قدامة) ممن يعطفون عطفاً شديداً على الفكرة الثورية لاعتقاده ان الفوضى شائعة في ذلك الحين بين بلاد الشمال ، فعهد الى أحد أعوانه في مفاوضتي ووعد في حالة وقوع الاضطراب الخطير أن يمدني بالمعونة .

ووسعت خطتنا الاولى بزيادة الضباط الخبراء، اذ كان حزبنا الى تلك اللحظة قليل الأعضاء من الخبراء العسكريين ذوي الفكرة السياسية . ثم أمرت شن شي ليانج في الوقت نفسه بالعدول عن الخطة الأولى التي كان من مقتضاها البدء بالهجوم على المدينة الكبرى بالإقليم والتمكن من المواقع البحرية بدلا من ذلك وتركيز قواتنا هناك ثم البدء بعد ذلك بالهجوم . . . وبادر شن شي ليانج بتنفيذ تعليماتي وأغار بفرقة اكثرها من الفلاحين على جنود الإمبراطورية بسنيانج وشن شوان وجردها من سلاحها ثم هجم على لونجان وتانشوي يانهو وغيرهما موفقاً حيث كان مما جعل جنود الإمبراطورية تتشتت كلما اقتربت منها طلائعه ، ونجح بعد ذلك في احتلال المواقع البحرية من سنيانج الى هوشو وانتظر هنالك وصولي مع اعواننا ووصول المدد من السلاح والذخيرة .

ولكن حدث على غرة بعد ابتداء حركتنا بعشرة أيام تغيير في الحكومة اليابانية واتخذ رئيس الوزارة خطة نحو الصين على نقيض الخطة التي سار عليها سلفه ، وحال دون كل اتصال بين حاكم فرموزا والثوار الصينيين،كما منع تصدير السلاح والاذن للضباط اليابانيين باللحاق بجنود الثورة . وقد أخل هذا الطارىء بجميع خططي فأنفذت يامادا وبعض الزملاء الى معسكر شن شي ليانج لابلاغه ما حدث كي يتصرف على حسب الظروف ، فوصلوا الى معسكره بعد ثلاثين يوماً من بدء الحركة ، وكان هنالك جيش من عشرة آلاف قد تجمع وانتظر في لهفة ما يرد اليه من السلاح وكبار الضباط ، فلما علموا برسالة يامادا قرروا حل الجيش وعاد شن شي ليانج الى هونج كونج مع مئات من الزملاء ، وضل يامادا طريقه فوقع في أيدي جنود الإمبراطورية وأعدم فكان اول اجنبي فقد حياته ضحية للثورة الصينية .

وبينما كان شن شي ليانج في وقدة القتال حاول لي كيانج جو في كانتون ان يساعده بغير جدوى ، فقرر ان يلقي بقذيفة على مكتب حاكم مقاطعتي كوان فلم تنفجر وقبض عليه وأعدم ، فكان البطل الثاني من الضحايا الذين هلكوا على مذبح الثورة .

وكانت قصة سنة ١٩٠٠ هي الهزيمة الثانية للحركة الثورية ، بيد ان الشعب الصيني غير موقفه منا بعد الهزيمة تغييراً عظيما ، فقد كانوا بعد الهزيمة الأولى ينظرون الينا نظرتهم الى شرذمة من المشاغبين وقطاع الطريق يقترفون ما لا يجوز . وكانوا يهيلون علينا اللعنات والشتائم ويحسبوننا من الأفاعي السامة ويعزفون عن معرفتنا ، فلما اصبنا بالهزيمة سنة ١٩٠٠ لم تنقطع اصوات اللعنة الأولى عن الصياح بنا كما كانت تصيح من قبل ولكننا وجدنا أناساً كثيرين من الأذكياء يأسفون لاخفاقنا ويعربون عن عطفهم على حركتنا ، وذلك ولا ريب فارق عظيم عند المقابلة بينه وبين الحالة فيما مضى ، وزملاؤنا الذين احسوه قد خامرهم الفرح بهذه العلامة من علامات اليقظة في البلاد ، وخدمت ضجة الأسرة المالكة حين دخلت جنود الدول الثمان الى بكين ظافرة.ولاذ وكلاء القصر الإمبراطوري بأذيال الفرار واذعنوا بعد الهدنة لشروط الغرامة وقدرها مائة مليون ، وازدادت حالة الامة الصينية سوءاً على سوء ولم تزل نذر الخطر تغشاها على الدوام ، وأجمع اذكياء الصين على انها تنزلق وشيكاً الى الخراب فجاشت من ذلك الحين موجة جديدة من الثورة والهياج .

وكانت الاقاليم جميعاً في ذلك الحين قد دأبت على إرسال الطلبة منها الى اليابان لتلقي العلوم الحديثة بمدارسها ، ووفد على اليابان من هؤلاء الطلبة زرافات من ذوي الرؤوس الفتية النيرة ، فأقبلوا تواً على التزود من خواطر الثورة واشتركوا في الحركة الثورية ، وكانت مناقشاتهم وآراؤهم كلها تدور على مسائل الثورة . وقد القى لو شن يوي خطاباً فعالا على اجتماعهم الذي عقدوه لمناسبة رأس السنة وضح فيه ضرورة الثورة لخلع اسرة المانشو ، ففصلته الجامعة تلبية لطلب السفير الإمبراطوري بطوكيو ، وراح طلاب آخرون . . . ينشرون الصحف لترويج الخواطر الثورية .

وشقت هذه الدعوة بين الطلاب طريقها الى الصين ، فلجأ شانج تي يانج ووويوهوي وشوشانج من طلاب شنغهاي الى استخدام الصحف المسيحية لبث الدعوة الثورية ، فاحتجت السلطات الإمبراطورية على تصرفهم ونجم من احتجاجها اعتقالهم في المنطقة الأجنبية ، فاحتال أحدهم على الهرب وتلت ذلك أول قضية من نوعها : وهي شكوى الحكومة الصينية احد رعاياها أمام محكمة أجنبية ، فصدر الحكم بسجن شو شانج سنتين .

اشتدت الحركة خلال ذلك فرحب المهاجرون بكتاب شو شانج عن جيش الثورة الذي انحى فيه اشد الانحاء على الأسرة المالكة وكان له اثر ضخم بين الصينيين والمهاجرين ، وأحسب ان هذه الفترة كانت فاتحة عهد التطور الواسع في الحركة الثورية ، فانضوى المهاجرون شيئاً فشيئاً إلى جانب الثورة وتلقفوا دعوة الطلبة والنهضة العامة في البلاد ، وأعربوا لي عن مؤازرتهم حيثما التقيت بهم في طوافي باليابان .

وفي سنة ١٩٠٥ وصلت الى أوروبة مرة اخرى ووجدت معظم الطلبة مؤيدين لقضية الثورة ، وكانوا قد وصلوا الى أوروبة حديثاً من اليابان والصين فملكتهم فكرة الثورة وتقدموا من المناقشة فيها الى توجيه اعمالها ، فأبرزت يومئذ برنامجي الذي ضمنته بث الديمقراطية على مبادئها الثلاثة وتفصيل الدستور الخماسي عسى ان نتمكن من خلق نظام ثوري على هذا الاساس . وانعقد اجتماعنا الاول بمدينة بروسل فانضوى الى رابطتنا ثلاثون عضواً ثم انضوى اليها عشرون في الاجتماع الثاني ببرلين ، وكان الاجتماع الثالث بباريس حيث انضوى الينا عشرة آخرون . ولكننا لم نعقد اجتماعنا الرابع بطوكيو حتى بلغ المنضوون الينا عدة مئات ، وكانت الصين كلها ممثلة في رابطتنا ما عدا كانسوه التي لم يكن منها احد يطلب العلم بمدارس اليابان .

على ان كلمة الثورة لم تزل مرهوبة الى ذلك الحين ، فاكتفينا باطلاق اسم الرابطة المتحدة على رابطتنا واحتفظت بهذا الاسم بعد ذلك بزمن غير قصير .

واعتقدت بعد قيام هذه الرابطة ان طوراً جديداً من أطوار الثورة في

مستهله ، فقبل ذلك ما تجشمت المصاعب وتعرضت للزراية والسخرية ، ومنيت بالهزيمة غير مرة فصبرت وتقدمت . ولا اخفي انني لم اكن احلم يومئذ ببلوغ المقصود من خلع اسرة المانشو وانا بقيد الحياة - فلما تألفت الرابطة خريف سنة ١٩٠٥ داخلني الرجاء في انجاز المقصد الأكبر من الثورة خلال حياتي ، واعتزمت إذن ان اعلن شعار الجمهورية وأبشر به جميع اعضاء الحزب كي يرجع كل منهم الى بلده وهو على أهبة الثورة تمهيداً لإقامة الجمهورية .

ولم تكد تمضي سنة واحدة حتى ارتفع عدد أعضاء الرابطة الى عشرة آلاف ، وتشعبت فروعها على وجه التقريب في كل اقليم ، فانطلقت الحركة في طريقها بخطوات فساح ، وجاوز تطورها ما كنت اتوقع .

وكنا منذ تأسيس الرابطة قد أصدرنا الصحف التي تذيع خواطر الثورة في أوسع مجال وتنادي بالديمقراطية على مبادئها الثلاثة واتجاهها نحو الدستور الخماسي ، وطافت بالصين موجة ثورية ارتفعت الى الذروة عندما بدأنا في إصدار الصحف ، وانضم الينا في هذه المرحلة ابطال من أمثال هسوسي لن وسن يين تسي وتسو تسن وغيرهم .

وبدأت ثورة بنلي مستقلة سنة ١٩٠٧ معتمدة على قواتها اذ كان جيشها قد جند من أعضاء فرع الرابطة المتحدة فيها ، وبينا كان هذا الجيش يصطدم بالجيش الإمبراطوري في حرب الحياة والموت كان أعضاء الرابطة بطوكيو يحاصرون مكتبنا ويلحون في طلب السفر الى الميدان ، ومنهم من بكى كالاطفال حين تعذر عليه السفر .

وقد وصلت الينا أنباء ثورة بنلي متأخرة لسوء الحظ فلم نستطع تدبير العدة الملائمة ، فخسرنا المعركة ووقع لو تاويي ونين تياوبي ويوان هن يين وغيرهم من الزملاء في أيدي جنود الإمبراطورية ، فحكم على بعضهم بالموت وعلى آخرين بالسجن ، وكانت هذه هي « المعمودية » الأولى للرابطة في ميدان القتال . وأمكننا ان نعتقد بعد هذه المعركة ان الدعوة الثورية استولت على البلاد في مجال من السعة والقوة لم يسبق له نظير ، ولم يكن في وسع اعضاء الرابطة بطوكيو ان

ينظروا الى هذه الحال قانعين بالفرجة والسكوت ، فالتمست الحكومة الإمبراطورية من حكومة اليابان ان تخرجهم من بلادها . فخرجت من اليابان ومعي هان ين وشينج وي ميممين شطر انام لتنظيم فرعنا بهانوي واعلان عصيان آخر ، وثرنا في شاوشو وانهزمت جنود هوان كان فابتلينا ثم بالهزيمة الثالثة .

ثم نشبت ثورة في مركزي ليان وشيان من جراء الاضراب عن أداء الضريبة وأرسلت الحكومة الأمبراطورية أربعة آلاف جندي بقيادة كوجين شاتسج لقمع الفتنة. فأمرت هوانج كاي تسيانج وهويي شين بالذهاب الى معسكراتهم وإقناعها بتأييد الثوار ، فوعد كلاهما بالانضمام الى الثورة اذا نهضت بها قوة جدية .

ولم نكن قبل تأليف الرابطة نتلقى من المعونة المالية غير القليل . وأكثر المتبرعين من تربطهم بي صلات شخصية ، ولم يجسر غيرهم على التبرع ، فلما تألفت الرابطة اخذت الاعانات تتوارد علينا من الخارج . وأذكر ممن اعانونا يومئذ شانج تسين سيانج الذي باع مصنعه بباريس واعطانا ستين او سبعين الف ريال ، واذكر منهم هوانج تسين نان من انام وقد اعطانا جميع مدخراته التي تبلغ بضعة آلاف ريال ، واذكر منهم كذلك بعض اثرياء انام امثال لي شو فونج وتسنج هسي شو وماي بي شن الذين تبرعوا بنحو عشرة آلاف ريال .

ولم يسعني بعد الهزائم المتوالية في قتالنا مع جيوش الإمبراطورية ان ابقى مطلق الحرية في اليابان اوهونج كونج او انام أو أي مكان على مقربة من الصين . وكاد العمل على مقربة من وطني ان يصبح احدى المستحيلات ، فعهدت بالقيادة الى الزميلين هوانج كاي سيانج وهوهان مين ومضيت في جولة حول العالم لجمع التبرعات .

وعلى اثر ذلك أنشأ هوانج سيانج وهو هان مين لجنة رئيسية بهونج كونج للإشراف على شؤون الجنوب ، واجتمعوا مع شاوبو سيانج ونى يانج شين وشوشي سين فأضرموا الثورة معتمدين على الفرق العسكرية الحديثة التدريب ، وكانت فكرة هذه الثورة سديدة فارتفعت راية العصيان سنة ١٩١٠ .

وبرحت امريكا الى الشرق خلال هذه الفترة ، فعلمت بالثورة عند وصولي الى سان فرنسيسكو ، وأقلعت على الأثر قاصداً الى الفيليبين ثم اليابان للعودة من ثم الى الصين ، ولكن الجواسيس عرفوني بيكاهاما فتعذر علي المقام بها ويممت الجنوب حيث اعتزمت الاجتماع بهوانج كي سيانج وهوهان مين للتشاور في خطط المستقبل ، وكانت الكآبة ترين على الزملاء حينئذ بعد توالي الهزيمة وخسارة المواقع الصالحة واضطرار كثير من الزملاء الى الفرار والمهاجرة ، وأعوزتنا القدرة على إعادة الكرة من جديد .

ألفيت الزملاء على حالة سيئة من التشاؤم ، وانطلقت منهم آهات الأسف والأسى عندما هممنا بالبحث فيما ينبغي ان نصنع ، وانحرف بعضهم عن بعض بنظره ، وانفردت بالكلام فذكرتهم ان هزائمنا الماضية كانت افدح وأصعب من هزائمنا الأخيرة ، وأن عدتنا اليوم قد تكون قليلة ولكن موجة السخط تعلو وتتسع يوماً بعد يوم وتشتد معها الروح المعنوية بين أبناء الأمة ، فإذا عقدنا عزائمنا على الخطة التي أرسمها فإنني كفيل بتدبير المورد اللازم . . . قالوا : إذا كنا لا نصيب حاجتنا للنفقة على انفسنا فكيف ترانا نصيب الموارد اللازمة للمضي بالثورة ؟

فأكدت مرة اخرى انني سأجد المورد اللازم . عندئذ قال الزميل پو إننا اذا اعتزمنا حقاً ان نعيد الكرة وجب علينا ان نبعث بأحد الزملاء مزوداً ببضعة آلاف ريال الى اقليم زشوان لتثبيت الإخوان هناك وصرفهم عن نية التفرق وحل الجماعة ، وبهذا دون غيره يحق لنا ان نأمل في تأليف لجنة جديدة واستئناف الصراع . قال الزميل پو : وعلينا حتما ان نرجع الى هونج كونج لمعاودة البحث وان نمد زشوان تواً بخمسة آلاف ريال ، فإذا انتوينا المثابرة على الكفاح كان لزاماً علينا أن نحصل على عدة آلاف من الريالات .

فأرسلت في طلب المهاجرين الصينيين الذين يشعرون مثل شعورنا وأسفر الاجتماع عن التبرع بثمانية آلاف ريال والاتفاق على إيفاد الرسل الى الأقاليم والجهات المختلفة لجمع ما نحتاج اليه ، فاجتمع لنا خلال ايام مبلغ يتراوح بين ستين الف وسبعين الف ريال .

فوضعنا خطة العمل ، وبدأت انا فسافرت الى المنطقة الهولندية فلم يؤذن لي بالنزول ولا بالذهاب من ثم الى المنطقة الانجليزية ، فلم يبق لي معدى ان احول وجهتي الى أوروبة أو امريكا . فقصدت امريكا وجعلت انتقل خلالها من ركن الى ركن اثير حمية المهاجرين الصينيين وأحضهم على المساعدة بالمال لتأدية قضية الثورة ، فلقيت افواجاً كثيرين من المؤيدين اثناء هذه الرحلة ، وكانت الثورة قد نشبت في ودشانج عند وصولي الى كولمبيا ، وقبل ذلك بعشرة ايام تلقيت برقية من هوان كاي سيانج بهونج كونج لم أفسرها لأن الجفر كان في حقيبتي ، ولم أعرف فحواها الا بعد نزولي بإحدى المدن من ولاية كولمبيا ، فعلمت منها أن تسوي شن وصل الى هونج كونج وأبلغهم ان المدد المالي مطلوب عاجلاً لإمداد حركة الجنود الحديثة التدريب ، وإذ كنت ساعتها لا أملك مالا خطر لي ان أبرق اليهم بإرجاء الحركة ، ولكن الليل أدركني وأثقلني تعب الرحلة فأجلت الابراق اليهم حتى الصباح عسى ان ينفسح الوقت مع ذلك لتقليب المسألة على جميع الوجوه ، وبكرت لتناول طعام الإفطار فلم أكد أصل الى المطعم حتى رأيت ثمة صحيفة صباحية فتحتها فإذا هي تروي بلسان البرق خبراً عن استيلاء جنود الثورة على ووشانج ، فبادرت بالإبراق الى هوان كاي سيانج موضحاً له سبب سكوتي ، وكان من الميسور ان أصل الى شنغهاي بعد عشرين يوماً للمشاركة في الثورة لولا ان الجبهة الدبلوماسية كانت في تلك اللحظة اهم حتى من النشاط العسكري ، فصممت العزم على متابعة المسائل الدبلوماسية والا أعود الى الوطن حتى نستقر من هذه المسائل على قرار .

كان الموقف السياسي يومئذ كما يلي :

امريكا اعلنت فيما يتعلق بالصين سياسة الباب المفتوح والمحافظة على سيادتها ، ولكنها لم تتخذ موقفاً محدوداً من ناحية الثورة . الا ان الرأي العام الأمريكي كان مؤازراً لحركتنا .

اما الموقف من جانب الحكومة الفرنسية والشعب الفرنسي فهو موقف عطف على الحركة .

اما في إنجلترا فقد كان الشعب معنا وكانت الحكومة تعارض الثورة . ووضح لنا أن ألمانيا وروسيا كانتا تناصران أسرة تاي تسنج ، والعلاقة بين ثوارنا وشعبها واهية لا تتيح لنا أن نستعين بهما على توجيه سياسة الحكومتين . وبقيت اليابان القريبة منا وبين خير أبنائها أناس ناصرونا وبذلوا حياتهم فدى لقضية الثورة . الا أن سياسة الحكومة اليابانية لم تكن جلية وقد نرى قياساً على الماضي انها تسلك منها مسلك المعارضة ، فقد نفتني مرة وحظرت نزولي الى أرضها مرة اخرى .

وابتداء من سنة ١٩٠٠ تقرر ألا تعمل دولة من الدول على انفراد في شؤون الصين ، وكان عدد الدول التي تهتم بالصين ستاً في ذلك الحين ، اثنتان منها ـ وهما امريكا وفرنسا الى جانب الثورة ، واثنتان ـ وهما ألمانيا وروسيا ـ تعارضانها ، ولم تعين انجلترا سياستها ولكن الشعب الانجليزي ابدى دلائل العطف عليها ، وأيدها شعور الأمة اليابانية مع جنوح الحكومة اليابانية الى معارضتها .

وكذلك كانت مسألة المسلك الدولي مسألة مهمة في حساب الثورة الصينية ، وأهمه عندنا حينئذ مسلك انجلترا ، لأننا قدرنا انها اذا سلكت قبل الثورة مسلكاً لم تلبث اليابان ان تحذو حذوها ، فانتويت من أجل هذا الشخوص الى انجلترا .

وبينا انا في الطريق قرأت في الصحف خبرا فحواه ان الثورة نشبت بووشانج وان سن ياتسن سيتقلد رئاسة الجمهورية المنتظرة ، فرأيت اجتناب الصحفيين اذ بدا لي ان الإشاعات تسبق الوقائع .

وتابعت السفر ومعي زميلي شوشو وين في رحلتنا الطويلة الى البلاد الإنجليزية ، وعلمت عند بلوغي نيويورك ان الزملاء يهاجمون كانتون فأبرقت الى الحاكم شانج ني ايس انصح له بتسليم المدينة اتقاء لسفك الدماء ، وأمرت الزملاء ان يؤمنوه على حياته ، وهو ما حدث بعد ذلك .

وعمدت عقب نزولي بإنجلترا الى مفاوضة الاتحاد المصرفي للدول

الاربع لأحذره من إمداد أسرة المانشو بالقروض ، وكان الاتحاد قد رضي فعلا ان يقرضها مائة مليون بضمان سكة حديد شوان هانج ، ثم زاد القرض مائة مليون اخرى ، ودفع قسط من أحد هذه القروض ولم تصدر الاسناد في القروض الاخرى مع توقيع الاتفاق ، وأردت وقف الأقساط من القرض الذي بدىء بدفعه ومنع صدور الأسناد من القروض الأخرى ، وتبينت ان هذه التسوية رهينة بمشيئة وزارة الخارجية فأمرت مدير دار الصناعة (وي هاي وي) ان يفاوض الحكومة البريطانية على مسائل ثلاث اصررت على تسويتها : (أولها) وقف جميع القروض الممنوحة لأسرة تاي شنج ، والمسألة الثانية ثني اليابان عن التدخل ، والمسألة الثالثة الغاء جميع الأوامر التي تحظر نزولي بالمناطق البريطانية ، كي يتيسر لي الوصول الى الصين بغير مشقة .

فلما تلقيت الجواب المرضي عن هذه المسائل من الحكومة البريطانية تحولت الى الاتحاد المصرفي للحصول على قرض للحكومة الثورية ، فجاءني الرد من مديره قائلا :

« إنه لما كان الاتحاد قد وقف دفع القروض للاسرة المالكة فالاتحاد لا ينوي ألا يمنح هذه القروض إلا حكومة ثابتة معترفاً بها ، ويرى الاتحاد في الظروف الحاضرة ان ينفذ مندوباً معك يبدأ المفاوضات عند الاعتراف الرسمي بحكومتك » .

كان هذا كل ما استطعته خلال مقامي بالبلاد الإنجليزية ، فلما بلغت باريس لقيت احزاب المعارضة وتلقيت منها جميعاً عبارات التأييد وبخاصة من الرئيس كليمنصو .

وبلغت شنغهاي بعد ثلاثين يوماً من مبارحتي باريس ، وكان مؤتمر الصلح بين الشمال والجنوب منعقداً في ذلك الحين ، ولكن دستور الجمهورية المنتظرة لم يتقرر بعد ، وراحت الصحف قبل اقترابي من شنغهاي تذيع انني اعود الى الوطن محتقباً المال الكثير لمساعدة الثورة ، ووجدتهم - زملائي ومندوبي الصحف

الأجنبية والوطنية ـ يترقبون ذلك فأجبتهم عند سؤالي انني لم احضر معي فلساً واحداً وان كل ما احضرته معي روح الثورة وانه ـ الى ان يتحقق الهدف ـ لا وجه للكلام في مؤتمرات الصلح ، فأقبل المندوبون من ارجاء الصين بعد هذا التصريح على الاثر متقاطرين الى مدينة نانكين وانتخبت رئيساً للجمهورية الصينية .

وتوليت عملي (سنة ١٩١٢) آمراً بإعلان الجمهورية الصينية وتنقيح التقويم القمري واعتبار تلك السنة اول سنة للجمهورية .

وكذلك انقضت ثلاثون سنة كاليوم الواحد ، وبعد انقضائها فقط بلغت الهدف : هدف حياتي : وهو إنشاء جمهورية الصين .

من تاريخ الثورة

بيان المؤتمر الوطني الأول سنة ١٩٢٤

بدأت فكرة الثورة بعد الحرب الصينية اليابانية ، وبلغت اشدها سنة ١٩٠٠ ونجحت سنة ١٩١١ حين سقطت الحكومة الملكية .

بيد ان الثورة لا تطرأ دفعة واحدة . فمنذ احتلت أسرة المانشو الصين جاشت النفوس بالسخط زمناً طويلا ، ثم افتتحت البلاد للتجارة الدولية فاندفع الاستعمار الأجنبي اليها كالسيل الغاضب ، وهبط بها الاستغلال المسلح والضغط الاقتصادي الى مركز سياسي كمركز البلاد المستعمرة ، وضاع من ثم استقلالها . ولم تكن حكومة المانشو عاجزة عن صد الغارة الاجنبية بل كان من همها الإصرار على اذلال « العبيد » وكسب رضى الدول الأجنبية بهذه الخطة . فاتفق الرأي بين فئة من جماعتنا بقيادة سن ياتسن على ان الأمل في تجديد بناء الصين عبث ضائع ما لم تذهب حكومة المانشو . فنهضوا في الطليعة وحمدوا النضال حتى تحققت مهمة الخلاص من سلطان المغير .

الا أن مقاصد الثورة لا تقف عند هذه النهاية ، وانما وجب اسقاط المانشو للبدء بالعمل المنشود ، او بعبارة اخرى ان اسقاط المانشو من الوجهة القومية خروج من ربقة قوم اجنبيين للدخول في وحدة وطنية مؤلفة من أقوام الصين على قاعدة المساواة ، وهو من الوجهة السياسية خروج من نظام الدكتاتورية الى نظام سيادة الأمة . ومن الوجهة الاقتصادية خروج من عهد الصناعة البدائية بالأيدي الى عهد الصناعة الكبرى صناعة الآلات الحديثة ، وعلينا اذا اردنا المضي في طريقنا ان نرتقي بالصين من درجة المستعمره الى درجة الأمة المستقلة التي تحتل مكانها اللائق بها بين امم العالم .

على ان وقائع هذه الايام قد جاءت على خلاف ما توقعنا ، ولئن قيل ان الثورة نجحت لقد كان غاية ما حققته هو الخلاص من سلطان الأسرة الأجنبية ، واضطرت بعد قليل الى المساومة والتفاهم مع قوى الحكومة المطلقة . . . ومن جراء هذا التفاهم حبطت الثورة حبوطها الأول ، لأنه كان بمثابة التسليم غير المباشر للاستعمار .

كان ممثل السلطان المطلق لذلك العهد (يوان شي كاي) وكانت السلطة التي ملكها اول الأمر لا تخرج على المألوف ، ولم يشأ الزملاء ان يقمعوه رغبة صادقة منهم في اجتناب التمادي في الحرب الأهلية ، مع حاجتهم الى حزب منظم يرسم غايته ويدرك رسالته ، ولو كان حزب كهذا موجوداً لأمكنه ان يقابل مكيدة يوان شي كاي بما يردها عليه .

ولم يتحسن موقف الثورة بعد وفاته ، اذ كان العسكريون قد أقاموا انفسهم من الشعب مقام الجلادين من ضحاياهم ، وتعذر الشروع في أي عمل سياسي على قاعدة السيادة القومية ، ثم أحس العسكريون عجزهم عن التفرد بالحكم فربطوا علاقاتهم بالدول الأجنبية ، وكانت الحكومة التي تسمى بالحكومة الجمهورية نفسها بين أصابع هؤلاء العسكريين ، فسخروها في تمكين مراكزهم بتمليق المستعمرين . وراح المستعمرون من جانبهم يسخرونهم لمآربهم،ويمدونهم بالقروض التي تملي لهم في منازعاتهم وتتيح لهم الصيد في الماء العكر . وهذه الفوضى كان لها اثرها الطبيعي فأخرت النهضة الصناعية فلم تقو على منافسة الصناعة الأجنبية في أسواقنا الداخلية . وأفلس من جراء ذلك صغار التجار وانتشرت البطالة بين الصناع فتشردوا او لحقوا بعصابات السطو والإجرام ، وعجز الفلاحون عن حرث ارضهم فباعوا محصولهم بأبخس الأثمان لغلاء الحاجيات وثقل الضريبة .

اين المخرج اذن من هذه المآزق ؟ إن الآراء تختلف ويعم اختلافها من يقيمون بيننا من الغرباء .

فهناك « أولاً » المدرسة الدستورية ، وعندها ان متاعب الصين كلها

راجعة الى غياب القانون ، فاذا امكن توحيد الامة في ظل الدستور عولجت هذه الفوضى وتيسر دواؤها .

ولا يخفى ان نفاذ الدستور يتوقف على تأييد الامة ، وبغير هذا التأييد لا يجدي السواد والبياض على الورق شيئاً في ضمان الحقوق وحمايتها من عدوان العسكريين .

لقد كان لدينا دستور موقوت منذ السنة الأولى للجمهورية ، فلم يحل دون فساد الحكم على أيدي العسكريين والسياسيين . فالدستور ورقة مهملة ما دام هؤلاء موجودين . وقد تمكن « تساوكون » من شراء منصب الرئاسة في ظل دستور او خيال دستور ، ولكنه لم يعمل الا ما يناقض الدستور .

فقبل الدستور ينبغي ان تكون الامة قادرة على حمايته ، ولا فائدة من وضع العربة أمام الحصان . ونزيد على ذلك ان الدستور لا ينفع الامة وهي مفككة الأوصال ، ولو لم يكن ثمة من يسيء استخدامه من العسكريين ، فسوف يظل حروفاً ميتة في هذه الحال .

وتأتي بعد مدرسة الدستوريين مدرسة الاتحاديين « الفدراليين » وعندها ان فوضى الصين راجعة الى الغلو في المركزية وجمع السلطة كلها بين ايدي حكام العاصمة ، فمن المصلحة توزيع هذه السلطة بين حكومات الاقاليم والولايات ، فلا تقوى الحكومة المركزية على ارتكاب الاخطاء متى آل الحكم الى كل إقليم أو ولاية .

وينسى دعاة هذه المدرسة أن سلطان بكين لم تفوضه الامة بنص من نصوص القانون ، ولكن القادة الكبار قد اغتصبوه لتوسيع سلطانهم المسلح وكأنما يريد دعاة هذه المدرسة باقتراحهم ان يستعدوا صغار القادة من حكام الأقاليم عن كبار القادة في العاصمة . ويبقى هؤلاء القادة الكبار حيث هم ليضيفوا الى جرائمهم الأولى جرائم جديدة ، فاين وجه الصواب في هذا الاقتراح ؟

ان النتيجة المحتومة هي قيام حكومات منعزلة في الاقاليم جنباً الى جنب مع

حكومة القادة الكبار في العاصمة ، تتوخى كل منها منافعها من حيث تتمزق الامة وتضطرب ، ولن يرجى النظام ولا الحكم الذاتي في مثل هذه الحال .

ولا ريب ان الحكم الذاتي الصحيح هو الخير الأمثل الذي يطابق مصالح الأمة الصينية كما يطابق آدابها الروحية . إلا ان هذا الحكم لا يستقر قبل تمام وحدة الأمة وألفتها ، فلا حرية للأقاليم والولايات حتى تتم الحرية للصين .

وثالث المدارس مدارس المؤتمرات التي تسمى بمؤتمرات السلام . ولا ريب ان شقاء الامة بطول الحرب الأهلية قد اوحى بهذه الفكرة الى ذوي الرأي من الصينيين والاجانب على السواء . فاذا صح ان السلام يأتي من هذهالطريق فليس احب الينا منها ولا اجل . ولكن هذا الاقتراح يبطل نفسه ، لأن الحرب الاهلية هي جريرة المطامع التي تحيك في نفوس القادة ، فهم في تنازعهم عليها لا تتمهد بينهم سبيل للوفاق ، وكل وفاق بينهم لا يراد به وجه الأمة . ونتيجة هذه المؤتمرات لن تختلف من نتائج امثالها في اوربة ، اذ تضيع مصالح الأمم الصغار مرضاة للدول الكبار .

ورابع المدارس مدرسة تقترح ان يتولى الحكم اناس من زمرة التجار . فهل لنا ان نقول ان زمرة التجار تمثل الأمة اذا كان القادة والسياسيون قد استحقوا بغضها لأنهم لا يمثلونها ؟ إن الصواب هو ان تنظم الأمة حكومة تنوب عن ابناء الصين اجمعين ولا تنحصر نيابتها في تمثيل مصالح التجار ، وخليق بحكومة كهذه ان تستند الى مشيئة الأمة بأسرها ولا تلتمس العون من قوة خارجية .

برنامج الثورة

من خطابه في الاحتفال بمضي ثماني سنوات على الجمهورية (سنة ١٩٢٠)

أعتقد أن خلق الثورة ينبغي ان يجري على نهج التقدم العصري ، وأن ننتفع فيه بتجارب الأمم الاخرى ، مجتنبين خطأها مهتدين بعوامل نجاحها ، اذ لا سبيل الى الأمل في تقويم خطط الثورة بغير دراسة ناضجة لتجارب الثورات في الدول الاخرى بين الأقوام المختلفة .

وأمامي ثلاثة ادوار للثورة : اولها حكومة عسكرية ، وثانيها تمهيد وتحضير وثالثها بناء دستوري .

فالدور الأول يستغرق فترة الهدم ويقترح فيه استخدام الاحكام العرفية ، ولا بد للجنود الثائرة في اثنائه من تحطيم الدولة التي اقامتها اسرة (تاي تسنج) وطرد موظفيها المفسدين واستئصال التقاليد البالية والقضاء على الرق وتطهير البلاد من سم الأفيون وسائر سموم الوهم والسحر والخرافة والتنجيم والغاء المكوس الداخلية بين الأقاليم الوطنية .

والدور الثاني ـ وهو دور التمهيد والتحضير ـ تشتمل مهمته على انشاء الحكومة الذاتية المحلية في الأقاليم وتيسير تضامن الأمة وجعل الأمة وحدة من حكومات محلية مقسمة الى قرى ومراكز .

وكل امة خرج الأجنبي من بلادها وانتهى فيها الحكم العرفي فالواجب عليها ان تنشىء دستوراً موقوتاً يقرر لأبنائها حقوقهم وواجباتهم كما يقرر حقوق الحكومة الثورية .

وإذا مضت فترة سنوات ثلاث كان على أفراد الأمة ان ينتخبوا سلطتها .

فإذا أفلحت الأمة في استئصال جذور الفساد كما تقدم ودان نصف الشعب بمبادىء الديمقراطية الثلاثة والولاء للجمهورية ففي وسع السلطة ان تحصي ابناء الوطن وان تقرر ضريبة البيوت وتنظم الشرطة وتشرف على الصحة العامة ووسائل المواصلات وفاقاً للأحكام الدستورية .

ومتى انتخبت الأمة سلطتها وأصبحت وحدة مستقلة بحكمها حق لها ان تعول على النية الحسنة من حكومة الثورة وان تعترف لها هذه الحكومة بجميع حقوقها الدستورية في ظل الدستور الموقوت .

واذا استقرت الأمور بعد ست سنوات في جوانب البلاد كان على كل اقليم حاكم لنفسه ان ينتدب عنه نائباً لتأليف الجمعية الوطنية العظمى ، ومهمة هذه الجمعية ان تنشيء خمسة مجالس على هدي دستور الهيئات الخمس لتنظيم عمل الحكومة : وهي الهيئة الادارية والهيئة التشريعية والهيئة القضائية ، والهيئة الاختبارية ، وهيئة الرقابة والإشراف العام .

وينتخب المواطنون بعد قيام الدستور بطريق الاقتراع العام رئيساً لانشاء مجلس الإدارة ونواباً لتكوين الجمعية التشريعية ، اما المجالس الثلاثة الأخرى فيعينها الرئيس بالتعاون مع الجمعية التشريعية ، وهذه المجالس جميعاً لا تكون مسؤولةامام الرئيس بل أمام الجمعية الوطنية ، ولا تقبل استقالة احد منها الا بعد إدانته في الجمعية الوطنية بناء على اتهام هيئة الرقابة والإشراف العام . أما اعضاء هيئة الرقابة والإشراف العام فيعزلون بعد اتهامهم بقرار من الجمعية الوطنية .

وتشمل سلطات الجمعية الوطنية وواجباتها مباشرة الإشراف على تطبيق الدستور وتطهير الاداة الحكومية من الموظفين غير الصالحين ، وتنظر الهيئة الاختبارية في المؤهلات التي ترشح صاحبها لعضوية الجمعية الوطنية والمجالس المختلفة .

وبعد اقرار الدستور وانتخاب الرئيس وانتخاب المجالس تسلم حكومة الثورة مقاليد السلطة للرئيس وتعتبر مرحلة التمهيد والتحضير منتهية منذ تلك اللحظة .

والمرحلة الثالثة او الدور الثالث هو دور اتمام الثورة ، وفيه تتحقق الحكومة الدستورية ، وفيه تبدأ حكومات الأقاليم الذاتية مباشرة حقوقها المدنية ، ويتولى المواطنون سلطة الراشدين في تدبير شؤون بلادهم وحل مشكلاتها السياسية وعزل الموظفين الحكوميين .

هذه هي الأدوار الدستورية ، او بعبارة اخرى هذه هي الفترة التي يتم فيها بناء الثورة ، وهذه هي الخطوط التي اوثرها وازكيها .

وبعد فما هي مشكلات البناء الثوري او بناء الثورة ؟

إن البناء الثوري هو بناء الطوارىء او هو بعبارة اخرى بناء العجلة ، ومن هنا وجب ان ينظر الى وسائل الدوام وان ينهج على منهج العوامل الاجتماعية الطبيعية ، اذ كان البناء الذي توحي به دواعي الساعة غير كفيل في جميع الاحوال بموافقة مهام الثورة .

إن الثورة لها عملها الطارىء الذي تسقط به الملكية وتقضي على النظام الامبراطوري ، ولكنها الى جانب الهدم الطارىء لا بد لها من البناء الطارىء وكلاهما كالقدمين او كالجناحين لا غنى لاحدهما عن الآخر ، ومنذ الساعة التي أقيمت فيها الجمهورية قد جاوزنا دور الهدم الطارىء ولكننا لم ندخل في دور البناء الذي لا بد أن يلازمه ، وهذا هو مصدر جميع النكبات التي انصبت علينا : سلطان الموظفين العنيف ومنازعات الساسة وما الى هذا وذاك ، ولم يكن للصينيين وسيلة لمنع ما حدث ، ففي زمن الطوارىء لا غنى عن بناء الطوارىء ، ولا سبيل بغير هذا الى تعويد الشعب ان يألف واجباته الجديدة ، وإن ذلك لمهم الى الغاية من الاهمية في خطط الثورة .

ولقد مضت حتى الآن ثماني سنوات منذ إنشاء الجمهورية الصينية . وقد استفاد اعضاء الحزب ذخيرة واسعة من التجربة والمعرفة ، ولعلهم اليوم يذكرون دعوتي الى تعليم الجماهير وتدريبها ويفهمون مغزاها دون ان يعتبروها من « الطوبيات » او المطامح التي لا تقبل النفاذ .

لقد عاشت الصين آلاف السنين تحت نير العروش الرجعية ، ودرج اهلها

على احتمال الطغيان والحرمان من السيادة ، وها هي ذي قد أنشأت منذ فجر الثورة حكومتها الجمهورية الدستورية ، فعليها اذن ان تمر بدور من أدوار التدريب ، وإلا تعذر عليها بلوغ غايتها .

إن أمتنا الصينية قد طال عليها عهد السيادة الملكية ، وقد تركت (خلائق الرق) أثراً عميقاً في روحها لا يتأتى محوه قبل العبور بها في دور من أدوار التدريب . وعلى الصينيين ان يعملوا كثيراً على تهذيب انفسهم قبل إزالة هذه الأقذار المتجمعة من بقايا الماضي والاشتراك في حياة الحرية والمساواة .

إن عصبة الثورة حين اخذت ،ول الأمر في تنظيم الثورة الصينية كان من همنا بداءة ان ننشر آراءها بأسلوب الدعوة وإن نجمع كل من صحت عزيمتهم على خدمة الامة الصينية وتعاهدوا على تحقيق الديمقراطية القائمة على مبادئها الثلاثة[1] لبلوغ مقصدنا الشامل وهو الجمهورية الصينية .

فهؤلاء الذين نقضوا ذلك العهد لا نحسبهم في زمرة الثوريين ، ومنهم من ينظر الى ذلك العهد كأنه بعض المظاهر الرسمية ، ولكن قوة الكومنتانج قد نمت نمواً كبيراً وتوطد نظامها لأننا بالعهد الذي تعاهدنا عليه قد خلقنا للحزب قلباً واحداً . واذا كان هذا شأن الحزب فهو شأن يصدق كذلك على الدولة .

وكثيراً ما قيل عن الامة الصينية انها كالرمل المتناثر هنا وهناك ، فإذا نحن اردنا ان نجمع هذه الملايين الاربعمائة من حبات الرمل لنخلق منها دولة متحدة قوية في اتحادها فليس في وسعنا ان نتخلى عن فكرة القسم . وهكذا يحدث في جميع بلدان الحضارة المتقدمة ، فانهم يوجبون عند تغيير الجنسية ان يقسم المرء يمين الولاء والاحترام للدولة التي ينضوي اليها ، وأن يعرب عن اعترافه بدستورها والتزامه لكل ما يفرضه عليه من الواجبات ولا يحسب في زمرة المواطنين قبل هذا القسم ، بل يقضي حياته بين قومه ولا يزال معدوداً بينهم من الغرباء الذين حرمت عليهم حقوق الوطنية .

(١) الاستقلال من الحكم الاجنبي وسيادة الشعب وتيسير المعيشة .

وعندي ان الموظفين واعضاء المجالس لا يؤدون عملهم قبل أداء هذا القسم . ومن حق الحكومة الجديدة حيث يتبدل نظام الحكم ان تطلب عهد الولاء من جميع المواطنين وان تعتبر من يرفض اداءه عدواً يطرد من حظيرة الدولة .

على ان زملائي في الحزب حسبوا أن مسألة القسم مسألة ثانوية ووصفوني من أجل هذا بالنزعة النظرية ، ولا أزال منذ انشاء الحزب أصر على القسم ، وأرى ان انقطاع مراسم اليمين ـ أساس القانون ـ هو احد الاسباب الكبرى التي جرت الى خيبة البناء الثوري ، ولو لم يهمل زملائي كلماتي عقب تطور الجمهورية لتم في تكوين الدولة ما تم في تكوين الحزب ، وكان على كل موظف ان يقسم يمين الولاء للجمهورية وان يؤيدها ويذود عن حقوق الامة ويعزز مواردها ، ولا يصح ان يستمتع بالحقوق القومية قبل ذلك بل يحسب من خدام اسرة (تاي تسنج) واعوانها .

وكل اساءة الى الجمهورية يعاقب فاعلها بعد حلف اليمين بحكم القانون .

إن الدولة سفينة تجمع قلوب رعاياها ، وليست سياسة الدولة الا صورة لعوامل الأمة النفسانية ، فإن اردنا أن نجعل من رعايا الإمبراطور مواطنين مخلصين للجمهورية فمن الواجب ان نطالبهم بيمين الولاء . ولم يستطع الكومنتانج عند اقامة الحكومة الجمهورية ان يحقق ذلك فكان من ثمة ان الحزب تجمعت له في دور الهدم ذخيرة هائلة من القوى الروحية ثم فقدها بعد اقامة الجمهورية ولم تتيسر له مهمة البناية الثورية .

وتقع التبعة في خيبة الثورة الصينية على جميع المواطنين الصينيين ذوي الفهم والمعرفة الذين لم يبذلوا دماءهم في صفوف الثورة الاولى . وليست هذه التبعة مقصورة على الذين قاموا بالثورة وحدهم ، فإن ذوي الفهم والمعرفة جميعاً هم مدد الثورة الذين وجب عليهم ان يخفوا لتأييد الطليعة من الثوار .

ابناء الصين ! انهضوا نهضة قلب واحد حباً لوطنكم ، وهبوا يداً واحدة

لنبذ القديم وخلق الجديد ، ورددوا بالنية الصادقة يمين الولاء للجمهورية الذي اردده الآن .

انا سن ياتسن ، بنية صادقة خالصة أقسم لأنبذن من هذه اللحظة القديم وأبنينّ الجديد ، وأن اقاتل في سبيل استقلال الأمة وأصرف قوّتي كلها الى تمكين الجمهورية الصينية وتحقيق الديمقراطية على مبادئها الثلاثة ، وانفاذ الدستور بهيئاته الخماسية لترقية الحكومة الصالحة وتوفير سعادة الشعب وأمانه وتوطيد دعائم الدولة باسم السلام في العالم أجمع .

الثوار

من بيان عن الحل الصالح لمشكلة الصين (سنة ١٩٠٤)

إن الصينين الذين يجنحون الى مبادىء الثورة ينقسمون على وجه التقريب الى ثلاثة أقسام :

« اولها » واكثرها عدداً اولئك الذين عجزوا عن تحصيل القوت من جراء مظالم الموظفين واغتصاباتهم . .

و« ثانيها » اولئك الذين تثيرهم الكراهية القومية لأسرة المانشو .

و« ثالثها » اولئك الذين يستوحون الأفكار النبيلة والأمثلة العليا .

وهذه الطوائف الثلاث تستطيع ان تبلغ الغاية المطلوبة بالتعاون بينها في وجهات مختلفة وبالقوة والسرعة اللتين تنموان يوماً بعد يوم .

ومن المحقق اذن ان سقوط حكومة المانشو انما هو مسألة زمن ، وتشبه اسرة المانشو في هذه الحالة منزلاً متداعياً سرى الوهن الى اساسه جميعاً ، فهل في وسع احد أن يمنع سقوط هذا المنزل بأسناد توضع على خارج الجدران هنا وهناك ؟

لعل هذا التدعيم نفسه خليق ان يعجل بتقويضه . وقد بدا من تواريخ الأسر المالكة في الصين أن أدوار حياتها كأدوار حياة الفرد بين المولد والنمو والنضج والشيخوخة والفناء . وهذا الحكم التتري القائم اليوم قد اخذ في الهرم منذ اوائل القرن الماضي فهو يمضي الى فنائه على عجل .. وأصبح واضحاً جد الوضوح أن استبدال حكومة مستنيرة متقدمة بهذا الحكم التتري امر لا محيص عنه .

إن في الأمة كثيراً من الاكفاء المتعلمين قادرون على النهوض بحكومة جديدة . والبرامج مهيأة لتحويل الحكومة التترية الى جمهورية صينية . وهذه

الجماهير من الشعب على استعداد للترحيب بالنظام الجديد وعلى امل في حالة أفضل من حالتهم ترفعهم من وهدة هذه المعيشة المحزنة .

إن الصين اليوم مقبلة على حركة قوية عظيمة ، وإن شرارة واحدة لكافية لإشعال النار في الغابة الكثيفة وطرد التتر من بلادنا ، وإن مهمتنا لعظيمة ولكنها ليست بالمستحيلة .

مبادىء الأمة الثلاثة

من خطاب في اللجنة التنفيذية لحزب الكومنتانج (٦ مارس ١٩٢١)

بلغت ثورتنا العاشرة ، ولكننا لا نستطيع ان نزعم اننا بلغنا الهدف منها فمهمتنا لم تتم ، وعلينا ان نمضي قدماً في كفاحنا .

ان حزبنا مختلف كل الاختلاف من أحزاب الصين الأخرى . إذ كان من تلك الأحزاب من عقد النية على خلع أسرة تسنج واقامة اسرة اخرى ـ وهي اسرة منج ـ في مكانها . وغني عن القول ان مبادىء هذا الحزب مناقضة لمبادئنا ، فإننا في السنوات العشر الاخيرة من عهد اسرة تسنج الفينا انفسنا مكرهين على النزول بمدينة طوكيو فقررنا يومئذ مبادئنا الثلاثة : وهي القومية والديمقراطية والاشتراكية ، وكانت السيطرة يومئذ لا تزال في أيدي المانشو والثورة لا تزال عند مبدئها الاول وهو القومية . غير متمكنة من اقرار مبدأيها الآخرين .

إن مبادىء الرئيس لنكولن تطابق مبادئي ، فقد كان ينشد حكومة من الأمة تنتخبها الأمة لخدمة الأمة ، وهي مبادىء صورت غاية المسعى في عرف الأوروبيين والأمريكيين على السواء ، ومن السهل ان نجد كلمات مثلها لسياسة الصين . فقد ترجمتها بالقومية والديمقراطية والاشتراكية ، وأحسب أنها لا تعني شيئاً غير هذا .

وأريد الآن ان أتكلم عن القومية :

فما هو المعنى الذي نريده بالقومية ؟ لقد بقيت الامة منذ قيام أسرة المانشو خانعة لنيرها الثقيل اكثر من مائتي سنة ، وهاهي ذي أسرة المانشو قد ذهبت ولاح ان الأمة خليقة ان تستمتع بحريتها الكاملة . فهل تستمتع الأمة الصينية اليوم

بنعم الحرية الكاملة ؟ . . كلا . فما هي العلة ؟ وما بال حزبنا لا يزال بعيداً من تحقيق غايته لم ينجز منها الا ناحيتها السلبية دون ان يتقدم شيئاً في ناحيتها الايجابية ؟

بعد خلع الأسرة وانشاء النظام الجمهوري في الأقطار التي تسكنها القوميات الخمس - ونعني بها الصينيين والمنشوريين والمغول والتتار واهل التيبت-برزت لنا عناصر جمة من أنصار الرجعية السياسية والدينية ، وهنا تكمن جذور الشر كله .

فمن جهة العدد يأتي ترتيب هذه القوميات على هذا النسق . ملايين عدة من اهل التيبت، واقل من مليون من المغول ، ونحو عشرة ملايين من التتار ، وعدد ضئيل من المنشوريين . اما من الوجهة السياسية فهم موزعون على النحو الآتي : فالمنشوريون يقيمون في دائرة نفوذ اليابان ، والمغول على حسب الانباء الأخيرة يقيمون في دائرة نفوذ الروس ،والتيبت غنيمة بريطانيا العظمى . وهذه القوميات لا تملك من القوة ما يكفي لاعتمادها على نفسها في دفاعها ، ولكنها تستطيع ان تتحد مع الصين لتكوين دولة واحدة .

وفي الصين أربعمائة مليون ، فإن عجزوا عن تكوين امة واحدة متحدة فتلك مسبتهم ، وفيها عدا ذلك دليل على أننا لم نحقق مبدأنا الأول واننا مضطرون الى الكفاح طويلا لاتمام عملنا على أوفاه ، وانما توطد الجمهورية المتحدة كي يتألف من جميع القوميات امة واحدة قوية . وعلى سبيل المثال أشير الى أمة الولايات المتحدة الأمريكية التي تجتمع منه وحدة متفقة وهي في الواقع تتألف من قوميات شتى ، كالألمان والهولنديين والإنجليز والفرنسيين الخ . فالولايات المتحدة مثال للأمة المتحدة ، وتكوين امة كهذه مستطاع ، ولا بد ان نستطيعه .

او خذوا مثالاً آخر للأمة المتحدة من أقوام مختلفة بلاد سويسرة، فإنها تقع في قلب القارة الأوربية ، على حدودها من أحد جوانبها فرنسا ، وعلى الحدود الأخرى المانيا ، وعلى الجانب الثالث ايطاليا ،، وهم لا يتكلمون لغة واحدة ولكنهم مع هذا امة واحدة . وانما توحد بينهم الثقافة الحكيمة والنظام السياسي

الرشيد ، فتجمع من هذه الاجناس المتفرقة امة متحدة متماسكة ومصدر هذه القوة ان رعايا الجمهورية متساوون في حقوق الانتخاب المباشر ، وهي اذا نظرنا اليها من الوجهة الدولية اول أمة ساوت بين رعاياها في تلك الحقوق ، وهذه قدوة مثلى في الوطنية .

فلنفرض الآن ان قبائل الصين جميعاً تمت وحدتها وخرجت منها أمة متماسكة . فليس هذا كافياً لتحقيق الغاية المنشودة ، إذ لا تزال ثمة شعوب تعاني الإجحاف في المعاملة ، ومن واجب ابناء الصين أن يتكلفوا برفع هذا الإجحاف وبسط يد المعونة الى تلك الشعوب لضمها الى الراية الوطنية الشاملة ، وجدير بالإنصاف ان نتيح لهم فرصة الشعور بمساواة الإنسان للإنسان وبالموقف العادل من الوجهة الدولية كما عبر عنه الرئيس ويلسون فيما سماه تقرير المصير ، وما لم نبلغ بأمتنا هذا المبلغ لا نعتبر مهمتنا منجزة . . . فكل من أراد الانتماء الى الصين وجب ان يحسب من صميم الصينيين ، وذلك هو معنى الوطنية او القومية . فهي القومية الايجابية وينبغي ان نؤكدها بهذا المعنى .

اما الديمقراطية فقد ذكرت الساعة أن الديمقراطية قد استوفت طورها الأعلى في سويسرة . الا انني ابادر فأقول إن نظام التمثيل هناك لا يطابق الديمقراطية على أصحها ، وانما تصح الديمقراطية بحق الفرد المباشر . وقد نشبت ثورات عدة في فرنسا وأمريكا وانجلترا تولد منها نظام التمثيل القائم بين تلك الأمم ، ولكنه مع هذا لا يعني الحق المباشر على السواء لجميع المواطنين كما نعنيه ونجاهد في سبيله . وانما الجوهري من هذه الحقوق جميعاً حق الانتخاب لكل مواطن وحق العزل الذي يخول الشعب بعد انتخاب موظفيه ان ينحيهم عن العمل حين يشاء ، وحق الاستفتاء الذي يخول الشعب ان يرفض كل قانون تصدره الهيئة التشريعية مخالفاً لرغباته ، وحق الاقتراح الذي يخوله ان يقدم الى الهيئة التشريعية مسودات من القوانين يستحسن اصدارها .

فهذه الحقوق الأساسية الأربعة هي قوام ما أسميه بالحق الانتخابي المباشر .

ونتناول الكلام على الاشتراكية اخيراً وهي فكرة عرفت بين الصينيين في الأزمنة الأخيرة ، ومعظم دعاتها يقصرون معرفتهم بها على بضع كلمات جوفاء لا تعبر عن برنامج محدود ، ولكنني قد انتهيت من دراستها الى جوهرها وهو حل مشكلة الأرض ورأس المال .

ونلخص ما تقدم ونضيف اليه بعض التفصيل فنقول :

اننا منذ خلع الأسرة المالكة لم ننجز من مبدأ القومية غير جزء من عهودنا . فقد حققنا الجانب السلبي ولم نعمل شيئاً من جانب الايجاب ، وعلينا أن نرفع كرامة الأمة الصينية ، ونؤلف بين جميع الشعوب التي تستوطن الصين لتصبح في آسيا الشرقية امة واحدة تسمى دولة الصين القومية .

ولإدراك هذه الغاية يلزمنا اولاً أن نقرر الأصول الأربعة التي تدور عليها الحقوق الانتخابية الأربعة : وهي الاقتراع العام،والاستفتاء ، والاقتراح ، والعزل .

اما الاشتراكية فبرنامجي لها ما يأتي :

« اولاً » تقسيم الارض على أساس النسبية .

وقد حاولت ايام مقامي بنانكنج اذ كنت أتولى الرئاسة المؤقتة ان انفذ هذا البرنامج فلم استطع لانني لم أفهم .

إن المشكلات الاجتماعية تنشأ من التفاوت بين الغني والفقير . فماذا نعني بالتفاوت او قلة المساواة ؟

لقد كان الفارق موجوداً بين الغني والفقير في الأزمنة الغابرة ولكنه لم يكن فارقاً حاسياً كما نراه اليوم ، إذ يملك الغني الأرض كلها ولا يبقى للفقير حتى القليل منها . وعلة هذا التفاوت اختلاف أساليب الإنتاج ، فقد كان قاطع الخشب مثلاً يستخدم الفؤوس والمدى وما إليها ولكن المكنات تحل محل هذه الأدوات في العصر الحاضر ويستطاع الحصول على محصول كبير بعمل بدني قليل .

ولنضرب مثلا آخر من أعمال الزراعة . ففي الأزمنة الغابرة كان المعول كله في هذا المجال على الجهود الانسانية ، ثم نشأت المحاريث التي تجرها الخيل والبقر فزادت سرعة العمل وقلت الجهود البدنية ، ثم استخدمت القوى الآلية اليوم في أوروبة وأمريكا فأصبح من المستطاع حرث الف فدان وزيادة في اليوم الواحد وامكن الاستغناء عن الخيل والبقر ، فنجم من هذه الحالة فارق هائل يعبر عنه بنسبة الف الى واحد . فإذا انتقلنا من هذه الأمثلة الى وسائل المواصلات رأينا أن الوسائل الحديثة كالبواخر والسكك الحديدية قد جعلت النسبة اكثر من ألف الى واحد عند المقارنة بين هذه القوى والقوة الانسانية .

ولنتكلم اولاً عن اشتراكية الأرض ، فنظام الأرض مختلف بين أوروبة وأمريكا ، ولا يزال نظام الإقطاع قائماً في انجلترا من حيث اصبحت الأرض مملوكة للآحاد في الولايات المتحدة .

إلا ان برنامجي يدعو الى التقسيم النسبي اتقاء لشرور المستقبل التي بدرت اليوم بوادرها .

ولنضرب مثلا بما حدث تحت اعيننا منذ انشيء المجلس البلدي في مدينة كانتون . فإن المواصلات تقدمت وأخذت اثمان الأرض على الجسر وعند مزدحم السكان ترتفع ويباع « المو » الواحد بعشرات الألوف من الريالات ، وهذه كلها يملكها آحاد يعيشون بجهود الآخرين .

إن نظام الأرض القديم في الصين يوافق بعض الموافقة نظام التقسيمات النسبية ، فإذا اردنا أن نطبق هذا النظام وجبت ملاحظة هذه الشروط ! وهي فرض الضريبة على حسب قيمة الأرض ، والتعويض على حسب القيمة العرفية .

وقد اتبع التقسيم على ثلاث درجات الى اليوم في البلاد الصينية ، ولكن قيمة الأرض لم تكن فيما مضى بهذا الارتفاع لنقص وسائل المواصلات وأدوات الصناعة . فلما تقدمت المواصلات والأدوات الصناعية مع بقاء التقسيمات العتيقة نجم من ذلك ارتفاع غير متناسب مع قيمة الأرض . فأصبح ثمن المو في

بعض المواقع الفي دولار وفي بعض المواقع الأخرى عشرين الفاً ، وتراوحت بين هاتين القيمتين قيم متفاوتة ، فإذا بقيت الضرائب كما كانت راج الغش والفساد بين دافعي الضرائب ومحصليها .

وعلى هذا ينبغي اذا أردنا اتقاء شرور هذه الحالة ان نفرض الضرائب بنسبة واحد في المائة من قيمة الأرض . فمن كان يملك ارضاً تباع بألفي ريال فعليه ضريبة عشرين ريالا ، وتطّرد الزيادة باطراد الارتفاع في القيمة ومتى استولت الدولة على الأرض فينبغي ان يكون استيلاؤها على قيمة مقدرة بهذا الحساب .

اما مسألة رأس المال فقد نشرت اخيراً كتاباً عن تنمية الصين الدولية بحثت فيه مسائل الاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية لترقية صناعة الصين وتجارتها .

فانظروا مثلا الى خطوط بكين هنكاو، وبكين مكدن وتينتسن بكاو التي مدت برؤوس الاموال الأجنبية وهي تدر الآن مقادير جمة من الربح الجزيل .

إن خطوط السكك الحديدية اليوم تبلغ في الصين من خمسة آلاف الى ستة آلاف ميل ، تقدر أرباحها بما يتراوح بين سبعين وثمانين ميلا تزيد على قيمة الضرائب . فإذا امتدت الخطوط فبلغت خمسين او ستين الف ميل تضاعفت الأرباح عدة أضعاف .

وبرنامجي في الاستعانة بالأموال الأجنبية ان جميع الموارد التي تدر الربح عند ادارتها على أي نحو مقبول لا تزال في انتظار الاموال الاجنبية ، ومن امثلتها موارد المناجم والتعدين .

ومتى ذكرت القروض في هذا الصدد فانما اعني الحصول على المكنسات والأدوات الضرورية لاستغلال هذه الموارد ، وقد كانت ارباح السكة الحديدية من بكين الى هنكاو عظيمة وكان الأجانب على استعداد لتسليمها مع إمكان الربح منها في المستقبل ، وبلغ من وفرة هذا الربح انه كان يكفي لمد الخط من بكين الى كاجلان ، وهو الخط الذي يصل اليوم الى سونيانج .

ونوجز فنقول إن الحصول على القروض من رؤوس الأموال الأجنبية

ميسور ، ولكن السؤال هو : كيف ننفقها ؟ وهل نستفيد من إنفاقها أو لا نستفيد ؟

وعلينا أن نسلم أن الضحايا الضرورية للثورة الاجتماعية أكبر من الضحايا اللازمة للثورة السياسية . وقد صح بعض الصحة مبدأ القومية منذ خلعت أسرة المانشو بعد ثورة سنة ١٩١١ ، ولكن مبدأ الديمقراطية ومبدأ الاشتراكية لم يتركا لهما اي اثر . فلا مناص لنا اذن من السعي جهدنا كي نحقق غاية حزبنا ونحقق كذلك ما يعتبر في عرف العصر الحاضر غاية الجميع ، ونعني به الديمقراطية ، وهي ايضاً احدى غاياتنا .

ولا شك في تقدم انجلترا وأمريكا في الحياة السياسية . ولكن السلطان السياسي لا يزال هناك في قبضة حزب لا في قبضة الامة كلها . وقد اعلن الرئيس ويلسون خلال الحرب الاوروبية الكبرى نداء تقرير المصير وهو يقابل مبدأ القومية من برنامجنا . وقد تألفت بعد مؤتمر فرساي جمهوريات صغيرة ولكنها مستقلة تعيش معاً بغير رابطة تجمعها . فجدير بكم ان تفطنوا من هذا للاتجاه الغالب على حياة الأمم العصرية .

لقد حان الحين لتحقيق مبادئنا الثلاثة جميعاً ، أي تحقيق القومية والديمقراطية والاشتراكية ، وانما يتاح العيش والحرية لأمتنا حين تتحقق هذه المبادىء على اوفاها ، ويتوقف تفصيلها وتطبيقها على ما تبدونه من القوة وما تودعونه دعوتكم من النشاط والهمة .

مبدأ الوطنية (أو القومية)
من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤

ما هو مبدأ الوطنية ؟

إذا رجعنا الى تاريخ الصين في حياتها الاجتماعية وعاداتها الموروثة جاز لنا أن نقول إن مبدأ الوطنية مرادف لفكرة الدولة .

فالأمة الصينية قد الفت الولاء للأسرة والقبيلة حتى بما فيها شعور القرابة وعصبية القبيلة ولم ينم فيها شعور الوطنية .

وقد كانت الأسرة والقبيلة من القوى الموحدة ، وحدث كثيراً ان الصيني ضحّى بنفسه وبأسرته وحياته دفاعاً عن قبيلته . اما عن الوطن فلم يعهد قط عمل عظيم من أعمال التضحية الجلية . فوقفت وحدة الصين عند القبيلة ولم تتقدم الى وحدة الأمة .

فقولي ان مبدأ الوطنية مرادف لفكرة الدولة يصدق على أحوال الصين ولا يصدق على الأحوال في الغرب . إذ يميز الغربيون بين الأمة والدولة ، والكلمة التي يقابل بها الإنجليز كلمتنا « من تسو » هي كلمة الأمة ، وهي ذات معنيين لا اختلاط بينهما .

نعم إن الدولة والأمة متصلتان ولا تبدو الضرورة للفصل بينهما ، ولكن معناهما مختلف ولا بد من فهم معنى كل منهما على حدة .

فلماذا يصدق التوافق بين معناهما على الصين وحدها ؟ يصدق ذلك على الصين وحدها لان الصين منذ قامت فيها اسرة شين واسرة هان تنشىء دولة واحدة من سلالة واحدة حيث كانت البلاد الاجنبية تنشىء حكومات متعددة في جنس

واحد وتضم عدة قوميات الى فرد حكومة .

ونضرب المثل بإنجلترا التي تعد اليوم أقوى دول العالم . فإنها ضمت الى الجنس الأبيض اناساً من السمر والسود وغيرهم لتكوين الإمبراطورية البريطانية ، فلا يصدق عليها ان الجنس والدولة شيء واحد ، وهذه هونج كونج ـ وهي مقاطعة بريطانية ـ تؤوي عشرات الألوف من الصينيين فلا يصح ان يقال عنها ان حكومة هونج كونج تعني امة بريطانية .

او انظروا الى الهند ـ وهي اليوم مستعمرة بريطانية ـ تجدوا ثمة ثلثمائة وخمسين مليوناً من الهنود ، فإذا قلنا ان حكومة الهند والامة البريطانية شيء واحد فنحن في زيغ من الحقيقة . ونحن جميعاً نعلم ان ابناء انجلترا الأصلاء من الانجلو سكسون ، ولكنهم غير محصورين في البلاد الإنجليزية ، بل يوجد في الولايات المتحدة أيضاً طوائف كبيرة من هذه السلالة ، فلا يتأتى لنا حين ننظر الى البلدان الأخرى ان نوحد بين معنى الدولة ومعنى الأمة ، فبين المعنيين خط فاصل يميز بينهما .

فكيف يتسنى لنا التمييز الواضح بين هذين المعنيين ؟ خير منهج ننهجه للتمييز بينهما ان ندرس العوامل التي مزجتهما ، ونبسط العبارة فنقول ان الجنسية او القومية تنمو بالعوامل الطبيعية ، اما الدولة فتنمو بقوة السلاح . ونستعين بشاهد من تاريخ الصين السياسي فنذكر ان الصينيين تعودوا ان يقولوا ان « وانج تاو » هي الطريق السلطانية وطريق الحقيقة ، فالجماعة التي تتألف على الطريقة السلطانية هي السلالة او القومية . أما القوة المسلحة فهي « باتاو » أو طريق الغلبة ، فالجماعة التي تتألف على هذه الطريقة هي الدولة .

ونمعن النظر في قوانين البقاء كما عملت في السلالات القديمة والحديثة فيبدو لنا أننا لا نستطيع ان ننقذ الصين ونحفظ سلالتها الا بتنمية بواعث القومية ، وعلينا ان نفهمها جيداً قبل ان نجعلها عاملا واضحاً من عوامل الخلاص والسلامة .

إن أهل الصين يبلغون اربعمائة مليون ، لا تختلط السلالة فيهم الا في

بضعة ملايين من المغول وفي نحو مليون من المنشو وفي ملايين قليلة من ابناء التيبت وفي مليون من الترك المسلمين ، فلا تزيد عدتهم جميعاً على عشرة ملايين ، ويتحد الصينيون ما عداهم في سلالة هان بدم واحد ولغة واحدة وديانة واحدة وعادات متشابهة : سلالة واحدة صافية .

ما هو موقف الصين من العالم بأسره ؟ اننا بالقياس الى الامم الاخرى اكبرها عدداً واعرقها حضارة ، لأنها حضارة دامت أربعة آلاف سنة ، ولكننا على هذا نعد بين افقر الأمم واضعفها وننزل اسفل المنازل في الشؤون الدولية ، فنحن السمكة واللحمة وغيرنا من أبناء آدم هم الصفحة والسكين ، وموضعنا اليوم على أشد الخطر ما لم نستمسك بعوامل الوطنية ونجمع بين الملايين الأربعمائة في أمة قوية ، إذ نحن نواجه الكارثة ونستهدف لضياع بلادنا وفناء قوميتنا ،ولن ندفع هذه الكارثة بغير الشعور الوطني والاعتماد على النخوة الوطنية لانقاذ بلادنا .

ان الوطنية هي القنية النفيسة التي تهيىء للدولة ان تتطلع الى التقدم وللامة ان تطيل وجودها .

وقد ضيعت الصين اليوم هذه القنية النفيسة ، ويتراءى لي انها ضيعتها قروناً ولم تضيعها يوماً وحسب ، وما عليكم الا ان تنظروا الى الموضوعات التي تحارب الثورة وتندس الينا من الخارج ، وكلها تعارض الوطنية !

لقد كانت الوطنية ميتة خلال مئات السنين من تاريخ الصين ، وهذه الموضوعات التي راجت في زماننا لا تعرض لنا نغمة واحدة من نغمات النخوة الوطنية ولا تني شادية بالثناء على فضائل المانشو ورحمتهم ومأثر سخائهم العميم ، ونكاد نسمع منذ نشوب الثورة اولئك الأعلام المتطوعين للتغني بما كان للمانشو من المناقب والسجايا ، ولم يقنع هؤلاء الأعلام باصطياد العبارات التي تستبقي ذكرى المانشو بل جاوزوا ذلك الى تأليف جماعتهم المسماة « باو هوانج تانج » للدفاع عن امبراطور المانشو وسحق النوازع الوطنية في ضمائر امة الصين .

واجعلوا بالكم الى هؤلاء الملكيين . . . انهم لم يكونوا من المانشو بل كانوا من صميم اهل الصين ووجدوا الرعاية والترحيب بين الصينيين المقيمين في الخارج ! فلما ازدهرت دعوة الثورة تحول هؤلاء المهاجرون شيئاً فشيئاً الى تأييدها وتضاعفت الجماعات الثورية من ثم وراء البحار .

ومن هؤلاء فئة « هنج مين سان هوهوي » أو كما يسمون احياناً بالـ« شيه كنج تانج » . . . الذين كانوا يحاربون المانشو ليأتوا بأسرة « منج » في مكانها ، وكانوا ينطوون على حماسة وطنية قوية ، ثم ظهرت الدعوة الملكية فأصبحوا ملكيين لا يبالون بغير « النقاء الطاهر » وهو الشعار الذي اتخذته الدعوة المانشوية لاعادة عاهلها الى عرشه ، وكفى بهذه النكسة دليلا على ما فقدته الصين من نخوتها الوطنية .

اننا خليقون ان نعرف اثارة من تاريخ هذه الجماعات الخفية حين نتكلم عنها . فقد بلغت غاية القسوة خلال حكم العاهل المانشوي كانج هسي (١٦٦١ - ١٧٢٢) وهب الموالون لأسرة منج يعارضون شان شي حين قضي على هذه الاسرة واستولى على زمام السلطان في ارجاء الصين بأسرها . واستمرت المقاومة الى عهد كانج هسي فلم تذعن الصين كل الاذعان للمانشويين حتى ذلك العهد ، ولم تنطفىء شعلة المقاومة حتى يئس الجيل القائم بها من تدبير القوة الكافية للانتقاض فلجأ الى الجماعات السرية ، وكان بقيتهم أناساً ذوي اصالة ونظر وخبرة بالمجتمع ، فدأبوا على تنظيم الجماعات السرية الى ان وضع العاهل المانشوي نظام الامتحان للمناصب فدخل في شبكته كثيرون من أساتذة عهد « منج » وعلم القائمون بحركة المقاومة ان الطائفة المتعلمة لا يعتمد عليها . . . يومئذ انقلبوا الى طبقات المجتمع الدنيا : الى المشردين على ضفاف الانهار والبحيرات . وراحوا يجمعونهم وينظمونهم ويبثون فيهم روح الغيرة الوطنية كي يتصل العمل بعدهم ، ولكن هذه الطوائف لجهلهاوسقوط بيئتها وجلافة تعبيرها وخشونة مسلكها لم تلق أذانا صاغية عند الطوائف المهذبة ، ولا يمنع هذا أن حكماء أسرة منج ابانوا في عملهم عن دراية وحصانة حين لجأوا الى تنظيم تلك الجماعات السرية لاستبقاء النزعة القومية ، فلم يقو طغيان المانشو خلال القرنين

الاخيرين على محو تلك النزعة وتوارث مصطلحاتها وتقاليدها طبقة بعد طبقة في تلك الجماعات السرية .

وظلت جذوة الوطنية حية منذ بدأت أسرة المانشو حكمها ، ثم اخذ « تسو تسنجتانج » بناصية التنين الأعظم وعلم بخفايا الجماعات السرية فحطم قيادتها الحربية وشتت شملها ، فلما كانت الثورة الاخيرة لم نجد هيئة منظمة نعتمد عليها ، فقد كانت جماعة الـ « هنج مين » آلة مسخرة وآل الأمر بنخوة الصين الوطنية الى الضياع .

ان الأمة اذا سادت امة اخرى لم تسمح لها باستقلال التفكير ، وهذه اليابان مثلا تسيطر على كورية وتعمل على توجيه اذهان الكوريين حيث تريد ، فمحت مادة الوطنية من المدارس ويوشك بعد ثلاثين سنة ان يكبر الأطفال الكوريون وهم لا يعلمون انهم كوريون وان هناك وطناً كان يسمى كورية . وقد مضى زمن كانت منشورية تحاول فيه معنا هذه المحاولة ، اذ كان من دأب الأمة الغالبة ان تتلف هذه القنية النفيسة في ضمائر الأمة المغلوبة ، وبهذه النية جعل المانشويون يحتالون شتى الحيل ويبتدعون مختلف الأساليب . فحرم كانج هسي بعض الكتب وجاء شيان لنج فكان ادهى منه في سحق الروح القومية . كان كانج هسي ينادي بانه مختار السماء لولاية امر الصين فليس من التقوى ان يتمرد المتمردون على المشيئة السماوية ، فلما قام شيان لنج بالأمر ازال كل فارق بين الصيني والمانشوي حتى أصبح المثقفون وقد خلت نفوسهم من وعي الوطنية وانتقل هذا الوعي منهم الى الطبقة السفلى ، فكانوا يؤمنون بوجوب مكافحة التتار ولكنهم لا يعلمون فيم يكافحونهم ، وبهذه المثابة ضمرت روح الوطنية الصينية مئات السنين من جراء تدبير المانشويين .

ويصعب علينا ان نوضح كيف تم هذا التدبير وكيف تخلف منه ضمور الروح الوطنية ،فلعل ذلك يتضح لنا من قصة شهدتها بنفسي في هونج كونج تفيد في تقريب ما اعنيه ،وخلاصة هذه القصة ان اجيراً كان يعمل في حمل البضائع من البواخر ولا معول له في هذه الصناعة على غير حبله وعموده ، وكانت اجرة الحمل كافية لمؤونة يومه، ثم ادخر على مر الزمن عشرة ريالات فاشترى بها ورقة

نصيب ووضعها في جوف عموده وحفظ رقمها لكيلا يحتاج الى اخراجها من حين الى حين لينظر فيها ، ثم جاء يوم السحب فعلم من كشف اليانصيب ان ورقته ربحت الجائزة الاولى وقدرها مائة الف ريال . . . . فكاد ان يجن من فرحته والقى بالعمود والحبلين الى الماء لأنه اراد ان يستقبل حياة الثراء وان يطمئن الى استغنائه عن حمل البضائع مدى الحياة .

ان عمود الحمال قد يشبه بالوطنية التي تعين الامة على البقاء ، وقد تشبه الجائزة المكسوبة بالعصر الذهبي الذي اقبلت عليه الصين حين اتسعت اطرافها وشملت العالم كله في نظر ابنائها ، فليس للسماء غير شمس واحدة وليس للأمة غير ملك واحد ، وما من امة على الأرض الا وهي تسجد امام تاجه ولآلئه ، فلن يعرف العالم بعد الا السلام والوئام وأداء الجزية لملك الانام . فقذفت الامة بوطنيتها الى البحر كما قذف الأجير بعموده وحبليه . ثم ابتليت بحكم المانشو فلم يكن قصاراها انها عجزت عن سيادة العالم بل ساءت بها الحال حتى عجزت عن حماية حدودها . لقد ضاعت الوطنية كما ضاع العمود في الماء ! . . .

ولو ان اسلافنا حفظوا العمود لأخذوا الجائزة الأولى ، ولكنهم قذفوا به ونسوا ان الورقة مخبوءة فيه . وحبذا لو استطعنا ان نعود الى عمودنا او نعيده الينا ، فما علينا اذن من ضير ان تجهمت لنا القوة الأجنبية وتنكرت لنا فرص العيش . فإننا لنصمد لكل ما نلقاه .

إن السماء قد وضعت على عواتقنا نحن ابناء الصين تبعات جساماً ، وإننا لخارجون عن مشيئة السماء ان لم نحبب نفوسنا ، وها قد حان الوقت الذي يشعر فيه كل صيني بالتبعة على عاتقه ، فإن كانت السماء لا تبغي القضاء علينا فهي تدخرنا لصلاح العالم وارتقائه ، وإذا هلكت الصين فسوف تهلك على أيدي الدول العظمى ، وسوف تقيم هذه الدول العقبات في سبيل العالم .

وبالأمس قال لي احد الروسيين : ما بال لينين عرضة للهجمة عليه من كل دولة ؟ انه عرضة لهجماتها لأنه اجترأ على ان يقول ان ابناء العالم قسمان : ألف ومائتان وخمسون مليوناً في جانب ، ومائتان وخمسون مليوناً في الجانب الآخر ،

والأولون مسخرون للآخرين . . . وهؤلاء الـذين يسخرونهم لا يمشـون مع الطبيعة بل يعارضونها ويناجزونها ، وإنما نمشي مع الطبيعة حين نتصدى للقوة ونكبحها .

ونحن إذا أردنا ان نتصدى للقوة ونكبحها فلنبدأ اولا بتوحيد صفوفنا ولنكن صفاً واحداً مع الألف والمائتين والخمسين من الملايين المسخرين . لنبدأ بإحياء الوطنية في قلوبنا ولنحقق اول الأمر وحدتنا ، ولنعمل من ثم على عون الضعفاء وتمكينهم من الصمود للأقوياء ، ولنجتمع لإعلان الحق في وجه القوة ، حتى اذا انهزمت هذه القوة واندحرت سطوة الجشع والانانية فهنالك يحق لنا ان نتحدث عن الوحدة الانسانية .

ان الوحدة الانسانية حديث اليوم في أوروبة ، ولكنها كانت حديث اهل الصين قبل ألفي سنة ، وما استطاع الأوروبيون بعد أن يدركوا عراقة حضارتنا ، وإن الملايين الاربعمائة من اهل الصين مخلصون لمبادىء الأخلاق العالمية ، وإنهم لقصورهم عن حفظ وطنيتهم قد عز عليهم الإعراب عن أنفسهم ، ويوشك ان يحيق بهم البوار والزوال .

على أن الوحدة الانسانية التي يتحدث بها الاوروبيون اليوم قائمة على قوة لا انصاف معها . وشعار الانجليزي الذي يقول ان الحق مع القوة انما يعني ان الكفاح للغلبة والاستيلاء عدل وانصاف . اما العقل الصيني فما اعتقد قط ان الغلبة بالحرب حق ، وما وصف القهر بالعدوان قط الا بوصف الهمجية والبربرية . وهذه الخلائق السلمية هي جوهر الآداب العالمية . فعلى اي أساس نبني هذه الآداب ؟ نبنيها على أساس الوطنية ، فالملايين المائة والخمسون في روسيا اساس العالمية الاوروبية ، والملايين الأربعمائة في الصين أساس العالمية الآسيوية ، وما من بناء يقوم على غير أساس ، فلتكن الوطنية اذن أساسنا الذي نبني عليه ، ومن شاء ان يبسط السلام على العالم فليبسطه قبل ذلك على وطنه ، وليكن همنا ان نحيي الوطنية في جوانحنا وان نجلوها ساطعة متألقة ، فيومئذ يسوغ لنا ان نحمل علم الوحدة العالمية .

ثم نتساءل : ما الوسيلة التي نلجأ اليها لاحياء وطنيتنا ؟ هناك وسيلتان : احداهما ان ننبه الملايين الاربعمائة الى حالتهم . فهم في المأزق الذي يضطرهم الى الهرب من البؤس وابتغاء السعادة ، او الى الهرب من الموت وابتغاء الحياة .

لقد جهلت الصين من قبل انها تنحدر فهلكت ، ولو انها احست ما ينتظرُها لما حق عليها الهلاك .

واذا تساءلنا عن القوارع التي تهددنا ومن اين تعرض لنا فالجواب انها تعرض لنا من الدول العظمى ، وانها هي « اولا » الغصب السياسي و « ثانياً » الغصب الاقتصادي و « ثالثا » الزيادة السريعة في عدد السكان بين الدول العظمى .

هذه القوارع الثلاث من الخارج قد رانت على رؤوسنا وجعلت امتنا على خطر داهم . فالقضاء على الامة من طريق الغصب السياسي قد يحدث بين عشية وضحاها ، ووقوع الصين تحت نير الدول قد يحطمها في اية لحظة فلا طمأنينة لنا من نهار الى نهار ، وقد يأتي الدمار من القوة العسكرية كما يأتي من المناورات السياسية ، وربما كان بين الدول اليوم في الصين توازن هو ملاذ العصمة لنا ، ولكن الذين يتكلون على تنافس الدول ويحسبونها متنافسة على الدوام ولا يحسبون حساب اتحادها واتفاقها يخطئون السداد ويصدق عليهم المثل الذي يضرب لمن يتعلق بالفضاء ويراهن عليه ، وتلك هي السلامة التي نعلقها على غيرنا ولا نعلقها على انفسنا ، وليس الرجم بالغيب سلامة نطمئن اليها .

والغصب الاقتصادي يسلبنا كل سنة الفي مليون ريال لا تزال ابداً في ازدياد ، وقد كان ميزان التجارة منذ عشر سنوات مائتي مليون ريال ، فبلغ اليوم خمسمائة مليون ، أي بمعدل مائتين وخمسين في المائة كل عشر سنوات ، فاذا انقضت عشر سنوات اخرى الفينا انفسنا ونحن فاقدون ثلاثة آلاف مليون ريال كل سنة ، يخص الرأس منا سبعة ريالات ونصف ريال ، وكأنما يؤدي كل فرد منا سبعة ريالات ونصف ريال جزية عن رأسه للأجانب كلما دار الحول ، وإذا حسبنا النساء اللائي لا يؤدين هذه الجزية عن انفسهن في الوقت الحاضر فالجزية

خمسة عشر ريالا على كل فرد من الذكور ومنهم الشيوخ والصغار الذين لا يسهمون في الكسب . فلا جرم ترتفع الجزية على الرأس الواحد الى خمسة وأربعين ريالا في العام .

اليست هذه بالصورة المفزعة لوقائع الأمور ؟ وانها في هذا لتتفاقم ولا تهبط . فلو فرضنا ان السياسة الاجنبية تنام عنا ولا ترهقنا بأعباء مضاعفة علينا فنحن هالكون في مدى عشر سنوات ، وكيف الحال بنا بعد ذلك والصين اليوم فقيرة مستنزفة ؟ اتراها قادرة على البقاء اذا تفاقم الخطب عليها عما قريب ؟

ثم المشكلة الثالثة وهي مشكلة النمو الطبيعي . فإن الصين لم تزد خلال القرن الأخير ، ولن تزيد خلال القرن المقبل ان لم تعمل ما يبتعث فيها عوامل النمو .

لقد اصبح عدد الولايات المتحدة عشرة اضعافه في مائة سنة ، واصبح عدد الروس اربعة اضعافه ، وعدد الإنجليز واليابانيين ثلاثة اضعافه ، وعدد الألمان ضعفين ونصفاً ، وعدد الفرنسيين اضيف اليه ربعه وهو أقل الزيادات .

ومع ازديادهم تركد الصين فلا تزيد بل تنقص ، فلو نظرنا الى تاريخنا علمنا ان زيادتنا في العصور الماضية كفلت لنا البقاء وازالت ابناء الصين البدائيين من عشائر المياسو والياؤس واللاؤس والتنج وغيرهم ، وقد كان العكس هو الخليق ان يصيبنا لو كانت الزيادة في جانبهم والنقص في جانبنا ، فلا ضمان لوجودنا بهذه الحالة اذا دامت سيادة الاجانب علينا ودام الضغط عليهم من زيادة النسل على مدى الأجيال .

هذه القوارع عالقة على رؤوسنا ،وعلينا ان نفهم الأمر الواقع وندرك الخطر الداهم ، وأن نذيع بيانه حتى لا يبقى من يجهله ومن يخفى عليه ما يهدد الصين وما يعترض سلامتها من المصاعب . وحري بالسائلين وقد علموها ان يسألوا : وماذا عسى ان نصنع ؟ والجواب ان الحيوان المحرج تبقى فيه بقية للنضال ، ونحن فينا هذه البقية للنضال ، وسنقوى عليه يوم نعلم أنها معركة موت وحياة وانه مهرب واحد لا مهرب لنا سواه ، وإنما نقوى على النضال كلما

حومت على رؤوسنا مخاطر الفناء .

يقول الاجانب إن الصين صفحة رمل محلول . . . . وقولهم في وجهة الشعور الوطني صحيح . فما كانت لنا قط وحدة وطنية . فهل ترانا نعوذ بوحدة اخرى ؟ نعم . لدينا أواصر الاسرة ووشائج القبيلة ، وإنها من طبائعنا لفي قرار عميق . فإذا اتسع نطاق العصبية في القبيلة حلت عصبية الوطن محل عصبية الغيرة ، وحنين الصيني الى مولده ومسقط رأسه شعور مكين يقام عليه صرح شامخ من شعور الوطنية على أوسع نطاق . . .

. . . هذا الجانب الايجابي هو احد الجانبين اللذين يعتمد عليهما في مقاومة القوة الاجنبية ، وفحواه ايقاظ الروح الوطنية وحل مشكلات الحرية والمعيشة . وهناك الجانب السلبي الذي نعتمد عليه في هذه المقاومة ، فلا تعاون مع الأجنبي ولا وناء عن المقاومة السلبية ، وتلك هي أسلحتنا لإضعاف الاستعمار والذود عن الديار واتقاء الدمار والبوار .

وسوف تسعد امتنا وتبقى كلما تضافرت جهودها على هذا المسعى . فأما اذا تخلفت عنه فلا أمان ولا نجاة .

مبدأ الديمقراطية

من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤

ما هي سيادة الأمة ؟ لأجل تعريف هذه السيادة ينبغي ان نعرف قبل ذلك ما هي الأمة . فكل جماعة انسانية متحدة منتظمة تسمى أمة ، أما السيادة فهي سلطان ينبسط على أرض الحكومة .

والحكومات صاحبة القوة العظمى في العصر الحاضر يسميها الصينيون بالحكومات القوية ، وتسمى في اللغات الأجنبية بالدول **Powers** .

والقوى الآلية يسميها الصينيون بقوة الحصان ، وتسمى في اللغات الأجنبية بطاقة الحصان . فالقوة والطاقة مترادفتان .

والقوة التي تتمكن من تنفيذ الأوامر وتنظيم الشؤون العامة هي السيادة . فإذا اقترنت السيادة والأمة فتلك هي قوة الأمة السياسية .

ونوجز فنقول ان الحكم شيء من الأمة وبواسطة الأمة ، وهو ضبط شؤون الأمة . والقدرة على هذا الضبط هو السيادة السياسية ، ونحن نتكلم عن سيادة الأمة حين تتولى الأمة ضبط شؤون حكومتها .

وننظر الى العصر الحاضر او نعود الى الماضي فنرى ان القوة الإنسانية قد استخدمت ـ اذا توخينا بساطة التعبير ـ لحفظ النوع الإنساني . لأن النوع الإنساني يتطلب لبقائه وقاية ومؤونة ويشعر بالحاجة الى الحماية والمؤونة كل يوم .

إن الوقاية للفرد أو للجماعة دفاع عن النفس ، والقدرة على الدفاع عن النفس ضرورة من ضرورات الوجود . أما المؤونة فهي تحصيل الطعام ،

وبغير وقاية ومؤونة لا يحافظ النوع الإنساني على وجوده .

وقد ينقسم جهاد النوع الإنساني الى عدة أدوار ، وتقسيمه الى هذه الأدوار يساعدنا على تتبع اصول الديمقراطية .

فالدور الأول من جهاده كان نزاعاً بينه وبين الحيوان وكان يستخدم في هذا النزاع قوته البدنية دون كل قوة اخرى .

والدور الثاني من جهاده كانت الحرب فيه بينه وبين الطبيعة ، وكان يستعين في هذه الحرب بالقوة الآلهية .

والدور الثالث تنازع فيه الإنسان والإنسان ، ووقع فيه الخصام ، بين الحكومات والأقوام ونشأت السيطرة المستبدة .

ثم يأتي الدور الرابع حيث يقع الخصام في الحكومة الواحدة وتحارب الرعية رعاتها وملوكها ، ومحور هذا الخصام الخلاف بين الخير والشر وبين الحق والقوة . ولنا ان نسميه دور سيادة الأمة او عصر الديمقراطية نظراً لاطراد التقدم في قوة الأمة .

إنه عصر جديد ، وإنما بدأناه قريباً لإسقاط الحكم المطلق الذي تخلف من العصور الغابرة .

والسؤال الجوهري هو : هل الصين اليوم ناضجة للحكومة الديمقراطية ؟ إن بين الناس من يقول ان مستوى الأمة الصينية اقل من ذاك وانها لم تستعد بعد للحكومة القومية . ومن أجل هذا حدث لما هم يوان شي كاي بتنصيب نفسه عاهلاً على الصين أن أستاذاً امريكياً ـ اسمه جدناو **Goodnow** ـ اوصى باختيار النظام الملكي مع أنه ينتمي الى أمة ديمقراطية . . . لاعتقاده ان تفكير الصينيين لا يطرد على سنن التقدم وأنهم متأخرون عن الأوروبيين والأمريكيين فلا يحق لهم أن يحاولوا تجربة الديمقراطية . وقد اتكأ يوان شي كاي على هذه الوصية ونادى بنفسه إمبراطوراً على الصين . فإذا كنا اليوم بسياق الدعوة الى الديمقراطية فعلينا ان نفهمها على غاية الجلاء والوضوح ..

لقد جهر كنفشيوس ومنشيوس بحقوق الأمة قبل ألفي سنة . فقال كنفيشيوس : إن كل من تحت السماء سيعمل للصالح العام يوم تسود الفكرة الكبرى · وكانت دعوته الى عالم حر يسوده الإخاء ويؤول حكمه الى الأمة .

ومنشيوس كان يقول : إن القيمة الكبرى للشعب ثم للأرواح التي تتولى الزرع والغلة ثم يليهم جميعاً الأمراء . ومن كلامه ان السماء ترى ما يراه الشعب وتسمع ما يسمعه .

فالصين قد أدركت معنى الديمقراطية قبل ألفي سنة ، وان لم تقدر يومئذ على تطبيقها ، ولكنها كانت يومئذ بمثابة الطوبى في اصطلاح الغربيين : مثلا أعلى لا يتيسر تطبيقه على الأثر .

وكلما قرأنا تاريخ الصين تبين لنا أنها تقدمت الى دراسة الديمقراطية قبل الأوروبيين والأمريكيين بألوف السنين. نعم إنها دراسة نظرية لم تأخذ مأخذ العمل والتطبيق. فاليوم وقد أخذ الأوروبيون والأمريكيون بالنظام الجمهوري ومضى عليه بينهم نحو مائة وخمسين سنة فنحن الذين حكم آباؤهم بهذه الأفكار خلقاء ان نمضي في إثرهم وأن نستخدم قوة الأمة اذا رجونا لحكومتنا البقاء ورجونا للشعب السعادة والرخاء .

ولكن النهضة الديمقراطية بالقياس الى غيرها من النظم متأخرة. ولا تزال حكومات كثيرة مصطبغة بصبغة الحكم المطلق ولا تزال تجارب الديمقراطية محفوفة بعقبات الخيبة والإخفاق ، وهذه الدراسة التي جرى البحث فيها بين أهل الصين قبل ألفي سنة لم توضع موضع التنفيذ الا منذ مائة وخمسين سنة ، وكأنما تنتشر في أرجاء العالم على اجنحة الرياح .

لقد عزمنا منذ ثلاث عشرة سنة ـ نحن الثائرين ـ أن ندين بالديمقراطية اذا طلبنا القوة للصين والنجاح للثورة · وكأنما تجري هذه الدفعة العالمية كنهر اليانجزي في مجراه : تارة هنا وتارة هناك وتارة الى الوراء ، ولكن المصب الى الشرق في النهاية ، فلن يصده عنه عائق آخر المطاف .

وإذا كانت الديمقراطية قد وجدت اكثر من قرن في الغرب فإنما جاءت في

تاريخها تابعة لجهاد الحرية . فكانت الدماء تفيض فيضاً في سبيل هذه الحرية ، وكان العارفون من أبناء أوروبة وأمريكا يومئذ يتخذون من الحرية علماً يرفعونه كما نرفع اليوم علم المبادىء الثلاثة ، ويخلص لنا من ثم ان جهاد الغرب كان في طلب الحرية ، فلما بلغ الحرية جاء علماؤهم فأطلقوا عليها اسم الديمقراطية .

ولما سرت نوازع الثورة الى الصين أخيراً خرج الطلاب الناشئون وطائفة كبيرة من العلماء الجادين ينادون بالحرية ، وخطر لهم انه ما دامت الثورات الاوروبية ـ كالثورة الفرنسية ـ قد كانت تجاهد للحرية فليكن جهادنا نحن أيضاً للحرية . وليس هذا الا من قبيل تكرير ما يقال بغير فطنة لمعنى المقال . فما ألقى هؤلاء بالهم الى سوابق تاريخ الديمقراطية والحرية لينفذوا الى الحقيقة من ورائها . ونحن انما وضعنا لحزبنا الثوري غاية من المبادىء الثلاثة لأننا قصدنا بهذه الغاية دلالة عميقة ولم نرسلها جزافاً .

إن الثورة الأمريكية كان شعارها الاستقلال . وثورتنا نحن شعارها المبادىء الثلاثة ، فنحن لا نردد شعار الآخرين ولا نحاكي اصداءهم . وما انتهينا الى ذلك الشعار الا بعد وقت طويل في التفكير والتقدير .

إن سيادة الأمة ـ مين شوان ـ هي الكلمة الثانية في شعارنا الثوري ، وهي تقابل كلمة المساواة في شعار الثورة الفرنسية .

وقد انتشرت الحضارة الأوروبية شرقاً فانتشرت معها المذاهب السياسية والاقتصادية والعلمية الى الصين . وتعود الصينيون كلما نقلوا شيئاً عن اوروبة ان ينسخوه كلمة كلمة بغير تعديل ، فإذا كانت الثورة الأوروبية منذ قرنين او ثلاثة قرون قد كافحت من أجل الحرية فليكافح الصينيون كذلك ، وإذا كان الأوروبيون قد حاربوا في سبيل المساواة فالمساواة هي التي يحارب الصينيون أيضاً في سبيلها . ولكن ضعف الصين الآن لا يرجع الى قلة الحرية والمساواة . فإذا نحن صرفنا الجهد الى استنهاض عزائم الشعب بصيحة الحرية والمساواة فقد ركبنا شططاً وابتعدنا كثيراً من الوجهة المثلى . لأن شعبنا لم تلعجه هذه المسائل وليس في حسه انتباه شديد اليها ، فهو لا ينضوي الى رايتنا اذا ناديناه بأسمائها .

إن حزبنا الثوري لا يهيب بالشعب الى المعركة من أجل الحرية والمساواة ، بل من أجل المبادىء الثلاثة ، وهي التي تعطينا الحرية والمساواة اذا اخرجناها الى حيز الفعل من حيز القوة .

إذ الحرية والمساواة تقومان على الديمقراطية وتستندان اليها ، فلا يطول بقاء الحرية والمساواة الا حيث تزدهر الحرية . وما من وسيلة تفلح في حفظهما إن ضاعت سيادة الأمة ، فلهذا نظر الحزب الثوري في الصين الى وجهة الحرية والمساواة ولكنه جعل الديمقراطية ـ او سيادة الشعب ـ قوام الدعوة وشعارها . فلن يستمتع شعبنا بنعم الحرية والمساواة ما لم يدرك الديمقراطية ، وهذه النعم داخلة في حسابنا منطوية في السيادة القومية .

وكثيرون منا يحسبون ان الديمقراطية اذا بلغت في الصين مبلغها في الأقطار الغربية تكون قد بلغت اهدافها وتعتبر الصين اذن في طليعة أمم التقدم والحضارة ، بيد أن المسافة بعيدة بين الديمقراطية الغربية كما نقرأها في الكتب والديمقراطية الغربية كما نراها في الواقع .

انظروا مثلا الى رواد الديمقراطية الغربية من أمثال الولايات المتحدة وفرنسا التي نشبت ثورتها منذ أكثر من مائة سنة . فكم من الحقوق السياسية ادركها الشعب هنالك فعلا ؟ إن المؤمن بالديمقراطية على حقيقتها يبدو له انه لم يدرك منها غير القليل ، وقد خطر للذين نافحوا الاستبداد طلباً لحقوق الشعب أنهم بالغون غاية الديمقراطية دفعة واحدة ، فضحوا بكل شيء وحصروا جهودهم كافة في معركة حياة وموت ، فلما ظفروا بالنصر إذا هم يتبينون انهم لم يكسبوا من القوة الا القليل مما علقوا به الآمال اثناء الثورة ، وانهم لما ينتهوا الى الديمقراطية الوافية .

ومنذ رأى بعض الصينيين ان الولايات المتحدة تقدمت الى مركزها الحاضر غنى وقوة على نهج الدساتير الاتحادية التي تترك الشؤون المحلية لسلطان الحكومة . اذا بأولئك الصينيين المثقفين يتخيلون أن الصين تنال الغنى والقوة بالدساتير الاتحادية ، ولم يشغلوا أنفسهم وهم يحاولون علاج مشاكل الصين بأن

يعقدوا المقارنة بينها وبين الولايات المتحدة . وكان قياسهم المنطقي أن الدساتير الاتحادية هي الطريق الى الغنى والقوة ما دمنا نريدهما وما دامت الولايات المتحدة قد حصلت عليهما من هذه الطريق ، ونسوا ان هذا النظام انما قام هنالك لأنه كان قائماً فعلا في كل ولاية وكان لكل ولاية فعلا دستور وحكومة . فنحن اذا أردنا محاكاته وجب ان تهيىء كل ولاية من ولاياتنا دستورها وحكومتها المحلية ثم تجتمع الولايات اخيراً للاتفاق على دستور الأمة قاطبة ، او بعبارة اخرى نعمد الى الصين المتحدة فنقسمها كما كانت الولايات الأمريكية مقسمة منذ قرن مضى ثم ندمجها جميعاً في حكومة واحدة ، وإنه لتفكير ولا شك منحرف عن الصواب ، وكأنما نحن ببغاوات تردد الكلمات وعيونها مغمضة عما حولها .

وهؤلاء اصحاب هذه الفكرة يسوغون تقسيم الولايات في بلادنا بقيام الولايات الأمريكية على هذه القاعدة ، وقلما يخطر لهم أن يرجعوا الى الحالة التي كانت عليها الولايات الأمريكية عند إعلان استقلالها . فهل يذكرون لم كانت هذه الولايات تتغنى بالوحدة بعد خروجها من سلطان بريطانيا العظمى ؟ إنها فعلت ذلك لأنها كانت متفرقة ولم تكن قط جماعة منتظمة في إدارة واحدة ، فرأت ان تجتمع لتصبح أمة متحدة .

والصين في هذا الصدد ما شأنها ؟ لقد كانت الصين ظاهراً منقسمة الى ثماني عشرة ولاية تضاف اليها ولايات منشوريا وسنكيانج فهي اربع وعشرون ، وتضاف اليها كذلك جيهول وسويوان وككنور وولايات شتى ذات وضع خاص بها عدا منغوليا والتيبت . وكل هذه الأقاليم كانت تابعة لحكومة المانشو المركزية خلال مائتي سنة . وكانت قبل ذلك على عهد أسرة منج متحدة بل كانت مع اقطار آسيا وأوروبة دولة واحدة في عهد أسرة يوان . فإذا رجعنا الى أسرة سانج وجدنا الولايات على رباط وثيق ووجدنا الأقاليم كذلك بعد عبور نهر اليانجزي إلى الجنوب . وقد كانت على أيام أسرة تانج وأسرة هان على رباط كهذا الرباط . فلا معنى لتجزئة الصين مع أنها لم تكن اجزاء متفرقة في تاريخها القديم .

إن هذا الشتات الذي منيت به الصين في الوقت الحاضر إنما هو ظاهرة

عارضة ، جر اليها استيلاء القادة العسكريين على اجزائها ، وهي حالة لا بد ان نعمل للخلاص منها ، ولا يصح لأي سبب من الأسباب بعد اليوم ان نتصايح بالدعوة الاتحادية « الفدرالية » كأنما نمهد بذلك لاستقرار كل قائد من أولئك القادة العسكريين في البلد الذي استولى عليه . فلن تصبح الصين أمة ذات قوة ووفر اذا نجح القادة كل منهم في تسويغ سيطرته على الإقليم الذي هو فيه .

وكل من يتصايح بتلك الدعوة فحقيقة الأمر فيه أنه طامع يمهد لاغتصاب مطمعه . فهذا تانج شيياو قابض على يونان ، وهذا شاو هنجتانج قابض على هونان ، وهذا لوينجتنج قابض على كوانجزي ، وهذا شن شيونج منج قابض على كوانتنج . . . وانها لفدرالية عسكرية هذه التي تسيطر هنا وهناك . . . ليست هي فدرالية شعب يحكم بأمره ، وما في هذه الفدرالية نفع للصين ، بل هي مأرب من مآرب الطامعين العسكريين .

ونعود فنقول ان الديمقراطية التي هي مبدأ من المبادىء الثلاثة في برنامج حزب الكومنتانج لبناء الصين هي شيء غير الديمقراطية الغربية ، وليس المقصود من دراسة تاريخ الغرب ان ننقل نسخة منه ونقفو اثره ونحن مغمضون ، بل نحن نستخدم مبدأ السيادة القومية حيث نعيد بناء الصين أمة لا سلطان عليها لغير الأمة . وعلينا ان نفتح لأنفسنا طريقاً جديداً ولا نقتدي بغيرنا عمياً عن وجوه الاختلاف فنجني على وطننا ونضر بحياة قومنا . فللغرب مجتمعه ولنا نحن مجتمعنا ، وما عندهم من العادات والعواطف لا يشبه العادات والعواطف التي عندنا ، وما من أمل لنا في إصلاح مجتمعنا وترقية شعبنا ما لم نقتبس الجديد متوخين في اقتباسه ما يوافقنا ويلائم احوالنا . . .

. . . ونحن دعونا الى تطبيق الديمقراطية حين رفعنا علم الثورة . وفكرت في الطريقة التي نحل بها المشكلة ، وهي طريقة أحسبها رأياً جديداً في المذاهب السياسية وأحسب أنها حل أساسي للمشكلة كلها ، وأوضح ما أعنيه فأعرض اولا ما اعنيه بطبقات المجتمع الإنساني .

فعلى أي شيء اقيم أقسام المجتمع الانساني ؟ على نصيب الفرد من الفطنة

والكفاية ، وبهذا ينقسم الناس الى طوائف ثلاث : الطائفة الأولى هي التي ترى مبتدئة بالرأي ، وهي صاحبة الفطنة الفائقة التي تتضح لها المسائل المتشابكة من نظرة وتلقي بالها الى الكلمة فتتبعها بالعمل العظيم . ومن ثاقب نظرها الى المستقبل وجليل عملها في الحضارة تتقدم الحضارة الانسانية . هؤلاء هم الرواد الكشافون ذوو البداهة والبصيرة النافذة .

والطائفة الثانية هي التي تتلوها في النظر والفطنة ، وليس في طاقتها ان تبتدىء وتبتدع بل هي تحاكي وتتبع وتستفيد مما عمله السابقون لها الى الرأي والرؤية .

والطائفة الثالثة هي التي لا تدرك ولا تعلم وان حاول الآخرون تعليمها ، ولكنها تعمل وتثابر على العمل ، أو بعبارة اخرى إن الطائفة الأولى هي طائفة الكشافين المستطلعين . والطائفة الثانية هي طائفة المتولين المساعدين . والطائفة الثالثة هي طائفة المنفذين المشتغلين . ويتوقف تقدم العالم على هذه الطوائف جميعاً ، فلا يصح نقصان واحدة منها . وكل أمة تشرع في تطبيق الديمقراطية يجب ان تكل الى كل فرد من أفرادها حصة : الى الرجل الذي يبتدىء بالرأي ، والرجل الذي يتبعه ويساعده ، والرجل الذي لا يرى لنفسه ولكنه يعمل ويشتغل .

وعلينا أن نفهم أن الديمقراطية السياسية ليست منحة الطبيعة ولكنها اختراع الإنسان . ويلزمنا ان نخلق الديمقراطية ونعطيها الشعب ولا نتريث حتى يحارب الشعب من أجلها ويأخذها .

والأمم الغربية طبقت الديمقراطية وحدث بعد تطبيقها ان الشعب تربى فيه شعور العداء للحكومة ، وعز عليه ان يفرق بين حق السيادة وحق الكفاية . فإن فاتنا ان نتنبه لهذا فنحن منساقون وراء الغرب على غير هداية .

وينبغي ان يكون التمييز بين السيادة والكفاية سهلا على الصين لأننا نفهمها من عبارة « آه تو » وعبارة « شوكوليانج » .

وخلاصة العبارتين ان الحكومة اذا صلحت فنحن الملايين الأربعمائة

نجعلها « شوكو ليانج » لنا ونخولها كل حقوق الدولة ، وأنها اذا فسدت فنحن الملايين الأربعمائة نتقلد حقوق الملك ونطردها ونسترد السيادة الى أيدينا .

ونحن اليوم نعرف طريقة للانتفاع بالديمقراطية وطريقة لتحويل موقف الرعية منها ، ولكن الأكثرين من الرعية لا يفقهون ، فمن خصتهم امانة الفقه مسؤولون ان يقودوا الرعية الى الطريق الأقوم حذراً من عاقبة التجربة في البلاد الغربية .

وقد انتهى علماء الغرب اليوم الى ان موقف الشعوب من الحكومة خطأ وان تغييره واجب ، ولكنهم لم يبصروا بعد كيف يكون التغيير .

وهذا الذي اهتدينا اليه . فلا مناص من التمييز بين حقوق السيادة وحقوق الكفاية والقدرة ، فيقوم أساس الحكم في الأمة على حقوق الأمة . أما ادارة الحكومة فتعهد الى خبرائها ، ولا يقف منا اولئك الخبراء موقف الأبهة والرئاسة وفخامة المناصب ، بل حكمهم عندنا حكم السواقين او حراس الأبواب او الطهاة او الأطباء او النجارين او من نحسب من ضروب العاملين ، وما دام موقفهم هذا الموقف فالحكومة تنتظم والشعب يتقدم .

وما هي خير الوسائل لتطبيق الديمقراطية ؟

إن الانتخاب هو الوسيلة التي تعم البلاد المعروفة بالبلاد الديمقراطية . فهل هو وسيلة كافية لانتظام الحكومة ؟ كلا . لأنه اشبه شيء بالآلات القديمة التي كانت عند اختراعها تستطيع ان تتقدم ولكنها لا تستطيع ان ترجع ، وانما يتم تركيب الأداة بالقدرة على الرجوع ، والوسيلة التالية لتلك الوسيلة الأولى هي التي تيسر للشعب ان يدير الاداة الى الوراء ، وأن يعزل الحكومة التي اختارها . وهاتان الوسيلتان ـ وهما الانتخاب والعزل ـ تحفظان سيطرة الشعب على حكومته وموظفيها فيبقيهم او يخرجهم حين يشاء ، ولا غنى لأداة الحكومة عن الجهاز الذي يدفعها قدماً او يردها ويثنيها الى حيث يريد .

ومسألة القانون مهمة للحكومة الديمقراطية كمهمة الموظفين ، فإذا وجد من يحكم فلا بد أن توجد مع قاعدة لحكمه ، ومن حق الامة اذا ارتضت قاعدة

للحكم ان تجعلها قانوناً وتوحي الى الحكومة بتنفيذها ، وهو ما يسمى بحث اقتراح القوانين ، ونعتبره الركن الثالث من أركان الديمقراطية . فإذا اتفقت الآراء على استنكار قانون غير نافع للشعب فمن اللازم اذن ان يملك الشعب الوسيلة التي تكفل له تعديله واتخاذ البديل الصالح منه ، ويطلقون كلمة الاستفتاء على هذا الحق او هذا الركن الرابع للديمقراطية .

وليس يجوز لنا ان نقول عن امة إنها تنعم بالديمقراطية الوافية ما لم تكن هذه الحقوق الاربعة نافذة فعلا ، وما لم يكن تطبيقها مرعياً بوسائله المقررة ، ويومئذ تتقرر السيادة الشعبية المباشرة .

إن السيطرة المباشرة على الحكومة لا تستقر حتى يتولى الشعب هذه الحقوق الاربعة (الانتخاب والعزل والاقتراح والاستفتاء) ويومئذ يصح القول باشتراك الشعب كله في حكم نفسه ، ومعنى ذلك عندنا ان الملك هو الملايين الأربعمائة ، يباشرون حقوقهم الملكية ويسيطرون على مسائل الدولة العظمى ويرجع الأمر في كل شيء الى هذه الحقوق الديمقراطية الأربعة .

مبدأ المعيشة

من محاضرات كانتون سنة ١٩٢٤

« مينج شنج شوي » هي مبدأ معيشة الشعب .

و« مينج شنج » هي كلمة طالما طرقت الأسماع في الصين ، ونحن نتكلم عن الرخاء القومي ومعيشة الشعب من أطراف الشفاه ولا نعنى بفهم المقصود منها ، ولست أرى أنها تعبر لنا عن معنى كثير . ولكننا اذا حملناها في هذا العصر ـ عصر العلم ـ الى دائرة البحوث العلمية لدراسة مدلولها من الوجهة الاجتماعية والوجهة الاقتصادية وجدنا لها مرمى كبير الدلالة .

فالمينج شنج ترمي الى تدبيرمؤونة الشعب ، وكيان المجتمع ورخاء الأمة وحياة الجماهير ، واني لمستخدم هذه العبارة الآن للدلالة على مشكلة من أكبر المشكلات التي نجمت في الغرب خلال القرن الماضي ، وهي الاشتراكية .

فمسألة المعيشة هي الاشتراكية ، وهي الشيوعية ، وهي الطوبى .

والعوامل التي تضافرت على خلق هذه المسألة هي بالإيجاز تقدم الحضارة المادية السريع ، وتطور الصناعة العظيم،والزيادةالمفاجئة في القدرة البشرية على الإنتاج .

فاستخدمت القوى الطبيعية كالبخاروالحرارة وتيارات الماء والكهرباء بديلا من الطاقة الانسانية . واستخدم النحاس والحديد بديلا من عضل الإنسان وعظامه ، وصار في وسع رجل واحد بمكنة واحدة ان يعمل عمل مائة او ألف ، واتسعت المسافة جداً بين طاقة الإنسان وطاقة المكنات ، وهو ما يسميه الغربيون بالثورة الصناعية .

وهم يطلقون هناك كلمة الاشتراكية وكلمة الشيوعية كأنهما مترادفتان ،

وقد تشملهما كلمة الاشتراكية على ما بينهما من اختلاف .

وغرضي من إطلاق مبدأ المعيشة بدلا من الاشتراكية ان اصل الى جذور المسألة واكشف عن حقيقتها وأيسر فهمها لمجرد سماعها .

فهل مبدأ المعيشة حقاً مخالف للاشتراكية ؟ إن أهم ما تشتغل به الاشتراكية هو مسائل المجتمع الاقتصادية ، او مسائل المعيشة . ومنذ تقدمت الصناعة اصبح كثير من العمال قد نزعت منهم أعمالهم وتعسر عليهم كسب ارزاقهم ، وجاءت الاشتراكية تحاول علاج هذه الحالة فتلاقت مسائل المجتمع ومسائل الاقتصاد ودخلت كلتاهما في نطاق مسألة المعيشة وهي محور الاشتراكية .

الا ان الامم اليوم تختلف في مذاهبها الاشتراكية وفي مقترحاتها لحل مشكلاتها ، فهل نحسب اذن ان الاشتراكية وجه من وجوه مسألة المعيشة ، او أن مسألة المعيشة وجه من وجوه الاشتراكية ؟

إن دعاة الاشتراكية الأولين كانوا على الأغلب دعاة أخلاق وكان أتباعهم اصحاب ضمائر وآداب . ولم يكن احد يقاوم الاشتراكية غير اصحاب الأموال الذين رانت على نفوسهم الأثرة فلم يكترثوا لما يصيب الجماهير . وإذا كانت المشكلة الاجتماعية تدور على توفير الرزق للعديد الجم من بني آدم كان ذوو النظر والصلاح القائمين بالدعوة الاشتراكية اهلا للعطف والتأييد من الكثيرين . ثم راج المذهب فأخذت الأحزاب الاشتراكية في الظهور ، واطرد نموها وانتظامها وسرت دعوتها الى كل امة .

غير ان الاشتراكيين الاوائل كانوا جميعاً طوبيين يطمحون الى بناء دنيا مثالية يظللها السلم والسعادة ولا تسمع فيها شكاية ، ولم يصفوا للناس طريقة فعالة لمنع الشكاية والشقاء .

وهنا جاء ماركس فصرف عقله وذكاءه ومعارفه وتجاربه الى تمحيص هذه الأمور ودراستها ، وبنى آراءه الجديدة جميعاً على القواعد الاقتصادية ، وأنحى على الاشتراكيين السالفين لتعويلهم على ضمير الفرد وشعور الجماعة في حل

مشاكل الاقتصاد التي لا تجدي الأخلاق ولا تجدي العواطف في حلها ، وقال ان المهم قبل كل شيء هو درس أطوار الاجتماع ، وصدر في مبادئه عن رعاية مطلقة للوقائع دون النظريات والأمثلة العليا .

ثم تشعبت المذاهب الاشتراكية بعد ماركس الى شعبتين : شعبة الطوبيين وشعبة العلميين ، وهؤلاء ينادون باستخدام الاساليب العلمية لعلاج المشكلات الاجتماعية ، فكل دراسة في هذا العصر الذي تتقدم فيه الحضارة المادية على عجل وتتعاظم فيه قوة العلم ينبغي ان تقام على القواعد العلمية كي تثمر وتفيد ، ولا يحق لنا ان نترقب حلاً لمشكلة من المشكلات قبل تناولها بالبحوث العلمية .

إن ماركس يؤكد الجانب المادي في دراسته لمسائل المجتمع ، ومتى تناولت القوى المادية فأنت مواجه مسألة الانتاج قبل كل شيء . . . وحيث لا يوجد افراط في الانتاج لا توجد بالبداهة ثورة صناعية ، وعلى هذا يحل الانتاج المحل الأول من الأهمية في علم الاقتصاد الحديث ، فإذا شئت ان تفهم احوال الاقتصاد الحديثة فلا معدى لك عن فهم الوقائع التي تتعلق بالانتاج .

وقد اصبح الانتاج على نطاق واسع ميسوراً في العصر الحديث بالعمل والمكنة ، او باشتراك رأس المال والمكنات واستخدام الايدي العاملة ، وتذهب ارباح هذا الانتاج في نطاقه الواسع على الأكثر الى أصحاب الأموال فلا يجني العمال منها غير قسط ضئيل .

ولهذا تصطدم مصالح أصحاب الاموال ومصالح العمال على الدوام . وتنفجر حرب الطبقات حين لا يوجد الحل المرضي بين الفريقين . ويعتقد ماركس ان حرب الطبقات لم تأت تبعاً للثورة الصناعية ، بل كان التاريخ الماضي كله قصة حرب بين الطبقات : او بين السادة والعبيد ، او بين أصحاب الارض والأكارين ، او بين النبلاء والعامة ، او بالإيجاز بين كل غاصب وكل مغصوب ، ولن تكف هذه الحرب حتى تبلغ الثورة الصناعية مداها من النجاح .

وواضح من ذلك ان ماركس يعتبر حرب الطبقات ضرورة من ضرورات

التقدم الاجتماعي ، وإنها في الواقع هي القوة الدافعة لذلك التقدم ، فحرب الطبقات هي السبب والتقدم الاجتماعي هو النتيجة .

على أن التوفيق بين معظم المصالح الاقتصادية في المجتمع اذا امكن فمعظم الناس ينتفعون بهذا التوفيق والمجتمع يتقدم ، ونحن لا نحاول التوفيق بينها الا لعلاج هذه المشكلة : مشكلة المعيشة وتوفير المؤونة .

ومن قديم الزمن بذل الإنسان جهده لحفظ كيانه ، وكان صراع الانسان لاستدامة وجوده باعثاً للتطور الذي لا ينقطع في أحوال المجتمع ، وذلك هو قانون التطور الاجتماعي ، فليست حرب الطبقات باعث التقدم الاجتماعي ، بل هي داء يتعرض له المجتمع أثناء التطور ، وعلة الداء هي العجز عن توفير الرزق ، والحرب هي نتيجة هذا الداء .

وكل ما استفاده ماركس من بحوثه انه علم بالأدواء التي يتعرض لها المجتمع اثناء تطوره ، فهو مشخص امراض **Pathologist** ولا نستطيع ان نقول عنه إنه فزيولوجي مشرح لوظائف البنية . وقد وجد خلال درسه لمشكلات المجتمع علة واحدة من علله ، فلم ينكشف له قانون التقدم الاجتماعي ولا القوة الرئيسية في مجرى التاريخ .

وقد استقر حزب الكومنتانج منذ زمن على طريقتين لتنفيذ مبدأ المعيشة القومية : إحداهما التسوية بين ملاك الأرض ، والأخرى تنظيم رؤوس الأموال ، وهما كفيلتان بحل مشكلة المؤونة في الصين .

ومن البديهي ان امم العالم المختلفة مضطرة الى اتباع طرق مختلفة لحل هذه المشكلة حسب اختلاف الأحوال فيها .

وكثير من أساتذة الصين الذين استوعبوا معارف الغرب قد حسبوا أننا نعالج مشاكلنا مقتدين في العلاج بغيرنا ، ولم يلتفتوا الى الخلاف الذي قام ولا يزال قائماً بين أحزاب الأمم الغربية حول مشكلات بلادهم . فالماركسيون يحلون جميع المشكلات الاجتماعية بالدكتاتورية العمالية وجميع مشكلات الاقتصاد والسياسة بالثورة ، وهم فريق التطرف الأقصى ، وغيرهم من الاشتراكيين

يميلون الى الأساليب السلمية واستخدام العمل السياسي والتفاهم بالمفاوضة والمساجلة ، وبين الفريقين خصام شديد في اوروبة وأمريكا ، ينحو فيه كل فريق منحاه .

وعند المقارنة بين هذا المنحى وذلك نرى ان ماركس يحل العقدة بقطعها ، وان الآخرين يفكون عقدتها برفق وتؤدة . فهل نريد نحن ان نحل عقدتنا بحد السكين او بالرفق والتؤدة ؟

ينبغي ان نذكر ان مبدأ المعيشة الذي يدعو اليه الكومنتانج ليس المطمح المثالي بل هو القوة الدافعة في المجتمع ، وهو المحور الذي تدور عليه جميع الحركات التاريخية ، والفرق بين الشيوعية ومبدأ المعيشة ان الشيوعية غاية مثالية للمعيشة ، ولكن مبدأ المعيشة هو الشيوعية الواقعية ، فليس بين المذهبين فرق أصيل ، وإنما الفرق في أساليب التطبيق .

وبين هذه الأحوال التي تعانيها الصين نسأل : أية الوسائل هي التي نختارها لعلاج مسألة المعيشة ؟

لن تكون هذه الوسائل نظريات فارغة بل وقائع ماثلة ، ولن تكون وقائع ماثلة في البلاد الاجنبية ، بل في صميم بلادنا ، فلا اهتداء الى خطة قديمة ما لم نكن على علم بالوقائع الصحيحة ، فما هي الوقائع الأساسية عندنا ؟

لنعلم أننا جميعاً اصحاب حصة في هذه الفاقة التي تبتلى بها الأمة الصينية ، فليس عندنا طبقة غنية خاصة ، بل هناك فاقة عامة ، وهذا التفاوت بين الغني والفقير انما هو اختلاف في طبقة واحدة ، او اختلاف في درجة الفاقة .

والواقع ان صاحب رأس المال الصيني بالقياس الى نظرائه الغربيين فقير ومن عداه من أبناء الشعب فقراء مدقعون ، واذا كان اغنياؤنا فقراء في العالم الواسع فالأمة الصينية امة فقراء ، وليس بينها غني كبير ، وكل ما فيها فقر محتمل وفقر لا يطاق . فكيف السبيل الى التسوية بينهم والى الخلاص من براثن الفقر الشديد ؟

إن التغير الاجتماعي والتطورات في رأس المال تبدأ عادة من مالك الارض الى التاجر الى صاحب المال . وقد نشأ ملاك الأرض من عهد الإقطاع ، ويمكن أن يقال ان أوروبة لم تملك بعد حريتها من النظم الإقطاعية في حين ان الصين قضت على نظام الإقطاع فيها من عهد اسرة شين .

وكان النبلاء الذين يحوزون الارض هم الأغنياء حين كان عهد الإقطاع قائماً ، ومن لم يكن في حوزتهم ارض فهم فقراء ، وقد مضى نحو الفي سنة على انتهاء عهد الاقطاع في الصين ، ولا تزال الحالة باقية كما كانت لقلة التقدم في أساليب الصناعة والتجارة . وخلت الصين من كبار الملاك ولكنها لم تخل من الملاك الصغار ، وسارت العلاقات في سلام بين الملاك الصغار وآحاد الشعب ، الى ان سرت تيارات الحياة الغربية الى الصين في الزمن الأخير فسرى التغيير الى كثير من النظم ، وكانت مسألة الارض اول ما أصابه التغيير من جراء اتصالنا بالبلاد الغربية ، فشاعت المقامرة والمضاربة بالارض وارتفعت هذه المضاربات بأثمان الارض ارتفاعاً لا يطمأن اليه .

ان الغربيين لم يهتدوا الى طريقة يعالجون بها هذه الشرور التي تتعلق بالارض . فإذا أردنا حل هذه المشكلة فلنبدأ الآن ولا ننتظر حتى يتقدم تطور التجارة والصناعة فلا يسلس لنا مقادها بعد ذلك .

واليوم والمؤثرات الغربية تتوالى وأحوال الصناعة والتجارة تدخل في اطوارها المتجددة،ننظر حولنا فنرى التفاوت يتباعد بين ملاك الارض كما يتباعد بين ذوي الأموال والفقراء ، ووجهتنا من دعوة الكومنتانج هي التقريب والتسوية بين موارد الرزق في المجتمع ، فهي غاية كفاية الاشتراكية او غاية الشيوعية ، ولكن طريقة التطبيق هي موضع الاختلاف .

وخطوتنا الاولى هي علاج مشكلة الارض . ونصف المشكلة كلها محلول اذا وفقنا في هذا العلاج . فأصحاب رؤوس الأموال في الصين لا يزالون ملاك ارض لا ملاك مكنات ومصانع . وينبغي من هنا ان يسهل علينا العمل على التسوية بين الملاك وتنظيم رأس المال وان نلتمس لنا مخرجاً من مشكلة الملكية .

ولا يكفي تنظيم رأس المال إذا أردنا ان نحل مشكلة المعيشة وان نستريح طويلا بعمل حاسم . فقد كان فرض الضرائب على الدخل احدى الوسائل التي لجأ اليها الغربيون لتنظيم رأس المال . فهل ترونهم حلوا مشكلة المعيشة ؟

إن الصين لا تشبه غيرها من الأمم ، ولا يغنينا هنا ان نعمل على تنظيم رأس المال .

فلأمم الأخرى غنية والصين فقيرة ، والأمم الاخرى يفيض انتاجها عن حاجتها والصين لا تنتج ما يكفيها . فلا يكفي الصين تدبير رؤوس الأموال الخاصة ، بل عليها ان تدبر للدولة كلها رأس مالها ، وما العمل والأمة اليوم ممزقة الأطراف ؟ وكيف السبيل الى تدبير رأس مال للدولة ؟

يخيل الينا انه ما من سبيل الى وجهة صالحة ،او يُخيلُ الينا انه ما من امل في ارتقابها بعد حين .

مصانع الدولة : ويومئذ يتسنى لنا ان نجتهد لتحقيق رجاء كنفشيوس في الأسرة القومية الكبرى .

وكل كلام عن مبدأ المعيشة فحواه ان يحصل الملايين الأربعمائة على طعامهم بالثمن القليل ، فلا تعتبر مشكلة المعيشة محلولة حتى يتوافر الطعام الصالح بثمن ميسور .

من امثلة الصين : « سبعة اشياء تشغل بالك حين تفتح بابك في الصباح : الوقود والأرز والزيت والملح والفول والخل والشاي ! » .

وقد كانت الصين من اقدم العصور امة زراعية صناعتها الكبرى لتحصيل القوت هي الزراعة ، وقوام الزراعة هم الفلاحون الذين ينهكهم العمل وتتوقف على حمايتهم بقوة القانون جودة المحصول ووفرة الارزاق . ومن قسمة الصين انها خلت من كبار الملاك ولا يزال تسعة اعشار أبنائها بغير ارض يملكونها ، فأكثر الأرض يملكها اناس لا يزرعونها بأنفسهم ، ومن العدل ان يزرع الفلاح أرضاً يملكها وينتفع بمحصولها . الا ان الفلاحين اليوم يزرعون لغيرهم ويذهب من

محصولهم اكثر من نصفه الى ايدي الملاك ، وبحل هذه المشكلة يرتبط حل مشكلة المعيشة كلها . فقد دلت الاحصاءات الأخيرة على ان الزارع لا يحصل من ارضه على اكثر من أربعين في المائة ، ويذهب سائره الى المالك الذي لا يزرع .

وليس يكفي عند تناول مسألة الانتاج الزراعي ان نجتهد لتحرير الفلاح بل علينا مع هذا ان نجتهد لمضاعفة الانتاج بالوسائل العلمية ، وخلاصتها استخدام المكنات والاستعانة بالأسمدة والمخصبات ومناوبة الغلات والمحاصيل واستئصال الآفات وتنظيم المعامل والتصدير واتقاء الازمات .

وعلينا ان نسأل : هل تعتبر مشكلة المعيشة محلولة اذا تحققت جميع هذه الجهود ؟ .

أبادر فأقول كلا . اذ ليست يسرة الانتاج مغنية عن تنظيم التوزيع والتقسيم ، ويتعذر الإنصاف في التوزيع والتقسيم مع عدم الاتحاد .

الا اننا نتعزى بأن المحنة التي نحن فيها عارض زائل ونؤمن باتحادنا في المستقبل ، واننا سنحل مشكلة المؤونة بتنمية رأس المال وترقية الصناعة . فنبدأ من المواصلات من سكك حديدية وطرق نهرية ، ثم نفتح المناجم التي تخفيها الأرض مع الأسف على وفرتها في ارض الصين ، ثم نلاحق ذلك ببناء المصانع والمعامل ، وعندنا وفرة من الأيدي العاملة ولكننا لقلة المكنات لا نقوى على منافسة الأمم الاخرى . والسلع التي تستنفدها الصين تصنعها الأمم الاخرى وتتولى تصديرها الينا لحسابها . فلا جرم تستنزف حقوقنا الاقتصادية ومرافقنا وتمتصها شيئاً فشيئاً ولا نستطيع نحن ان نوقف هذا الدم المنزوف ونسترد حقوقنا ومرافقنا الا اذا سخرنا قوى الدولة لترقية الصناعة واستخدام المكنات في الانتاج وتوفير العمل لجميع الايدي الصالحة له في الامة . ومتى اشتغل العمال جميعاً واتقنوا ادارة المكنات والآلات لإنتاج السلع تجدد للصين ينبوع عظيم للثروة . ولا محيص من ولاية الدولة لهذا العمل ، لأن الإشكال فيه على الأمراء والوطنيين والأجانب يوشك ان يسفر عن طبقة مفرطة في الغنى يعقبها التفاوت البعيد بين حظوظ الناس من الغنى .

لا محيص اذن من حصول الدولة على رأس مال ، وما معنى ذلك ؟ معناه البسيط انشاء الصناعة القومية ، وعلى الدولة ان تعطي القدوة في مشروعات الأعمال الكبرى وان تدير انواعاً من المكنات المنتجة التي تدخل في ملك الدولة ، وهي اذا تمكنت من تنمية رأس المال القومي ونفع الامة بثمراته فقد امكنها ان تتجنب خصومات رأس المال .

وسيكون دخلنا عظيماً من الصناعات الثلاث ! صناعة المواصلات وصناعة المناجم وصناعة المعامل ، وستكون مزاياها ومنافعها مشاعة بين الأمة قاطبة ، وسيحصل كل صيني على حصة من أرباح رأس المال فلا يضيره رأس المال كما يضير اناساً من ابناء البلاد الأجنبية التي ينحصر القسط الكبير من رؤوس اموالها بين الأيدي الخاصة .

ونعود فنقول ان مبادئنا الثلاثة تفيد لأجل هذا حكم الشعب بالشعب لاجل الشعب . وإن الدولة ملك الشعب لأن الشعب كله يشرف عليها ويجني ثمرات اعمالها ، وبهذا تصبح للشعب حصة في كل شيء ولا يكون قصارى الأمر انه صاحب حصة فيما تنتجه الملكية الخاصة ، ونعني بها ملكية رأس المال ، لأن الإنتاج ينظر الى هدف واحد في هذه الحالة : وهو الربح .

ومتى كان الربح هو الغاية فنجاحنا في تخفيض سعر الأقوات يتحول الى طلب الربح من وراء التصدير الى الخارج حيث ترتفع اثمان الطعام ، وحسب صاحب المال الخاص ان ينظر الى الربح ليحفزه الطمع الى التصدير ولو كانت المجاعة تفني الكثيرين .

هذا النظام من نظم التوزيع لن يحل مشكلة المعيشة ، فتحقيق الـ (مينج شنج) مستحيل ما لم نشفع تدبير مسألة الانتاج بتدبير مسألة التوزيع ، وما لم نجعل القبلة توفير الطعام لا توفير الأرباح .

فالقضاء على نظام رأس المال حتم لا هوادة فيه ، ونحن نعلم ان موارد الصين كافية لإطعام اهلها في الوقت الحاضر ، ولكننا نرى الموارد تنقص عاماً بعد عام لأن الطعام يتسرب إلى الخارج حيث يجلب الربح الجزيل لفئة قليلة من

أصحاب الأموال .

ومدار المبدأ الذي يتصل بمعيشة الأمة ان يحصل الناس على اقواتهم لا ان تمتلىء الخزائن بالأرباح ، ويضطرنا هذا الى خزن الفائض سنة قبل المحصول الجديد فلا نسمح بالتصدير حتى نضمن الكفاية بعد العام القابل . . .

فالحد الفاصل بين نظام مبدأ المعيشة ونظام رأس المال ان رأس المال يجعل الربح غايته ، وأن مبدأ المعيشة يجعل الغاية تيسير القوت لجميع ابناء الامة ، ومثل هذا المبدأ قمين ان يقضي على شرور النظم الاجتماعية القديمة .

ولطالما ردد الاقتصاديون ان مطالب المعيشة ثلاثة : غذاء وكساء ومأوى . وتجاربي الطويلة تدفعني الى اضافة مطلب رابع كبير الخطر في هذا الصدد ، وهو المواصلات السهلة ، وحل المشكلة ـ مشكلة المعيشة ـ يستلزم ان يتمكن الناس جميعاً من تحصيل هذه المطالب الأربعة ولا يغنيهم عن ذلك تخفيض اسعارها . . . وحيث يراد ان تتضافر المساعي على إبداع (دنيا جديدة) لا يجوز ان يوجد احد يعوزه مطلب من هذه المطالب الاربعة .

والحكومة هي التي تتولى حتما تزويد الشعب بهذه المطالب ، ويجب ان يكون من حق كل احد ان يحاسبها على تقصيرها ، فعلى عاتقها يقع عبء العمل لتزويد الشعب بضروراته المعيشية .

وعلى الشعب ولا شك تبعات قبل الحكومة واضحة الحدود . فعلى الفلاح ان ينتج مواد الغذاء ، وعلى الصانع ان ينتج الأدوات والآلات ، وعلى رجل الأشغال ان يوازن الكفتين بين العرض والطلب ، وعلى العالم أن يفرغ للعلم ذكاءه ودرايته ، وعلى كل بالإجمال ان يعرف واجبه ويقوم بأدائه على الوجه الامثل .

والهيئة السياسية او القوة السياسية ، لازمة لانجاز هذه المهام من تدبير المؤونةواتقاء خطر المنافسة الأجنبية ، ولكن الصين اليوم ـ وهي اسيرة المعاهدات ـ لم تفقد سياستها وحسب ، ولم تعجز عن حماية صناعتها وكفى ، بل هي قائمة بحماية الصناعة الأجنبية ، وقد حدث هذا من جراء التمدد

والتوسع في رؤوس الأموال ، كما حدث من جراء التقدم الصناعي ومن تفوق الأجانب علينا في ميادين الاقتصاد ، وكل هذه المزايا تسندها من ورائها قوى الدول السياسية .

وإنهم اليوم ليعاملون الصين كأنها سوق مستعمرة ويقبضون بأيديهم على حقوق السيادة الصينية وعلى شؤونها المالية ، فلا يسعنا وهذه حالهم وحالنا ان نتفرد بعلاج مبدأ المعيشة . وعلينا ان نستولي على الجانب السياسي ونلغي المعاهدات الجائرة ونسترد مكوس الموانىء من الأيدي الأجنبية ، ونستطيع بعد ذلك ان نزيد المكوس وان نتبع خطط الحماية الجمركية ، وان ندفع سيل الواردات المتدفق على بلادنا كي يتسع المجال امام صناعتنا للتطور والانتشار .

وعلى الصين ان تأخذ بناصر السلع الوطنية وتقاطع السلع الأجنبية ، ولطالما اثرنا الثائرة حول هذه المسألة ولم نظفر بمعاونة من الأمة فأخفقت الحملة وحبط السعي . وهذا مع صعوبة النجاح حتى في حالة التعاون بيننا وبين الأمة ، لضعف حكومتنا وقصور مساعيها السياسية .

فليس في طاقتنا ان نسيطر على مكوسنا البحرية وهي بين الأيدي الأجنبية ، وليس في طاقتنا ان نزيد مكسا من المكوس ، وليس في طاقتنا من اجل هذا ان نرفع ثمن المنسوجات الأجنبية ونهبط بتكاليف المنسوجات الوطنية ، وما دامت المنسوجات التي ترد من الخارج اقل ثمناً من منسوجاتنا فليس في طاقتنا ان نحول الشعب من شراء الصنف الأجنبي الى شراء الصنف الوطني بأكثر من ثمنه ، وغير مجد ان نهيب بالناس ان يجتنبوا الأكسية الأوروبية ولو بذلك ينقض قواعد الاقتصاد في حياة كل فرد من عامة الأفراد .

لا مناص اذن من الاعتماد على القوة السياسية لتدبير الكساء وتعويد الأمة ان تلبس من منسوجات بلادها وتجتنب المنسوجات الواردة من البلاد الخارجية .

لوازم المعيشة

من كتاب تنمية الصين الدولية

The International Development of China

في البرامج الأربعة السابقة حصرت القول في إنشاءالصناعات الأساسية التي تعتبر مفاتيح الصناعة .

وفي هذا البرنامج سأحصر القول في طائفات من الصناعات الأصيلة التي تحتاج الى المعونة الأجنبية ، واعني بالصناعات الأصيلة تلك الصناعات التي تزود كل فرد وكل أسرة بضرورات العيش ومرفهاته .

وغني عن القول أن قيام الصناعات الأساسية او مفاتيح الصناعة سيتبعه من تلقاء نفسه نشوء الصناعات المختلفة الأخرى خلال اجزاء البلاد في فترة قصيرة . فقد حدث مثل ذلك في أوروبة وأمريكا بعد الثورة الصناعية .

ولا شك ان قيام الصناعات الاساسية يتكفل بتدبير العمل الكثير من الايدي ويرفع مستوى المعيشة بين العمال ، وعند ارتفاع الأجور ترتفع كذلك اثمان الضرورات والمرفهات ، ومقصدنا من هذا البرنامج هو المساعدة على خفض تكاليف المعيشة في الصين اثناء نشأتها الدولية ، بحيث يحصل الشعب على الضرورات والمرفهات وعلى الأجور الحسنة في وقت واحد .

من المتداول بين الناس ان الصين ارخص البلاد واقلها كلفة ، وهو سوء فهم يرجع الى تعود الناس ان يقيسوا كل شيء بقيمة العملة ، ولكننا حين نقيس تكاليف المعيشة بما يلزمها من العمل نرى ان الصين اغلى البلاد واعظمها كلفة بالنسبة الى العامل . فان العامل اليدوي يقضي في عمله من أربع عشرة الى ست

عشرة ساعة كل يوم ليكسب قوته ، وليس في وسع كاتب الدكان او معلم المدرسة ان يكسب أكثر من مائة دولار في السنة ، ويحتاج الزارع لسداد الضريبة والإيجار ان يعيش عيشة الكفاف من يده الى فمه كما يقال .

إن العمل رخيص جداً وكثيراً جداً ، ولكن مطالب المعيشة لا تعدو الكفاية العاجلة كل سنة ، فإذا وقعت الأزمة في إحدى السنوات وقع كثيرون في الضنك والجوع ، وهذه الحالة التعسة التي يعانيها فقراء الصين نتيجة محتومة لنقص التطور وسذاجة الوسائل وتبديد الجهود العاملة .

وتعالج هذه الحالة علاجاً حاسماً بالاستعانة برؤوس الأموال الأجنبية وبالخبرة الفنية من الخارج لمنفعة الأمة الصينية كافة . اذ كانت أوروبة وامريكا قد سبقتانا الى التطور الصناعي بنحو مائة سنة ، فاذا اردنا اللحاق بهما في وقت قصير وجب علينا ان نستعين بما عندهما من الأموال والآلات ، واذا تعذر الحصول على رأس المال الاجنبي فمن الواجب على الأقل ان نحصل على الخبراء والمخترعين الذين يصنعون لنا آلاتنا ، فلا مناص لنا بأية حال من الاعتماد على الآلات لمساعدة قوانا اليدوية الهائلة على تنمية مواردنا التي لا تحصى .

وتتلخص ضرورات المعيشة العصرية في خمسة مطالب هي :

١ ـ صناعة الأطعمة .
٢ ـ صناعة الملابس
٣ ـ صناعة المساكن
٤ ـ صناعة المتحركات والناقلات
٥ ـ صناعة الطباعة .

١ ـ صناعة الأطعمة

فصناعة الأطعمة تندرج تحت هذه العناوين : وهي (١) انتاج الطعام و (٢) تخزينه ونقله و (٣) إعداد الغذاء وحفظه و (٤) توزيعه وتصدير فائضه .

فالطعام الإنساني يأتي من الأرض والهواء ، وأهمه وأكبره غذاء الهواء

وقوامه الأوكسجين . وهو غذاء تدبره الطبيعة ولا يحتاج منا الى تدبير الا ما كان من قبيل تدبير الهواء للطيار والغواص ، فهو غذاء مباح لكل طالب ولا يلزمنا ان نبحثه في هذا المقام .

والغذاء من الماء ـ وقد المعت اليه عند الكلام على انشاءموانيءالصيد وسفنه ـ موضوع لا نتعرض له هنا اكتفاء بالكلام على الصناعات التي تتوقف على المعونة الأجنبية .

إن الصين بلاد زراعية ، اربعة اخماسها على وجه التقريب مشتغلون بانتاج الطعام . وقد عرف الزارع الصيني بالمهارة في استخراج المحصول ، وفي وسعه ان يحصل من الأرض على اكثر ما تعطيه ، ولكن الصين تتخللها اراض واسعة في الاماكن المعمورة متروكة بوراً لسبب من الأسباب ، فمنها ما يترك لقلة الماء ، ومنها ما يترك لكثرته ، ومنها ما يترك عمداً لتمكين المحتالين من المغالاة بالاجور والأثمان ، وان الأقاليم الثمانية عشر وحدها لتقوم اليوم بمعيشة اربعمائة مليون .

الا ان مجال الزيادة والتنمية متسع اذا استصلحت الأرض البور وحسنت وسائل الانتاج في الارض المزروعة ، وينبغي ان نحمي الزراع ونشجعهم بالقوانين الحرة التي تكفل لهم ان يجنوا ثمرات عملهم ، وينبغي مع ذلك ان نتوفر على خطة نافعة في الوقت نفسه لنشأة الصين الدولية فيما يتعلق بانتاج الطعام . وهذه الخطة النافعة تقوم على مساحة الارض وإقامة المصانع لإخراج ادوات الزراعة الحديثة .

فالصين لم تمسح قط مساحة علمية ولم تعمل لها قط خريطة وافية . فكانت ادارة الارض فوضى وتقرير الضرائب عليها جزافاً بغير ضابط ، مما يزيد المصاعب على الفلاحين والزراع المساكين ، ومن ثم كانت مساحة الارض كيفما كانت الأمور اول ما تشرع فيه الحكومة ، وهو عمل لا يتم بغير المعونة الأجنبية لحاجته الى الأموال والخبراء ، ولهذا نقترح ان تتولى هذا العمل منظمة دولية تجمع نفقاتها من قرض يعقد ويعين على تنفيذ المشروع بما يلزمه من الخبراء

والأدوات ، وندع للمختصين ان يقرروا تكاليف المشروع وموعد انجازه ونطاق معداته واستخدام الطيارات له او غيرها من الوسائل والأساليب .

فيحفظ الطعام تارة بمعالجته بالملح وتارة بحرارة الشمس ، وينبدر ان تستخدم العلب والمصانع لهذا الغرض . ورأيي ان تبنى سلسلة من معامل الارز في جميع الحواضر الكبرى بوادي اليانجزي والصين الجنوبية حيث قوام الغذاء من الارز ، ويحسن ان تبنى اربعة معامل في كل مدينة الى شمال وادي اليانجزي حيث قوام الغذاء من القمح والشوفان وبعض الحبوب الاخرى ، وتجعل هذه المعامل جميعاً في كفالة ادارة واحدة للتوفر على التدبير والقصد في النفقة ، ويوكل الى المختصين تقدير الاموال الضرورية لهذا المشروع بالتفصيل .

ومن اللازم حفظ الاغذية من الفاكهة واللحم والسمك بوسائل التبريد والتعليب ، وسيكثر الطلب على القصدير عند انشاء صناعة التعليب ، وهي صناعة ضرورية ومربحة ، ويحسن ان تقام معاملها الى جوار مناجم الحديد والقصدير ، ففي الصين اماكن شتى يوجد فيها الفحم والحديد والقصدير على مقربة ويتهيأ من ثم تحضير المواد والخامات للمعامل ، ويحسن ايضاً ان تجمع معامل التعليب ومعامل القصدير في صناعة واحدة لتيسير النفقة والتنظيم .

التوزيع والتصدير

والمعروف عن الصين انها لا تعدم الغذاء في السنوات الطيبة ، ومن امثلتها الشائعة ان الحرث سنة يدبر الحاجة ثلاث سنوات ، وقد تعود الناس في الأقاليم الغنية ان يخزنوا الأطعمة ثلاث سنوات وأربعا من قبيل الحيطة للسنوات المجدبة .

ولكن التنظيم المقترح خليق متى تم ان يغني الشعب عن الحيطة لأكثر من سنة واحدة وان يسمح له بتصدير الفائض الى البلاد الخارجية ، ويحسن ان يوضع التوزيع والتصدير مع الحفظ والتخزين في رعاية ادارة واحدة ، فينقل النائض الى مخازن المدن الكبرى ويدخر منه ما يكفي لسنة واحدة ، ويباع الطعام

بتكاليف انتاجه لافراد الشعب ، ثم يرسل الفائض الى البلاد الخارجية حيث يطلبون ويبذلون فيه الأثمان العالية ، وبهذه المثابة ينتفع بالطعام الفائض بدلا من اضاعته سدى جرياً على المتبع في نظام الحجر على التصدير ، ولا شك ان هذا المورد خليق ان يعتمد .

ونجري مع مساحة الارض بحوث جيولوجية في وقت واحد للقصد في النفقة ، ومتى تمت المساحة وتمت البحوث ووضعت الخرائط الدقيقة لكل اقليم فمن المستطاع يومئذ ان نصحح تقدير الضرائب على الارض المزروعة والأرض المستصلحة وأن نقرر ما تصلح على الأرض البور من اغراض الزراعة او المرعى او غرس الغابات وحفر المناجم ، وان نؤجر كلا منها لاستغلاله في احسن الأغراض التي يصلح لها ، ونخصص الفائض من محصول الضرائب لسداد القروض الأجنبية .

ولدينا عدا الثماني العشرة الاقاليم اراضي واسعة للزرع والمرعى بمنشورية ومنغولية وسنكيانج ، فضلا عن اراضي المرعى الواسعة في التيبت وكوكونور ، ويمكن تثميرها على سعة بأسلوب التقسيم الجماعي الذي اشرت اليه في برنامجي الاول .

اما إقامة المعامل لصنع آلات الزراعة وادواتها فان الحاجة اليها تعظم كلما مضى العمل في الزراعة والاستصلاح ، وايسر لنا ان نصنعها في بلادنا من استيرادها من البلاد الخارجية ، لكثرة الايدي العاملة عندنا ووفرة الحديد والفحم في ارضنا ، ولا بد لذلك من تخصيص مقادير كبيرة من رؤوس الاموال تنفق على المصانع التي يحسن ان تقام في مراكز الصناعة او على مقربة من مناجم الحديد والفحم ، حيث توجد الايدي العاملة وتوجد الخامات .

التخزين والتصدير

والحبوب اهم مواد الغذاء التي تخزن وتصدر وهي اليوم تخزن بمقادير قليلة لانها اذا خزنت بمقادير عظيمة تعرضت للسوس والتلف والآفات الجوية ، فلا

تخزين الا اذا قل المقدار وتعهدته العناية الدائمة مدة من الزمن .

وتصديرها كذلك باهظ النفقة لانها تنقل على الأكثر محمولة على الأكتاف ، ثم تتعاورها وسائل النقل التي لا نظام لها متى وصلت الى البحار .

فإذا احسنت اساليب التخزين والتصدير توفرت لنا ثروة كبيرة . ورأيي في هذه المسألة ان تبنى خلال الديار سلسلة من مخازن الحبوب وان يصنع لها اسطول خاص في المياه المختلفة تتولى بناءه مصلحة التنمية الدولية ، ويعهد الى المختصين بتقدير رأس المال اللازم لهذه المشروعات وتعيين مواضع التخزين . . .

اعداد الغذاء وحفظه

وإلى اليوم يجرى اعداد الغذاء وحفظه على الأساليب البدائية القليلة ، لسداد أقساط الديون وفوائدها .

وغير ميسور لنا ان نتمم صناعات الأطعمة دون ان نعنى عناية خاصة بمحصول الشاي وفول الصوية ، فإن شراب الشاي معروف جداً بين الأمم المتحضرة وفول الصوية آخذ في الاشتهار بمزاياه الغذائية بين الباحثين العلميين وخبراء الحكومات المنوط بهم تدبير الطعام . والشاي اصح الأشربة وأطيبها للناس ينتج من الصين وتقوم على زرعه وتحضيره صناعة من أهم الصناعات الوطنية ، وقد مضى زمن كانت فيه الصين مصدره الوحيد في انحاء العالم ، ثم نازعتها إياه اليابان والهند . ولكن الشاي الصيني لا تزال له ميزته على محصولات البلاد الاخرى . اذ الشاي الهندي مفرط في الحموضة والشاي الياباني تعوزه النكهة الشهية . فأفضل أصناف الشاي ما يخرج من الصين منبته الأول . ولم تخسر تجارة الشاي الصينية الا من جراء غلاء التكاليف اللازمة لإنتاجه ومنها الضرائب المحلية وضرائب التصدير ونقص وسائل الزراعة ، وليس أيسر من استرداد مكاسب هذه التجارة متى رفعت الضرائب واتبعت الوسائل الحديثة في زرعه . ورأيي ان تبنى في اقاليم الشاي معامل حديثة لتحضير الشاي بالآلات بدلا من تحضيره بالأيدي كما يحصل الآن ، وبهذا تقل التكاليف وتزداد الجودة ،

واذ كان اقبال العالم على الشاي في ازدياد ولا سيا بعد تحريم الخمر في الولايات المتحدة فالمشروع الذي يقوم على تحسين الصنف وتيسير ثمنه مشروع جزيل الربح بغير مراء .

وقد عرف الصينيون قديماً مزية فول الصوية بديلا من غذاء اللحم وعول عليه الصينيون واليابانيون قواماً للتغذية منذ الوف السنين . وازمة اللحوم تحس اليوم في البلاد التي تعول عليها فلا بد من حل لعلاج هذه الأزمة ، ولهذا اقترح في برنامج التنمية الدولية ان نصدر هذا اللحم الصناعي ومعه مستخرجات اللبن الصناعي والزبدة الصناعية لتصديرها الى اوروبة وامريكا ، وان نستعد لتصدير هذه الاصناف باقامة المعامل التي تخرج للغرب الاغذية النتروجينية الرخيصة ، وان نستبدل هذه المعامل بالصناعات اليدوية تجديداً للصنف واقلالا للتكاليف .

صناعة الملابس

ان المواد الأصيلة لصنع الملابس هي الحرير والكتان والقطن والصوف وجلد الحيوان ، وسأتناول الكلام عنها بعناوينها .

الحرير : فالحرير من مكتشفات الصين ، استعمل للكساء عدة آلاف من السنين قبل الميلاد ، وهو صناعة من اهم الصناعات الوطنية في الصين ، كانت الصين الى زمن قريب تنفرد بتصديره الى انحاء العالم ولكن اليابان وايطاليا وفرنسا اخذت هذه الصناعة لاعتمادها على الوسائل العلمية في المزروعات والمصنوعات اذ لا تزال الصين معتمدة على وسائلها العتيقة كما كانت قبل آلاف السنين .

ولما كان الإقبال على الحرير يزداد في انحاء العالم فتحسين الزراعة والصناعة فيما يتعلق به عمل مربح جداً ، وينبغي ان ينشأ في كل مركز من مراكز الصناعة الحريرية مكتب علمي يتولى ارشاد الزراع وتعليمهم تربية الديدان الصحيحة ، وينبغي ان تكون هذه المكاتب تابعة لإدارة مركزية . وان يكون من

عملها جمع اللوزات لتمكين الزارع من الحصول على ثمن مناسب ، ولا بد من اقامة المعامل الحديثة لتحضير خيوط الحرير للصناعة الداخلية والصناعة الخارجية على السواء . ويقترن انشاء ، هذه المعامل بانشاء معامل للمنسوجات الحريرية تباع في الاسواق الوطنية والأسواق الاجنبية ، وتضم جميع هذه الصناعات الى رقابة قومية واحدة تموها رؤوس الأموال الأجنبية ويتعهدها الخبراء المختصون لتوفير احسن المحاصيل الاقتصادية واخراج ارخص الأصناف واجودها .

الكتان :والكتان أيضاً صناعة وطنية قديمة ، ومن مصنوعات الصين الجنوبية صنف من التيل الجميل اشتهر باسم حشيش الصين ، ويمكن ان يضارع الحرير في نعومته وزهوه اذا عولج بالوسائل الحديثة ، ولكن الصين على ما اعلم لم توجد فيها بعد امثال هذه الوسائل لنسج التيل . ويصنع التيل الصيني في الأنوال اليدوية ، فمن الواجب ان نستورد الآلات اللازمة لهذه الصناعة ، وأن ننشر مراكزها في الجنوب حيث تتوافر الخامات والأيدي العاملة .

القطن : والقطن محصول أجنبي دخل الصين منذ قرون ، وأصبح صناعة وطنية مهمة في عهود الأنسجة اليدوية ، ولكن ورود المنسوجات القطنية من الخارج قتل هذه الصناعة ، وأصبحنا نصدر الى الخارج مقادير كبيرة من القطن ونستورد مقادير كبيرة من المنسوجات القطنية ، فما اعجب هذا عندما نفكر في وفرة الأيدي العاملة الرخيصة بيننا !

على أن المعامل القطنية قد انشئت اخيراً في موانىء المعاهدات وجنت ارباحاً عظيمة من صناعتها وقيل ان بعضها وزع في السنوات الأخيرة ارباحاً تضارع مائة في المائة وترتفع احياناً الى مائتين ، والطلب يزداد على سلع القطن ولكن المعروض قليل ، فلا بد من توفير المعامل وانشاء سلسلة من المراكز تضمها رقابة واحدة تعمل على تحسين الصناعة وتيسير الحصول عليها بالثمن الرخيص .

الصوف : إن شمال الصين كله ـ اي نحو ثلثي البلاد جميعاً ـ ارض مرعى . ولكن صناعة الصوف لم تستوف قط عندنا . اذ تخرج من الصين كل سنة مقادير عظيمة من الخامات وتدخلها مقادير عظيمة من المنسوجات

الصوفية ، فإذا نظرنا الى احصاء الوارد والصادر تبين لنا ان الصناعة الصوفية جديرة ان تفيد فائدة كبيرة ، وينبغي ان نسخر الوسائل العلمية لتربية الغنم وعلاج الصوف لتحسين الصنف وزيادة المقدار ، وان نقيم المعامل الحديثة في الشمال لصنع جميع السلع الصوفية . اذ نحن نملك الخامات والمعمل الرخيص والسوق الواسعة ، وكل ما نطلبه هو رأس المال الأجنبي والخبرة . . . وسيكون هذا المورد جديداً فلا يتعرض للمنافسة .

الجلود : وصناعة الجلود أيضاً ستكون من صناعاتنا الجديدة ، على الرغم من وجود بعض المدابغ في موانىء المعاهدات . ولا يزال تصدير الجلود وتوريد المصنوعات منها آخذين في الازدياد عاماً بعد عام، فمن المنتظر ان نحصل على فوائد جمة من انشاء المدابغ والمعامل التي تخرج المصنوعات الجلدية والأحذية .

آلات الكساء : والصين محتاجة جداً الى الآلات التي تصنع الأكسية . ويقال إن طلبات الآلات القطنية قد استغرقت لمدة ثلاث سنوات من أوروبة وامريكا . فإذا تمت نشأة الصين وتنميتها على حسب برامجي كان الطلب عليها أضعاف أضعاف ذلك وقصرت موارد اوروبة وأمريكا عن تلبيتها . فإقامة المعامل اذن لإخراج هذه الآلات مشروع نافع فضلا عن لزومه وضرورته ، ويحسن ان تقام على مقربة من مراكز الحديد والصلب للإقلال من تكاليف نقل الآلات الضخام ، وللخبراء ان يقرروا ما يتطلبه هذا المشروع من التكاليف .

المساكن

بين الملايين الأربعمائة من أهل الصين يسكن الفقراء في الخصاص والأكواخ ويسكن فقراء الشمال في الكهوف . أما الاغنياء والأوساط فيسكنون الهياكل ، وكل ما يسمى بالمنازل ما عدا المبني منها على الطراز الحديث في موانىء المعاهدات فهو مقام على طراز الهيكل .

وإذا بنى الصيني بيتاً فحساب الموتى مقدم لديه على حساب الأحياء ، وأول ما يهمه محراب الأسلاف الذي يشاد في وسط الدار وتضاف اليه سائر حجراتها وجوانبها . ولا تبنى المساكن للراحة بل للمراسم والشعائر ، أو ما يسمونه في الصين بمسائل الأحمر والأبيض ، ويعنون بالأحمر حفلات الزواج وبالأبيض حفلات الحداد .

والى جانب محراب الأسلاف محاريب اخرى للأرباب البيتية ، فهي اهم من الإنسان وأولى منه بالعناية . فليس في الصين منزل لوحظت فيه راحة الإنسان وموافقة معيشته . فإذا وضعنا خطة السكن في برامج تنمية الصين فنحن نضع الخطة لسكنى ابناء الصين اجمعين . ويقول قائل : أتريد ان تبني بيوتاً لأربعمائة مليون ؟ إنه لمستحيل . وإنه لأضخم شغلة خطرت لإنسان على بال !

الا ان الصين ـ ان كانت على عزيمتها أن تنبذ التقاليد الحمقاء والعادات النخرة ـ فتعديل نظام السكن امر لا محيص منه على عمد أو على غير عمد . وهذه حضارة الأمم الغربية التي ادركتها تبدو لنا غير مقصودة لأن العلوم الاجتماعية والاقتصادية لم تكن معروفة قبل الآن . ونحن نأمل في خلال خمسين سنة من تطورنا الصناعي ان تصبح مساكن الصين جميعاً مستوفاة من وجهة الراحة والموافقة . أليس بناء المساكن في الصين وفاقاً لترسيم العلم افضل واجدى من تركها بغير ترسيم ؟ انني لأحسب ان بناء الف منزل مرة واحدة اقل نفقة من

بنائها منزلا منزلا متفرقات ، وكلما ازداد عدد المساكن نقصت التكاليف ، فهو قانون اقتصادي واضح ، ولا ضرر فيه الا من جانب الإفراط والزيادة على الحاجة . فهذا هو العائق الوحيد في جميع الأعمال الكبرى . ومنذ قامت الثورة الصناعية في اوروبة وأمريكا لم تأت الأزمات الا من طريق الإفراط في الإنتاج ، ولدينا في الصين اربعمائة مليون راغب يتطلعون الى المساكن ، فلا أقل من خمسين مليون مسكن تدعو اليها الحاجة في الخمسين سنة المقبلة ، ومليون منزل هو متوسط الطلب في كل سنة .

إن المساكن عامل هام في الحضارة ، وهي تعطي الناس من المتعة والرفاهة ما لا يجدونه في الغذاء والكساء . واكبر من نصف الصناعات البشرية تدور على مطالب السكنى ، وستصبح صناعة البيوت اعظم ما نشرع فيه من خطط التعمير كما ستكون اربحها وأنفعها ، وكل غايتي من هذه الصناعة ان نهيىء السكن الرخيص للدهماء ، وقد يتسنى بناء منزل كالذي يبنى الآن في موانىء المعاهدات بعشرة الآف ريال ولا تزيد تكاليفه على ألف ريال ، وانما يتسنى هذا بالاستيراد والنقل والتوزيع ، ومتى تم بناء البيت وجب تزويده بالأثاث ، وكل هذا يدخل في نطاق صناعة السكن على الوجه الآتي :

(أ) إنتاج مواد البناء واستيرادها

(ب) إجراء البناء

(جـ) صناعة الأثاث

(د) تدبير المرافق المنزلية

فأما مواد البناء فهي الآجر والقرميد والخشب والحديد والحجر والإسمنت والملاط ، وكل مادة من هذه المواد تؤخذ من الخامات ، فلا بد من الأفران لصنع الآجر والقرميد ، ولا بد من المعامل لتحضير الأخشاب والحدائد ، ولا بد من المحاجر لاستخراج الإسمنت والملاط والحجارة ، ولا بد من وضع هذه المعامل جميعاً حيث يسهل امدادها والوصول اليها ، وان تضم كلها الى مصلحة واحدة تخرج منها كل صنف على حسب الحاجة اليه ، وتنقل المواد بطريق المواصلات المائية او المركبات الخاصة على السكك الحديدية ، وتتولى مصلحة السفن

ومصلحة المركبات إعداد وسائل النقل من المعامل الى الأسواق .

والمباني التي تنشأ في الصين تشتمل على مساكن عامة ومساكن خاصة . ويناط بناء المساكن العامة بمصلحة حكومية لأنها لا تأتي بأجرة تعوض تكاليفها . اما المساكن الخاصة فلا تبنى الا لغرض من غرضين ! أحدهما تيسير السكن للشعب ، والآخر تحصيل الربح لخدمة هذه الصناعة . وتتبع الأساليب المرسومة في بناء المساكن ، ومنها أسلوب البيت الذي تسكنه أسرة واحدة وأسلوب البيت الذي تسكنه اكثر من اسرة ، فالبيت على الأسلوب الأول يقسم الى ثماني حجرات او عشر حجرات او اثنتي عشرة حجرة . والبيت على الأسلوب الآخر يقسم الى مساكن عشر اسر او مائة أسرة أو ألف أسرة ، لكل أسرة منها أربع حجرات او ست حجرات ، ويجب تقسيم المساكن في الريف على حسب أعمال السكان مع إلحاق الحظائر والجرن بمساكن الفلاحين . وتلاحظ في تخطيط البيوت راحة الإنسان فتعهد مهمة التخطيط الى مصلحة تدرس عادات الطوائف المختلفة ومطالبها ويدخل عليها التحسين الضروري حيناً بعد حين ، ويتم البناء بالآلات المستعجلة التي تقتصد في الجهد انجازاً للعمل وإقلالاً من نفقاته .

اما الأثاث فإن ضرورة تغيير أساليب البناء تستلزم تغيير الأدوات وصنعها على الطراز الحديث . ومنها أدوات للمكتبة وأدوات لحجرة الاستقبال واخرى للمخدع أو للمطبخ او للحمام أو للمراحيض ، وتخصص لكل نوع معامل مستقلة تحت إشراف مؤسسة الإنشاء والتعمير .

ومرافق البيوت تشتمل على الماء والنور والحرارة والوقود والتلفون ، ولا توجد في غير موانيء المعاهد موارد مائية ، بل تخلو بعض هذه الموانيء من موارد الماء حتى الآن . ويستقي الناس في المدن الكبرى من الأنهار التي تنوب كذلك عن المجاري والمصارف . ومن هنا كانت موارد الماء في الصين غير صالحة . فمن المطالب العاجلة توفير موارد الماء في المدن بغير إبطاء ، ولا بد لذلك من المعامل التي تصنع فيها الادوات الضرورية ، أما الإنارة فلا بد كذلك من تعميمها وانشاء المعامل التي تخرج ادواتها .

ومن أعظم المطالب كلفة على الصين وقود الطعام . فالريفي يخصص عشر أرباحه لشرائه . والحضري يخصص لشرائه ضعفي هذه القيمة . ومن ثم كانت مسألة الوقود مضيعة لكثير من الجهد والثروة ، ويجب استبدال الفحم بالعشب والحطب في بلاد الريف ، وأن يستبدل به الغاز والكهرباء في الحواضر والعواصم ، ولا غنى عن الأجهزة اللازمة لتحضير الفحم والغاز والكهرباء . وعلى مؤسسة الانشاء والتعمير ان تعنى بهذا العمل ، وعليها كذلك ان تيسر استخدام التلفون للريفيين والحضريين على السواء ، وان تنشىء المصانع التي تخرج الأجهزة والأدوات ميسرة بالثمن المستطاع .

المحركات

الصينيون شعب ساكن . فخر الرجل فيهم من قديم الزمن انه يعكف على منزله ولا يعنى بغير شأنه ، ومن أقوال لاوتسي معاصر كنفشيوس ان الجيرة الصالحة تقيم على مقربة حيث يسمع الجار من بيت جيرانه صياح الديكة ونباح الكلب ولا يغشى احدهم دار غيره مدى حياته ، وطالما تردد هذا القول وصفاً للعصر الذهبي في الأمة الصينية .

إلا أن الأمور قد تغيرت في الأزمنة الحديثة ، وأصبحت الحركة هنا وهناك شغل الإنسان في حياته ، وإنما بالحركة تتقدم الحضارة ، وعلى الصين أن تتحرك اذا ارادت ان تدرك ركب الحضارة ، فحركة الفرد جزء جوهري من نشاط الأمة ، ومن حقه ان يتحرك حيث شاء ومتى شاء في يسر وسرعة ، ولكن الصين في الوقت الحاضر تعوزها الوسائل التي تيسر الانتقال لمن يريده . فإن الطرق القديمة مخربة والسيارة لم تعرف بعد في انحائها ، وهذه السيارة وسيلة مستحدثة لا غنى عنها للحركة السريعة . فإذا أردنا ان نتحرك ونعمل فعلينا ان نستعين بالسيارة ، ولا سبيل الى الاستعانة بها قبل تمهيد الطرق لسيرها ، وقد بينت في هذه البرامج اننا محتاجون الى انشاء مليون ميل من الطرق المنتظمة ، نلاحظ في بنائها نسبة السكان والمواقع ، وفي اقاليم الصين الثمانية عشرة ألف محلة ، فإذا كانت الصين على نية تعميم النظام المتبع في توزيع هذه المحلات وصل عددها الى

أربعة آلاف ، وخص كل محلة مائتان وخمسون ميلا من الطرق ، إلا أن السكان في كل محلة يزيدون تارة وينقصون تارة ، ولا تتساوى المحلات جميعاً في عدد السكان ، فإذا قسمنا مليون ميل على أربعمائة مليون ساكن كان على كل اربعمائة ساكن بناء ميل واحد وهو عمل غير عسير ، فاذا قبلته الأمة وقبلت معه ان يكون تمهيد الطرق شرطاً للحكومة المحلية وجدنا امامنا مليون ميل من الطرق كأنها امتدت بسحر ساحر . ومتى شرعت الأمة في تمهيد الطرق امكن انشاء المعامل لصنع السيارات قليلا قليلا ثم تزداد على حسب ازدياد الطلب حتى تفي بحاجة الملايين الأربعمائة . يجب ان تصنع السيارات لأغراض متعددة بحيث تصلح للزارع والصانع والتاجر والمسافر والمتنقل الخ إلخ . وكلما كثر المصنوع منها قلت تكاليفه وتيسر ثمنه لمن يطلبه ، ولا يكفي تيسير الحصول على السيارة دون تيسير الحصول على وقودها ، فمن الواجب ان تقترن صناعة السيارات بالتنقيب عن منابع زيت النفط ، وهو ما نفصل القول فيه عند الكلام على صناعة المناجم والتعدين .

الطباعة

هذه الصناعة ـ صناعة الطباعة ـ تيسر للإنسان غذاء فكره ، وهي ضرورة من ضرورات الحياة العصرية لا يتم التقدم بغيرها .

إن نشاط النوع الإنساني محفوظ مسجل ، ومعارفه جميعاً مخزونة في المطبوعات . فالطباعة عامل عظيم من عوامل الحضارة ، بحيث تقاس حظوظ الأمة من التقدم أحياناً كثيرة بمقياس مطبوعاتها في كل سنة .

والصين متخلفة في هذا المجال مع سبقها الى اختراع الطباعة ، ولكنها إذا اتبعت مناهج التقدم التي نبسطها هنا تعاظمت مطالب ملايينها الأربعمائة من المطبوعات وأصبح لزاماً لتلبية هذه المطالب أن تؤسس شبكة من المطابع في انحاء البلاد لإخراج المطبوعات المختلفة من الصحف الى الموسوعات ، ووجب ان تترجم نخبة الكتب في جميع اللغات الى اللغة الصينية وتباع بالأثمان المستطاعة ،

وينبغي ان تلخص دور النشر جميعاً بإدارة واحـدة لتحقيق أفضـل النتائـج الاقتصادية .

وتيسير اثمان المطبوعات يستدعي العناية بصناعـات شتى اولهـا صناعـة الورق ، وهو في الوقت الحاضر يستورد من الخـارج لطبـع الصـحف ويزداد الطلب عليه يوماً بعد آخر . على أن الخامات التي يصنع منها الورق موفورة في الصين ، ومنها الغابات في شمالها الغربـي وأنـواع القصـب في نهـر يانجتـزي والمستنقعات التي بجواره ، وهي كفيلة ان تزود مصانع الورق بأحسن عجينة صالحة لصنعه . ويحسن انشاء المعامل الكبيرة لهذا الغرض في المواقع الملائمة ، وأن تنشأ معها معامل المداد والمسابـك والأدوات المطبعية وكل ما هو ضروري لإدارة النشر والطباعة .

الحرب والسلم
من كتاب تنمية الصين الدولية

إن الحرب العالمية ليست الا السطو المسلح على نطاق واسع يأسف له كل فكر مستقيم .

ولما اشتركت الولايات المتحدة في النزاع الأخير فجعلتها بذلك حرباً عالمية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) كان أبناء الولايات المتحدة بلسان رجل واحد يريدون أن يجعلوها حرباً للقضاء على الحروب ، وحلق رجاء الأمم عالياً حتى خيل الينا نحن ابناء الصين ان التاتنج Tatung (أي العصر الذهبي) مقبل لا محالة .

غير أن الولايات المتحدة قد اخفقت في السلم للأسف الشديد بعد نجاحها في ميادين القتال ، فنكصت الدنيا الى حالة كالتي كانت عليها قبل الحرب العالمية ، وسينطلقون من جديد في السباق الى ضم البلاد والتنازع على مواد الغذاء والتطاحن على الخامات ، وبدلا من نزع السلاح سوف يتضاعف عدد الجيوش والأسلحة البحرية استعداداً للحرب المقبلة بين اولئك الذين كانوا من قبل حلفاء ، وستكون الصين اغنى البلاد بالموارد والسكان غنيمة النصر في تلك الحرب المقبلة .

لقد كانت الدول جانحة منذ سنوات الى تقسيم الصين وتقدمت روسيا القيصرية فعلا لاستعمار منشوريا ، فإذا باليابان ـ ذات الحمية والنخوة ـ تتصدى لها وتنجو الصين بهذه المثابة من خطر التقسيم .

لكن سياسة اليابان العسكرية في الوقت الحاضر متطلعة الى ابتلاع الصين . فمصير الصين اذا هي ظلت معلقة بمراحم الدول العسكرية ان تمزق بين هذه الدول او تبتلعها واحدة منها .

ويبدو ان الاحوال آخذة في التغير . فهذه الصين التي لبثت هاجعة عدة قرون قد تيقظت وعلمت ان اللحاق بركب العالم المتقدم ضرورة لا محيد عنها . وها نحن اولاء في مفترق الطريق ، فهل نعد انفسنا للسلام ؟

إن العسكريين والرجعيين منا يؤثرون الاستعداد للقتال ويحاولون ان يصبغوا الصين بالصبغة اليابانية ، وأن يتحينوا الفرص لإعلان حرب كحرب الملاكمين (البوكسر) تتحدى عالم الحضارة .

ولكنني باسم الجمهورية التي اسستها اود ان تجمع الصين عدتها للسلام ، واثوب الى القلم ـ وهو في اعتقادي أقوى من السيف الذي جردته للقضاء على أسرة المانشو ـ فأخط هنا تفاصيل البرنامج الذي تستعد به الصين لخدمة السلام .

إن الدول ـ إذا هي صدقت النية على التعاون لتحصيل المنافع المتبادلة ـ خليقة ان تتقي اخطار الصراع على المغانم المادية التي تتطلع اليها في الصين . فإن مغانمها من طريق التعاون أوفر وأجدى من مغانم الصراع والقتال .

على أن العسكريين اليابانيين لا يزالون يحسبون ان الحرب انفع المساعي الوطنية ، ولا يزال اركان حربهم يرسمون الخطط للحرب المقبلة خلال عشر سنوات ، وقد أكبر هذا الوهم في رؤوسهم ان غزوتهم للصين سنة ١٨٩٤ كانت موفورة الربح على قصرها وسهولتها ، وأن حربهم مع روسيا سنة ١٩٠٤ كانت كذلك نجاحاً لليابان وكانت ثمراتها كبيرة بالنصر كبيرة بالقيمة ، وأن اعلانها الحرب على المانيا سنة ١٩١٤ لم يكلفها بعض ما تكلفه المقاتلون من الرجال والأموال ولكنها على هذا ربحت من ورائه اقليم شانتنج وهو في سعة رومانيا قبل الحرب يسكنه اناس في عدد سكان البلاد الفرنسية .

لا جرم إذن ، مع هذه المغانم من كل حرب ، ان تستمرىء اليابان مغبة الحروب ويخيل اليها أنها أربح التجارات في هذا العالم ، ولكن الصين اليوم يقظى لما حولها . فكل عدوان من قبل اليابان ستصده الصين ولا شك بعزيمة صادقة .

إن الحرب التجارية ـ او التنافس على الأسواق هي صراع بين اصحاب الأموال ، وهذه الحرب التجارية لا تتحرى مصلحة قومية بل تنشب بين اصحاب الأموال في الوطن الواحد عنيفة قاسية كما تنشب بينهم في الأوطان المتعددة ، وسلاحها الماضي ان تتسابق الى البيع الرخيص للقضاء على المنافس الضعيف ثم الاستبداد بالسوق واملاء الشروط على المستنفدين الى امد طويل .

وعاقبة الحرب الاقتصادية لا تقل عن الحرب المسلحة في إضرارها بالمنهزم وشدة وطأتها عليه ، وقد تفاقمت ضراوة هذه الحرب بعد اتخاذ المكنات لإنتاج المصنوعات . وكان بعض خبراء الاقتصاد من مدرسة آدم سميث يحسبون التنافس عاملا طيباً ونظاماً صحيحاً سليم العاقبة ، ثم انكشف للخبراء المحدثين انه على نقيض ذلك مضيعة للمجهود ومدعاة للخراب ، وجنحت آراؤهم الى الوجهة المقابلة : أي الى وجهة التركيز والتكافل بدلا من التفرق والتنافس ، ولهذا تزدهر الشركات المؤتلفة في امريكا على الرغم من تحريم القوانين لها وميل الجمهور الى مكافحتها ، لأن الشركات المؤتلفة تستطيع الانتاج بتكاليف اقل من تكاليف الأفراد لقصدها في النفقة وتوفيرها للجهود المبددة ، وهكذا تخلص الشركات المؤتلفة من المنافسين كلما دخلت ميداناً من ميادين الصناعة ويسرت للمستنفد سلعاً ارخص من امثالها . وجدير بهذه المزية ان تكون خيراً وبركة على المستنفدين لولا ان الشركات المؤتلفة في الأيدي الخاصة التي تتحرى مضاعفة الكسب جهد المستطاع ، فما هو الا ان تخلص من المزاحمين حتى تستبد بالسوق وتغالي برفع الأسعار ، وتضطهد جمهرة الناس ، وإنما تعالج هذه الآفة علاجها الأمثل باستيلاء الشعب كله على الشركات المؤتلفة ، وبرنامجي في تنمية الصين أن تجعل صناعاتها القومية جميعاً شركة مؤتلفة كبرى تملكها الأمة وتنفق عليها من رؤوس الأموال الأجنبية لتبادل المنفعة ، فنقضي بذلك دفعة واحدة على الحرب التجارية في أكبر الأسواق العالمية .

دستور الهيئات الخمس

من خطاب القي في سنة ١٩٢١ وأذاعته مصلحة النشر في اللجنة التنفيذية

نحن جادون كي نجعل الصين دولة قوية مجيدة ، فكيف نبلغ بها ما نصبو اليه ؟ اخال أنالطريق ينبغي الا يكون وعراً ، وأرى أنه هو طريق الدستور ذي الهيئات الخماسية .

مضى اليوم أكثر من عشرين سنة منذ تكلمت لأول مرة عن هذا الموضوع في الذكرى السنوية للمين پاو بمدينة طوكيو . . . ولا يزال اعوان هذا الدستور جد قليل ، وعلينا اذن أن نرحب بكل رغبة في زيادة العلم بكنه هذا الموضوع .

في تاريخ الحياة السياسية وجهتان : وجهة الحرية ووجهة النظام . وفحوى هذا ان السياسة تعمل فيها قوتان كالقوتين اللتين تعملان في الطبيعة ، وهما القوة الدافعة من المركز والقوة الجاذبة اليه . فالقوة الدافعة تتجه الى الامتداد خارجاً والقوة الجاذبة تتجه الى التجميع حول المركز . فإذا كانت القوة الدافعة اقوى من كل عامل آخر تطاير الجسم بدداً ، وإذا كانت القوة الجاذبة هي الأقوى تكاثف الجسم وصغر . ويلزم من ثم ان تتعادل هاتان القوتان .

وينطبق هذا على وجهتي الحرية والنظام . فامتداد الحرية قد يفضي الى الفوضى ، والغلو في حفظ النظام قد يفضي الى الحكم المطلق . وما كانت الاطوار السياسية خلال آلاف السنين الأخيرة الا أثراً من آثار الصراع بين هذين الاتجاهين .

نعم ، وهذان الاتجاهان في التاريخ السياسي بين السلطان المطلق والحرية هما موضع الاختلاف بين الصين والبلاد الأوروبية ، ولكن التاريخ السياسي فيه غير ذلك طائفتان من الناس : طائفة الحاكمين وطائفة المحكومين . او كما عبر

عن ذلك أحد الحكماء حيث قال« إن من الناس من يعمل لرياضة عقله ومنهم من يعمل لرياضة جسده ، والأوائل حاكمون ، والأواخر هم المحكومون » .

ولا بد لمن يحكم من المعرفة ، ولا بد للمحكوم من فرصة لكسب المعرفة . وقد كان ابناء الأزمنة الغابرة كالأطفال ينتظرون القيادة من غيرهم ، فانقضى عهد الطفولة السياسية وأصبح الناس وهم يشعرون أن هذا الفاصل بين الحاكم والمحكوم خليق ان يزول . وقد طرح الأوروبيون عنهم نير الأنظمة الملكية في القرون الأخيرة . ونعم الناس بقسط من الحرية اكبر وأرقى . ونهجنا نحن لهدم ذلك الفاصل منهج الهيئات الخماسية عسى ان نتأدى منه الى مبادىء الديمقراطية الصحيحة .

ولقد ناديت عند بدء الثورة بالمبادىء الثلاثة وهي القومية والديمقراطية والاشتراكية ، وهذه هي الأغراض التي عناها رئيس الولايات المتحدة لنكولن حينما دعا الى حكومة الشعب بالشعب ولأجل الشعب . فلا بد للناس ان يحكموا انفسهم ليرضوا عن حكمهم ، فلا رضى للناس مع عجزهم عن ولاية الأمور .

ولا ننس إذ نعالج سيطرة الذين راضوا عقولهم على الجماهير التي لم تشغل بغير اجسادها ان المشيئة الإنسانية قد تعمل حتى في مواجهة السماء .

ولننظر الى الديمقراطية وهي أداة الشعب التي يطير بها أو يعدو أو يسبح أو يمضي حيث شاء بين الأرض والسماء . فما هي هذه الأداة ؟ هي الدستور : هي الدستور الذي يضع الحدود لسلطان التشريع وسلطان القضاء وسلطان الإدارة وسلطان الاختبار وسلطان الرقابة والإشراف .

ذلك هو الدستور الخماسي الذي نبغيه ؛ وهو سيادتنا أو غواصتنا أو طائرتنا ، نسير به حيث نريد ، لأنه يسلك بنا حيث توضع القوانين أو حيث تنفذ أو حيث تدار الأعمال الحكومية أو حيث يختبر الموظفون وحيث يراقبون .

ويقوم الرئيس على رأس الإدارة . ويقوم البرلمان على رأس التشريع . ويقوم القضاة على منصة الأحكام .

وكم من اناس أولي كفاية لم يعرف لهم فضلهم لأنهم لم يوضعوا قط موضع الاختبار ، لقد حدث كثيراً ان اناساً من الجهلة اشباه الأميين ارتفعوا الى مناصب الحكم فغرسوا في النفوس شرور النقمة والبغضاء . وليس اصلح لعلاج هذه الآفة من اختبار المرشحين لوظائف الدولة واختيارهم من ذوي الفضل والدراية ، فبغير هؤلاء النخبة المختارين يمضي الركب بغير سائق ، وبهذه الوسيلة نحصل على الكفاة المدربين على الخدمة العامة .

لقد جرى الإنجليز على هذه الخطة منذ زمن غير قصير . وجرى عليها الأمريكيون منذ عشرين او ثلاثين سنة ، وكلهم مسبوقون اليها في الصين ، فإن النظام الصيني اصلح الأنظمة ، وبلاد العالم تستعيره منا اليوم .

ولما كنت في نانكنج رجوت مجلس الشيوخ ان يقتبس نظام الهيئات الخماسية فلم يفطنوا لمقصدي ، لأنه يقطع عليهم مدى نظراتهم الشخصية . لكن هذا الدستور الخماسي - ثمرة جهودي وتجاربي - أداة ضخمة . فمن كان عليه ان يقطع مئات الأميال في غير بطء ولا وناء فلا غنى له عن سيارة او طيارة يحكم آلاتها . ومن كان عليه ان يسير بالأمة على نهج الفلاح فلا غنى له عن الآلة الحكومية التي تضبط حركاتها .

تلك هي الآلة التي تدار بها شؤون البلاد . ولدينا عدا هذا الدستور الخماسي مبدأ جوهري لاشتراك المواطنين المباشر في الحكومة المحلية ، فهذا الاشتراك المباشر هو الخلاصة الصادقة لحقوق الإنسان ، قوامه الانتخاب والعزل والاقتراح والاستفتاء ، فإذا شبهنا الدستور الخماسي بالأداة فالحق المباشر هو مفتاح هذه الأداة ، ويحق لمن يملك الانتخاب ان يملك عزل من أساء ، ومن علم بشريعة صالحة فمن حقه ان يقترحها وأن يرجع اليه لسؤاله عنها ، وذلك هو نظام الاستفتاء .

قبس من صلاة
على ضريح عميد الأسرة الصينية القديمة « منج »
توجه به الزعيم الى روح العاهل « الخالد » بعد نجاح الثورة (١٩١٢)

وهنت اسرة « سنج » قديماً فاغتنم التتار ومغول أسرة « يوين » هذه الثغرة ليشيعوا الفوضى في هذه الديار ، وباءوا بغضب الناس والأرباب .

عندئذ ثبت يا صاحب الجلالة ، يا رافع دعامتنا ، تصد ذلك الغول ، وخرجت من خفائك تعيد ذلك التراث القديم .

وما هي الا سنوات اثنتي عشرة حتى جمعت اشتات الدولة وطهرت الديار من لوثة التتار الصاخبين .

ولطالما حدث في تاريخ امتنا النبيلة ان اغار عليها برابرة الشمال فاستعبدوها لأمرائهم الصغار ، فلم ينتصر عليهم احد قط كنصرتك المؤزرة يا صاحب الجلالة ، ولكنه مجد لم تقو ذريتك على حفظه ، وأمانة عهدوا بها الى أناس اساءوا الرأي ونظروا الى أمد قريب ، فاطمعوا فيهم همج التتار من المشرق ومهدوا لهم أسباب القوة والجرأة ، فما عتموا ان تمرد المتمردون هنا وثم حتى انقضوا على مدينتك المقدسة فاخذوها ، ثم انحدروا من قمتهم الخسيسة الى ارجاء هذه التربة الطاهرة فدنسوا انهارها واوديتها وأعملوا في الرقاب فأس الجلاد وسيف الفاتك المنتقم .

ونشط الأكرمون الغيورون من رعاياك فاجتازوا الجبال إلى كانتون والجنوب الأقصى ، وساورهم الرجاء ان ينقذوا بقايا التراث فلا يطبق عليه الخراب ، وتتابعت الضحايا وهلك من هلك راضياً في هذا الجهاد ، فلم يسكن غضب السماء ولم تنفع حيلة ابناء الفناء ، وكأنما هي صفحة محزنة ضمت الى سجل

سيرتك يا صاحب الجلالة ، ولا شيء !

واشتدت وطأة الشريعة الواغلة وضاقت شباكها ، فياللحسرة المرة على امتنا المسكينة وهي قابعة في الأركان تصغي ولا تنطق ولا ينطلق لها لسان ، وكأنما الصقت السنتهم بالغراء بين أفواههم حيث سدت امامهم ابواب الفرج والنجاة .

وراح الآخرون يسبغون صفات الزيف على المكارم الباطلة والأمان الكاذب ، ومن ورائها حكمة تداس وآداب تهدر ووصايا تبتذل ، ودعواهم انهم يوقرون حكماءها المقدسين وأئمتها الملهمين .

كظموا أنفاس الناس ليكرهوهم على الطاعة ، وغلبت السيطرة المانشوية بالغيلة والحيلة فلم يعسر عليهم ان يبسطوا بأسهم ويطلبوه ثم انفجرت الثورة على الرغم من كل هذا الطغيان ، وتعاقب الثوار في كل مكان . . . وآل امرها نعم الى الهزيمة ، ولكنها اعلنت صوت الامة وكشفت عن مشيئتها فتسايرت بها الركبان .

ثم لاحت اشعة فجرنا ، وآذنت شمسنا بالطلوع . وبث نفحات الحياة في امة الصين انها تعارفت على حقوقها وأحست كرامتها ، وخارت قوى المانشويين انفسهم فلم يقدروا على حماية حوزتهم ، وزحف العداة الأقوياء على الأرض فنزل المانشويون عن خيراتها ليشبعوا مطامع جيرانها . ولئن كان ابناء الصين اليوم في نكسة لقد كانوا منذ القدم سلالة الأبطال الأشداء . فكيف بهم يصبرون على أرواح عظمائهم الذاهبين ان تلقى هذا الهوان وتنصب عليها سياط البلاء !

يومئذ هب حماة الوطن كالعاصفة او كالسحابة التي تبرز فجاءة في افق السماء ، فاستهلت من كانتون ثم روعت بكين بقذيفة وويوية[1] ، وانطلقت رصاصة هسوهسلين الى احشاء طاغية المانشو قبل عام ، ورفع هسونج شنج لي علم الحرية على نهر اليانجزي . فتعاقبت الوثبة بعد الوثبة خلال الديار . وعلم وصي العرش بما اعده له المجاهدون خفية فكشفت الثورة عن نفسها في كانتون ،

(١) حادثة وقعت سنة ١٩٠٥ .

وارتاعت العاصمة فنكلت بطائفة بعد طائفة ، وتقدم الى مكانهم صف بعد صف ، حتى انجلت الغاشية عن دولة جديدة وسلطان جديد . . .

. . . قيل قديماً إن طغيان البرابرة على بلادنا لم يكتب له قط ان يطول بعد مائة عام . ولكن هؤلاء المانشويين قد طال بهم الزمن مائتين وثلاث مئات . وعلم القضاء بالساعة الموعودة وانها في النهاية آتية لا ريب فيها . وها نحن اولاء نفتتح في آسيا الشرقية تجربة الحكومة الجمهورية ، وما زال العاملون من قديم موعودين بالنجاح القريب او البعيد ، وما من ريب في عقبى الصالحين بعد حين ، فما لنا نجزع اليوم وقد طال انتظار النصر المبين ؟

وسمعنا كثيراً بالذين صعدوا الى هذه القمة العليا يستلهمون وحيها عسى ان تساعدهم على الخلاص ، ولطالما ذرفوا الدمع السخين كلما نظروا الى ما تحتهم من الأنهار والأودية فرأوها جاثية تحت اقدام الأجنبي الغريب . فاليوم يتبدلون بالحزن سروراً ويطوون صدورهم على الغبطة بعد القنوط .

لقد ثابت الينا نفحة الروح من ضريحك في نانكين ، وها هو ذا التنين رابض في جلاله القديم ، وها هو النمر يجيل بصره في ملكه المعهود ، وكل ما حوله ساكن قرير .

ان جنودك قائمون صفاً صفاً على مقربة من الضريح ، وإنهم لينصتون ويترقبون . وها هو ذا شعبك يحج اليك ليرفع اليك انباء نصره ، وعلى مثواك حيث يستقر رفاتك الأقدس بريق جديد من نور المجد والبهاء ، جعله الله هادياً لذريتك فيما يلي من أيامها ، وسلام أيها الروح . . . تقبل منا هذا القربان .

عوارض الانحلال

من خطابه لأول جماعة الفها لإنقاذ الصين سنة ١٨٩٤

إن الأمور تسير في الصين على ضلال : فضائلنا الموروثة وآدابنا العتيقة تفسد كل يوم ،وجيراننا الأقوياء ينظرون الينا من عل ويحتقروننا لاختلاف اهوائنا وتفرق قلوبنا ، وأبناء قومنا واثبون على مطامع الأنانية والمغانم العاجلة ، غافلون عن حالتهم في جملتها ، لا يخطر لهم على بال أن الصين اذا تمزقت بين الأقوام الأخرى شب اولادهم واحفادهم عبيداً مسخرين وضاعت اسراتهم بلا وزر ولا حماية . ما كانت الأثرة قط اشد امعاناً في الأثرة ، وما تبلبلت المقاصد قط كما تبلبلت اليوم في الأمة بأسرها . فكيف النجاة اذن من الكارثة ؟ اننا إن لم نثبت لنتساند وننهض بأنفسنا قبل فوات الحين فهذه الألوف من السنين التي سلفت لنا في السمعة والحضارة ، وهذه الأجيال التي تعاقبت على السنن المأثورة ذاهبة لا محالة ، صائرة الى الدمار لا مراء . من المسؤول عن هذا المصير ؟ من عساه أن يكون غير الصالحين العارفين بهذا المصير ؟

لا أمل في الرجعية

من كلامه عن الحل الصحيح (سنة ١٩٠٤)

منذ فتنة الملاكمين (البوكسر) تخيل الكثيرون أن حكومة المانشو اخذت تلمح علامات الزمن وتصلح من شأنها لتحسين أحوال البلاد ، واغتروا بمنشوراتها ومراسيمها التي تذاع من حين الى حين وفاتهم أنها حروف ميتة لا يراد بها غير تهدئة النفوس الثائرة ، وان إخلاص المانشو في نية الإصلاح مستحيل لأن الإصلاح يقضي عليها ويستوعبها في بنية الأمة فتخسر كل ما في يديها الآن من الحقوق والمزايا ، وان أحلك الجوانب من حكومة المانشو لخليق أن ينكشف بعد

اليوم حين تبدو صحائف الدواوين وأسرارها في الضياء . فإن أصحاب هذه الدواوين المتجرة المتعفنة تعرف كيف تزدلف الى أسرة المانشو وترشوها لتبقى في مكانها وتنعم بتجارة الغش والاختلاس .

من دستور الكومنتانج

كل شخص راغب في العمل بمبادىء الحزب ، والسعي في تنفيذ قراراته ، مستعد لإطاعة أصوله وتعلياته ، يجوز ان ينتظم في عضويته بناء على طلبه وموافقة الحزب ، بغير تمييز بين الجنسين .

ويشتمل الحزب على طائفتين من الأعضاء : طائفة الأعضاء المثبتين . وهي تتألف من كل شخص جاوز العشرين ومضى عليه سنة على الأقل عضواً تحضيرياً في الحزب ، بعد تزكيته من لجنة التنظيم وامتحانه أمام اللجنة التنفيذية ، ومراجعة اللجنة المركزية في البلد أو الجهة المختصة ، وتصديق اللجنة المركزية في الإقليم .

وطائفة الأعضاء التحضيريين وهي تتألف من كل شخص جاوز ست عشرة سنة يقدم طلبه وفقاً للإجراءات المقررة ، ويزكيه عضوان مثبتان تقبل تزكيتهما في اجتماع عام للجنة التنظيم ، ويجري امتحانه أمام اللجنة التنفيذية .

والأعضاء المثبتون لهم حق إبداء الرأي والاقتراع والاشتراك في انتخاب ذوي المراكز الإدارية في الحزب كما يحق لهم أن ينتخبوا لتلك المراكز.والأعضاء التحضيريون لهم حق إبداء الرأي .

وعلى كل عضو في الحزب مراعاة النظام الآتي :

(أ) إطاعة دستور الحزب وتعلياته وقبول مبادئه .

(ب) مناقشة المسائل بحرية تامة ، إلى أن يصدر الحزب قراراً فيها فيجب في هذه الحالة تسليمه بغير خلاف .

(ج) المحافظة على أسرار الحزب .

(د) ألا يهاجم عضواً في الحزب او هيئة من هيئاته خارج مؤسساته .

(هـ) ألا يشترك في هيئة سياسية أخرى .
(و) ألا يشترك في تأليف هيئة منشقة داخل مؤسساته .

وللحزب رسالة تاريخية يؤديها ، وهي السعي في الوحدة والاستقلال وسلام الوطن ، وكلها تتوقف على نتائج جهاده ، كما تتوقف نتائج جهاده على اتباع النظام التام فيه ، وعلى الأعضاء أن يستقصوا غاية جهدهم لإنجاز هذه الرسالة .

كل منظمة حزبية تشمل موقعاً من المواقع لها حق الإشراف على المنظمات في أجزاء ذلك الموقع .

وجميع المنظمات تدين بالولاء لجماعة الحزب القومية ولغيرها من الجماعات والوكلاء والمؤتمرات الذين يمثلون موقعاً تنتمي اليه . وتشترك المؤتمرات المحلية والوكلاء المحليون في انتخاب الهيئة التنفيذية التي تباشر أعمال الحزب .

والهيئة العليا للحزب هي جماعة الوكلاء القومية التي تجتمع في الأحوال العادية مرة كل سنتين ، وتدعى للاجتماع في الأحوال الاستثنائية كلما رأت اللجنة التنفيذية المركزية ضرورة لذلك ، أو كلما اتفقت على ضرورة اجتماعها كثرة اللجان الإقليمية واللجان التي في طبقتها . وتتولى اللجنة التنفيذية المركزية وضع الإجراءات الخاصة بتنظيم أعمال الجماعة وانتخاب وكلائها ونسبة النيابة فيها .

وتناط الواجبات التالية باللجنة التنفيذية المركزية :

(أ) تمثيل الحزب في علاقاته الخارجية .
(ب) تنفيذ قرارات الجماعة القومية .
(ج) تنظيم وإدارة الهيئات الحزبية التابعة .
(د) تنظيم إدارات اللجنة التنفيذية .
(هـ) الإشراف على مالية الحزب وأمانة صندوقه .

نشيد الحزب

سان مين شو آي

هدف جماعتنا
نوطد أركان الجمهورية
ونعقد أواصر الأخوة العامة
تقدموا يا رفاق
يا طليعة الأمة
لا وهن ولا مهل
بل جهاد متصل في سبيل مبادئنا
ثابروا على الهمة . واثبتوا على الأقدام .
ثابروا على الصدق ، واثبتوا على الولاء .
وبقلب واحد ، وبرأس واحد
سيروا إلى النهاية .

الوصية

منذ أربعين سنة وقفت نفسي لقضية الثورة القومية التي تتكفل للصين بمركز بين الأمم على أساس الاستقلال والمساواة . وقد أقنعتني جملة تجاربي في هذه السنين بأن بلوغ هذا المقصد رهين بإيقاظ الجماهير من أبناء امتنا والتعاون مع كل امة من أمم العالم تعاملنا على سنة المساواة في الكفاح المشترك بيننا .

ولم تتحقق الثورة بعد . فلينظر زملائي جميعاً فيما دونته عن خطط التعمير القومي والقواعد الأساسية التي يقوم عليها ذلك التعمير ، وفي البلاغ الذي صدر من مؤتمر الحزب الأول ، وليعملوا بلا وناء لتحقيق جميع هذه الغايات . وينبغي قبل كل شيء عقد مؤتمر قومي والغاء جميع المعاهدات المجحفة كما بينت اخيراً ، وان يتم ذلك بأقل ما في الطاقة من التأخير .

هذه وصيتي ، وهذه رسالتي .

الكلمة الأخيرة

انتهينا من هذه الصفحات الى التعريف ببطل من أعظم ابطال الشرق في العصر الحديث . ولا نهاية لسيرة هذا البطل اذا أردنا ان نستقصي آثارها بعد حياة صاحبها ، ولكننا نستطيع ان نجتزىء من السيرة بالقدر الذي انتهينا اليه ، فإن التعريف ببطولة الرجل لا يتوقف على الإحاطة بما حدث بعده . فهي بقية متجددة لا نهاية لها من الزمان .

والحقيقة التي لا مراء فيها أن تاريخ الصين الحديث لا ينفصل بعد اليوم عن تاريخ سن يا تسن ، وما كان المشيعون له من قادة الصين مبالغين اذ قالوا: إنه أحد رجلين لم تعرف بلادهم اسماً أقدس من اسميهما ولا عملا اخلد من عمليهما ، وهما كنفشيوس في التاريخ القديم ، وسن ياتسن في التاريخ الحديث .

ولم يشيعه أهل الصين تشييع زعيم من زعماء السياسة في عصر ينقضي بانقضاء جيله ، بل شيعوه تشييع الخالدين ، وشادوا له ضريحاً[1] أعظم من ضريح كعبتهم الوطنية في نانكين ؛ وهو ضريح عميد آل « منج » الذي حج اليه سن ياتسن بعد إعلان الجمهورية يشهده على أمانة الوطن لعهد الأسلاف والأعقاب .

ومن عادة أهل الصين أن يدلوا على تعظيمهم للدفين بتعظيمهم لنعشه . فلما نقل رفات الدفين المحبوب الى ضريح نانكين ـ بعد إعداده في خمس سنوات ـ تقسم أجزاء النعش مائة وخمسون من أقوياء الجنود ، وحملته السفينة الحربية الى ميناء نانكين ، ثم أبى مشيعوه من علية القوم الا أن يترجلوا طول

---

(١) دفن سن ياتسن في ضريحه اول شهر يونيه سنة ١٩٢٩ .

الطريق ، والقيظ في أشد أيامه ، ومن المرسى الى أكمة الضريح خمسة أميال .

ودخلت ذكرى « الأب الكبير » في عداد الصلوات والعبسادات . فخصصت لذكراه ساعة من صباح الإثنين في كل أسبوع ، ينحني الحاضرون فيها ثلاثاً امام صورته ، رمزاً الى مبادئه الثلاثة ، ويرتلون نشيد الصين الوطني ويستمعون الى وصيته ويصمتون دقائق ثلاثاً في خشوع وسكون ، ثم ينصرفون .

ولما ظهر بعد وفاته أول دليل من أدلة الأعلام والمشاهير ، لم يكن اسم سن يا تسن بين اسمائه . فأوشكت ان تكون فتنة وأن يهجم الشبان الغاضبون على دار الدليل سخطاً على المكتب الموكل بجمعه ، فما ينبغي ان يحذف اسم الزعيم الخالد من سجل الأحياء ، وهو واهب الحياة للصين جمعاء .

وقد استحق الرجل ولا ريب هذا الوفاء من قومه ، فإنه قد نسي نفسه ليذكرهم ، ونسي ـ وهو الطبيب ـ أنه مريض محطم الجسد ليصحح ابدانهم ونفوسهم ، وفارق الدنيا وليس له من ميراث غير مكتبته ومسكنه ، ومعه ميراث آخر هو الذي استحق به ذلك الوفاء ، وهو ميراث اربعمائة مليون عمل لهم ما لم يكونوا قادرين على عمله لأنفسهم ، وقلما يساويه ميراث عظيم من عظماء الأوطان .

وآية العظمة في موازين الإنصاف ان يعمل الإنسان عملا لم يقدر عليه الملايين من قبله .

ليست آية العظمة ان يعمل كل شيء ، ولا ان يعمل كل ما اراد . ولو قيست عظمة الأبطال الأفذاذ بمقياس كهذا المقياس لما بقي في التاريخ عظيم واحد . فما من بطل يعفي الناس من العمل بعده ، وما من بطل ولا غير بطل حقق امنيته كلها في حياته ، وإنما البطولة ان ينهض فرد بأعباء الألوف ، وأن ينسى نفسه ليذكر الناسين وينبه الغافلين . وبهذا المقياس يرتقي سن يا تسن الى الذروة العليا بين ابطال الوطنية وأبطال الإنسانية ، ويستحق حقه من أمته وغير أمته ، وقد يكون حقه من أمته متصلا بالمنفعة والأثرة ، أما حقه من غيرها فهو

حق الأمانة لنفسه ولأبناء نوعه ، ما دامت الثقة بالطبيعة الإنسانية شيئاً يعنيه .

وهذه الثقة - في رأينا - هي أنفس ما نقتنيه من تراجم العظماء ، فكل تراجم العظماء عبث اذا كانت خلاصتها أن العظماء ليسوا بعظماء ، وأننا نترجم لهم لنفضح عيوبهم ونقائصهم ونخرج منها بعزاء واحد لا يغتبط به محب لأبناء نوعه ، وهو عزاء الخسة بتلويث كل عظيم .

قال لي فتى ممن يسمون أنفسهم بالنقدة المحصين : إنك تكتب عن العظماء قصائد الثناء ، يعني انني أحفل بجوانب عظمتهم ولا أحفل بما فيهم من العيب والنقيصة .

ويصح ما قاله الفتى لو أنني أثني على العظماء لخصلة ليست فيهم ، أو أثني عليهم ولا أبين دواعي الثناء في أخلاقهم وأفعالهم . ولكنني أعود فأقول على فرض صحته : إنني أوثر ان تكون تراجم العظماء قصائد ثناء ، على أن تكون قصائد هجاء بافتراء أو بغير افتراء .

وفي هذه السيرة بذاتها أنكر أسلوب الترجمة للتعظيم ودفع الملام لو أن قارئاً من قرائها يخرج منها وهو يرى أن سن ياتسن معظم لغير سبب ، ومعذور بغير عذر ، وموصوف بالخلائق أو المناقب التي لا تميزه من غيره ، ولا تفرده بملامحه بين خدام الأوطان خاصة في كل أمة وملة . فإن كان القارىء لا يرى هذا ويرى على نقيض هذا أن صاحب السيرة موصوف للتعريف به والتمييز بينه وبين أمثاله ، فليسم السيرة إن شاء قصيدة ثناء .

هي قصيدة ثناء ، وكل ما نكتبه عن العظماء هو على هذا الأسلوب قصائد ثناء .

فهرس كتاب بنجامين فرانكلين

الموضوع — صفحة

فهرس كتاب سان ياتسن

الموضوع	الصفحة

طبع على مطابع
دار الكتاب اللبناني
ص . ب . ٣١٧٦
بيروت ـ لبنان
٢٣٧٥٣٧ - ٢٥٧٤٧٠

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

TELEX No. 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX:(202):3924657 CAIRO - EGYPT

دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT

The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀAKAD

Volume XXI

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI